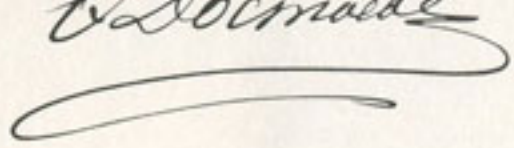

فيدور دوستويفسكى

الجريمة والعقاب

رواية فى مجلدين

المجلد الأول

دار «رادوغا»

موسكو

ترجمة د . سامى الدروبى
مراجعة د . ابو بكر يوسف
رسوم شمارينوف

Федор Достоевский
ПРЕСТУПЛЕНИЕ И НАКАЗАНИЕ
В 2-х кн. КНИГА 1
На арабском языке

المجلد الأول : الأجزاء ١ — ٣
© حقوق المراجعة والتعليقات والرسوم محفوظة لدار «رادوغا» ، ١٩٨٩
© حقوق ترجمة المقدمة محفوظة لمجلة «نوفيى ميره» ، ١٩٨١ .
طبع فى الاتحاد السوفيتى

Д $\frac{4702010101\text{-}338}{031(01)\text{-}89}$ 087-89

ISBN 5-05-002014-X
ISBN 5-05-002015-8

كلمة عن دوستويفسكى

بقلم : الكاتب دانييل جرانين

فى التاسع من فبراير عام ١٩٨١ احتفل العالم اجمع بالذكرى المائة لوفاة فيودور ميخايلوفتش دوستويفسكى . وقد اتجهت انظار الناس وخواطرهم فى جامعات تشيكوسلوفاكيا واستراليا وانجلترا واليابان والولايات المتحدة والسويد الى تلك الدار المكونة من ثلاثة طوابق فى احدى حارات لينينغراد (التى كانت تسمى بطرسبرج فى ايام دوستويفسكى) والتى شهدت فى شتاء ١٨٨١ وفاة الكاتب . لقد كانت حياة دوستويفسكى فى بطرسبرج مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين ، والطلاب ، والغرف المفروشة المؤجرة ، والأفنية الحجرية الضيقة كالآبار ، والأسواق ، والحانات . . .

لقد غيرت المائة سنة التى مرت منذ ذلك الحين اشياء كثيرة فى ذهن البشرية . ولكن اعمال دوستويفسكى مرت عبر كل هذه التحولات دون أن تمنى بخسائر ، بل على العكس ، خرجت منها اكثر حداثة ، بل واكتسبت طابعاً عصرياً ملحاً ، غريباً فى بعض الأحيان . وقد يبدو ذلك احيانا اشبه بالنبوءة . ان كثيرا من المواضع فى روايتـــى

«الأبالسة» و«الاخوة كارامازوف» تُقرأ كنبوّات ، وهى من الكثرة بحيث يصعب اعتبارها صدفة . وكأنما خمنت عبقرية دوستويفسكى وحدست مجرى تطور البشرية . ولكن ، أليس ذلك من واجب العبقرية ؟

ذات مرة قادنى حفيد دوستويفسكى أندريه دوستويفسكى فى شوارع المدينة وهو يرينى أماكن احداث رواية «الجريمة والعقاب» . واتضح فجأة ان كل شىء يمكن رؤيته . واكتسب كل شىء مغزى تاريخياً . فهنا كان يعيش دوستويفسكى ، وهنا كان يعيش آل مارميلادوف .

ونحن نلاحظ دقة وصف الأماكن لدى كتاب آخرين ، مثلما لدى بوشكين فى ميخايلوفسكويه ، ولدى ديكنز فى لندن ، ولدى بونين فى يلنا . ونجد المناظر الطبيعية والوصف بمثابة ديكورات للأحداث الجارية . ولكن الأمر مختلف لدى دوستويفسكى . انه يعد مع راسكولنيكوف الخطوات من دار راسكولنيكوف حتى دار العجوز المرابية . وهو يعثر على تلك الدار ، وعلى السلم فى تلك الدار ، وعلى الشقة المطلة عليه ، أى يبدو وكأنه يُخرج مسرحية . انه كاتب مسرحى ومخرج فى نفس الوقت . ولا بد له ان يرى ما يحدث بعينيه ، وأن يفهم . والفهم هو الأمر المدهش حقاً . اذ أن راسكولنيكوف يظل بالنسبة له سراً الى حد كبير . ودوستويفسكى يحاول ان يفهمه ، ويقدم لذلك عدداً من التفسيرات . وهو لا يتظاهر بعدم الفهم ، فلا معنى لذلك ، اذ انه يعرف عن راسكولنيكوف الكثير . . . يعرف أفكاره وأحاسيسه وكلماته وتصرفاته ، ولكن ذلك كله لا يكفى لتفسير وتعليل الدوافع والبواعث الكامنة فى اللاوعى والتى حدت براسكولنيكوف للتصرف بما يخالف

المنطق . ان كل ذلك لغز بالنسبة لدوستويفسكى . وهو ينظر الى أبطاله نظرته الى سر ، فالأمير ميشكين سر ، وايفان كارامازوف سر ، وستافروجين سر[1] .

ان ليف تولستوى يساعدنا على ادراك الانسان ، ويطلعنا على تطور شخصيته ، وعلى منابع أفكاره ، ويقودنا الى اعماق روحه .

اما دوستويفسكى فيساعدنا على ادراك **استحالة معرفة** الانسان ، ويطلعنا على لا محدوديته ، وعلى فوضى مشاعره ، ويرينا اى تناقضات وأى أعماق لا يمكن بلوغها تكمن فى نفس الانسان .

وتلك هى ضريبة احترام الانسان ، وهذا هو الدرس الذى يقدمه دوستويفسكى لكل كاتب . فماذا نفعل نحن ؟ اننا فى أدبنا نعرف الكثير والكثير عن ابطالنا ، وهم واضحون لنا حتى اعماق اعماقهم . ونحن على دراية بكل شىء وفى كل الظروف ، وكل شىء له دوافعه وكل شىء مفهوم وواضح ، وبوسعنا ان نحلل ابطالنا حتى النهاية فلا يبقى منهم شىء مجهول .

وذلك يعكس الى حد ما عصرنا ، عصر الثورة العلمية التقنية ، حيث الافعال عادة ما تكون ذات طبيعة نفعية ، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف . وأمثال هؤلاء الاشخاص يبدو وكأنهم مطلوبون ، فهم مريحون ، وهم مناسبون . . . وعندئذ يتضح ان دوستويفسكى يحمينا من هذا الشخص-

---

[1] الأمير ميشكين بطل رواية «الأبله» وايفان كارامازوف أحد أبطال رواية «الاخوة كارامازوف» وستافروجين أحد أبطال رواية «الأبالسة» .

المنفعة ، هذا الشخص–الوظيفة ، يحمى كرامة السر والغاية السامية لوجود الانسان .

والسيكولوجيا لدى دوستويفسكى أداة لدراسة أهم قضايا الحياة ، ولدراسة القضية التى ربما كانت الأولى بينها ، قضية الايمان . بم يؤمن الانسان ؟ وهل يمكن ان يوجد الله ؟ . . لعله من السذاجة الظن بأن الالحاد يقضى على مشكلة الايمان ، الايمان بالانسجام ، بالسعادة العامة ، بالمغزى والغاية الخاصة من وجود الانسان . . .

واذا ما تحدثنا عن دروس دوستويفسكى بالنسبة لعصرنا فاعتقد انها ليست تلك الاسئلة الجريئة التى يطرحها — فى دائرة القضايا التى يثيرها — عن الأحداث الجارية ، على الرغم من معايشة دوستويفسكى ومعاناته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر . . . كلا ، بل هى الاسئلة الاكثر الحاحاً وأزلية . ولعله من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تنصهر وتُصفَّى فى روايات دوستويفسكى لتخرج منها افكار حية ، لا تهويمات مجردة ، افكار مضرجة بالدم والدموع لنفس حية .

دوستويفسكى يصور بجسارة اناسا فقدوا الايمان . . . تخلى الايمان عنهم وتركتهم الالهة وماتت . والسؤال الذى يعذب الكاتب هو : ما الذى سيحدث للبشرية اذا لم يكن هناك اله ؟ ما الذى سيحدث اذا ما حل محل الانسان الاله شخص قوى يستبيح لنفسه كل شىء ؟ فماذا لو ان النزعة الانسانية راحت اذن تنقرض وتفنى ؟ كيف نواجه ذلك وندفعه عنا ؟ وما الذى يجوز للانسان ان يفعله ؟ هل يجوز له أن يتصرف فى اقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة

الآخرين ؟ من الذى يقتل فيودور كارامازوف ؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر فى النفس البشرية ؟ أثمة خلود ؟ ومن أين يأتى الازدواج والثنائية فى الانسان ؟ . . انه يدرس قضايا الوجود ، والعذاب ، والشر ، والحب ، والجريمة ، والجنون ، والاهواء ، والمنفعة المغرضة . . . .

لقد تميزت عبقرية دوستويفسكى الفنية بقوة فلسفية هائلة . وهو مهموم دائماً بالقضايا الجذرية ، الحاسمة . والأدب بالنسبة له وسيلة تفكير ، والكاتب عنده لا يتمتع فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها وروائحها وكلماتها المميزة ودقائقها ، بل وأيضا بالتفكير المضنى فى مغزى الحياة . تلك هى قوة دوستويفسكى ، وذلك هو المثل الذى يقدمه للأدب المعاصر .

ان مؤلفاته خالية من الأمور العادية ، فقد كان قادراً على رؤية خيالية الحياة الروسية .

كل ما يجرى يجرى فى أكثر المدن واقعية ، اذا جاز التعبير ، ومع ذلك فكل ما يجرى خيال . ليس هناك شياطين مرعبة ، ولكن الواقع تزحزح قليلاً ، وأحيانا بدرجة لا تلحظ ، ولذا فقد ظهرت امكانية النظر فى فجاج ومهاوٍ لم تكن تخطر لنا على بال .

قراءة دوستويفسكى أمر صعب ، وأحياناً تثير النفور ، فما السبب ؟ ان رواياته تخلو من المشاهد الناتورالية وليس فيها تلذذ بوصف الاحداث المرعبة وأعمال العنف المقبضة . ولكن هذا السؤال صعب ولا استطيع ان اتصدى للاجابة عنه ، وبودى فقط ان الفت النظر الى احدى خصائصه ، الى احد جوانب عبقريته والذى يبدو وكأنما يكشف امرنا .

أريد ان ألفت النظر مثلاً الى قوله : «الاحساس الانسانى العادى ببعض السرور عندما تقع مصيبة للآخرين ، اى عندما تنكسر ساق أحدهم ، أو يتلطخ شرفه ، أو يفقد عزيزاً لديه . . . الخ . . .» («المراهق») والى قوله فى مشهد الكارثة التى أصابت آل مارميلادوف فى هذه الرواية : «. . . فهاهم اولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحدا بعد اخر ، وهم يشعرون بذلك الاحساس الغريب ، احساس اللذة الذى يُلاحَظ دائما حتى لدى اقرب الاقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم ، وهو احساس لا يخلو منه اى انسان مهما يكن احساسه بالاسف والشفقة صادقا . . .»

بالطبع لا يريد أحد ان يكتشف فى نفسه مثل هذا . ولكن دوستويفسكى يجبرنا بطريقة ما على ان نجد فى نفوسنا الشىء السيىء ، وان نعثر فيها على تلك الأهواء التى تعصف بأبطاله . وعلى هذا نصبح وكأننا مشاركون ، ومذنبون نحن كذلك ، وها قد افتضحنا وانكشف أمرنا . . . ويتضح اننا لسنا افضل من هؤلاء الأبطال ، بل اننا مستعدون لارتكاب ما ارتكبوه . وحينما تتحدث رواية «المراهق» عن أن الانسان قادر على ان يرعى فى روحه أسمى المثل الى جانب أحط الدناءات ، وكل ذلك عن صدق خالص . . . فهل هذا الكلام عن اناس الماضى فحسب ؟

عندما تقرأ دوستويفسكى يعتورك الخجل . . . وهذه أغلى سمة من سمات عبقريته ، وينبغى علينا ان نتعلمها اذا كان من الممكن تعلم ذلك . يعتورك الخجل وتشعر بتأنيب الضمير ، ولذلك تصعب القراءة . فهو يجبرك على ان تخجل وتستحى ، ويقضى على كافة محاولات التهرب وتبرير الشر

والفساد الخلقى . وما أبرعه فى تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة ! كلا ، كلا هذه ليست عبقرية مريضة ، بل الاقرب الى الصواب انها موهبة شافية ، ليست قاسية بل انسانية . أليس من الجائز اننا عندما نسعى بكل جهدنا الى تصوير المظاهر الطيبة والجميلة والسامية والفاضلة وحدها ، وعندما نختار ونمدح افضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب . . . أليس من الجائز اننا بذلك نخمد يقظة الضمير ونضعف التشدد ، ونناقق الناس والشعب . ان المكانة التى تبوأها الأدب الروسى انما تعززت اساساً بفضل ما قام به من فضح لا يكل للرذائل والضلالات . ولم يشارك فى هذا العمل دوستويفسكى وحده بل الأدب الروسى كله ، الذى تحلى بشجاعة ان يقول لشعبه كلمات الغضب والحزن . . .

وليس من السهل اليوم أن تهز ضمير الانسان المعاصر ، فهو محصن بسياج دفاعى متين . ولكن دوستويفسكى يستطيع ، كما لا يستطيع احد غيره ، أن يخترق الحواجز ليصل اليه . وهو فى ذلك واحد من اكثر الكتاب معاصرةً لنا .

وابداع دوستويفسكى يحفز الفكر ، وقد أثر على اكبر الفلاسفة وعلماء النفس والعلماء فى العالم . والكتب التى وُضعت عن دوستويفسكى تثير الاهتمام بما تتميز به من قيمة فلسفية وعلمية مستقلة . وهى بحد ذاتها رائعة .

والفنان وحده ، والكاتب فى المقام الأول ، هو الذى يستطيع ان يساعد الناس على اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم . وبهذا المعنى كان دوستويفسكى وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسى وللأدب العالمى ، ولتاريخ الفنون الطويل كله .

انا لا أدرى لماذا تُؤلف الكتب . وقد قال بوشكين ذات مرة : «ان غاية الشعر هى الشعر» . فما هو الباعث وما هو الدافع المحرك للفنان ولأى غرض يعمل ؟ أمن اجل المتعة ، ام للتربية ، أم للبحث ؟ لست أدرى . بيد ان ذلك كله ، وبأسمى درجة ، تقدمه لنا كتب دوستويفسكى . وفيها ، علاوة على ذلك ، الاحساس بالمعجزة التى تشد اليها مشاعرنا وافكارنا أكثر فأكثر ، وتسمو بأفكارنا فتمكننا من رؤية انفسنا وعالمنا بكل بؤسه وعظمته بكل جدارته وقيمته ، عالمنا كله بروعة جماله وكل استحالة ادراكه .

الجزء الاول

الفصل الاول

فى الايام الاولى من شهر تموز ، أثناء حر شديد للغاية ، خرج شاب فى نحو نهاية الاصيل ، خرج من الغرفة الصغيرة التى كان يستأجرها من الباطن فى زقاق س . . . واتجه نحو جسر ك . . بطىء الخطى كأنه كان متردداً .

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم ان يتحاشى لقاء صاحبة الشقة التى يسكن عندها . ان الغرفة التى يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتألف من خمسة طوابق ، وهى أقرب الى دولاب منها الى مسكن . وكانت صاحبة الشقة التى تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هى نفسها فى الشقة المنفردة فى الطابق الادنى ، فكان لا بد للشاب ، كلما خرج ، ان يمر حتماً أمام مطبخها الذى يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً . وكان الشاب يشعر فى كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وجبن فيحس بالخجل من هذا الشعور ويتقلص وجهه . كان مدينا لصاحبة الشقة فيخشى ان يلتقى بها .

وليس مرد ذلك الى أنه جبان رعديد ، أو الى أنه مروَّع مذعور ، بالعكس . . . ولكنه يعانى منذ بعض الوقت حالةً من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة . لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أى انسان ، لا لقاء صاحبة الشقة فحسب .

كان يعيش فى فقر مدقع ، وبؤس شديد ، ولكن العوز نفسه أصبح فى هذه الآونة الأخيرة لا يثقل عليه . أصبح الشاب لا يهتم بشئونه ولا يريد أن يهتم بها . والواقع أن صاحبة الشقة كانت لا تخيفه ، مهما تكن المكائد التى تدبرها له . ولكن الوقوف على فسحة السلم ، والاصغاء الى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه فى قليل ولا كثير ، واحتمال التذكير الدائم المستمر ، الذى تصحبه تهديدات وشكاوى ، بضرورة مبادرته الى دفع الأجرة ، واضطراره الى اختلاق الحيل وانتحال الاعذار وتلفيق الأكاذيب . . . ولكن ذلك كله أصبح من الأمور التى لا يمكن أن يطيقها ، فهو يؤثر عليها أن يتسلل على السلم تسلل هرة ، وأن يفرَّ دون أن يراه أحد .

على أن الخوف الذى شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه ، أدهشه هو نفسه منذ أصبح فى الشارع .

حدَّث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة : «أفكر فى الاقدام على عمل مثل **ذلك** العمل ، ثم أشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة ! ؟ نعم ، ان كل شىء موجود بين يدى الانسان ،

ومع ذلك يدع الانسان لكل شيء أن يمر تحت أنفه . . . وما ذلك الا لأن الانسان جبان . . . نعم ، هذه بديهية . . انه لمن الشائق أن نعرف ما الذى يخافه البشر أكثر ما يخافون . . . الا ان ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة الى أمام ، هو أن يقولوا كلمة شخصية . على أننى أسرف فى الثرثرة كثيراً . واذا كنت لا أعمل شيئاً ، فلأننى أثرثر . . . أو قل على نحو أصح وأدق : اذا كنت أثرثر فلأننى لا أفعل شيئا . ومع ذلك فأنا فى هذا الشهر الأخير انما تعلمت الثرثرة قابعاً فى ركنى أفكر . . . أفكر فى كل شيء ولا أفكر فى شيء . مثلاً : فيم أذهب الآن الى هناك ؟ أأنا قادر على أن أفعل **ذلك الامر** ؟ هل **ذلك الأمر** جد حقاً ؟ لا . . . ما هو بالجد البتة ! وانما هو نزوة خيال لا أكثر ! اننى «أدغدغ» نفسى ملتمساً تسلية . نعم ، أعتقد بأننى التمس لنفسى تسلية . . .»

الحر فى الشارع ما يزال مرهقاً . يضاف الى ذلك نقصُ الهواء ، والازدحام ، والكلس المنتشر فى كل مكـــان ، والسقالات ، والآجر ، والغبار ، ثم ذلك النتن الصيفى الخاص الذى يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر بيتاً صيفياً فى الضواحى . ان اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذى كانت أعصابه مهتزة من قبل فأورثه مزيداً من الضيق . وهذه روائح كريهة تنشرها خمارات كثيرة جداً فى هذا القسم من المدينة ، وهؤلاء سكارى يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم عمل ، فتصطبغ اللوحة بلون حزين منفر . ان شعوراً عميقا بالاشمئزاز يرتسم للحظة على القسمات الدقيقة من وجه الشاب . والشاب حسن الصورة وسيم الطلعة ، له عينان

دكناوان رائعتان ، وشعر أشقر ضارب الى لون كلون الرماد ، وقامة فوق الوسط طولاً ، نحيلة ممشوقة . ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق فى التفكير ، او قل الانحدار الى نوع من الغيبوبة . وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً ، ولا يرغب فى أن يرى أى شيء . كل ما هنالك أنه كان ، بين الفينة والفينة ، يستأنف محاورة نفسه ، جرياً على عادة القاء مونلوجات تلك العادة التى اعترف بها لنفسه الآن . وأدرك فى تلك اللحظة نفسها أن خواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين الى حين ، وأنه ضعيف جداً : انه لم يكد يطعم شيئاً منذ يومين .

وكان يرتدى ثياباً تبلغ من الرثاثة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد أن يشعر بضيق وحرج ، مهما تكن عاداته المكتسبة ، اذا هو خرج فى وضح النهار بمثل تلك الأسمال . الحق أن هذا الحيَّ ليس من الأحياء التى يمكن أن يستغرب فيها الناس منظر رداء . ان هذا المكان القريب من «سوق العلف» ، الذى تكثر فيه محالُّ من نوع خاص ، والذى يتألف سكانه أساساً من صُنَّاع وحرفيين متكدسين فى هذه الشوارع والأزقة من مركز بطرسبرج ، يشتمل على تنوع كبير فى الافراد يُستغرب معه أن يُدهش أحد من شخص متفرد بعض التفرد . على أن نفس الشاب قد بلغت من فرط الامتلاء بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التأذى الذى يتميز به أحياناً الشباب ، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسماله البالية فى الشارع . ولا كذلك اذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف اليهم . . . ومع ذلك حين أعول سكّير كان مقوداً (لا ندرى الى أين

ولا لماذا) فى عربة كبيرة يجرها حصان قوى ، حين أعول هذا السكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومئ اليه بيده : «هيه ، أنت يا صاحب القبعة الالمانية !» ، فان الشاب توقف بغتةً ، وقبض على قبعته بحركة عصبية . هى قبعة عالية مشتراه من عند تسيمرمان ، لكنها قد اهترأت اهتراءً تاماً ، واحمرَّ لونها ، وغشيتها البقع وثقبتها الثقوب وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة . على أن الشاب لم يشعر بخجل ، وانما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع .

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً :

«كنت أعرف هذا حق المعرفة . . قدرته من قبل ! . . ذلك اسوأ ما فى الأمر ! تكفى ترهة سخيفة من هذا النوع ، يكفى أمر تافه كهذا ، حتى يتعرض كل شىء للخطر ! نعم ، ان هذه القبعة صارخة . . . هى مضحكة ، وهى لذلك صارخة . . . ما دمت أرتدى هذه الأسمال البالية فلا بد لى من قلنسوة ، أو من أية طاقية عتيقة . أما هذه القبعة الفظيعة فلا ! . . ما من أحد يلبس قبعة كهذه القبعة . انها تُرى من مسافة فرسخ كامل . . . ومن رآها مرةً يتذكرها ولا ينساها . . . يتذكرها فى المستقبل . . . فتكون هى الدليل القاطع . . . اننى أحتاج الآن الى أن لا ينتبه الىَّ أحد ! ان الاشياء الصغيرة هى التى لها أكبر شأن وأعظم خطر ! . . ان أشياء صغيرة كهذه القبعة هى التى تفسد كل شىء فى آخر الأمر دائماً . . .»

لم يكن طريقه طويلاً ، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التى يجب أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله :

انها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً . لقد عدَّ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد ان أفرط فى الاستسلام لاحلامه . فى ذلك الأوان لم يكن يصدِّق بعدُ أن هذه الاحلام واقعة ، وانما كان يروح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانة فى آن واحد . أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ، ورغم جميع المحاورات المحنقة التى كانت تجرى بينه وبين نفسه ، والتى كان فى أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده ، فانه قد اعتاد ، رغم ارادته تقريباً ، أن ينظر الى هذا «الحلم الدنىء» نظرته الى مشروع عليه أن ينفذه» ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال . وهو الآن ذاهب لاجراء تمرين على ذلك الفعل الدنىء ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة .

وفيما هو منهار القلب تسرى فى جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبنى ضخم يطل من احدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع (. . .) ؛ ان هذا المنزل ، المقسَّم الى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفَّالون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يعشن من جمالهن ، وموظفون صغار ، وهلمَّ جرا . . . ان الذهاب والأياب تحت قوسى مدخليه الكبيرين ، وفى فنائيه الواسعين ، لا ينقطعان . وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره . فما كان أشدَّ سرور الفتى حين لم يلتق بأحد منهم . فلما اجتاز المدخل تسلل الى السلَّم الأيمن دون أن يراه أحد . ان هذا السلَّم ضيق ، مظلم ، «أسود» ، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه ؛ ثم أن هذا الجو يعجب

الفتى ويرضيه ، فهو فى ظلام كهذا الظلام لا يخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة . ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم ارادته حين وصل الى الطابق الرابع : «اذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله ، فبماذا يمكن أن أشعر اذا اتفق أن مضيت الى **آخر الشوط** ؟» . . . وهناك كان يسدّ طريقه جنود سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه . كان الفتى يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم فى هذا المسكن حتى ذلك الحين . فقال لنفسه أيضاً : «ان هذا الألمانى ذاهب اذن الآن ، فلا يبقى على الفسحة الرابعة من السلّم ، خلال فترة من الوقت ، الا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز . ذلك أمر تسرُّ معرفته . . . حين تأزف الساعة» . وضغط على جرس باب شقة العجوز . ورنّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس . ان الأجراس تكون دائماً من هذا النوع فى المساكن الصغيرة التى تتألف منها عمارة من هذا الطراز . وكان الشاب قد نسى صوت ذلك الجرس ، فاذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشىء تخيله واضحاً . . . فارتعد . كانت أعصابه فى هذه المرة منهكة . وبعد دقيقة شُقَّ الباب شقاً ضيقاً ، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد ، من خلال هذا الشق ، بشك واضح وارتياب ظاهر . ان المرء لا يرى ، فى هذا الظلام ، الا عينيها الملتمعتين . ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم ناساً كثيرين اطمأنت ففتحت الباب فتحاً كاملاً . اجتاز الفتى العتبة ، وولج حجرة المدخل المظلمة التى يقطعها حاجز جُعل ما وراءه مطبخاً صغيراً . وقفت العجوز قبالته صامتةً تحدجه بنظرة سائلة . هى امرأة عجوز قصيرة جداً

نحيلة جداً ، فى نحو الستين من العمر ، لها عينان حادتان شريرتان ، وأنف صغير مدبَّب . وكانت حاسرة الرأس ، فشعرها الفاتح قليل الشيب يلتمع ببريق الزيت . وحول عنقها الطويل النحيل الذى يشبه ساق دجاجة ، كانت تلتف خرق مبهمة من قماش «الفلانيل» ، وعلى كتفيها تتدلى ، رغم الحر الشديد ، سترة قصيرة فرائية قد اصفرَّ لونها وتنسّل وبرها . وكانت العجوز تسعل وتتأوه فى كل لحظة . وأغلب الظن أن الفتى ألقى عليها نظرةً خاصةً ، لأن الشك والارتياب عادا يظهران فى عينيها .

تذكر الفتى فجأة ان عليه ان يكون لطيفاً ودوداً ، فأسرع يدمدم قائلاً للتعريف بنفسه وهو ينحنى نصفيا :

— راسكولنيكوف ، طالب . جئت اليك منذ شهر . . .

فخاطبته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها السائلة عن وجهه :

— أتذكر يا بنى ، أتذكر جيداً أنك جئت . . .

فتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شىء من الدهشة والارتباك حين لاحظ شك العجوز وارتيابها :

— فهأنا ذا أجىء اليك مرةً أخرى . . . لأمر صغير من ذلك النوع نفسه . . .

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : «الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً ، ولكننى لم ألاحظ ذلك فى المرة الماضية» .

وصمتت العجوز كأنما لتفكر ، ثم تنحت قليلاً ، وقالت للزائر وهى تدله على باب الغرفة وتدعه يمر قدامها :

— تفضل ادخل يا بنى !

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر ، فيها أزهار جيرانيوم ، ولنوافذها ستائر من قماش الموسلين . وكانت الغرفة فى تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع . قال الفتى يحدث نفسه : «ستسطع الشمس اذن هذا السطوع **حينذاك** أيضاً» . لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولنيكوف على غير علم منه ، فاذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه فى ذاكرته ان أمكن ذلك . ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة . ان أثاثها المصنوع من خشب أصفر على طراز عتيق ، يتألف من أريكة ذات مسند خشبى ضخم مقوس ، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة امام الاريكة ، وخوان زينة بمرآة صغيرة موضوع بين نافذتين وكراسى مصفوفة على طول الجدران ، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها ، موضوعة فى أطر مصفَّرة ، تمثل آنسات ألمانيات فى أيديهن طيور . ذلك هو الأثاث كله . وفى ركن من الأركان ، أمام أيقونة صغيرة ، كان يسطع سراج صغير . والمكان كله تسوده نظافة قصوى . فالأثاث وأرض الغرفة قد دُلكت بالشمع فهى تلمع . قال الفتى يحدث نفسه : «هذا من عمل اليزافيتا !» ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة فى المسكن كله . عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه فقال : «لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة الا عند الأرامل العجائز الشريرات» . قال ذلك والتفت ببصره خلسةً يستطلع ستارة من قماش قطنى تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة صغيرة أخرى فيها سرير العجوز وخزانتها وهى غرفة لم يسبق له أن دخلها قط . ان المسكن كله لا يضم الا هاتين الغرفتين .

سألته العجوز بقساوة وهى تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتتفحصه وجهاً لوجه :

— أية خدمة ؟

قال الفتى :

— جئتك بشىء أريد أن أرهنه . هو ذا . . .

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رُسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولاذ .

قالت المرأة العجوز :

— ولكن مدة رهنك الأول قد انتهت . انقضى على الرهن الأول شهر منذ أمس الأول .

— سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر . اصبرى علىَّ .

قالت :

— أنا التى أقرر أأصبر أم أبيع الرهن الآن . هذا شأنى أنا يابنى .

— هل تقرضيننى مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا ألبونا ايفانوفنا ؟ .

— انك تجيئنى دائماً بأشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة . . . لقد أقرضتك فى المرة الماضية وقتين صغيرتين . على رهن خاتمك ، مع أن فى امكان أى انسان أن يشترى من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبل ونصف روبل .

— اقرضينى أربعة روبلات على رهن الساعة . سأفكها قريباً . . . ورثتها عن أبى . وسيصلنى مبلغ من المال بعد مدة قصيرة .

— أقرضك على رهنها روبلاً ونصفاً ، والفائدة تُدفع سلفاً .

صاح الفتى متعجباً :

— روبلاً ونصفاً ؟

— لا مساومة . اما أن تقبل واما ان ترفض .

قالت العجوز ذلك ومدّت اليه الساعة ، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همَّ أن ينصرف . ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك اذ تذكر أنه ليس هناك مكان آخر يذهب اليه وانه جاء لغرض آخر أيضاً .

قال بلهجة خشنة :

— هاتى !

فدست العجوز يدها فى جيبها لتخرج مفاتيحها ، ومضت الى الغرفة الأخرى وراء الستارة . فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة ، أصاخ بسمعه مستطلعاً ، وأطلق العنان لخياله . سمعها تفتح الخزانة . قال يحدث نفسه : «أغلب الظن أنه الدُرْج الأعلى . . . هى تحمل مفاتيحها اذن فى الجيب الأيمن . . . والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ . . . وبين المفاتيح مفتاح مسنَّن الرأس أكبر من سائرها ثلاث مرات ، ولكن من الواضح انه ليس مفتاح الخزانة . . . اذن هناك أيضاً سحارة أو صندوق صغير . . . هذا أمر هام . ان لجميع الصناديق مفاتيح من هذا النوع . . . على كل حال ، هذا كله كريه بشع . . .»

وعادت العجوز .

— خذ يا بنى . اذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات عن كل روبل فى الشهر تُقتطع سلفاً ، فان الفائدة عن روبل

ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبكاً . يضاف الى ذلك عشرون كوبكاً عن الروبلين اللذين اقترضتهما فى المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها ، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبكاً ، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبكاً . اليك المبلغ .

— كيف ؟ ألا يبقى لى الا روبل وخمسة عشر كوبكاً ؟

— تماماً .

لم يناقشها الفتى ، وتناول المال . وكان ينظر الى العجوز ولا يستعجل الخروج ، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً ، أو أن يفعل شيئاً ، دون أن يدرى ما هو هذا الشىء على وجه الدقة . . .

وقال لها أخيراً :

— ربما جئتك بشىء آخر فى الأيام القليلة القادمة يا أليونا ايفانوفنا . . . هو شىء من فضة . . . شىء ذو قيمة . . . علبة سجائر . . . نعم ، سأجيئك بعلبة سجائر متى ردَّها الىَّ صديق لى . . .

ارتبك الفتى وصمت .

فقالت العجوز :

— طيب يا بنى . . . ستتكلم فى الأمر فى حينه .

قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع ، وهو يتجه نحو حجرة المدخل :

— استودعك الله . . . أأنت اذن وحيدة فى البيت دائماً دون أن تكون أختك معك ؟

— فيم يعنيك هذا يا بنى ؟

— لا يعنينى فى شىء . . . ألقيت السؤال هكذا . . .

دون هدف . . . فاذا أنت ، على الفور . . . استودعك الله يا أليونا ايفانوفنا .

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد ، حتى توقف عدة مرات مذهولا أثناء هبوطه السلّم . فلما صار فى الشارع آخر الأمر هتف يقول :

«آه . . . رباه ! ما أبشع هذا كله ! هل يمكننى ، هل يمكننى حقاً أن . . .»

ثم أضاف يقول باقتناع :

«لا . . . هذه حماقة . . . هذه سخافة . . . هل يمكن حقاً أن تكون فكرة شيطانية كهذه الفكرة قد ساورت ذهنى ؟ ما أقذر ما فى قلبى اذن من وحل ! ثم ان هذا كله وسخ جداً ، مقزز جداً ، قذر جداً ! كيف أمكننى ، خلال شهر بكامله ، أن . . .»

ولكن الفتى لم يجد الكلمات ولا هتافات التعجب التى كان يمكن أن تعبر عن حالته العصبية الـــرهيبة . ان الاحساس بالاشمئزاز الذى لا نهاية له والذى كان قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويخنقه خنقاً أثناء ذهابه الى مسكن العجوز قد بلغ الآن ابعاداً عظيمة وأخذ يتجلى بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التى ألمت به وهذا الحزن الذى عصف بقلبه . كان يمشى على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يثب الى رشده الا فى الشارع التالى . فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خمارة ينزل اليها النازل على سلّم يؤدى من الرصيف الى القبو . وفى تلك اللحظة نفسها كان يخرج من الخمارة سكرانان يسند كل منهما الآخر ، ويتبادلان الشتائم

أثناء صعودهما السلّم . فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط الى الخمارة دون تردد . لم يسبق له أن دخل خمارة فى يوم من الأيام ، ولكنه يشعر الآن بدوار فى رأسه ، كما أن ظمأً لا يطاق كان يعذّبه . اشتهى أن يشرب بيرة باردة ، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه المفاجئ الى الجوع أيضاً . جلس فى ركن مظلم قذر أمام مائدة صغيرة لزقة ، وطلب بيرة فشرب كأسا أولى بشراهة ، فلم يلبث أن شعر بشىء من التخفف والراحة ، وأصبحت أفكاره أوضح . قال لنفسه وقد ارتد اليه الأمل : «ذلك كله سخافات ! لا داعى الى القلق ! هو انزعاج جسمى لا أكثر ! فما ان يشرب المرء كأساً من بيرة وما ان يأكل قطعة من بقسماط حتى يشتد فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته . أوه ! ذلك كله باطل ! . .» ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه ، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل : ها هو ذا شىء من فرح يتجلى منذ الآن فى نظرته التى أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة . ومع ذلك أحس ، حتى فى تلك الدقيقة ، احساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التى صارت اليها نفسه حالة مرضية هى أيضاً .

لم يبق فى الخمارة فى تلك الساعة الا عدد قليل من الناس . فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلّم خرجت من الخمارة ، دفعةً واحدةً ، عصبةٌ تتألف من خمسة شبان يجرون فتاة ومعهم أكورديون . فما أن انصرفوا حتى عاد الهدوء الى الخمارة ، فأصبح المكان أكثر سعة . لم يبق فى القاعة الا شخص ثمل بعض الثمل ، جالس أمام كأس بيرة ، أغلب الظن أنه تاجر ، ومعه رفيقه وهو رجل

طويل سمين يرتدى قفطاناً قصيراً له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ ، فهو غاف فوق دكة ، وهو يأخذ يصفق بأصابعه من حين الى حين كأنه يخرج من نومه على حين بغتة ، ويأخذ يباعد ذراعيه ، ويرجح القسم الأعلى من جسمه ، دون أن ينهض عن الدكة ، مدمدماً بكلام سخيف ، محاولاً أن يتذكر أبياتاً من الشعر من هذا النوع :

لاعبت زوجتى طوال السنة
لا . . . عبت زوجتى طوا . . ل السنة

أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد :

حين مررت بشارع بودياتشكايا .
التقيت بصديقتى القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته . حتى لقد كان رفيقه الصموت يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائى ريّاب . وكان هنالك رجل ثالث يدل مظهره على أنه موظف صغير محال على التقاعد . كان هذا الرجل منزوياً أمام كأسه يشرب من حين الى حين ، ويطوف ببصره على ما حوله ، ويبدو عليه أنه يعانى هو أيضاً حالة عصبية .

الفصل الثانى

لم يكن راسكولنيكوف معتاداً صحبة الناس ، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع ، ولاسيما منذ فترة من الوقت . غير أن شيئاً كان يجذبه الآن الى البشر على

حين فجأة ، فكأن شيئاً جديداً قد حدث فى نفسه ؛ وكان يشعر فى الوقت ذاته بشىء من الظمأ الى عقد الصلات بينه وبين أقرانه . ان ذلك الشهر الذى قضاه فى غم ثقيل واهتياج كالح قد جعله متعباً الى حد أنه يتوق الآن الى استرداد أنفاسه ولو لحظةً من الزمن ، فى عالم آخر ، فى أى عالم آخر . لذلك شعر من بقائه الآن فى الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان .

وكان صاحب الخمارة يجلس فى غرفة مجاورة ، ولكنه يظهر فى القاعة الرئيسية مرةً بعد مرة . وكان يصل الى هذه القاعة هابطاً بضع درجات ، فكان الجالس فى هذه القاعة يرى ، أول ما يرى ، جزمتيه الملمعتين باناقة واللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان . وكان لا يضع رباط عنق ، يرتدى سترة مضيقة عند الخاصرة وصديرة سوداء من قماش الأطلس قد بلغت من الاتساخ حداً رهيباً . أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزيَّت . ووراء البسطة كان يجلس صبى فى نحو الرابعة عشرة من العمر . وكان هنالك صبى آخر أصغر سناً ، يخدم الزبائن . وعلى البسطة كانت تُعرض دوائر خيار ، بقسماط أسود ، وشرائح سمك ، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة . الجو خانق لا يكاد يُطاق ، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة انه يكفى أن يمكث المرء فيه خمس دقائق حتى يسكر .

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فاذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمةً واحدةً . ذلك كان هو الاحساس الذى أحدثه فى راسكولنيكوف الزبون المنزوى الذى يدل مظهره على أنه موظف متقاعد . تذكر

الفتى مراراً كثيرة ، فيما بعد ، ذلك الاحساس الأول ، حتى لقد عزاه الى نوع من النبوءة . كان راسكولنيكوف لا يحول بصره عن الموظف ، ولعل مردّ ذلك أيضاً الى أن هذا الموظف كان يلح فى النظر الى راسكولنيكوف ، وكان

واضحاً انه راغب رغبة قوية فى عقد حديث معه . أما الأشخاص الحاضرون الأخر ، ومنهم صاحب الخمارة ، فقد كان الموظف ينظر اليهم نظرة جليس من جلساء الخمارة المزمنين ، مع ضجر منهم ومع شىء من الاحتقار لهم والتعالى عليهم فى الوقت نفسه ، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه ، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم ، فليس عليه أن يكلمهم . هو رجل تجاوز الخمسين

من عمره ، متوسط القامة قوى البنية ، على رأسه الاصلع قليل من شعر أبيض ، له وجه أصفر أو قل ضارب الى خضرة ، قد وَرَّمه الشراب ، تسطع فيه تحت جفنين منتفخين عينان صغيرتان محمرّتان حادتان . ومع ذلك كان فى هذا الوجه شىء غريب جداً . ان نظرته تلتمع بنوع من الحماسة بل ولا تخلو من ذكاء وفكر ؛ ولكن تلم بها ومضات جنون فى بعض الأحيان . وكان يرتدى «فراكاً» عتيقاً رثاً قد سقطت أزراره ، الا زراً واحداً ما يزال فى مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط ، ولكن الرجل قد أدخله فى العروة حتى لا يجافى آداب اللياقة . ومن صديرته المصنوعة من قماش قطنى أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعَّدة متسخة ملطخة . وكان حليق الذقن ، كما يليق بموظف ، ولكن كان واضحاً انه لم يكرر حلاقة ذقنه منذ مدة طويلة ، فشعرها القاسى قد أخذ يزرق خديه . هذا عدا أن وضعه يكشف عن شىء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين . ولكنه كان يُظهر قلقاً شديداً ، وينفش شعره ، ويضغط رأسه بيديه حزيناً يائساً ، واضعاً كوعى كميه المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة . وفى النهاية نظر الى راسكولنيكوف محدقاً فى عينيه ، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت :

— هل أجرؤ ، أيها السيد الكريم ، أن أوجه اليك بضع كلمات باحترام ؟ فان تجربتى تكشف فيك ، رغم مظهرك البسيط المتواضع ، عن انسان حسنت ثقافته ، ولم يألف أن يشرب . لقد كنت طوال حياتى احترم الثقافة حين تقترن بعواطف القلب . وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار

اعتبارى . اسمى مارميلادوف ، ولقبى مستشار اعتبارى » .
أأجرؤ أن أسألك هل أنت موظف ؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المنتفخة فى كلام الرجل ، وأدهشه أن يخاطبه الرجل مباشرةً بلا لف ودوران :

— بل أنا أتابع دراستى .

وشعر راسكولنيكوف ، رغم ما أحسَّه منذ قليل من رغبة فى صحبة أى انسان ، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التى خاطبه بها الرجل ، بذلك النفور المألوف الأليم الذى كان يشعر به كلما قاربه انسان مجهول أو حاول أن يقاربه .

— أنت اذن طالب ، أو طالب سابق . . . ذلك ما قدَّرته ! هى التجربة يا سيدى الكريم ، تجربة طويلة متصلة !

ومن أجل أن يعبِّر عن احترامه لنفاذ بصيرته وسداد حكمه ، وضع اصبعاً على جبهته .

وأردف يقول :

— لقد كنتَ طالباً ، الا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس فحسب . . . ولكن اسمح لى . . .

ونهض مترنحاً ، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب راسكولنيكوف مواربا قليلاً . لقد كان سكران . ولكنه يتكلم بوضوح وطلاقة وحماسة . كل ما هنالك أنه يفقد حبل الحديث من حين الى حين ، فيبطؤ تدفق كلامه . لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهة أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً .

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة :

— أيها السيد الكريم ، ليس الفقر رذيلة ؛ أنا أعرف هذا . ولا الادمان على السكر فضيلة ، أنا أعرف ذلك أيضاً . ولكن البؤس رذيلة أيها السيد الكريم ، البؤس رذيلة . يستطيع المرء فى الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية ، أما فى البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً ، وما من أحد يستطيعه قط . اذا كنت فى البؤس فانك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا ، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة ، بغية اذلالك مزيداً من الاذلال . والناس على حق فى ذلك ، لأنك فى البؤس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه . وهذا سبب ادمانك على الشراب ! أيها السيد الكريم ، منذ شهر ، ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتى ، وزوجتى تختلف عنى اختلافاً كبيراً ! هل تفهم ؟ اسمح لى أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً ، هكذا ، ولو من باب الفضول : هل حدث لك أن قضيت الليل فى مركب علف على نهر النيفا ؟ »

أجاب راسكولنيكوف :

— لا . . . لم يحدث لى هذا . . . ما هذا ؟

— أما أنا فاننى آتٍ من هناك ، من مركب العلف . . . وهذه هى الليلة الخامسة . . .

قال الرجل ذلك وصبَّ قدحاً ثم أفرغه فى جوفه وأخذ يفكر . وكان يُرى فعلاً ، هنا وهناك ، على ملابسه ، وحتى على شعره ، تبنٌ ما يزال عالقاً . أغلب الظن انه لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام . وكانت يداه خاصةً قذرتين حمراوين أظافرهما الوسخة طويلة .

ويبدو أن كلامه قد أيقظ فى نفوس الحضور اهتماماً عاماً ، وان يكن هذا الاهتمام ممتزجاً بالاهمال . أخذ

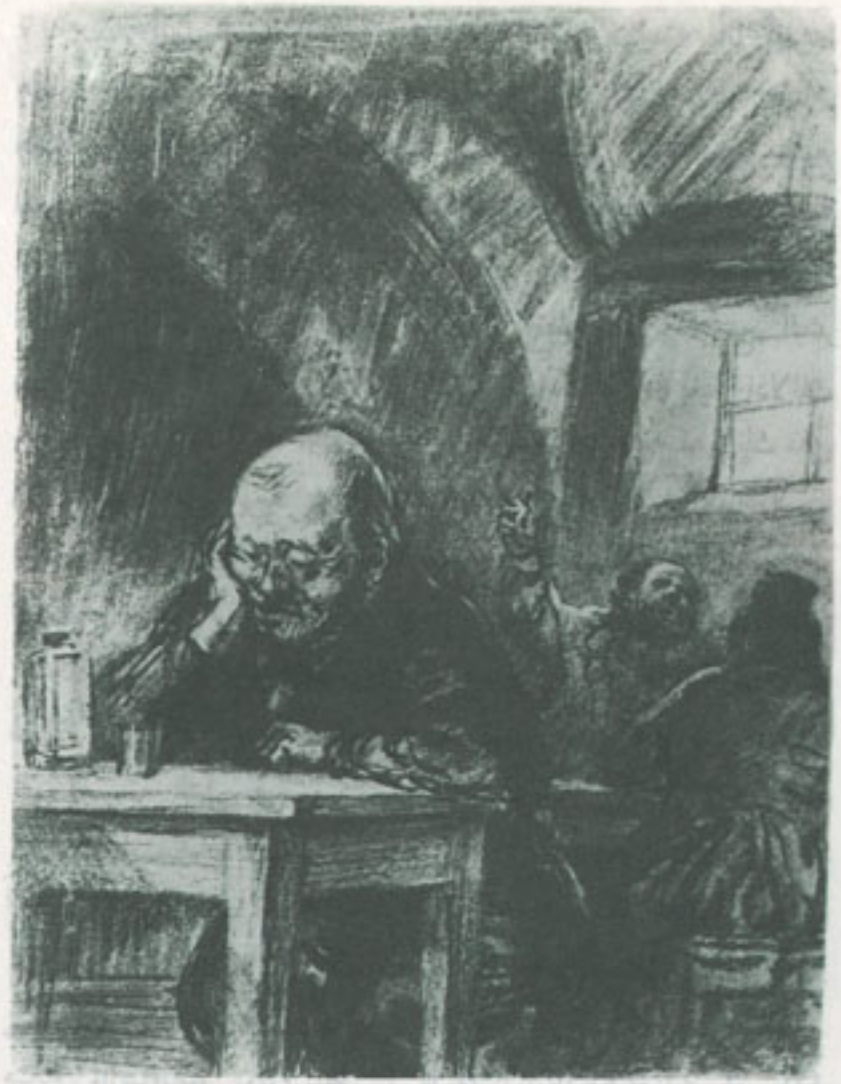

الصبيّان ، من وراء البسطة ، يضحكان . ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً ، من أجل أن يستمع للرجل «المازح» ، فجلس منزوياً بعض الانزواء ، وأخذ يتثاءب فى كسل ، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء . لا شك أن مارميلادوف معروف هنا منذ زمن طويل . وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوّق فى أعقاب أحاديث كثيرة

ألف أن يجريها فى الخمارة مع أناس لا يعرفهم . ان هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكّيرين ، ولا سيما لدى أولئك الذين يعاملون فى بيوتهم معاملة خشنة ظالمة . لذلك تراهم يحاولون متى سكروا فى صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب وكأنهم يبرؤون أنفسهم ، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

قال صاحب الخمارة بصوت عال :

— ما أنت الا مازح ! لماذا لا تعمل ؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً ؟

أجاب مارميلادوف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده ، كأن راسكولنيكوف هو الذى ألقى السؤال :

— لماذا لا أواظب على عملى أيها السيد الكريم ؟ لماذا لا أواظب على عملى ؟ ولكن هل تظن أن قلبى لا يتألم لمنظر خستى حين أرى أننى امرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه ؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتى ، وكنت أنا راقداً كالميت من فرط السكر ، هل تظن أننى لم أتألم ؟ اسمح لى أيها الفتى ، هل اتفق لك . . . هِمْ . . . نعم . . . هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يقرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل ؟

— وقع لى هذا . . . ولكن ماذا تعنى بقولك : دون أن يكون لديك أمل ؟ . .

— أعنى دون أن يكون لديك أى أمل ، فأنت تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً ! . . مثلاً : أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحاً ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال . . .

ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن ترده اليه ؟ أمن باب الشفقة ؟ ان السيد ليبزياتنيكوف ، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والآراء الحديثة ، قد شرح منذ أيام أن الشفقة فى أيامنا هذه يحظرها العلم ، وأن الأمور تجرى على هذا النحو منذ الآن فى بلاد الانجليز التى يسودها الاقتصاد السياسى . فلماذا عساه يعطيك مالاً ؟ ومع ذلك ، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً ، فانك تمضى اليه ، و . .

قال راسكولنيكوف :

— ولماذا تمضى اليه ؟

— كيف لا أمضى اليه اذا لم يكن هناك أحد غيره ، واذا لم يكن هناك مكان آخر أذهب اليه ! لا بد لكل انسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب اليه ، لأن الانسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب الى مكان ما ، الى أى مكان ! حين ذهبت ابنتى الوحيدة ، أولَ مرة ، الى الشارع مع بطاقتها الصفراء ، ذهبت أنا أيضاً . . .

وأضاف مارميلادوف شارحا وهو ينظر الى الشاب بشىء من القلق :

— ذلك أن ابنتى لها بطاقة صفراء .

وضج الصبيان بالضحك من وراء البسطة ، وابتسم صاحب الخمارة ، فأسرع مارميلادوف يقول فوراً وهو يصطنع الهدوء :

— لا بأس يا سيدى الكريم ، لا بأس . . . لا بأس . . . ان هزّهم رؤوسهم لا يبث الاضطراب فى نفسى ، لأن الأمر أصبح معروفاً لدى جميع الناس . نعم : كل خبىء مآله الى ظهور . وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل

بمذلة . طيب . . . طيب . . . «هو ذا الانسان !» . . . اسمح لى أيها الفتى : هل تستطيع . . . لا . . . . . يجب أن ألقى عليك هذا السؤال بقوة أكبر ، بطريقة أبلغ دلالة وأصدق تعبيراً ، يجب أن لا أقول **هل تستطيع** ، بل يجب أن أقول **هل تجرؤ** أن تؤكد حين تتأملنى فى هذه اللحظة ، أننى لست خنزيراً ؟

لم يجب الشاب بكلمة .

وتابع الخطيب كلامه بمزيد من الرصانة ، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التى أثارتها أقواله الأخيرة ، تابع كلامه فقال :

— طيب . . . فلنسلم باننى خنزير ، ولكنها هى سيدة ! حقاً اننى أشبه «الوحش» . كل الشبه ، ولكن زوجتى كاترينا ايفانوفنا انسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة ، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير . لنسلّم ، لنسلّم بأننى وغد دنىء ، ولكنها هى ذات نفس كبيرة وروح جميلة ، ولها بحكم تربيتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة . ومع ذلك . . . آه . . . ليتها تشفق علىّ ! سيدى الكريم ، سيدى الكريم ، لا بد لكل انسان من أن يجد أيضاً ، فى مكان ما على الأقل ، شخصاً يشفق عليه ! ولكن كاترينا ايفانوفنا ظالمة ، رغم أنها سيدة تفيض نفسها سماحة . ورغم أننى أفهم أنا نفسى ، حين تشدنى من شعرى ، أنها انما تشدنى من شعرى شفقةً علىّ ورأفة بى . لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تشدنى من شعرى (كذلك أكد مارميلادوف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقهات من جديد) ، فاننى أتمنى ، يا رب ، أن يتفق لها مرةً واحدة أن . . . ولكن لا ، لا ، هذا كله

لا فائدة منه ، ولا طائل تحته ، ولا يستحق أن أتكلم عنه ! لا يستحق ! . . ذلك أنهم اشفقوا علىَّ أكثر من مرة وتحقق ما كنت أتمناه غير مرة . ولكن هذه طبيعتى أيضاً . نعم ، اننى انسان فُطر على الغلظة والفظاظة .

— جداً !

كذلك قال صاحب الخمارة متثائباً .

فضرب مارميلادوف المائدة بقبضة يده ضربة قوية ، وقال :

— هذه هى طبيعتى ! هل تعلم ، هل تعلم أيها السيد أننى شربت خمراً حتى بثمن جوربيها ؟ لا بثمن حذاءيها ، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشىء ، ولكننى شربت خمراً بثمن جوربيها ، نعم بثمن جوربيها ! حتى وشاحها الصغير المصنوع من شعر الماعز ، بعته أيضاً وشربت بثمنه خمراً ، وكان قد أهدى اليها من قبل ، فهو ملكها ، ملكها هى ، لا ملكى أنا . ونحن نعيش فى غرفة باردة ، وقد مرضت فى هذا الشتاء ، وأخذت تسعل ، حتى أنها تبصق دماً منذ الآن . . ولنا ثلاثة أولاد صغار ، ان كاترينا ايفانوفنا تعمل من الصباح الى المساء : تمسح وتغسل ، وتنظف الأولاد ! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها . ان رئتيها ضعيفتان ، وانها مهيأة للاصابة بمرض السل ، انا أحس هذا . أأنا لا أحس هذا ؟ بالعكس ، كلما شربت مزيداً من الخمرة ، أحسست به مزيداً من الاحساس . نعم ، اذا كنت أشرب ، فانما أنا أشرب سعياً وراء الشفقة ، وراء العاطفة . أنا أشرب لأتألم ألماً مضاعفاً . . .

قال مارميلادوف ذلك ، وأسند رأسه على المائدة وقد عبَّر وجهه عن غاية الحزن والكرب . ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً :

— أيها الفتى ، أحسب أننى أقرأ فى وجهك حزناً . ولقد قرأت هذا الحزن فى وجهك منذ دخولك ، لذلك سارعت أخاطبك . فاذا كنت أنقل اليك قصة حياتى ، فاننى لا أفعل ذلك لأحقِّر نفسى أمام هؤلاء الكسالى الذين يعرفونها معرفة تامة على كل حال ، بل لأننى أبحث عن انسان حساس كريم النفس حسن التربية . اعلم أن زوجتى قد تربت فى مدرسة داخلية ارستقراطية بالأقاليم ، وأنها حين تخرجها من تلك المدرسة قد رقصت رقصة الشال أمام الحاكم وشخصيات أخرى ، وأنها قد نالت على ذلك ميدالية ذهبية ، وشهادة فخرية . . . فأما الميدالية فقد بعناها أيضاً . . . منذ زمن طويل . . . هِمْ . . . وأما الشهادة الفخرية فهى ترقد حتى الآن فى صندوق ، وقد حرصت كاترينا ايفانوفنا على أن تريها صاحبةَ البيت . . . نعم . . . فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مستمرة ، فقد راودتها الرغبة فى أن تعتز أمام شخص ما ، أن تذكِّر شخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها . لست ألومها على ذلك ، لست ألومها ، لأن هذه الذكرى هى كل ما تملكه الآن ، أما الباقى فقد طار كله ! نعم . . . ان زوجتى سريعة الغضب ، شديدة الكبرياء ، صعبة المراس . انها تغسل أرض الغرفة بيديها ، وتكتفى بخبز أسود ، ولكنها لا تسمح أن ينتقص أحد من احترامها . ذلك هو السبب فى أنها لم تشأ ان تسكت للسيد ليبزياتنيكوف عن فظاظته ، فلما ضربها لذلك ، فانها لم تمرض بسبب الضربات التى

كالها لها بل بسبب الاساءة التى لحقت كرامتها . لقد تزوجتها أرمل ذات أولاد ثلاثة هم جميعاً صغار . كانت قد تزوجت مرة أولى عن حب ، تزوجت ضابط مشاة هربت معه من منزل أبيها . كانت تحب زوجها حباً عنيفاً ، ولكن زوجها اندفع فى المقامرة ، وأحيل الى المحاكمة فمات . وكان فى المدة الأخيرة يضربها ، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شىء — وهذا ما أعرفه من وثائق مفصَّلة يُركن اليها — فانها ما تزال تبكى حين تتذكره ، وتعيِّرنى بالمقارنة بينى وبينه . وأنا أبتهج بهذا ، أبتهج به ، فبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة فى يوم من الأيام . . . وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة فى مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت . كانت فى بؤس يبلغ من الهول أننى لن أستطيع أن أصفه لك اذا أنا حاولت ذلك ، رغم أننى قد عانيت أنا نفسى أنواعاً كثيرة من البؤس . جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم . وكانت هى شديدة الكبرياء . . . وفى ذلك الوقت ، يا سيدى الكريم ، انما طلبت أنا يدها ، وكنت أرمل أيضا ، لى من امرأتى الأولى بنت فى الرابعة عشرة من عمرها . . . طلبت يدها لأننى لم أكن أستطيع ان أحتمل عذاباً كذلك العذاب . فى وسعك أن تتخيل درجة البؤس الذى لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت ، هى المرأة المثقفة التى تربت أحسن تربية والتى تنتمى الى أسرة مرموقة ، حين ارتضت أن تتزوجنى ! صحيح أنها وافقت على ذلك باكيةً منتحبة عاقفة يديها من الحسرة والحزن ، ولكنها تزوجتنى ، لأنه لم يكن لها مكان تذهب اليه ! هل تدرك يا سيدى الكريم ، هل تدرك ما

معنى أن لا يكون للانسان مكان يذهب اليه ؟ لا ، انك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد . . . وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبى بشرف وأمانة واخلاص ، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف بأصبعه الى الزجاجة) ، لأننى انسان ذو عاطفة . ولكننى بهذا أيضا لم أستطع أن أفوز برضاها . واذ فقدت أثناء ذلك وظيفتى أيضاً ، دون أن يكون لى فى هذا ذنب على كل حال ، وانما كان فقدى وظيفتى نتيجةً لتغييرات فى هيئة الموظفين ، فقد أخذت ألامس هذه ! . . ومنذ سنة ونصف تقريباً انما هبطنا ، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها ، انما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات الاثار التى لا يُحصى عددها . وهنا عثرت على وظيفة . عثرت عليها ثم فقدتها من جديد . هل تفهم ؟ لقد كان الذنب فى فقدها هذه المرة ذنبى أنا ، لأن طبيعتى الحقيقية قد انتصرت . . . ونحن نقيم الآن فى ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيودوروفنا لبفكسل ، أما ممَّ نعيش وكيف ندفع أجرة المسكن ، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً ! وفى المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا . . . نحن فى سدوم فظيعـــة . . . هِمْ . . . نعم ! . . وفى أثناء ذلك كانت بنتى من زواجى الأول تكبر . لن أحدثك عن المعاملة التى تحملتها ابنتى من زوجة أبيها . ان كاترينا ايفانوفنا شديدة الغضب ، عنيفة ، سريعة الاندفاع ، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر السمحة ! . . نعم ! دعنا من هذا على كل حال . ما فائدة تذكُّر هذه الأمور الآن ! تستطيع أن تتخيل طبعاً أن ابنتى صونيا لم تصب حظاً من تعليم . صحيح أننى حاولت ، منذ أربع سنين ، أن أعلِّمها الجغرافيا والتاريخ العام ، ولكننى لم

أكن قوياً فى هذا الميدان ، وكانت تعوزنى الكتب المناسبة من جهة أخرى ، فان الكتب القليلة التى كنت أملكها . . . هِمْ . . . أصبحت لا أملكها . . . لذلك توقفت دراسة ابنتى . . . وصلنا الى الحديث عن سيروس ، ملك الفرس . . . وبعد ذلك ، حين بلغت ابنتى سن الرشد ، قرأت بعض الكتب الروائية ، ثم قرأت فى الآونة الأخيرة ، بواسطة السيد ليبزياتنيكوف ، كتاب ليويس « الفزيولوجيا » ، هل تعرف هذا الكتاب ؟ قرأته ابنتى بكثير من الاهتمام ، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال . ذلك هو كل ما حصلته ابنتى صونيا « من تعليم . والآن أتوجه اليك يا سيدى الكريم ، فألقى عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً : هل تستطيع فتاة فقيرة لكنها شريفة ، هل تستطيع فى رأيك أن تكسب مالاً كثيراً بالعمل الشريف ؟ انها لن تكسب خمسة عشر كوبكاً فى اليوم ، اذا هى كانت شريفة واذا هى لم تملك أية هبة خاصة ، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقةً واحدةً أيضاً . ثم ان مستشار الدولة « كلوبشتوك ، ايفان ايفانوفتش كلوبشتوك — هل سمعت عنه ؟ — لم يكتف بأن لا يدفع لها أجرها عن ستة قمصان خاطتها له من قماش هولاندى ، بل زاد على ذلك فطردها شرَّ طردة وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت ، بحجة أن احدى الياقات لم تكن على قياس عنقه ، وأنها قصَّتها مقلوبة . والصغار فى أثناء ذلك جائعون . . وكاترينا ايفانوفنا فى أثناء ذلك تمشى فى الغرفة ذاهبة آيبة ، عاقفة يديها ، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها ، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض . قالت كاترينا ايفانوفنا لابنتى

صونيا : « يا عالة ، انك تسكنين فى غرفة دافئة ولا تزيدين هنا على أن تملئى بطنك طعاماً وشراباً ! » كأن المسكينة قد أتيح لها أن تأكل وأن تشرب فى حين أن الصغار لم يكونوا قد وضعوا فى فمهم كسرة خبز منذ ثلاثة أيام ! وكنت أنا راقداً . . . نعم . . . فعلاً . . . كنت راقداً سكران . . . وهأنا ذا أسمع ابنتى صونيا تتكلم (انها عزلاء ، ، لا تملك عن نفسها دفاعاً . . . ما أعذب صوتها . . . هى شقراء كل الشقرة . . . ووجهها شديد الشحوب والنحول دائماً) قالت : « أحقاً يا كاترينا ايفانوفنا ، أحقاً تريدين أن أعد نفسى لمثل هذا الأمر ؟ » والموضوع أن داريا فرانتسوفنا ، وهى امرأة سيئة النيات تعرفها الشرطة جيداً ، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت . أجابت كاترينا ايفانوفنا وهى تضحك ساخرة : « هه ! ألا ان كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظى عليه ! » ولكن لا تتهمها ، لا تتهمها يا سيدى الكريم ، لا تتهمها ! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكةً وعيها . . . لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة وصغارها يبكون جوعاً . ثم اننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقى ، وانما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها اهانة فحسب . . . ذلك هو طبع كاترينا ايفانوفنا : حين يبكى أولادها ، ولو من الجوع ، فانها تأخذ تضربهم فوراً . وهأنا ذا ، قبل الساعة السادسة بقليل ، أرى صونيتشكا تنهض فتتناول وشاحها وبرنسها وتخرج ، ثم تعود قبل الساعة التاسعة . فلما دخلت مضت الى كاترينا ايفانوفنا قُدُماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل ؛ ثم لم تزد ، حتى دون أن تنظر اليها ، ودون أن تقول كلمة واحدة ،

لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من صوف خفيف (نعم ، عندنا شال من هذا النوع نستعمله جميعاً) ، فغطت به رأسها ووجهها تماماً ، ورقدت على السرير متجهةً بوجهها نحو الحائط ، فكنا لا نرى الا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها . . . وكنت ما أزال على حالتى تلك نفسها . . . فرأيت عندئذ ، أيها الفتى ، رأيت كاترينا ايفانوفنا تقترب ، دون أن تقول كلمة واحدة هى أيضاً ، من سرير ابنتى صونيتشكا ، وتظل هنالك طوال السهرة راكعةً عند قدميها تقبلها ولا تريد أن تنهض . وبعد ذلك ، بعد ذلك ، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين . . . معاً . . . كلتيهما . . . وكنت أنا راقداً . . . على حالة السكر تلك ذاتها . . .

صمت مارميلادوف كأن صوته قد انقطع ، ثم ملأ كأسه فجأة بسرعة فأفرغه فى جوفه ، ودلك حلقه ، وتابع يقول بعد لحظة صمت :

ـــ ومنذ ذلك الحين يا سيدى ، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشاية أشخاص أشرار ، ولا سيما داريا فرانتسوفنا ، بحجة أننا لم نراعها ، اضطرت ابنتى صوفيا سيميونوفنا أن تكون ذات بطاقة صفراء وأن تتركنا تبعاً لذلك ، لأن صاحبة البيت ، آماليا فيودوروفنا ، لم تشأ أن تحتمل هذا الوضع (مع انها كانت قد ساعدت داريا فرانتسوفنا فى ذلك الأمر فى الماضى) ، وكذلك السيد ليبزياتنيكوف . . . وحول موضوع صوفيا هذا انما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترينا ايفانوفنا . ففى بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صونيتشكا والتماس الحظوة بها ، ثم ها هو ذا يثور قائلاً : «كيف يمكننى ،

أنا الرجل المستنير ، أن أعيش فى نفس المسكن الذى تعيش فيه هذه الـ . . .» . ولكن كاترينا ايفانوفنا لم تستسلم ، بل تدخلت . . . فحدث ما حدث . والآن تزورنا صونيتشكا من حين الى حين (بعد هبوط الليل) ، فتساعد كاترينا ايفانوفنا وتمدها باللازم . . . انها تقيم فى مسكن الخياط كابرناؤموف الذى استأجرت غرفةً عنده . وكابرناؤموف ، عدا أنه يعرج ويتأتئ ، له أولاد كثيرون يتأتئون جميعاً كذلك . وامرأته تتأتئ أيضاً . . . انهم يسكنون جميعاً فى حجرة واحدة . ولكن صوفيا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز . . . هِمْ . . . نعم . . . أناس لا يتصور المرء أن يكون فى العالم من هم أفقر منهم . . . وهم الى ذلك تأتاءون . . . نعم . . . ونهضت فى ذات صباح ، فارتديت أسمالى البالية ، ورفعت ذراعى نحو السماء مبتهلاً ، ثم ذهبت الى عند صاحب السعادة ايفان آفاناسييفتش . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آفاناسييفتش ؟ لا تعرفه ؟ اذن فأنت لا تعرف انساناً قلبه لله ، هذا رجل نقى نقاء الشمع ، نقاء شمع بكر أمام وجه الرب . . . والشمع يذوب . . . وقد ذاب هو دموعاً بعد ان تفضل فأصغى الى كلامى حتى النهاية . فلما فرغت من حديثى قال لى : «اسمع يا مارميلادوف ، لقد خيبت ظنى مرةً . . . ولكننى سأوظفك هذه المرة أيضاً ، على مسئوليتى الخاصة ـــ تلك كانت أقواله ـــ فتذكر هذا . والآن فى وسعك ان تنصرف» . قبّلت موطئ قدميه ـــ بالخيال طبعاً ، لأن هذا الموظف الكبير الذى آمن بالأفكار الجديدة على صعيد الدولة والثقافة ما كان له أن يسمح لى بأن أقبّل موطئ قدميه بالفعل . وعدت الى مسكنى ، فلما زففت اليهم بشرى أننى سأعود الى

وظيفتى وأننى سأتقاضى راتباً . . . آه . . . رباه . . . لا أستطيع أن أصف لك ما حدث . . .

صمت مارميلادوف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب . وفى تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع ؛ وعلى عتبة الخمارة دوّت أصوات أرغن يدوى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوّى صوت نحيل هو صوت طفل فى السابعة من العمر كان يغنى أغنية «القرية الصغيرة» . ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الخمارة والخدم يهتمون بالقادمين الجدد ، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه الى أحد . كان يبدو وكأن الخمرة قد حطمته وسحقته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه فى الكلام . ان ذكرى النجاح الأخير الذى أصابه مسعاه قد أنعشته بعض الانعاش ، حتى لقد أضفت على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصغى اليه بانتباه . . .

— حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدى . . . نعم . . . فما أن علمت كاترينا ايفانوفنا وصونيتشكا بالنبأ حتى حدث — يا رباه ! — ما يشبه أن أكون قد انتقلت الى السماء . قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة وأتلقى الشتائم وأبلعها ! أما الآن فانهما تسيران على رؤوس الأصابع ، وتسكتان الأولاد قائلتين : «لقد تعب سيميون زاخارتش اليوم فى مكتبه ، فهو الآن يستريح . . . هست !» وصرت قبل أن أذهب الى عملى ، أؤتى بالقهوة وتسخّن لى القشدة . صارتا تستطيعان الحصول على قشدة . . . حقيقية . . . هل تسمع ؟ وأين امكنهما الحصول على أحد عشر روبلاً

وخمسين كوبكاً لتجهيزاتى تجهيزاً لائقاً ؟ ذلك أمر لم أفهمه فى يوم من الأيام . حذاءان ، بزة رسمية ، قمصان ممتازة . . . لقد اشترتا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً ، وجعلتاها حسنة المظهر لائقة . ماذا رأيت عند أول صباح عدت فيه من المكتب ؟ أعدّت كاترينا ايفانوفنا طبقين ، حساءً ولحمَ بقرٍ مملّحا مع فجل حار ، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك فى يوم من الأيام . ثم انها لم تكن تملك ما تدثّر بها ظهرها . . . لم تكن تملك أى شىء يمكن ان يسمى دثاراً للظهر . . . فها هى ذى فى ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة ، كأنها كانت ذاهبة الى زيارة . وليس لباسها جديداً ولكنها تستطيع أن تخلق من العدم شيئا . كانت وقد صففت شعرها تصفيفاً جميلاً وأحاطت جيدها بياقة صغيرة بيضاء ، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين ، قد أصبحت انسانة أخرى تبدو أصغر سناً وأحسن رونقاً وألطف جمالاً ! أما صونيتشكا ، يمامتى الصغيرة ، فقد اكتفت بتقديم المال ، وقالت : «ولكننى أنا لن أستطيع أن أجىء اليكم الآن كثيراً ، فذلك ليس بلائق ، وانما أجىء اليكم عند هبوط الليل ، حتى لا يرانى أحد» . هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ وبعد الغداء مضيت أرقد على السرير . فهل تصدق ؟ ان كاترينا ايفانوفنا لم تطق صبراً . لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا صاحبة البيت الا اسبوع ، ومع ذلك دعتها الى تناول فنجان من القهوة . وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف . قالت لها : «ان سيميون زاخارتش له الآن وظيفة ، وهو يقبض الآن راتباً . لقد ذهب بنفسه الى صاحب السعادة ، وهبَّ صاحب السعادة نفسه الى لقائه : جعل

جميع الناس ينتظرون ، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده الى مكتبه (هل تسمع ؟ هل تسمع ؟) وقال له صاحب السعادة : اننى أتذكر بالطبع خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش ، ورغم انقيادك لميلك الطائش ، فاننى آمل ، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش ، وما دام كل شيء ، من جهة أخرى ، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمع ؟ هل تسمع ؟) ، فاننى آمل أن تفى الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذى تقطعه على نفسك» . الحق أن هذا كله انما اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً — أنا أقول لك الآن ذلك — ولكنها لم تعمد الى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صبيانية ، ولا حباً فى اظهار قيمتها واعلاء شأنها . بالعكس : لقد صدّقت هى نفسها كل ما تخيلته ، وما كان أعظم تلذذها به . . . قسماً بالرب ! وأنا لا ألومها . . . لا . . . أنا لا ألومها على هذا . . . وحين أتيتها براتبى الأول كاملاً منذ ستة أيام — ثلاثة وعشرين روبلاً وأربعين كوبكاً — نادتنى بقولها : يا حبيبى . . . خاطبتنى قائلةً «ما أجملك يا حبيبى !» قالت لى هذا وكنا فى خلوة ، هل تفهم ؟ وهل أنا جميل وهل أنا زوج على كل حال ؟ ولكنها قرصت خدى وقالت لى : «ما أجملك يا حبيبى !» .

انقطع مارميلادوف عن الكلام ، وأراد أن يبتسم ، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة . ومع ذلك كبح جماح نفسه . وها هى ذى الخمارة ، وسقوط هذا الرجل ، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها ، والليالى الخمس التى قضاها على العوّامات ناقلات العلف ، ومنظر الزجاجة ، ها هى ذى تلك الأمور

كلها تغرق راسكولنيكوف فى ذهول . كان يصغى بأكبر انتباه ممكن ، ولكنه أحسّ بضيق وانزعاج . ولام نفسه على أنه جاء الى هذا المكان .

صاح مارميلادوف يقول وهو يتمالك نفسه :

— أيها السيد الكريم ، ايها السيد الكريم ، ربما كانت هذه القصة تضحكك كما تضحك الآخرين ، ولعلنى لا أزيد على أن أضايقك بهذا العرض الغبى الأبله لتفاصيل تافهة من تفاصيل حياتى المنزلية . ولكن هذا كله لا يضحكنى أنا ، لأن هذا كله انما أحسه أنا بكل جوارحى . لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا فى مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامى . كنت أفكر فى الطريقة التى سأدبر بها الأمور : كيف سأكسو هؤلاء الأولاد ، كيف سأهيئ لها هى الهدوء والسكينة والطمأنينة ، كيف سأنتزع ابنتى الوحيدة من وهدة العار وأردها الى أحضان الأسرة . . . وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً ، بأشياء كثيرة جداً . ذلك مسموح به لى ياسيدى . وبعد ذلك أيها السيد ، (هنا ارتعش مارميلادوف فجأة ، ونصب رأسه وحدّق الى محدّثه) بعد جميع تلك الأحلام الجميلة (أى منذ خمسة أيام على وجه الدقة) فى مساء اليوم التالى عمدت الى أنواع الحيل والأكاذيب ، فسرقت من كاترينا ايفانوفنا مفتاح صندوقها ، كلصٍّ الليل ، فأخذت ما كان قد بقى من أجرى الذى أعطيتها أياه . . . لا أدرى كم كان المبلغ تماماً . . . نعم ، ذلك ما حدث . . . وأنظر أين أنا الآن . . . أنظروا الىّ أنتم جميعاً ! . . لقد تركت البيت منذ خمسة أيام . وهم هناك يبحثون عنى . ولقد فقدت وظيفتى ، وبقيت بزتى الرسمية مرهونة فى خمارة ، على

مقربة من «الجسر المصرى» ، فحصلت على هذه الثياب . . . كل شىء انتهى !

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده ، وكزّ أسنانه ، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه الى المائدة استناداً قوياً . ولكن وجهه تغير بعد دقيقة تغيراً مفاجئاً مباغتاً ، فاذا هو بنوع من المكر والوقاحة المتظاهرة انما ينظر الآن الـــى راسكولنيكوف . ثم أخذ يضحك وقال :

— واليوم ذهبت الى صونيا أطلب منها مالاً . . . لأشرب قليلاً من أجل تخفيف وجع رأسى . . . هأ هأ هأ ! . .

صاح يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه :

— وهل أعطتك مالاً ؟

قال مارميلادوف متجهاً بكلامه الى راسكولنيكوف وحده :

— بما أعطتنيه من مال انما اشتريت الزجاجة هذه ، لقد جاءتنى صونيا بثلاثين كوبكاً قدمتها اليَّ بيدها نفسها . وكان هذا المبلغ كلَّ ما بقى لها . . . رأيت ذلك بنفسى . لم تقل شيئاً ، اكتفت بأن نظرت اليَّ صامتة . . . نظرت اليَّ لا كما يكون النظر فى هذه الحياة الدنيا ، بل فى الحياة الآخرة ، فى السماء ، حيث لا يوقظ الأشقياء فى القلوب الا عاطفة الشفقة ، حيث يبكى الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا اليهم كلمة تقريع ! وحين لا يقرّعك أحد ، فانك تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! نعم ! تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! ثلاثون كوبكاً . . . نعم . . . ولكنها كانت فى حاجة الى هذه الثلاثين كوبكاً . ها ؟ أليس كذلك يا سيدى الكريم ؟ عليها الآن أن تعتنى بنفسها ، وأن تهتم

بنظافتها . والنظافة ، تلك النظافة ، تكلف نفقات كثيرة ، هل تفهم ؟ هل تفهم ؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطيب بها . . . يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك ! وهناك التنورات المتصلبة ، والأحذية الأنيقة التى تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة ! هل تفهم يا سيدى ماذا تعنى نظافة كتلك النظافة ؟ وهأنا ذا ، أنا أبوها ، اختلس الثلاثين كوبكاً التى تملكها لأشرب بها خمراً . ولقد انفقت ذلك المبلغ فعلاً فى الشراب ! . . فمن ذا الذى يستطيع أن يرثى لحال رجل مثلى ؟ هل ترثى لحالى أنت الآن يا سيدى ؟ هل ترثى لحالى ؟ تكلم يا سيدى ، تكلم : أترثى لحالى أم لا ؟ هىء هىء هىء ! . .

قال مارميلادوف ذلك وأراد أن يصب فى كأسه خمراً ، ولكن الخمر كان قد نفد . . . كانت الزجاجة فارغة !

وكان صاحب الخمارة قد اقترب مرة أخرى ، فهتف يسأله :

— فيم عسى يرثى الناس لحالك ؟

وسُمعت ضحكات وشتائم . كان يطلق الضحكات والشتائم أولئك الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يسمعوا شيئاً البتة ولكنهم ينظرون الى الرجل الذى كان موظفاً .

زأر مارميلادوف فجأة ، وهو ينهض عن مقعده ، مادّاً ذراعيه الى أمام ، وقد وافاه الهام حقيقى ، كأنه لم يسمع الا تلك الكلمات ، زأر يقول :

— لماذا عسى يُرثى لحالى ؟ أهذا ما تقوله ؟ نعم ، ليس هناك ما يدعو الى الرثاء لحالى ! وانما ينبغى أن أُصلب ، أن أصلب على صليب ، لا أن يرثى لحالى ! ولكن اصلبنى ،

أيها القاضى ، ثم ارث لحاله بعد أن تصلبه . وعندئذ سأمضى اليك بنفسى ، أواجه العذاب مواجهة ، لأن ظمئى ليس الى فرح ، بل الى حزن ودموع ! أتراك تظن أيها البائع ان هذه الزجاجة التى اشتريتها منك قد جاءتنى بالفرح وحملت الىَّ المسرة ؟ ألا ان الألم ، ألا ان الألم هو ما كنت أنشده فى قرارة تلك الزجاجة . . . نعم . . . الألم والدموع ! . . ولقد ذقت فيها الألم ، لقد وجدت فيها ما كنت أنشده ! ولكن ذلك الذى يشفق على جميع الناس ، ويرأف بجميع الناس ، سيشفق علينا ، وسيرأف بنا . . . لأنه يدرك كل شىء . انه هو الواحد الأحد . انه هو القاضى الأعلى . سيظهر فى يوم الحساب فيسأل : «أين هى تلك الفتاة المسكينة التى ضحت بنفسها فى سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة ، فى سبيل صغار امرأة أخرى ؟ أين هى تلك الفتاة المسكينة التى أشفقت على أبيها الأرضى ، السكِّير الذى لا برء له ، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته ؟» وسوف يقول لها : «تعالى ! لقد سبق أن غفرت لك مرة . . . سبق أن غفرت لك مرة . . . والآن أعفو عن جميع خطاياك ، لأنك أحببت كثيراً» . . . وسيغفر لها ، سيغفر لابنتى العزيزة صونيا . . . أنا أعلم أنه سيغفر لها . . . شعر قلبى بهذا حين كنت عندها منذ قليل . . . وسوف يحكم عليهم جميعاً . سيغفر للأخيار والأشرار ، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء . حتى اذا فرغ من الجميع ، خاطبنا نحن أيضاً فقال : «تعالوا ، تعالوا أنتم أيضاً أيها السكِّيرون ، تعالوا أيها الضعفاء ، تعالوا أيها الفاسقون !» وسنقترب منه جميعاً ، دون شعور بالخزى والعار وسنقف أمامه ، وسيقول لنا : «أنتم خنازير ! قد خُلقتم

على صورة الوحش ، ودُمغتم بخاتمه ! ومع ذلك تعالوا !» وسيقول الحكماء عندئذ ، سيقول العقلاء : «كيف يا رب ؟ كيف تستقبلهم هم أيضاً ؟» فيجيبهم : «أنا أستقبلهم أيها الحكماء ، أنا استقبلهم أيها العقلاء ، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يُستقبل !» وسوف يفتح لنا ذراعيه ، وسوف نرتمى بين ذراعيه . . . وسوف نبكى . . . وسوف ندرك كل شىء . . . سوف ندرك عندئذ كل شىء ! . . وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل شىء . . . وسوف تفهم كاترينا ايفانوفنا هى نفسها . . . فليأت ملكوتك أيها الرب !

انهارت قوى مارميلادوف ، فتهاوى على الدكة ، دون أن ينظر الى أحد ، كأنه قد غرق فى أحلام عميقة فنسى كل ما كان يحيط به . وأحدثت كلماته أثراً . فساد الصمت خلال دقيقة . ولكن القهقهات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوى .

— هكذا يكون الكلام !

— هو يثرثر !

— موظف !

الخ ، الخ . . .

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف :

— هيَّا بنا يا سيدى . رافقنى الى عمارة كوزيل . . . الى الفناء . . . لقد آن الأوان . . . خذنى الى كاترينا ايفانوفنا !

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف . وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادوف . وقد ظهر

مارميلادوف أشد وهناً وأضعف قياماً على ساقيه مما كان فى خطابه . اتكأ مارميلادوف اتكاءً ثقيلاً على الشاب . وكان ينبغى قطع مسافة مائتى خطوة أو ثلاثمائة خطوة . ان القلق والخوف يجتاحان السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله .

ودمدم يقول منفعلاً :

— ليس خوفى من كاترينا ايفانوفنا . لست خائفاً لأنها ستشدنى من شعرى . ما قيمة شعرى ؟ . . شعرى لا يهمنى . أنا أقول لك ذلك . . . والأفضل أن تشدنى من شعرى . . . لا . . . ليس هذا ما يخيفنى . . . انما أنا أخاف عينيها . . . نعم . . . أنا أخاف عينيها . . . والبقع الحمراء فى خديها . . . أخاف منها أيضاً . . . وأخاف أيضاً تنفسها . . . هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم ؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد ، حين يبكون . ذلك أن من الجائز أن لا تكون صونيا قد أعطتهم ما يأكلون . . . لست أدرى . . . لست أدرى الآن . . . أما الضربات فلا أخافها . . . اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تؤلمنى ، وانما هى تهيئ لى لذةً فى بعض الأحيان . . . لأننى لا أستطيع الاستغناء عنها . ذلك أفضل ! الا فلتضربنى ! . . الا فلتخفف عن نفسها ! . . ذلك أفضل . . . هذه هى العمارة ، عمارة كوزيل . . . هو قفّال ، قفّال ألمانى غنى جداً . أدخل معى !

اجتازا الفناء ، وصعدا الى الطابق الرابع . وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما فى الصعود . الساعة أوشكت على الحادية عشرة ، ورغم أن مدينة بطرسبرج ليس لها ليل

حقيقى فى مثل هذه الفترة من العام ، فقد كانت الظلمة حالكة فى آخر السلّم .

فى أعلى السلم كان باب صغير مدخّن مفتوحاً . وكان هنالك بقية شمعة تضىء أفقر غرفة فى المسكن ، طولها عشر أقدام . ان المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلّم . ان فوضى قصوى تسودها ، وان أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال . وفى ركن من الغرفة هو آخرها ، قد شُدّت ستارة رثة لعل وراءها سريراً . ولم يكن فى الغرفة نفسها الا كرسيان ، وأريكة منجدة بقماش مشمّع بالٍ رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، لا وليس عليها غطاء . وفى آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قد غرست فى شمعدان من حديد . ان جميع المظاهر تشير الى أن مارميلادوف لا يحتل فى هذا المسكن ركناً من أركانه ، بل غرفة مستقلة هى فى الواقع ممر أو دهليز . وكان الباب الذى يفضى الى الغرف الأخرى ، أو قل الى العلب الأخرى التى يتألف منها بيت آماليا ليبيفكسل ، كان الباب مشقوقاً ، وكانت تصل منه جلبة وصيحات . كان الموجودون هناك يضحكون مقهقهين . يبدو أنهم يلعبون بالورق وهم يحتسون الشاى . وكان يستطيع المرء أحياناً أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثير تأدب .

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرّف كاترينا ايفانوفنا . هى امرأة نحيلة نحولاً رهيباً ، طويلة القامة ، ممشوقة القد . وما يزال لها شعر كستناوى اللون رائع ؛ وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً . انها تسير فى الغرفة الصغيرة ذهاباً

وايابا ، وقد شدّت يديها الى صدرها تضغطه بهما ؛ وكانت شفتاها يابستين وأنفاسها قصيرة مقطّعة ، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم ، ولكن نظرتها حادة ثابتة . ان هذا الوجه المنفعل الذى التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة المتراقص أثراً فى النفس أليماً . قدّر راسكولنيكوف أنها فى الثلاثين من العمر . ما هى فى الحق بالمرأة التى تصلح زوجة لمارميلادوف . لم تنتبه الى وصولهما ، ولا سمعت وقع خطواتهما . كانت غارقة فى نوع من الخبال ، فهى لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً . ان حراً خانقاً يسود جو الغرفة . ومع ذلك لم تكن المرأة قد فتحت النافذة . ومن أدنى السلم كانت تتصاعد رائحة كريهة ، ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على السلم . ومن خلال الباب الآخر كانت تصل سحب من دخان التبغ ، فكانت تسعل ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثانى أيضاً . وكانت صغرى البنات ، وهى طفلة فى السادسة من عمرها ، نائمة على الأرض قعوداً ، وقد تكببت على نفسها وأسندت رأسها الى الأريكة . وكان الصبى الصغير ، وهو أكبر منها بسنة واحدة ، يرتعش ويبكى فى ركن من الأركان : لا شك أنه قد ضُرب منذ قليل . أما البنت الكبرى ، وهى طفلة فى نحو التاسعة من العمر ، طويلة نحيلة كعود ثقاب ، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق فى كل ناحية ، ورداء عتيقاً من صوف خفيف قد أُلقى على كتفيها العاريتين ، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها الى الركبتين . وكانت البنت واقفة فى الركن تضم اليها أخاها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة . يبدو أنها كانت تحاول أن

تسرّى عنه ، فهى تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاءَ أن لا يستأنف بكاءه ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تتابع أمها وقد امتلأت رعباً ، تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة فى هذا الوجه الهزيل المرتاع . لم يدخل مارميلادوف الغرفة ، بل ركع على العتبة ، ودفع راسكولنيكوف الى أمام . فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول ، وقفت أمامه ذاهلة ، ثم خرجت من تأملاتها لحظة ، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجيئه . ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذاهب الى سكان آخرين من سكان البيت ، لأن الغرفة ممر الى الغرف الأخرى . فلما وصلت الى هذه النتيجة ، اتجهت نحو باب الدهليز تريد أن تغلقه دون ان تهتم بالقادم ، فاذا هى تصرخ على حين فجأة ، لأنها اكتشفت زوجها الراكع على الأرض .

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب :

— آ . . . هأنت ذا عدت ! يا لص ، يا شيطان ، يا مسخ ! أين المال ؟ ماذا فى جيبك ؟ أرنى ! . . وهذا اللباس الذى ترتديه ليس لباسك ، فأين رداؤك اذن ؟ أين المال ؟ تكلم !

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبش جيوبه . فسرعان ما باعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيعاً بغية أن يسهّل عليها تفتيش جيوبه . ولم يكن فى جيوب مارميلادوف كوبك واحد .

هتفت تقول :

— أين المال ؟ آه . . . يا رب ! . . هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله ؟ كان ما يزال فى الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك . . .

وألمت بها سورة مسعورة من الغضب على حين فجأة ، فأمسكت بشعره ، وجرّته الى الغرفة . وسهّل هو عليها هذه المهمة ، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلاً .

صاح يقول بينما كان يُجَرُّ من شعره حتى لتصطدم جبهته مرةً بأرض الغرفة :

— هذه لذة بالنسبة الىّ ! ليس هذا ألماً يا سيدى الكريم بل لذة !

واستيقظت البنية التى كانت نائمة على الأرض ، وأجهشت تبكى . ولم يتمالك الصبى الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخته مروَّعاً تكاد تجتاحه نوبة عصبية . وكانت البنت الكبرى ترتجف بعد النوم كورقة فى مهب الريح .

صاحت المرأة المسكينة تقول :

— شرب بالمال كله ، شرب بالمال كله . حتى رداؤه ليس رداءه ! انهم يتضورون جوعاً ، يتضورون جوعاً .

قالت ذلك وهى تلوى يديها وتشير الى الأولاد ، ثم أردفت :

— لعن اللّه هذه الحياة ، لعن اللّه هذه الحياة !

وزأرت تخاطب راسكولنيكوف وهى ترتمى عليه فجأة :

— وأنت أيضاً خارج من الخمارة ! عليك أن تخجل ! شربت معه ، أليس كذلك ؟ أنت أيضاً . . . شربت معه . . . اخرج من هنا ! . .

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفى أثناء ذلك كان الباب قد فُتح على كل سعته ، وظهر فى فرجته عدد من المستطلعين . كانوا يمدون رؤوسهم الوقحة الضاحكة ، وقد وضعوا عليها طاقياتهم ، وهم يدخنون سجائر

أو غلايين . وكانت تُرى قامات ترتدى معاطف المنازل مفتوحة أو ملابس صيفية ليس فيها شىء من احتشام . وكان بين المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب ، وقد ضحكوا خاصة حين جرَّ مارميلادوف من شعره ، فصرخ يقول ان هذه لذة له . حتى لقد دخلوا الغرفة وسُمعت أخيراً وعوعة غاضبة حانقة : انها آماليا ليبفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء ، بطريقتها الخاصة ، ولترهب المرأة المسكينة بابلاغها ، للمرة المائة ، بأن عليها اخلاء المسكن منذ الغد . اتسع وقت راسكولنيكوف ، قبل أن ينصرف ، لأن يدس يده فى جيبه فيخرج منه جميع النقود النحاسية التى بقيت له من الروبل الذى صرفه فى الخمارة ، وأن يضع هذه النقود خفيةً على حافة النافذة . فلما صار فى السلم ، عدل عن رأيه ، وأراد أن يرجع أدراجه .

قال يحدث نفسه : «حماقة ما فعلت ! . . هم لهم صونيا ، وأنا فى حاجة الى مال» . ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد الصدقة التى أعطاها ، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً ، فأشاح بيده واتجه نحو مسكنه . وتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره فى الشارع وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : «حقا ان على صونيا أن تشترى أطياباً تتدهن بها . . . انها تكلف ثمناً باهظا ، تلك النظافة . . . هِـمْ . . . ولكن من الجائز جداً أن يصيبها اليوم افلاس . . . ان هذه المهنة معرَّضة لمخاطر كثيرة ، كصيد الوحوش ذات الفراء الثمين والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء . . . فبدون هذا المال الذى نفحتهم اياه يمكن أن يجدوا أنفسهم فى الغد بلا كوبك واحد . آه . . . يا لك من صونيا ! . . يا لك من منجم

اكتشفوه ! ويا لها من فوائد يجنونها منه ! . . ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد ! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وأن ينتفعوا به ! بكوا فى أول الأمر ، ثم ألفوا وتعودوا . ان الانسان يعتاد كل شىء . يا له من حقير !»

ثم فكّر . فاذا هو يصيح قائلاً رغم ارادته على حين فجأة :

— ماذا لو كنت على ضلال ! ماذا لو لم يكن الانسان فى حقيقة الأمر حقيرا . . أعنى الانسان عامةً ، أعنى النوع الانسانى . . . سيكون معنى ذلك أن الباقى كله ليس الا أوهاماً ، ليس الا مخاوف خيالية باطلة ، وأنه ليس هنالك أى حد ينبغى الوقوف عنده . نعم ، ذلك ما يجب .

الفصل الثالث

استيقظ فى الغداة متأخراً ، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة . وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس ، ونظر الى غرفته نظرة كره ومقت . ان هذه الغرفة أشبه بقفص صغير طوله ست خطوات ، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة ، قد غُطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتزع فى جميع الجهات . وهى تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات ، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس ، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف . وأثاث الغرفة يناسبها حقارة ورثاثة : كان فيها ثلاثة كراسى عتيقة تعرج قليلاً ، وكان

فى ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفى المرء أن يرى طبقة الغبار التى تغطى هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد اليها يد) ؛ وكان فيها أخيراً ديوان كبير بشع يشغل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً ، ديوان كان فى الماضى منجداً بقماش هندى ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية . ان هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف . وكثيرا ما كان يتفق لراسكولنيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا ملايات ، غيرَ ملتحف الا معطفه العتيق الرث ، معطفَ الطالب ، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يُعليها بأن يدس تحتها جميع ما عنده من ملابس نظيفة ومتسخة . وأمام الديـوان توجد منضدة صغيرة .

انه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه اهمالاً أشد من هذا الاهمال . ولكن منظر مسكنه هذا ، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة ، كان يمضى الى حدٍّ أن يولّد له شيئاً من لذة . كان قد انفصل عن العالم انفصالاً حاسماً ، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة فى قوقعتها . وحتى منظر الخادمة ، التى كان عليها ان تخدمه والتى كانت تظهر أحياناً لترى ماذا يجرى ، كان يبعث فى نفسه كرهاً محموماً . هكذا شأن بعض الموسوسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة ، ويسرف ذهنهم فى التركز على نقطة بعينها . لقد كفّت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن تبعث اليه بوجبات طعامه ، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام ، فانه لمّا يخطر بباله بعد أن يذهب اليها ليناقشها فى الأمر . وكانت ناستاسيا ، الطباخة ، وهى الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت ، كانت ،

بمعنى من المعانى ، غير مستاءة من الحالة النفسية التى كان عليها المستأجر ، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً ، اللهم الا من حين الى حين ، مرةً فى الأسبوع ، وكانت فى هذه المرة تكتفى بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كيفما اتفق . وهى التى أيقظته الآن . صرخت تقول له وهى تميل عليه :

— انهض . ما بك حتى تنام هذا النوم ؟ لقد دقت

الساعة التاسعة . هأنا ذا آتيك بشىء من الشاى ، هل تريد ؟ اعتقد انك جائع . أليس كذلك ؟

فتح الشاب عينيه ، وارتجف ، وتعرف ناستاسيا . سألها وهو ينهض ببطء عن ديوانه وقد بدا عليه الألم :

— هل صاحبة البيت هى التى أرسلت الىَّ هذا الشاى ؟

قالت له الخادمة :

— صاحبة البيت ؟ هه ! . .

ووضعت أمامه ابريقها الخاص بها ، ابريقها المتصدع الذى يضم بقية قديمة من شاى ، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الاصفرار .

قال لها بعد أن نبش جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه) ، فأخرج منه عدة قطع نقدية نحاسية :

— خذى يا ناستاسيا ، خذى هذا ، أرجوك . . . واذهبى فاشترى لى رغيفاً صغيراً من الخبز ، واشترى لى كذلك من عند البقال سجقاً ، سجقاً بخس الثمن . . .

— سآتيك بالرغيف حالاً . ولكن ألا تريد ، بدلاً من السجق ، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب ؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس ، وادخرته لك مساء ، لكنك رجعت الى البيت متأخراً . هو حساء بالكرنب طيب .

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب ، فأخذ يأكل ، جلست الى جانبه على الديوان ، وأخذت تثرثر . انها امرأة قروية مكثارة مهذارة . قالت له :

— ان براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك الى الشرطة .

فأربد وجهه وسألها :

— تشكونى الى الشرطة ؟ ماذا تريد منى ؟

— أنت لا تدفع أجر الغرفة ، لا ولا تجلو عنها ! ذلك ما تريده منك !

جمجم يقول وهو يكز على اسنانه :

— لم يكن ينقصنى الا هذا ! حقاً ان ذلك لا يلائمنى الآن . . .

ثم أضاف يقول بصوت عال :

— يا للحمقاء ! سأمرُّ بها اليوم فأكلِّمها .

قالت :

— أما أنها حمقاء فهى حمقاء حقاً ، مثلى أنا تماماً . . . ولكن . . . ما بالك أنت ، وأنت ذكى هذا الذكاء كله ، تبقى راقداً طول الوقت كصُرَّة ؟ لا يستطيع أحدٌ أن يحملك على شىء ! تقول انك كنت فى الماضى تعـــطى الأولاد دروساً خاصة ، فلماذا أصبحت لا تقوم الآن بأى عمل ؟ . .

— بل أقوم . . .

كذلك نطق راسكولنيكوف رغم ارادته ، بلهجةٍ جافة .

سألته :

— ما الذى تقوم به ؟

— أقوم بعمل . . .

— أى عمل ؟

أجابها جاداً بعد صمت :

— أفكر . . .

انتابت ناستاسيا نوبة ضحك . انها متأهبة دائماً لأن تنفجر ضاحكة . ويكفى أن تُمازَح أقلَّ ممازحة حتى تأخذ فى الضحك ، ولكن ضحكها صامت ، فهى لا تزيد على

أن تحرك وترجح جسمها كله ، الى أن يصيبها من ذلك ضجر ! . .

وأفلحت فى أن تنطق أخيراً فقالت له :

— وهل جنيت من التفكير مالاً كثيراً ؟

قال :

— كيف يستطيع المرء أن يمضى لاعطاء دروس حين لا يملك حذاءين ؟ على اننى أبصق على هذا .

— لا تبصق على ما ينفعك .

— يجنى المرء من تعليم الأطفال كوبكات ، ماذا يستطيع المرء أن يفعل ببضعة كوبكات ؟

كذلك تابع يقول بغير ارادة ، كأنه يجيب عمَّا يدور فى رأسه هو من خواطر وأفكار .

سألته قائلة :

— أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعةً واحدة ؟

نظر اليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازمٍ بعد صمتٍ قصير :

— نعم ، ثروة طائلة . . .

— هيه . . . رفقاً رفقاً ! انك تخيفنى . ما تقوله أمر فظيع . أأمضى لشراء الرغيف الصغير ؟

— افعلى ما تشائين .

— ها . . . نسيت . . . معى رسالة لك وصلت أمس أثناء غيابك .

— رسالة ؟ لى ؟ ممن ؟

— لا أدرى ممن . وقد نقدت ساعى البريد ثلاثة كوبكات من جيبـى . سترديها الىَّ ، أليس كذلك ؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب :

— هاتى الرسالة ! هاتيها ناشدتك الله . . . آه . . . يا رب ! . .

بعد دقيقة جاءت الرسالة . صدق ما كان يقدّره : ان الرسالة أتية من أمه التى تقيم فى اقليم ر . . . اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة . لقد أصبح لا يتلقى أية رسالة منذ مدة طويلة . ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويجثم على صدره .

قال :

— ناستاسيا ، اذهبى . . . ناشدتك الله . . . انصرفى . . . اليك كوبكاتك الثلاثة . . . اخرجى بسرعة . . . ناشدتك الله ! . .

كانت الرسالة ترتعش بين يديه . لم يشأ أن يفضها أمام الخادمة . كان يحرص على أن يبقى **وحيداً** مع هذه الرسالة . فما أن خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة الى شفتيه بحركة سريعة ، وقبّلها . ثم لبث مدة يُنعِم النظر فى خط العنوان ، فى الخط العزيز الغالى الذى يعرفه حقّ المعرفة ، الخط الصغير المائل بعض الميل ، خطّ أمه التى علمته القراءة والكتابة فى الماضى منذ زمن بعيد . أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت ، حتى لكأنه يخشى شيئاً ما . ثم فضّها أخيراً . الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن هى تزن لوتين » : صحيفتان كبيرتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وقفا . وهذا ما كتبته أمه :

«عزيزى روديا » ! انقضى أكثر من شهرين دون أن أتحدث اليك كتابة ، وذلك أمر عذبنى كثيراً ، حتى لقد حرمنى من النوم ذات ليلة من فرط تفكيرى فيه . ولكننى على يقين من أنك لن تؤاخذنى على هذا الصمْت الطويل

الذى لست مسؤولة عنه . انت تعلم كم أحبك ! ليس لنا فى هذه الحياة ، أنا ودونيا » ، سواك . أنت عندنا كل شىء . أنت كل أملنا . أنت كل ايماننا بالمستقبل ! ليتك تعلم الحالة التى صرت اليها حين علمت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لعجزك عن الوفاء بسدّ حاجاتك ، وأنك فقدت الدروس التى كنت تعطيها ، وفقدت سائر الموارد الأخرى ! كيف كان يمكننى أن أساعدك وأنا لا أقبض الا مائة وعشرين روبلاً فى السنة هى معاش التقاعد ! أنت تعلم ان الخمسة عشر روبلاً التى أرسلتها اليك منذ أربعة أشهر ، انما كنت قد اقترضتها سلفةً على معاشى من تاجرٍ فى بلدتنا هو فاسيلى ايفانوفتش فاخروشين . انه رجل طيب شهم كان صديق أبيك . ولكننى وقد خوّلته حق قبض المعاش نيابةً عنى ، قد اضطررت أن انتظر الى أن ينتهى سداد الدين كاملاً ، وذلك ما لم يتم الا منذ برهة قصيرة . هذا هو السبب فى اننى لم أستطع أن أرسل اليك شيئاً طوال ذلك الوقت . أما الآن فأعتقد أننى سأستطيع ، ولله الحمد ، أن أستأنف ارسال شىء من المال اليك . ثم اننا فى وسعنا ، على وجه أعم ، ان نغبط أنفسنا على أن الحظ قد وافانا قليلاً ، وذلك ما أسارع الى ذكره لك . هل يمكنك ، أولاً ، ياعزيزى روديا ، أن تحزر أن أختك تقيم معى منذ شهر ونصف شهر ، وأننا لن ننفصل بعد اليوم أبداً ؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله ، ولكن ينبغى أن أقصّ عليك كل شىء مرتباً متسلسلاً ، حتى تعرف كيف جرت الأمور ، وماذا كتمنا عنك الى الآن ! لقد كتبت الىّ منذ شهرين قائلاً انك علمت من أحد الناس أن اختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة

المعاملة فى منزل الأسرة التى تعمل عندها ، وهى أسرة السادة سفدريجايلوف ، وسألتنى أن أبعث اليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر . فماذا كان فى وسعى أن اجيبك فى ذلك الأوان ؟ فلو قد كتبت اليك الحقيقة كاملة لكن من الجائز أن تترك كل شىء وان تجىء الينا سيراً على الأقدام ، لأننى أعرف طبعك وأعرف عواطفك ، فما كان لك أن تدع لأحد أن يسىء الى أختك وأن يهين كرامتها . ولقد بلغتُ أنا نفسى عندئذ غاية الكرب واليأس . ولكن ما الذى كان يجب أن أفعله ؟ ثم اننى لم أكن أعرف الحقيقة كلها حينذاك . ولقد جاء البلاء أساساً من أن أختك دونيتشكا ، حين أخذت تعمل مربية عند آل سفيدريجايلوف ، فى السنة الماضية ، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل يقتطعونها من أجورها شهراً شهراً . لذلك كان من المستحيل عليها أن تترك وظيفتها قبل أن تكون قد سدَّدت ما لهم عليها من دين . وذلك المبلغ الذى قبضته (أستطيع الآن أن أعترف لك بذلك يا بنى العزيز) انما أخذته خاصةً لترسل اليك الستين روبلاً التى كنت حينئذ فى حاجة ماسة اليها والتى تلقيتها منا فى السنة الماضية . لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا اليك عندئذ ان ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا ؛ ولم يكن الأمر كذلك . وانما أنا أقول لك الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد أن يبدل كل شىء وان نصير الى حال أفضل ، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ما تحمله لك دونيا من حب ، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع ! بالفعل ان السيد سفيدريجايلوف كان فى أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفظاظة وكان يوجه اليها

اثناء الجلوس الى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة . . على أننى لا أريد أن أفيض فى الكلام على هذه التفاصيل الأليمة ، حتى لا أعذبك فى غير طائل ، بعد أن انتهى هذا كله الآن ! المهم ان وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم ان مارفا بتروفنا ، زوجة السيد سفيدريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية واللطف . وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيدريجايلوف تحت سيطرة باخوس ، على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان فى الجيش . ولكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟ تصور ان هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً . ولعله كان يشعر بالخزى والعار فى نفسه ، أو لعله كان يحس بارتياع حين يرى أنه فى هذه السن ، هو رب الأسرة ، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الطيش ، فاذا هو يحقد على دونيا رغم ارادته ، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته انما كان يريد أن يخفى الحقيقة عن الآخرين لا أكثر . المهم أنه أصبح فى نهاية الأمر لا يطيق صبراً ، فاذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيرة ، باذلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة ، مقترحاً عليها فوق ذلك كله ان يترك كل شىء ليسافر معها الى قرية أخرى من القرى التى يملكها او الى الخارج . . فى وسعك أن تتخيل الآلام التى قاستها أختك ! كان عليها أن لا تفكر فى ترك وظيفتها فوراً ، لا بسبب ما عليها من دين فحسب ، بل أيضاً من باب المراعاة والمداراة لمارفا بتروفنا التى كان يمكن ان تساورها شكوك كثيرة على

حين فجأة فيحدث فى الأسرة شقاق يمزقها شرَّ ممزق . ذلك عدا أن تركها لوظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها . وهناك أسباب أخرى كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك ذلك البيت الفظيع قبل انقضاء ستة أسابيع . لا شك فى أنك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن ارادة قوية . ان دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة ، وأن تجد فى نفسها ، مهما تكن الظروف حرجة ، قدراً كافياً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها ، لذلك لم تكتب الىَّ أنا نفسى شيئاً عن هذا كله ، حتى لا تؤلمنى وتعذبنى ، مع أننا كنا نتراسل كثيراً . وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن فى الحسبان : ان مارفا بتروفنا سمعت زوجها فى الحديقة ، مصادفةً ، يتوسل الى دونيتشكا ضارعاً مبتهلاً ، ففهمتْ الأمر فهماً لا يتفق مع الحقيقة واتهمت دونيتشكا اذ انها ظنت ان دونيتشكا سبب كل شىء ، فاذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ فى الحديقة نفسها : لم تشأ مارفا بتروفنا أن تسمع أى قول ، حتى لقد ضربت دونيا ، وظلَّت تصرخ ساعة بكاملها ، ثم أصدرت أمرها بنقلها الىَّ فى المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين ، رُميت فيها جميع أشياء دونيا من ملابس وأثواب ، رُميت فوضى بغير نظام ، حتى دون أن تُربط أو تُحزم . وقد أخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً ، فاضطرت أختك دونيا أن تقطع مع الفلاح فى عربته المكشوفة مسافة سبعة عشر فرسخاً على تلك الحال من المذلة والهوان . انك لترى الآن أننى لم أكن استطيع أن أجيبك بشىء على الرسالة التى بعثت بها الىَّ منذ شهرين :

عمَّ كان يمكننى أن أحدثك وفيم كنت أستطيع أن أكلمك ؟ لقد كنت أنا نفسى فى غاية الكرب وذروة الكمد . لم أكن أجرؤ أن أكتب لك الحقيقة . فلو فعلت ذلك لشقيتَ أنت شقاء كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير . وما الذى كان فى وسعك أن تفعل ؟ لا شىء الا ان تفاقم آلامك ثم ان دونيا قد حظرت على أن أفعل . وأما ان املأ رسالتى اليك بترهات وسفاسف ، بينا أنا مثقلة القلب بالحزن والكمد ، فذلك ما شعرت اننى لا أقوى عليه . وفى اثناء شهر كامل جرت فى المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم ، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه أن أصحب دونيا الى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التى يلقيها علينا الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التى يتبادلونها عند مرورنا ، حتى انهم كانوا لا يتحرجون من ابداء ملاحظات خبيثة بصوت عال فى حضورنا . وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيحون عنا بوجوههم ، بل لقد كفوا عن تحيتنا . وعرفت من مصدر مطلع أن عدداً من مستخدمى الدكاكين وصغار موظفى المكاتب أرادوا ان يرتكبوا فى حقنا وقاحة سافلة ، هى أن يلطخوا باب منزلنا بالقطران ، فأخذ أصحاب البيت الذى نسكنه يطالبوننا باخلائه . وكانت مارفا بتروفنا سبب ذلك كله ، فقد اتسع وقتها لأن تذهب الى جميع البيوت تتهم دونيا وتوسخ سمعتها . انها تعرف جميع الناس فى بلدتنا . وقضت هذا الشهر فى زيارات مستمرة . واذ انها أميل الى الثرثرة ، واذ أنها تحب ان تقص شئونها المنزلية على كل قادم ، وأن تشكو زوجها خاصةً ، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً ، فقد نشرت القصة خلال برهة

وجيزة من الزمن ، لا فى المدينة وحدها ، بل فى المقاطعة كلها . وقد مرضت أنا من ذلك . ولكن دونيتشكا كانت أقوى منى عوداً ، وأصلب شكيمة ، وأشد بأساً . ليتك رأيت كيف استطاعت أن تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هى التى تعزينى وتواسينى ، وتقوى عزيمتى ، وتشد أزرى ! انها ملاك ! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا . فان السيد سفيدريجايلوف قد عدل عن رأيه ، وندم على ما بدر منه ، ولعله شعر بشفقة نحو دونيا ، فقدَّم لامرأته مارفا بتروفنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا : كان هذا الدليل القاطع رسالةً كانت دونيا ، قبل ان تفاجئهما مارفا بتروفنا فى الحديقة بزمن طويل ، قد اضطرت أن تكتبها وان تعطيها السيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه ، ولترفض جميع المواعيد السرية التى كان يضرع اليها ان تضربها له . وقد بقيت هذه الرسالة بين يدى السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا . وفى هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارفا بتروفنا من جور وظلم وعسف ، وتذكِّره بأنه زوج ، وبأنه أب لأسرة ، وتصوِّر له فى آخر الأمر مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسة اذ هو يعذِّب ويُشقى فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج الى مزيد من العذاب والشقاء . الخلاصة يا بنى العزيز روديا ، ان تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أننى أجهشت باكية منتحبة حين قرأتها ؛ وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها الا وتترقرق فى عينىَّ الدموع . وجاءت شهادات الخدم تبرئ دونيا مزيداً من التبرئة ! والخدم كما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد أكثر كثيراً

مما ظن السيد سفيدريجايلوف . ذُهلت مارفا بتروفنا أشدَّ الذهول ، بل «صعقت من جديد» كما اعترفت لنا هى نفسها بذلك . ولكن لم يبق فى نفسها أي شك فى أن دونيتشكا بريئة كل البراءة . لهذا بادرت منذ الغد ، وكان يومَ أحد ، فذهبت رأساً الى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وضرعت الى السيدة العذراء ان تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكِّنها من القيام بواجبها على خير وجه . ثم جاءت من الكنيسة قُدُماً الى منزلنا ، دون ان تعرِّج على أحد ، فقصت علينا كل شىء ، وسكبت دموعاً حارة ، وعانقت دونيا زاخرةَ النفس بالندم ، مبتهلة اليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها . ومن منزلنا ذهبت رأساً دون أن تضيع لحظة واحدة ، ذهبت الى جميع بيوت المدينة ، فكانت تسكب سيولاً من الدموع ، وتكيل الثناء لابنتى ، دونيا ، وتشهد ببراءتها ، وتطرى نبل عواطفها ، وتشيد بحسن سلوكها . وأرادت ان تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً ، فأظهرت جميع الناس على الرسالة التى كتبتها دونيا الى السيد سفيدريجايلوف بخط يدها ، حتى لقد قرأت عليهم تلك الرسالة بصوت عال ، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لى أن فيه شيئاً من الغلو) . وقد اضطرت ان تقضى عدة أيام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس فى المدينة ، لأن بعضهم شكوا من أهمالها زيارتهم ، وساءهم أن تؤثر عليهم غيرهم . على هذا النحو تتالت زياراتها متعاقبة متلاحقة ، حتى أصبح الناس ينتظرونها فى كل منزل ، وحتى أصبح يُعرف أن مارفا بتروفنا ستقرأ الرسالة يوم كذا فى مكان كذا ، فكان يحضر قراءة الرسالة فى كل مرة حتى أولئك الذين سبق

لهم ان سمعوها مراراً سواء فى بيوتهم هم أو فى بيوت اناس آخرين يعرفونهم . فى رأيى ان ذلك كان فيه مغالاة ، كان فيه كثير من المغالاة ، ولكن هذا طبع مارفا بتروفنا ! مهما يكن من أمر ، فان مارفا بتروفنا قد ردّت الى دونيتشكا اعتبارها كاملاً ، فاذا بعار هذه القضية يرتد الى زوجها بخزى لا يمحى ولا يندثر ، ويجعله المجرم الأول حتى أخذتنى به شفقة . لقد أسرفوا فى القسوة على ذلك المأفون المسكين . بعد ذلك أسرعت أسرٌ كثيرة تعرض على دونيا ان تعطى أولادها دروساً ، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض . وبوجه عام ان جميع الناس قد صاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة . وذلك كله قد سهل تسهيلاً كبيراً حدوث الحادث الذى لم يكن فى الحسبان ، والذى أستطيع أن أقول ان مصيرنا قد تبدل بفضله تبدلاً تاماً وتغير تغيراً كاملاً . اعلم يا بنى العزيز رودیا ان خطيباً قد تقدم لاختك دونيا ، وأنها قد أعلنت له موافقتها ، وذلك ما أسارع فأنقله اليك الآن . أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا ، لا أنا ولا أختك ، على أن الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك ، فلسوف ترى بنفسك انه كان يستحيل علينا أن ننتظر ، وان نرجئ اتخاذ القرار الى حين وصول ردك الينا . هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطيع ، من بُعد ، ان تحكم فى الأمر حكم العارف المطلع . واليك تفصيل ما حدث : الرجل مستشار قضائى ، اسمه بيوتر بتروفتش لوجين . وهو يمت بقربى بعيدة الى مارفا بتروفنا التى شاركت فى الأمر مشاركة كبيرة . لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارفا بتروفنا رغبته فى التعرف الينا ، فاستقبلناه كما ينبغى أن يُستقبل ، فشرب عندنا القهوة ، فما ان جاء الغد حتى بعث الينا برسالة

يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة ، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً . انه رجل من رجال الأعمال ، مشغول جداً ؛ ولما كان عليه ان يسافر الى بطرسبرج قريباً ، فان لكل دقيقة قيمتها عنده . طبيعى أننا ذُهلنا فى أول الأمر : لقد حدث ذلك كله بسرعة مسرفة وعلى نحو مباغت مفاجئ ، بطريقة لم تكن فى الحسبان ! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر فى الأمر ونزن الأشياء . هو رجل يحتل مركزاً مرموقا : يشغل وظيفتين فى آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له . الحق أنه يبلغ الخامسة والأربعين من العمر ، لكن مظهره لطيف ، وما يزال يستطيع ان يرضى النساء . وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً . كل ما هنالك انه متجهم المزاج قليلاً ، متعال بعض التعالى ، ولكن قد لا يكون ذلك الا شعوراً أول ساورنا حين رأيناه ؛ ولهذا أحذرك يا بنى العزيز رودیا من أن تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه فى بطرسبرج قريباً (على عادتك فى سرعة الحكم وعنف الاندفاع) اذا أنت رأيت فيه عند الوهلة الأولى شيئاً يصدم شعورك . أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة ، رغم يقينى من انه سيُحدث فى نفسك أجمل الأثر . أضف الى ذلك ان على المرء ، اذا هو أراد أن يصل الى معرفة انسان من الناس ، أيا كان هذا الانسان ، أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر ، والا فقد يقع فى الخطأ ، وقد ينجرف الى التحيز ، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك أن يصحح ذلك الخطأ وأن يزيل ذلك التحيز . ومهما يكن من أمر فان قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بيوتر بتروفتش رجل جدير بالاحترام . لقد أعلن لنا منذ أول زيارة أنه رجل

وضعى عملى ، ولكنه فى كثير من الأمور يشارك «أجيالنا الجديدة آراءها» على حد تعبيره ، وأنه عدوٌ لجميع أنواع التحيز المسبق ، ولقد قال أموراً أخرى كثيرة ، فهو رجل لا يخلو من شىء من الغرور ، وهو يحب كثيراً أن يصغى الناس الى كلامه وأن يسمعوا لحديثه . ولكن ذلك ليس آفة كبيرة . أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال ، ولكن دونيا شرحت لى أنه على نقص ثقافته انسان ذكى ، وانه طيب فيما يبدو . انك تعرف طبع أختك ، يا بنـــى العزيز روديا . هى فتاة ثابتة صلبة عاقلة صابرة كريمة ، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً ، وذلك أمر استطعت أن أدركه فيها . طبعاً ، لا مجال للحديث عن حب حقيقى ، لا من جانبها هى ولا من جانبه هو . ولكن دونيا ، عدا أنها فتاة ذكية ، هى فى الوقت نفسه نبيلة كملاك . ولا بد ان تلزم نفسها باسعاد زوجها الذى لن يسعه الا ان يسعدها هو أيضاً . فحول هذه النقطة الأخيرة ليس لدينا حتى الآن أى سبب جدى يدعو الى الشك ، رغم أن الأمر قد تم بشىء من السرعة ، كما ينبغى ان نعترف بذلك . يضاف الى هذا أن الرجل انسان حصيف الفكر سديد الرأى ، فلا شك فى أنه سيرى بنفسه أن سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان اذا سعدت دونيا بفضله مزيداً من السعادة . أما عما هنالك من بعض الاختلافات فى المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات فى الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى فى أكثر حالات الزواج توفيقاً) فان دونيا كما قالت لى ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الأمر . انها تؤكد أنه لا داعى الى القلق ، وانها تستطيع

احتمال أشياء كثيرة شريطة ان تبقى علاقاتهما على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والانصاف . يجب أن أقول لك ان الرجل بدا لى أنا أيضاً مسرفاً فى الصرامة بعض الاسراف . ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن انه امرؤ صريح ، بل ان الأمر لكذلك حتماً . مثال : انه أثناء زيارته الثانية ، بعد حصوله على الموافقة ، قد أعلن أثناء الحديث انه حتى قبل أن يعرف دونيا كان قد قرر أن لا يتزوج الا فتاة شريفة لا تملك مهراً ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس ، لأن الزوج يجب أن لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً ، وانما يجب أن تشعر المرأة ان زوجها هو المحسن اليها وصاحب الفضل عليها . يجب ان أذكر أنه قد عبَّر عن رأيه هذا تعبيراً أكثر رقةً ولطافةً ، وأقرب الى المودة والمحبة من الكلمات التى كتبتها أنا الآن ، لأننى نسيت الالفاظ التى أستخدمها ، وأصبحت لا أتذكر الا الفكرة التى أفصح عنها . ثم انه لم يكن قد هيَّأ أقواله وحضر عباراته ، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه افلاتا وقد استحوذ عليه الحديث . لذلك حاول بعدئذ أن يتدارك الأمر ، وأن يلطف الأثر الذى أحدثته كلماته . ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا فى هذا ، فأجابتنى دونيا ، وفى نفسها شىء من الغضب والحزن ، بأن «الأقوال لا تطابق الأفعال دائماً» ، وواضح ان كلام دونيا صادق . يجدر أن أذكر ان دونيا ، قبل اتخاذ قرارها ، لم يغمض لها جفن طوال الليل ، وانها حين ظنت اننى غفوت قد نهضت عن فراشها وأخذت تمشى فى الغرفة طولاً وعرضاً الى أن طلع الصبح ، ثم ركعت على ركبتيها ، ولبثت جاثيةً

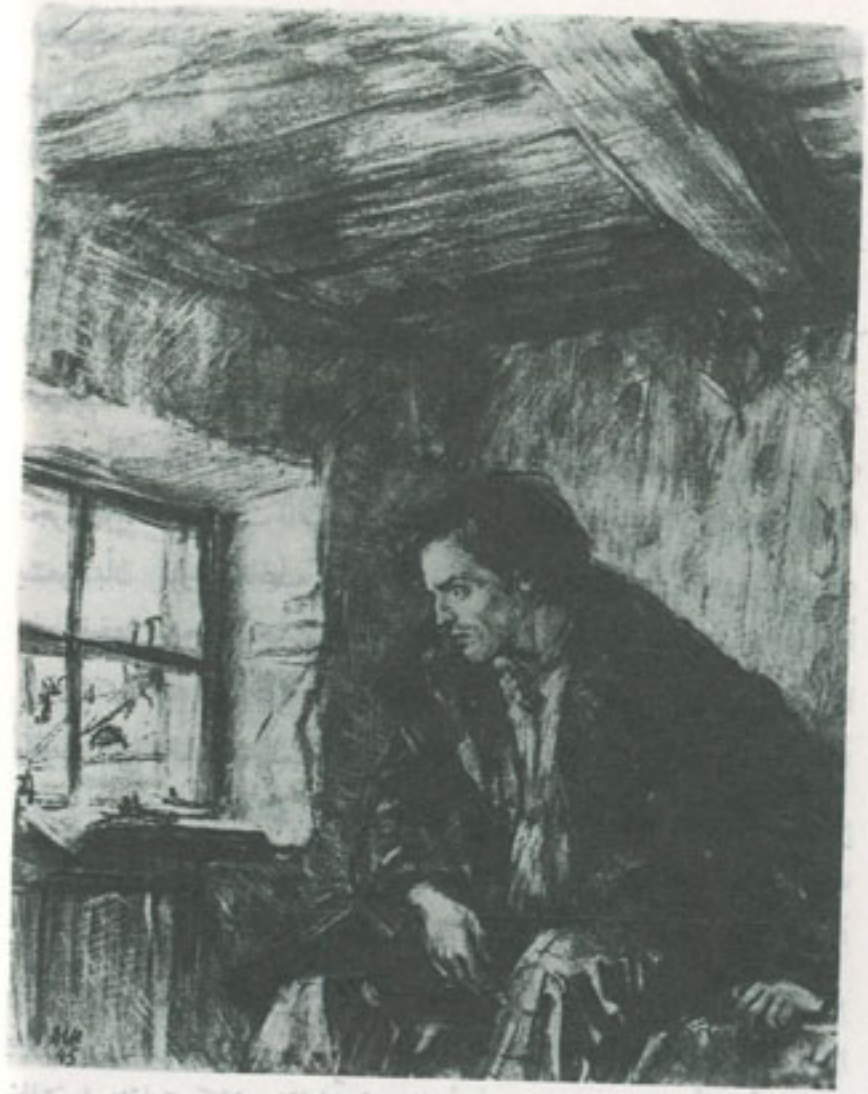

أمام الأيقونة تصلى مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشوع ، حتى اذا طلع النهار أعلنت أنها قد اتخذت قرارها .

سبق ان قلت ان بيوتر بتروفتش سيسافر الآن الى بطرسبورج . ان له هنالك أعمالاً كبيرة : انه يريد ان يفتتح مكتباً للمحاماة . هو يعنى بهذا النوع من الأعمال منذ زمن

طويل . وقد انتصر فى دعوى هامة فى الآونة الاخيرة . وينبغى له أن يسافر الى بطرسبورج حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافع هنالك أمام السينات ، فى قضية خطيرة . وهكذا ترى يا بنى العزيز روديا ، أنه سيكون فى وسعه أن يفيدك كثيراً . لقد رأينا أنا ودونيا انك ستستطيع منذ اليوم أن تبدأ مهنتك ، وأن تعد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً . آه ! ما أجمل أن يتحقق ذلك ! سيكون علينا عندئذ أن نعد هذا أثراً من آثار نعمة الله علينا . ان دونيا أصبحت لا تفكر الا فى هذا . ولقد جازفنا أنا ودونيا ، فأسمعنا بيوتر بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع ، فتكلم عندئذ بشىء من التروى والتعقل فأعلن انه ، بطبيعة الحال ، ما دام لا يستطيع أن يستغنى عن سكرتير ، سيفضل أن يدفع آجوراً لعضوٍ من أعضاء الأسرة على أن يدفع هذه الآجور لشخص غريب ، شريطة أن يبرهن القريب على أنه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك أنت عاجز عن ذلك !) . ولكنه لم يلبث أن ساوره شك أفصح عنه فقال انه يخشى أن لا تدع لك دراستك فى الجامعة متسعاً من الوقت للعمل معه . وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير هذا الأمر ، وهى منذ بضعة أيام فريسة حمى حقيقية ، حتى لقد بنت لمستقبلك فى خيالها مشروعاً ضخماً : انها تقدر انك ستستطيع فى المستقبل أن تصبح مساعداً بل وشريكاً لبيوتر بتروفتش فى أعمال المرافعات التى يقوم بها ، لا سيما وانك تدرس القانون . أما أنا ، يا روديا ، فانى متفقة معها كل الاتفاق ، أشاركها آراءها وأشاطرها آمالها ، وأرى ان ذلك ليس بالمستحيل قط . ورغم ما

يظهر الآن على بيوتر بتروفتش من تحفظ ، وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن) ، فان دونيا مقتنعة اقتناعاً جازماً بأنها ستصل الى تحقيق أهدافها بفضل التأثير الطيب الذى تعرف كيف تستطيع أن تحدثه فى نفس زوجها المقبل . انها من ذلك على اقتناع كامل . لقد تحاشينا طبعاً أن نكشف أمام بيوتر بتروفتش ، ولو بكلمة واحدة ، عن أحلامنا البعيدة ، ولا سيما عن حلم أن نراك شريكاً له فى المستقبل . انه رجل وضعى عملى ، فقد يسىء النظرة الى هذا الأمر ، لأنه لن يرى فيه الا أحلاماً . كذلك لم نشر ، لا أنا ولا دونيا ، أية اشارة الى أن نراه يساعدنا فى أن نرسل اليك ما أنت فى حاجة اليه من مال اثناء دراستك بالجامعة . اننا لم نتكلم فى هذا الأمر ، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه فى المستقبل ، ولأن بيوتر بتروفتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون أقوال زائدة (لن ينقصنا الا أن يأبى هذا على دونيا !) لا سيما وأنك تستطيع أن تصبح ساعده الأيمن فى المكتب ، وأن الأمر لن يكون اذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك . على هذا النحو انما تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور . وأنا متفقة معها فى هذا كل الاتفاق . وثانياً : نحن لم نتكلم فى ذلك لأننى حرصت خاصةً على أن أضعك فى موقف المساواة معه منذ لقائكما القادم . فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء اذا هو أراد أن يحكم على رجل من الرجال أن يراه من قرب ، وقال انه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأى عنك بعد أن يتعرف اليك . هل تعرف يا روديا ، يا كنزى ، ما هو شعورى الآن ؟ يخيَّل الىَّ ، استناداً الى

بعض الخواطر التى تساورنى (وهى لا تتعلق ببيوتر بتروفتش ، ولا تزيد على أن تكون أهواء امرأة عجوز) ، يخيل الىَّ أننى سوف أحسن صنعاً اذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما بل أعيش منفصلة عنهما مثلما أعيش الآن . اننى واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف ما يكفى لأن يدعونى من تلقاء نفسه ، ولأن يقترح علىَّ أن لا أنفصل عن ابنتى . واذا كان قد سكت عن هذا الأمر حتى الآن ، فلأنه أمر بديهى لا حاجة الى الكلام فيه . ولكننى سأرفض . لقد أمكننى أن ألاحظ أكثر من مرة خلال حياتى أن الاصهار لا يحبون حمواتهم كثيراً . وأنا لا أكره أن أحدث أى ازعاج لأى انسان فحسب ، وانما أريد كذلك أن أحتفظ بحريتى كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز ، وما بقى لى أولاد مثلك ومثل دونيتشكا . سأسكن غير بعيد عنكما اذا أمكن ذلك . هأنا ذا احتفظت لنهاية رسالتى بأجمل شىء يمكن أن أزفه اليك يا روديا . اعلم يا بنى الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانيةً فى القريب ، وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذى دام قرابة ثلاثة أعوام . نعم لقد أصبح يقيناً منذ الآن أننا سنسافر أنا ودونيا الى بطرسبورج . أما متى نسافر فلست أدرى ، ولكننا سنسافر قريباً جداً ، ربما بعد أسبوع . ان كل شىء رهن بالاستعدادات التى سيتخذها بيوتر بتروفتش ، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبورج . انه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به فى غضون فترة أكل اللحوم ، اذا أمكن ، أو بعد عيد رفع العذراء فوراً اذا كان مضطراً الى تأجيل الزفاف بسبب قصر الوقت . آه ! ما أعظم الفرح الذى سأشعر به

حين سأشدك الى قلبى ! ان دونيا تضطرب أشد الاضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك . حتى لقد قالت مرة من باب المزاح انها مستعدة لأن تتزوج بيوتر بتروفتش لا لشىء الا هذا ! انها ملاك ، ملاك حقاً ! لن تضيف دونيا الى رسالتى هذه شيئاً ، ولكنها ترجونى أن أقول لك ان هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها ، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تعزم أمرها على تناول القلم ، لأن المرء لا يمكنه أن يقول ببضعة أسطر شيئاً ، فلو حاول أن يكتب لما زاد على أن يثير أعصابه . وهى تكلفنى كذلك بـأن أعانقك عناقاً شديداً ، وأن أبعث اليك بقبلات لا حصر لها ولا عد . ولكن رغم أننا سنلتقى قريباً فإن ذلك لن يمنعنى من أن أرسل اليك بعض المال فى الأيام القريبة . سوف أرسل اليك ما أستطيع ارساله . فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بيوتر بتروفتش قريباً أصبح فى وسعى فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التى كنت أستطيع أن أستدينها من قبل ، ولقد علمت علم اليقين أن آفاناسى ايفانوفيتش سوف يثق بـى فيقرضنى سلفة على معاشى تبلغ خمسة وسبعين روبلاً ، فقد أستطيع أن أرسل اليك اذن خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين . كان يمكن أن أبعث اليك بمبلغ أكبر لولا أننى أخشى نفقات الطريق بعض الخشية . فرغم أن بيوتر بتروفتش رجل طيب وأنه سيتحمل جزءاً من النفقات التى سيقتضيها سفرنا الى العاصمة ، أى رغم أنه عرض علينا أن يتولى الأنفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فان علينا أن نحسب حساب وصولنا الى بطرسبورج ، فليس يستطيع المرء أن يجىء الى

هذه المدينة بلا قرش فى جيبه ، ولا سيما فى الأيام الأولى . على كل حال ، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة ، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة . ان المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً ، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراءً . ومن هناك ، سنسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار . هكذا ترى أننى قد أستطيع أن أرسل اليك لا خمسةً وعشرين روبلاً بل ثلاثين . . . ولكن حسبى هذا الآن ! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وقفاً ، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام . ثم انك قد عرفت الآن قصتنا كلها . . . الله يعلم كم جرى لنا من أحداث ! والآن يا روديا ، يا كنزى الحبيب . . . أقبلك بانتظار لقائنا القريب ، وأبعث اليك ببركات الام ! أحبب أختك دونيا ، يا روديا . . . أحبيها كما تحبك . . . واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا نهاية له ، انها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها ! هى ملاك يا روديا ! . . وأنت كل شىء عندنا يا روديا . . . أنت أملنا كله ، وأنت مستقبلنا كله ! حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً ! هل تصلى للّه دائماً كما كنت تصلى له يا روديا ؟ أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا ؟ اننى أخشى فى قرارة قلبى أن تكون الزندقة الرائجة فى هذا الزمان قد سرت عدواها اليك ! فاذا كان الأمر كذلك ، فاننى اصلى من أجلك ، واستغفر اللّه لك . تذكر يا بنى الحبيب كيف كنت فى طفولتك اثناء حياة أبيك ، تذكّر كيف كنت تتمتم صلواتك جالساً على ركبتى ، وتذكّر كم كنا سعداء فى تلك الأيام ! . . استودعك

اللّه يا رودْيا ، بل الى اللقاء ! اننى أشدك الىّ شداً قوياً ، أعانقك ، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها . . .

لك حتى الممات

بولخيريا راسكولنيكوفا»

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة الى أن أتمها ، لم تنقطع الدموع عن الجريان على خديه . ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذى اصفرّ على حين فجأة ، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة خبيثة شنّجت شفتيه . وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة ، وراح يفكر . . . راح يفكر ملياً . . . كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أفكاره مضطربة أشد الاضطراب . وأحس أخيراً باختناق فى هذه الحجرة الصفراء التى تشبه أن تكون خزانةً أو صندوقاً . ان نظراته وأفكاره تحتاج الى فضاء واسع . فتناول قبعته وخرج . . . خرج دون أن يخشى فى هذه المرة أن يلتقى بأحد على السلم . . . أصبح لا يفكر فى هذا الأمر . ومضى فى اتجاه جزيرة فاسيلفسكى سالكاً شارع ف . . . ، كأن أمراً ملحاً مستعجلاً كان يناديه الى هناك . ولكنه كان ، على عادته ، يسير دون أن يلاحظ أى شىء أثناء الطريق ، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ، بل كان يتكلم أيضاً بصوت عال ، فيثير بذلك دهشة المارة ، حتى لقد حسبه كثير من الناس سكران .

الفصل الرابع

أرهقته رسالة أمه ارهاقاً شديداً . ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظةً واحدة حتى عند القراءة الأولى . كان قد اتخذ فى جوهر القضية قراراً لا رجعة عنه «لن يتم هذا الزواج ما حييت . فليذهب السيد لوجين الى الشيطان !»

كان يجمجم قائلاً بينه وبين نفسه وهو يبتسم ابتسامةً ساخرة ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره : «الأمر واضح لا لبس فيه . لا يا أماه ، لا يا دونيا ، لن تستطيعا أن تخدعانى . . . وهى تعتذر أيضا عن أنها لم تستشرنى وعن أنها رتبت الأمر دون علمى ودون ارادتى ! ذلك طبيعى ! هما تتخيلان اذن أنه لم يبق سبيل الى فسخ الخطوبة . طيب ! سوف نرى أهناك سبيل الى ذلك أم لا ! ويا لها من حجة مهمة تتذرعان بها : «انه رجل مشغول جداً ، بيوتر بتروفتش هذا . . . يبلغ وقته من الازدحام بالاعمال أنه لا يستطيع أن يتزوج الا على جناح السرعة ، حتى لكأنه يتمنى أن يتم الزواج فى عربة سريعة العدو ان لم يكن فى القطار !» لا ، لا ، يا دونيتشكا . . . وانى لأعلم ما هى الأشياء الكثيرة التى تريدين أن تحدثينى عنها . . . وانى لأعلم أيضاً ما الذى فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهاباً ، وما الذى طلبته فى صلواتك امام «عذراء قازان» التى توجد أيقونتها فى غرفة نوم أمنا . ما أشد وعورة طريق الجلجثة . . . هِمْ . . . هكذا اذن . . . كل شىء قد تقرر نهائياً . . . تريدين يا أفدوتيا رومانوفنا أن تتزوجى رجلاً

من رجال الأعمال ، رجلاً وضعياً عملياً ، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك **منذ الآن** رأس مال له ، فذلك أقرب الى فرض المهابة والاحترام) يشغل وظيفتين فى آن واحد ويشارك أجيالنا الجديدة آراءها (كما كتبت الأم) رجلاً هو «**فيما يبدو** طيب» (كما تلاحظ دونيا نفسها) . ما أبلغ هذا التعبير : **فيما يبدو** ! ان دونيتشكا هذه نفسها هى التى ستتزوج ذلك الرجل ، الطيب **فيما يبدو** ! رائع ! رائع ! . .

. . . على أننى يهمنى أن أعرف لماذا حدثتنى أمى فى رسالتها عن «الأجيال الجديدة» ؟ تُرى أهى فعلت ذلك من أجل ان تصف لى طبع الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هى أن تهيئنى لأن أحكم على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً ؟ آه . . . يا للماكرتين ! وانه ليهمنى أيضاً ان اعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة التالية : الى أى حد كانت كل منهما صريحةً مع الأخرى فى ذلك اليوم وفى تلك الليلة وفى سائر الوقت ؟ هل نُطقت جميع **الكلمات** حقاً ، أم أن كلاً منهما قد فهمت ما يدور فى قلب الأخرى وما يجرى فى فكرها ، فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعى اليها ؟ لعل الأمر كان كذلك ، فى جلّه على الأقل . . . هذا ما يدركه المرء حق الادراك من الرسالة نفسها : فالرجل قد بدا لأمى **مسرفاً فى الصرامة بعض الاسراف** ، ولا بدَّ أن تكون أمى بسذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها الماعاً وتلميحاً ، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعاً فكان فى جوابها شىء من «الغضب والحزن» . ذلك طبيعى ! من ذا الذى يمكن أن لا يغضب حين يكون الأمر واضحاً يفقأ العينين ، وحين

لا يكون ثمة حاجة الى أية ملاحظة تقال ، وحين يكون كل شىء قد تقرر فلا داعى الى كلام ؟ ولماذا تكتب لى أمى قائلة : «أحبب دونيا يا روديا . انها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها ؟» أليس مرد هذا الى عذاب الضمير الذى يبرّحها خفيةً ، لأنها ضحَّت فى سبيل ابنها بابنتها ؟ «انت أملنا كله . انت كل شىء عندنا» آه يا أماه ! ان غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع فى نفسه ويتراكم ، فلو لقى السيد لوجين فى تلك اللحظة ، اذن لقتله فى اغلب الظن !

واصل يقول متابعاً اعصار أفكاره الذى كان يعصف فى رأسه : «هِـمْ . . . هذا حق . . . هذا حق . . . من أراد أن يعرف أحداً فعليه «أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر» . ولكن السيد لوجين واضح شفاف . هو قبل كل شىء «رجل من رجال الأعمال» وهو «طيب **فيما يبدو**» . ألا نرى أنه يتولى شحن أمتعتهما وصندوقهما الكبير على نفقته ؟ فكيف لا يكون اذن طيباً ؟ **والخطيبة** والأم كلتاهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات غطاء من قماش خشن (أنا أعرف ما هذا ، فقد بلوته ، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة) . أى ضير ؟ ان المسافة لا تزيد على ٩٠ فرسخاً ، «ومن هناك نسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار» . ألف فرسخ فى الدرجة الثالثة ! معقول جداً : ان كل انسان ينفق ما تسمح له موارده بانفاقه ! ولكن ما رأيك أنت يا سيد لوجين ؟ ما رأيك أنت ؟ الفتاة خطيبتك . . . ولا بد أنك تعلم أن الأم ستقترض سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة ! عقلك عقل تجارى

محض طبعاً . . . انت تنظر الى الأمر نظرتك الى مشروع تجارى يشترك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبين متساويين ، فلا بد أن يسهم كل منهما فى نفقاته بنصيبه كاملاً . لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائر «الخبز والملح لى ولك ، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به» . ولكن رجل الاعمال قد غشهما وغبنهما فى هذه النقطة أيضاً : نفقات شحن الأمتعة اقل من نفقات السفر ، وقد يستطيع رجل الاعمال هذا ان يشحن الأمتعة بالمجان . أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن تراه ؟ والعجيب أنهما راضيتان ، راضيتان ! وما هذه الا الأزهار أما الثمار فستأتى بعد ذلك ! وأخطر ما فى الأمر ليس هو البخل ، ليس هو الشح ، وانما هو هذا **الطابع** العام الذى يطبع الأمر كله مؤذنا بما ستصير اليه الاحوال بعد الزواج . . . وأمى : ما بالها تريد ارتكاب حماقات ؟ بماذا ستصل الى بطرسبرج ؟ بثلاثة روبلات فى جيبها ، أو «بورقتين صغيرتين» كما قالت تلك العجوز المرابية . هِـمْ . . . وعلى أى شىء تعوِّل من أجل أن تعيش بعد ذلك فى بطرسبرج ؟ بناء على بعض القرائن لقد استطاعت مع ذلك أن تدرك أنه **سيستحيل عليها** أن تعيش مع دونيا حتى اثناء الآونة الأولى من الزواج . لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى ، لا شك ان هذا **قد أفلت** من لسانه ، رغم أن أمى تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلةً : «أنا سأرفض» . فعلى أى شىء تعوِّل اذن ؟ أهى تعوِّل على معاشها الذى يبلغ مائة وعشرين روبلاً سيقتطع منها الدين المقترض من آفاناسى ايفانوفتش ؟ انها تقضى الوقت كله فى حياكة مناديل شتوية وتطريز أكمام ، فترهق بذلك عينيها

المتعبتين . ولكن حياكة المناديل وتطريز الأكمام لا يضيفان الى المائة وعشرين روبلاً فى السنة الا عشرين أخرى . أنا أعلم ذلك ! هى اذن تعتمد رغم كل شىء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين : «سيعرض علىَّ من تلقاء نفسه أن يساعدنى ، وسيلح . . .» . لقد اخطأ ظنها فلن تنال ما تتمناه ! هكذا حال نفوس شيللر الطيبة دائماً : تظل حتى آخر لحظة تزيِّن الناس بريش الطاووس ، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر ، ورغم تصورها وجود الشر فانها لا يمكن أن تعترف بذلك لنفسها بحال من الأحوال : ان تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً . فهى بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن يأتى الانسان الذى زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمى أنفها بيده نفسها . ليتنى أعرف هل يملك السيد لوجين أوسمة . اننى أراهن على أنه يملك وسام القديسة آنا ، وأنه يزين به سترته حين يذهب الى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو التجار . ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه ! على كل حال . . . شيطان يأخذه ! . .

ووالله . . . انى لأسامح أمى ، فهى كما هى ، كان الله فى عونها ! . . ولكن ماذا أقول عن دونيا ؟ اننى اعرفك يا عزيزتى دونيتشكا ! كنت قد بلغتِ العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة . وقد ادركتُ طبعك وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة . أمى تقول «ان دونيتشكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة» . . . نعم . . . هذا أمر اعرفه ، اعرفه منذ سنتين ونصف سنة . . . وأنا منذ سنتين ونصف سنة ، لا أفكر الا فى هذا ، لا أفكر الا فى هذا نفسه . . . وهو أن «دونيتشكا

تستطيع احتمال أشياء كثيرة» . لئن استطاعت أن تحتمل السيد سفيدريجايلوف ، وأن تحتمل كل العواقب التى ترتبت على سلوكه ، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلاً أن تحتمل أشياء كثيرة ! . . وها هما الآن ، هى وأمى ، قد تخيلتا أن فى الأمكان احتمال رجل مثل السيد لوجين ، لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة لتشعر بفضلها عليه ، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء ! طيب . . . لنسلِّم بأن ذلك قد «أفلت» من لسانه على غير ارادة منه ، رغم أنه رجل وضعى عملى (فمن الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه افلاتاً وانما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً) . ولكن ماذا أقول فى دونيا ؟ ماذا أقول فى دونيا ؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفته على حقيقته ، ثم هى تقبل أن تعيش معه ! انها تؤثر أن لا تأكل الا خبزاً وأن لا تشرب الا ماء ، على أن تبيع روحها ! . . انها لا يمكن فى سبيل الحصول على الرخاء ان تفقد حريتها الاخلاقية ! انها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية فى سبيل دوقيتى شفلفسيج وهولشتاين ٥ ، فكيف تتنازل عنها فى سبيل السيد لوجين ؟ . . لا ! ان دونيا التى أعرفها لم تكن هكذا . . . من المؤكد ان طبعها لم يتغير حتى الآن . . . فماذا أقول ؟ صحيحٌ أنه أمر شاق عليها أن تحتمل أمثال آل سفيدريجايلوف ، وأن تظل طوال حياتها تمضى من اقليم الى اقليم لتعمل مربية فى سبيل أن تجنى مائتى روبل . ولكنى أعلم أن اختى تؤثر أن تساء معاملتها كما يسىء مزارع معاملة زنجى أو كما يسىء ألمانى من مقاطعات البلطيق معاملة رجل لاتفى ٥ ، على أن تدنس

روحها وأن تفسد حسها الأخلاقى بالارتباط الى الأبد ومن أجل مصلحتها الشخصية فحسب برجل لا تحبه ولا يجمعها به شىء ! ولا بد أن ترفض أن تصبح خليلة شرعية للسيد لوجين ولو كان السيد لوجين ذهباً كله أو ماساً كله ! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن ؟ ما سبب هذا ؟ ما هو مفتاح السر ؟ الأمر واضح ! لو كانت تنشد مصلحتها هى ورخاءها هى ، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت . أما فى سبيل شخص آخر فانها مستعدة لأن تبيع نفسها ! نعم انها فى سبيل شخص محبوب ، فى سبيل شخص معبود ، مستعدة لأن تبيع نفسها ! ذلك هو مفتاح اللغز : انها فى سبيل أخيها وفى سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفسها ، على أن تبيع كل شىء ! آه . . . نعم اننا نستطيع عند اللزوم ان نخنق حتى احساسنا الاخلاقى ! اننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل الى السوق كل شىء فنبيعه فيها : الحريـــة ، الطمأنينة ، وحتى راحة الضمير ! ألا فلتتحطم حياتنا اذا كان فى ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم ! وأكثر من ذلك أننا نلفق لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائرنا الى حين ، مسوِّغين أعمالنا قائلين لأنفسنا : ان ما فعلناه هو ما كان ينبغى لنا ان نفعله ما دمنا نعمل فى سبيل هدف نبيل وغاية شريفة ! نحن جميعاً هكذا . كل شىء واضح الآن وضوح النهار . لا شك أن روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، ولا أحد سواه ، قد احتل المقام الأول من الاعتبار فى هذه القصة . كيف لا ؟ ان من الواجب ان نعمل لتوفير السعادة له ، وأن نعيله ما ظل فى الجامعة ، وأن نجعله فى المستقبل شريكاً لرجل من رجال الأعمال ،

أى أن نضمن له مستقبله ، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً ، حتى لقد يصل فى أواخر أيامه الى المجد . والأم ؟ ما قولنا فى الأم ؟ ولكن الأمر هنا أمر ولدها الأول ، أمر ابنها روديا ، أمر ابنها الغالى روديا ! فكيف لا تضحى فى سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت ؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة ! أتجهلين اذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها ؟ نعم صونيا ، صونيتشكا مارميلادوفا ، صونيتشكا الخالدة ، الخالدة خلود العالم ! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية ؟ هل هذه التضحية هى حقاً ما تفكران فيه ؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية ؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً ؟ وهل هى معقولة ؟ هل تعلمين يا دونيتشكا ان مصير صونيا ليس أفظع من مصير امرأة قُضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين ؟ ان أمى تقول : «لا مجال للكلام عن حب حقيقى» ولكن ما عسى يحدث ، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها ، اذا لم يكن هنالك أيضاً شىء من الاعتبار والاحترام ، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار واشمئزاز ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى . . . **«مراعاة النظافة»** . أليس الأمر كذلك ؟ هل تفهمان ، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه النظافة ؟ هل تدركان ان هذه النظافة لا تختلف عن نظافة صونيتشكا ، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل ، لأنك يا دونيتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء ، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة فى تحاشى الموت جوعاً . «انها تكلف ثمناً باهظاً ، باهظاً جداً يا دونيتشكا ، تلك النظافة» ! وماذا اذا أصبح الحملَ فى

المستقبل أثقل من أن تطيقيه ، فاستبدت بك الندامة ؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب ، وما أكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن ، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفينها عن أعين الناس ، لأنك لست امرأة مثل مارفا بتروفنا على كل حال ؟ وما عسى تصير اليه أمنا حينذاك ؟ انها منذ الآن قلقة معذبة ، فكيف تكون حالها فى المستقبل حين ترى كل شىء رؤية واضحة ؟ وأنا ؟ . . ما الذى تظنينه فىَّ اذن ؟ اننى لا أريد هذه التضحية يا دونيتشكا ! اننى لا أريدها يا أماه ! لا ، لن يتم هذا الأمر ما حييت ، لن يتم ، لن يتم ! اننى أرفضه !»

هنا ثاب راسكولنيكوف الى رشده فجأة ، فتوقف عن السير ، ثم واصل يخاطب نفسه :

«لن يتم هذا الزواج ؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه ؟ أتمنعهما ؟ ولكن بأى حق تمنعهما ؟ ما الذى تستطيع أن تعدهما به فى مقابل ممارسة مثل هذا الحق ؟ ان تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله **متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً** ؟ أغنية معروفة ! . . ذلك كله هو **المستقبل** ، فماذا فى الحاضر ؟ يجب عليك اذن أن تعمل شيئاً منذ الآن ، هل تفهم ؟ فماذا تفعل أنت الآن ؟ انك تعيش عالة عليهما . والمال الذى تنفقانه عليك انما تقترضانه سلفةً على معاش التقاعد وعلى أجورٍ من أمثال السيد سفيدريجايلوف ! وكيف عساك تحميهما من امثال سفيدريجايلوف وأمثال آفاناسى ايفانوفيتش فاخروشين ؟ أنت يا مليونير المستقبل ، أنت يا اله الأولمب الذى تتحكم بمصيرهما ، أبعد عشر سنين تفعل لهما شيئاً ؟ ولكن أمك ستكون بعد عشر سنين قد فقدت

بصرها من فرط انكبابها على حياكة المناديل ، وربما من فرط ذرفها للدموع ، وسيكون تكرر الصيام عن الطعام والحرمان من الغذاء قد انتصر عليها فهدم جسمها ! . . أما أختك . . . فهيا تخيل قليلاً ما ستصير اليه بعد عشر سنين ، هيًا تخيل قليلاً ما ستئول اليه حالها بعد عشر سنين ! هل حزرت ؟»

هكذا ، بهذه الأسئلة ، انما كان راسكولنيكوف يعذب نفسه ، فكان الاهتياج الذى يحسُّه من ذلك يستحيل الى نوع من تلذذ . على ان هذه الأسئلة ليس فيها شيء غير متوقع . انها غير جديدة عليه ، بل هى قديمة جداً ، وهى تعذبه منذ زمن طويل . نعم ، لقد كانت هذه الأسئلة تعذبه وترهقه وتمزق قلبه منذ زمن طويل . لقد كان هذا القلق يشب فى نفسه وينمو ويتراكم منذ زمن طويل . ونضج هذا القلق فى الآونة الأخيرة ، وتركز وتكثف ، فاذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب ، سؤال وحشى عجيب ، يضنى قلبه وفكره ، ويطلب جواباً لا سبيل الى تحاشيه . وها هى ذى رسالة أمه تنقضّ عليه فجأة كما تنقضّ الصاعقة . أصبح واضحاً أن الواجب الذى يقع على عاتقه الآن ليس هو أن يقلق وأن يتألم قاعداً لا يعمل معتقداً ان المسألة لا حل لها ، وانما ينبغى له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنة ، بل وينبغى له أن يفعل شيئاً على الفور . ان من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر ، أيا كان هذا القرار ، أو أن . . .

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره :

«. . . أو أن أستغنى عن الحياة ، فأقبل مصيرى صاغراً الى الأبد ، وأخنق فى نفسى كل شيء ، وأتنازل عن حقى فى أن أعمل ، وأن أحيا ، وأن أحب !»

وتذكر السؤال الذى ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف :

«هل تدرك يا سيدى الكريم ما معنى أن لا يكون للانسان مكان يذهب اليه ؟ ذلك أنه لا بد لكل انسان من ان يجد ولو مكاناً يذهب اليه . . .»

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة . ان فكرة آتية من البارحة هى أيضاً قد ومضت فى ذهنه مرة أخرى . ولكن لئن ارتعش ، فانه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنه . لقد كان يعلم ، **كان يوجس** أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده ، فكان يتوقعها وينتظرها . غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت فى البارحة ، والفرق بينها وبين فكرة البارحة أنها لم تكن منذ شهر ، ولا فى البارحة ، الا حلماً ، أما الآن . . . أما الآن فهى لا تعرض لفكره فى صورة حلم ، بل هى تعرض له فى صورة جديدة ، فى صورة رهيبة مخيفة ، لا عهد له بها من قبل . . . لقد أدرك ذلك على حين بغتة . . . فأخذ الدم يدق فى صدغيه ، واسودَّ كل شيء أمام عينيه .

ألقى على ما حوله نظرة سريعة . كان يبحث عن شيء ما . كان يريد أن يجلس ، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها . انه الآن فى بولفار ك . . . وعلى مسافة مائة خطوة فى الامام توجد دكة . اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها ، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق ، فشدَّ انتباهه كله خلال بضع دقائق .

لقد لمح ، وهو يبحث بنظره عن الدكة ، لمح امرأة كانت تسير أمامه ، على بعد عشرين خطوة تقريباً . غير أنه فى أول الأمر لم يولها أى انتباه ، كما لم ينتبه الى كل ما كان قد صادفه حتى الآن . لقد اتفق له ، مراراً

كثيرة ، أن رجع الى منزله دون أن يتذكر الطريق الذى سلكه . تلك عادة أصبحت راسخةً فيه . ولكن المرأة التى تسير أمامه الآن فيها شىء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر ، أن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شىء ، رغم ارادته وعلى ما يشبه المضض فى أول الأمر ، ثم بقوة ما تنفك تزداد بعد ذلك . واستبدت به رغبة مفاجئة فى أن يعرف ما هو الشىء الذى يبلغ فى هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة . وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة فى ريعان الشباب . كانت الفتاة ، رغم الحر الشديد ، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة ولا قفازين ، مرجحة يديها بحركات غريبة مضحكة . وكانت ترتدى ثوباً صغيراً من حرير خفيف ، لُبس بشكل غريب ايضاً ، غير مزرر تقريباً ، وقد انشق من الخلف عند الخصر ، وتمزق جزء كبير منه فتهدل . وكانت تضع حول عنقها العارى منديلاً صغيراً قد لُفَّ مقلوباً . وكانت الفتاة ، فوق ذلك ، تمشى مشية مضطربة ، فهى تتعثر وتترنح ذات اليمين وذات الشمال . ان هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر . وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة ، ولكن الفتاة ما ان وصلت الى الدكة حتى تهالكت تجلس على أحد طرفيها ، وتقلب رأسها الى وراء فتسنده الى ظهرها ، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب . فلما تأملها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ . وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تساءل هل تصدقه عيناه . كان أمامه وجه بائس فى ميعة الصبا ، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر

عاماً ، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر ، جميل ولكنه محتقن حتى لكأنه منتفخ متورم . وكان يبدو أن الفتاة لا تعى شيئاً . لقد وضعت ساقاً فوق ساق ، فانكشف من ساقيها ما لا يليق أن ينكشف ،

وأغلب الظن أنها كانت لا تكاد تدرك أنها فى الشارع .

لم يجلس راسكولنيكوف ، ولكنه لم يشأ أيضاً أن ينصرف ، فبقى واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب . كان البوليفار دائماً خالياً ، أما الآن بعد الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم ، أثناء ذلك الحر الشديد ، فلم يكد يمر فيه أحد . ومع ذلك فعلى بُعد خمس عشرة خطوة ، كان قد وقف سيد عند حافة البوليفار يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة . لا شك أنه كان هو أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها . ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن ويزعجه . ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض ، محاولاً مع ذلك أن لا يلمحها راسكولنيكوف ، وأخذ ينتظر ، بفارغ صبر ، انصراف هذا المتشرد الذى جاء فى غير أوانه ليحتل مكانه .

كان الأمر اذن واضحاً . والسيد رجل فى نحو الثلاثين من عمره ، بدين الجسم ، سمين ، نضر الوجه ، يعلو شفتيه الحمراوين شاربان صغيران ، ويرتدى ثياباً أنيقة كل الأناقة . غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً ، واستبدت به على حين فجأة رغبة جامحة فى أن يهين هذا السيد السمين المتأنق بطريقة أو بأخرى ، فترك الفتاة لحظةً ، واقترب من السيد ، وصاح يقول وهو يشد قبضتى يديه ضاحكاً مُزْبداً ، ناقماً عليه :

— هيه ! أنت ! سفيدريجابلوف ! ماذا تريد هنا ؟

فسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشة فى وجهه :

— ما معنى هذا الذى تقول ؟

— معناه اغرب عن وجهى ! هذا معناه ! . .

— كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الحقير ؟

قال الرجل ذلك وشهر سوطه يلوِّح به . فما كان من راسكولنيكوف الا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه ان هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين من قدِّه . ولكن أحداً قد أمسكه من خلف فى تلك اللحظة نفسها امساكاً قوياً : انه رجل من رجال الشرطة يتدخل فى المشاجرة .

— هيه ! ما بالكما أيها السيدان ؟ هلاَّ امتنعتما عن الاقتتال فى الطريق العام ؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسماله البالية :

— ماذا تريد ؟ من أنت ؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه . ان للرجل وجه جندى

شجاع طيب ، مع شاربين وسالفين قد وخط شعرهما الشيب ، وان له نظرة تفيض تعبيراً عن الحس السليم والعقل الراجح .

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطى :

— أنت أنت من احتاج اليه ! اسمى راسكولنيكوف . . . انا طالب سابق . . .

والتفت يخاطب السيد بقوله :

— هذا ما يمكن ان تعرفه أنت ! . .

وعاد يخاطب الشرطى فقال :

— تعال معى ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطى من يده الى الدكة ، وأخذ يتدفق فى الكلام قائلاً له :

— انظر ! انها سكرى تماماً . . . كانت مارّة فى البوليفار منذ قليل . . . لا يدرى أحد من أين خرجت . . . ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة . . . أغلب الظن أنهم اسكروها فى مكان ما ، ثم عبثوا بها ، لأول مرة فى حياتها . . . هل تفهم ؟ ثم رموها فى الشارع . . . انظر الى ثوبها كيف تمزق . . . انظر اليه كيف لُبس . . . انها لم تلبس ثيابها بنفسها ، بل ألبسها اياها ثيابها . . . ألبستها ثيابها أيد غير خبيرة ، ألبستها ثيابها أيدى رجال . . . ذلك واضح ! ثم انظر الآن هناك : انظر الى ذلك الرجل المتأنق الذى أردت أنا أن أضربه منذ لحظة . . . اننى لا أعرفه . . . ما رأيته فى حياتى قبل اليوم ! لكنه لاحظها هو أيضاً فى الطريق ، فأدرك أنها سكرى ، وأنها فاقدة شعورها كله . وهو الآن تحرقه رغبة رهيبة فى أن يقترب منها وأن يقودها الى مكان ما وهى على هذه الحالة . . . ذلك هو ما يريده حتماً . . . صدِّق أننى غير مخطئ . . .

لقد رأيت بنفسى كيف رصدها وتبعها . . . ولكن وصولى أفسد عليه خطته ، فكان ينتظر أن أنصرف ، وما يزال ينتظر أن أنصرف . . . انظر اليه . . . لقد ابتعد قليلاً . . . وها هو ذا يقف متظاهراً بأنه يلف سيجارة . . . كيف نفعل حتى لا ندع له أن يستولى عليها ؟ ليتنا نستطيع أن نقودها الى منزلها . . . ما رأيك ؟

سرعان ما أدرك الشرطى الموقف . ان حالة السيد السمين واضحة لا سبيل الى الشك فيها . بقى أن تُعرف حالة الفتاة . مال الشرطى عليها ليراها من قرب ، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة .

قال وهو يهز رأسه :

— آه ! يا للمسكينة ! ما تزال طفلة حقاً ! لا شك انهم عبثوا بها !

ثم أضاف يناديها :

— اسمعى يا آنسة ! اين تسكنين ؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين الناعستين ، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين ، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما .

قال راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منه عشرين كوبكاً كانت ما تزال فيه :

— اسمع ! خذ هذه النقود ، وناد حوذياً ، ومُره أن يقودها الى بيتها . ليتنا نستطيع ان نعرف عنوانها ! . .

عاد الشرطى يقول وهو يتناول النقود :

— يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! سأنادى عربة على

الفور فأعود بك الى منزلك بنفسى ! الى أين يجب أن أقودك ؟ قولى ! أين تسكنين ؟

فجمجمت الفتاة تقول وهى تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها :

— دعونى وشأنى ! لا تتشبثوا بى !

— آه ! ليس هذا بالمستحسن يا آنسة ! هذا عيب . هذا عيب حقاً .

وهز رأسه من جديد ، معبراً عن العتاب والشفقة والاستنكار فى آن واحد ، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو يروزه مرة أخرى من أخمص القدمين الى قمة الرأس . أغلب الظن انه بدا له غريباً أيضاً : يهب المرء نقوداً ثم هو يرتدى مثل هذه الأسمال الرثة البالية :

— نعم . . . العنوان . . . تلك هى المسألة ! . .

وأضاف يسأله :

— هل التقيت بها فى مكان بعيد عن هنا ؟

— سبق أن قلت لك : كانت تسير أمامى مترنحة ، هناك ، فى البوليفار فما ان وصلتْ الى الدكة حتى تهاوت عليها !

— آه ! ما أكثر العار الذى سقط على العالم يا رب ! أطفلةً وسكرى ؟ لا شك أنهم قد عبثوا بها ! ذلك واضح . . . انظر الى ثوبها كيف تمزق كل التمزق . . . هه . . . ان الدعارة تحقق تقدماً كبيراً فى هذا الزمان ! . . ومن يدرى ؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار . . . أمثال هذه الحالات كثيرة فى هذه الأيام . . . ان المرء حين يراها لطيفةً هذا اللطف كله مرهفةً هذه الرهافة

كلها ، يمكن أن يحسبها آنسة من أسرة راقية نبيلة .

قال الشرطى ذلك ومال عليها من جديد . لعل له هو أيضاً بنات «تبلغ من اللطف والرهافة أن المرء يمكن أن يحسبهن آنسات من أسرة نبيلة» ، يصطنعن آداب الفتيات الراقيات ويقلّدنهن فيما يخص الموضة .

قال راسكولنيكوف :

— الأمر الأساسى هو ألا نتركها لهذا الوغد الدنىء ! ان من الممكن أن يلحق بها ايذاءات جديدة . نياته واضحة وضوح النهار ! يا للوغد القذر ! انه لا ينصرف .

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومئ الى السيد باصرار عنيد . سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار ، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات ، وتوقف مرة أخرى .

أجاب الشرطى واجماً مفكراً يقول :

— أن لا ندعها له فذلك يكون أمراً سهلاً اذا نحن عرفنا المكان الذى ينبغى أن نقودها اليه ، ولكن . . .

قال الشرطى ذلك ومال على الفتاة مرة أخرى وأخذ يناديها :

— يا آنسة ! هيه ! يا آنسة !

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محملقةً ، ونظرت بانتباه كأنما هى فهمت شيئاً ما ، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها فى الاتجاه الذى كانت آتية منه . وجمجمت تقول وهى تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتتخلص من الرجلين :

— آه ! انهم لا يتحرجون ولا ينفكون يتشبثون .

كانت تمشى بسرعة ، ولكنها تترنح فى مشيتها كترنحها منذ قليل . تبعها السيد الأنيق دون أن يحوّل بصره عنها ، سائراً فى الممر الآخر .

وأسرع الشرطى ذو الشاربين الكبيرين يمشى وراءهما قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة :

— لا تخف ، لن أتركها !

وكرر يقول متنهداً :

— رباه ! ما هذا الفسق الذى نراه فى هذا الزمان !

فى تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف فى داخله بما يشبه أن يكون وخزة ، فاذا بكل شىء فى نفسه ينقلب رأساً على عقب ، واذا هو ينادى الشرطى صائحاً :

— هيه ! اسمع !

التفت الشرطى فقال له راسكولنيكوف :

— دعهما ! ما شأنك أنت ؟ دع الأمور تجرى على أعنتها ! دع الرجل يتسلى ! (قال ذلك وهو يشير بيده الى السيد الأنيق) . ما شأنك أنت وهذا كله ؟

لم يفهم الشرطى شيئاً وحملق متعجباً . وأخذ راسكولنيكوف يضحك . قال الشرطى وهو يحرك يده :

— ايه ! ايه !

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتاة الصغيرة . اغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شراً من ذلك .

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً ، دمدم يقول فى خبث : «أخذ منى أنا عشرين كوبكاً ، وسوف يأخذ من السيد الأنيق مبلغاً آخر فيترك له البنية . هكذا ستنتهى الأمور . . .

لماذا أقحمت نفسى فيما لا يعنينى ؟ لماذا تدخلت فى سبيل أن أحميها ؟ هل علىَّ أنا أن أفرض نفسى حامياً ؟ هل من حقى أن أحمى أحداً أياً كان ؟ ألا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياء . . . ما شأنى أنا وهذا ؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبكات العشرين ؟ أهى ملكى ؟»

ورغم هذه الأقوال الغريبة ، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً . جلس على الدكة المهجورة وشردت أفكاره . . . كان يصعب عليه فى تلك اللحظة أن يفكر فى أى شىء . ودَّ لو يغيب عنه وعيه . . . ودَّ لو ينسى كل شىء فما يشعر بشىء . . . ثم يستيقظ بعد ذلك فيستأنف حياة جديدة . . .

قال وهو ينظر الى طرف الدكة الذى أصبح الآن خالياً :

ـــ يا للصغيرة المسكينة ! سوف تصحو فتبكى ، وسوف تعلم أمها بكل شىء . . . فتضربها أولاً ، ثم تجلدها جلداً أليماً فيه أبلغ الاذلال وأعمق الاهانة . . . وقد تطردها من البيت . . . وهبها لم تطردها ، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فرانتسوفنا . . . وستأخذ الفتاة تجرى هنا وهناك ، ستأخذ تتدحرج من هنا الى هناك . . . ثم سرعان ما تُنقل الى المستشفى (تلك دائماً حال البنات اللواتى يعشن مع امهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفية) . . . ثم تُنقل الى المستشفى من جديد . . . شراب وحانات ثم المستشفى دائماً . . . وما ان تنقضى سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً . . . ما ان تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهى ! . . ألم أرَ فتيات كثيرات فى مثل حالتها ؟ كيف كنَّ يصلن الى ذلك المصير ؟ بهذه الطريقة نفسها ! آه . . . لا ضير ! يقال ان الأمور يجب أن تجرى هذا المجرى . . . يقال ان

هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحَّى بها كلَّ عام . . . للشيطان فى أغلب الظن . . . وذلك فى سبيل ضمانة راحة الأخريات . . . نسبة مئوية ! ان لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً . . . وهى فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جداً ، علمية جداً ! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية ، فلا داعى الى أن يصدِّع المرء رأسه . . . آ . . . لو قد استعملوا كلمةً أخرى ، فمن الجائز . . . عندئذ . . . أن يكون الأمر أدعى الى القلق . . . هكذا ! . . وماذا لو كان على دونيا أن تدخل فى النسبة المئوية ، بطريقة أو بأخرى . . . فان لم تدخل فى هذه النسبة دخلت فى تلك على الأقل ؟

وتساءل راسكولنيكوف فجأة : «ولكن الى أين أنا ذاهب ؟ ألا انه لأمر غريب ! لقد كان لى هدف حين خرجت الى الشارع . فما ان فرغت من قراءة الرسالة حتى خرجت الى الشارع . . . نزلت أريد الذهاب الى عند رازوميخين ، فى جزيرة فاسيلفسكى . . . نعم ، ذلك هو المكان الذى كنت ذاهباً اليه . . . الآن تذكرت . ولكن لماذا أذهب الى رازوميخين ؟ لماذا خطر ببالى أن أذهب الى رازوميخين لا الى غيره ، فى تلك اللحظة لا فى غيرها ؟ شـــىء عجيب !»

دُهش هو نفسه من قراراته . ان رازوميخين هو أحد رفاقه القدامى فى الجامعة . الغريب أن راسكولنيكوف ، فى أيام الدراسة بالجامعة ، لم يكن له أصدقاء تقريباً ، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه ، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً . ثم ان جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة . كان لا يشارك لا فى الاجتماعات ، ولا فى المناقشات ،

ولا فى المتع والمباهج ، ولا فى أى شىء آخر . وكان يعمل بجد واجتهاد ، دون أن يراعى نفسه ، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه . ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم . وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر وأبيّاً ، وفى اباثه شىء من التغطرس وكان مبتعداً قليل الكلام ، حتى لكأنه كان يريد أن يخفى شيئاً فى نفسه . وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر اليهم من عل ، كما ينظر المرء الى الأطفال تقريباً ، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً وأنه يعتقد ان اقتناعاتهم واهتماماتهم دون مستواه كثيراً .

ومع ذلك ربطته صداقةٌ برفيقه رازوميخين ، مهما يكن سبب هذه الصداقة . على الأقل ، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام ، وأكثر صراحةً مما كان كذلك مع أى رفيق آخر . وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف . كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة ، وكان عدا ذلك طيب القلب الى حد السذاجة ، ولكنها سذاجة تخفى وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لا سبيل الى جحودها ، وكان خير رفاقه يعترفون له بذلك ويحبونه . ولم يكن رازوميخين بالغبى ، رغم أنه كان يبدو فى بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة . وكان مظهره يخطف الانتباه : كان طويلاً ، نحيلاً ، أسود الشعر ، قليل العناية بحلاقته دائماً . وكان يتفق له أن يحدث شغباً ، وكان يُعدُّ أشبه بهرقل ، بعضَ الشىء . ففى ذات ليلة ، أثناء جولة مع رفاقه ، جندل بضربة واحدة رجلاً من رجال الشرطة طوله مترين تقريبا . وكان يستطيع أن يشرب بلا

نهاية ، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة . وكان فى بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد التى تتجاوز كل الحدود ، ولكنه كان يستطيع ان لا يعربد البتة . وكان رازوميخين يتصف أيضاً بهذه الصفة البارزة : ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتفل شجاعته قط ، وما من ظرف سىء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار . وكان يستطيع أن يسكن فى أى مكان ، ولو تحت السقوف ، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد . كان فقيراً جداً ، فكان ينفق على نفسه بنفسه ، حاصلاً على المال من تعاطى شتى أنواع الأعمال الصغيرة . كان يعرف كيف يدبر أمره فيفى بحاجاته ، على شرط أن يعمل طبعاً . . . وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفئ غرفته ، حتى لقد أكدّ أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا ، لأن المرء ينام فى الجو البارد نوماً أفضل . وقد اضطر رازوميخين ، فى ذلك الأوان ، أن يترك الجامعة هو أيضاً . . . ولكن الى حين ، فيما كان يعتقد . فكان يحاول ، بكل ما يملك من قوة ، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته . ان راسكولنيكوف لم يذهب اليه منذ أربعة أشهر . وكان رازوميخين يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف . مرةً واحدة ، منذ شهرين ، التقيا فى الشارع مصادفةً ، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه ، حتى لقد انتقل الى الرصيف المقابل من أجل أن لا يُرى . أما رازوميخين فانه مضى فى طريقه رغم أنه لمح راسكولنيكوف ، وذلك لأنه لا يريد أن يزعج **صديقه** .

الفصل الخامس

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «فعلاً ، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لى عملاً ، أن أعطى دروساً ، أو أى شىء آخر . . . ولكن فيم يمكن أن يفيدنى الآن ؟ هبه وجد لى دروساً ، بل هبه قاسمنى آخر كوبك معه ، اذا كان ما يزال يملك كوبكاً ، بحيث أستطيع أن أشترى حذاءين وأن أصلح ملابسى ، فأتمكن من اعطاء دروس . . . هِـمْ . . . عظيم . . . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ما عسانى صانعاً بقروش قليلة ؟ أهذا ما أنا فى حاجة اليه الآن ؟ حقاً انها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب الى رازوميخين . . .»

لماذا يذهب الآن الى رازوميخين ؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه أكثر مما كان يتراءى له أنه يقلقه . كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبى الشرير الذى يكمن وراء هذه الخطوة التى أراد القيام بها ، والتى تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة ! . .

«هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت الا أن أدبّر جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده ، وأن لا أكون قد اهتديت الى حلٍ الا الاستعانة برازوميخين ؟» كذلك كان يتساءل مدهوشاً .

وكان يفكر ويفكر ، ويحكُّ جبينه ، فاذا بفكرة غريبة تومض فى ذهنه فجأة ، بما يشبه المصادفة . أمر عجيب ! قال بغتةً بلهجة هادئة كل الهدوء ، كأنما هو قد اتخذ فى تلك اللحظة قراراً حاسماً : «هِـمْ . . . الى رازوميخين !

نعم ، سأذهب الى رازوميخين حتماً . . . ولكننى لن أذهب اليه الآن . . . وانما أذهب اليه فى يوم آخر ، بعد أن أكون قد أتممت القيام **بذلك الأمر** ، بعد أن يكون **ذلك الأمر** ، قد انتهى ، بعد أن يبدأ كل شىء على أسس جديدة . . .»

ثم ثاب الى رشده على حين فجأة ، فقال صائحاً وهو ينتزع نفسه من الدكة انتزاعاً : «بعد أن يكون **ذلك الأمر** قد انتهى ؟ ولكن هل سيتحقق **ذلك الأمر** ؟ هل من الممكن أن يتحقق **ذلك الأمر** ؟»

وابتعد عن الدكة ، وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً . ودَّ لو يعود أدراجه ، ويرجع الى مسكنه ، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً الى البيت ، شعر بنفور شديد : فهناك ، فى ذلك المكان نفسه ، فى ركنه ذاك ، فى تلك الحجرة الكريهة الرهيبة ، انما نضجت فكرة **ذلك الأمر** ، منذ أكثر من شهر . ومضى راسكولنيكوف يمشى قدماً على غير هدى .

لقد تحول اضطرابه العصبى الى ارتعاشات حمَّى ، حتى لقد أحسَّ أنه يرتجف من البرد . انه يشعر ببردٍ أثناء ذلك القيظ الشديد . وأخذ يتفحص جميع الأشياء التى يلقاها فى طريقه ، باذلاً فى ذلك جهداً كبيراً ، ولكن على غير شعور منه تقريباً ، مدفوعاً الى هذا بضرورة داخلية . لكأنه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو ، ولكن سعيه هذا الى السلوى لم ينجح كثيراً ، فهو ما يلبث فى كل لحظة أن يعود الى الاسترسال فى أحلامه ؛ فاذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله ، نسى على الفور ما كان يفكر فيه ، بل ونسى الطريق الذى كان قد سلكه . على هذا النحو انما قطع جزيرة فاسيليفسكى كلَّها ، ووصل الى نهر

«نيفا الصغير» ، فعبر الجسر واستدار الى جهة الجُزُر . ان الخضرة وطراوة الهواء قد أراحتا فى أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة ، والكلس ، والمبانى الضخمة المرهقة . هنا لا اختناق ، ولا عفونة ، ولا خمارات . ولكن هذه الاحساسات الجديدة الممتعة سرعان ما صارت هى أيضاً مرضية تثير الأعصاب . كان فى بعض الأحيان يقف أمام دار صيفية مدفونة فى الخضرة فينظر من خلال السياج ، فيرى من بعيد ، على الشرفات ، نساء ترتدى أجمل الحلل ، ويرى أولاداً تركض . وكانت الأزهار تجتذبه خاصة ، فكان يتلبث أمامها ويأخذ يتأملها . وكان يلتقى بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الخيول ونساء على ظهور الأفراس ، فكان يتبعهم نظراته ، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا . وفى ذات مرة توقف ليعد نقوده ، فعرف أنه لم يكن قد بقى معه الا نحو ثلاثين كوبكاً . قال لنفسه : «أعطيت الشرطى عشرين كوبكاً ، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبكات مكافأة لها على أنها جاءتنى برسالة أمى ، معنى ذلك اذن أننى أعطيت بالأمس أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين» . لا شك أن هناك سبباً يدفعه الى أن يحصى ما معه من نقود على هذا النحو ، ولكنه سرعان ما نسى هذا الأمر ، حتى لقد نسى لماذا ولأى سبب أخرج النقود وعدّها . ثم تذكر النقود حين مرَّ أمام مطعم رخيص . لقد أحسَّ عندئذ أنه جائع ، فدخل المطعم ، فشرب قدحاً من الفودكا ، وأخذ فطيرة محشوة ، فبدأ أكلها فى المطعم ثم أنهاه فى الشارع . انه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً . لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم

يشرب الا كأساً صغيرة . وتراخت ساقاه وثقلتا على حين فجأة ، وأحس برغبة قوية فى النوم . فعاد يتجه نحو بيته ، ولكنه ما ان وصل الى جزيرة بتروفسكى حتى توقف خائر القوى تماماً ، فترك الطريق ، ودخل فى الأدغال وتهاوى على العشب ، فسرعان ما نام .

فى حالات المرض ، تتميز الأحلام فى أحيان كثيرة ببروز قوى وشدة خارقة ، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع . قد يكون مجموع اللوحة عجيباً شاذاً ، ولكن الجو ومجمل تسلسل التصور يكونان فى الوقت نفسه على درجة عالية من المعقولية ، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جداً ، تفاصيل غير متوقعة ، تبلغ من حسن المساهمة فى كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها فى حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف . وهذه الأحلام ، أعنى الأحلام المرضية ، تخلف دائماً ذكرى باقية ، وتحدث أثراً قوياً فى الجسم المضعضع المهتز المختل .

كان حلماً مرعباً ، ذلك الحلم الذى رآه راسكولنيكوف . لقد حلم بطفولته ، هناك ، فى مدينتهم الصغيرة . ان عمره سبع سنين . وها هو ذا ، فى يوم عيد ، يتنزه فى المساء مع أبيه فى ظاهر المدينة . الجو داكن ، والهواء خانق ، والمكان هو المكان الذى انطبعت ذكراه فى خياله تماماً ، ولكنه يبدو فى الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو فى الذاكرة . المدينة الصغيرة تمتد مكشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف ؛ فليست تُرى حواليها حتى صفصافة بيضاء واحدة ؛ وفى مكان ما ، مكان بعيد جداً ، عند آخر الأفق ، تلوح بقعة سوداء هى غابة صغيرة . وعلى مسافة بضع خطوات

من آخر بستان من بساتين الخضار التى تحيط بالمدينة ، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث فى نفسه أثراً أليماً ، حتى لتخيفه حين يمر بها متنزهاً مع أبيه . كان فى هذه الحانة دائماً جمهور كبير ، وصيحات وضحك مجلجل ، والناس يتشاتمون هنالك ، ويغنون بأصوات جشّاء أغانى قبيحة بذيئة ، وهم خاصة يتشاجرون ويقتتلون فى كثير من الأحيان ؛ وحول الحانة يتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة ، ما ان يصادفهم الطفل فى طريقه حتى يلتصق بأبيه ويشدّ جسمه اليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش . . . وفى مكان غير بعيد عن الحانة توجد طريق ترابية كثيرة الغبار الاسود ، تستمر متعرجة متلوية ، وتنعطف يمنة بعد ثلاثمائة متر فتحيط بمقبرة المدينة . وفى وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر ، لها قبة خضراء ، كان الطفل يذهب اليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين فى السنة ، وذلك حين اقامة قداس على روح جدته التى ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها فى يوم من الأيام . وكانوا فى تلك المناسبة يحملون الحلوى التقليدية على طبق أبيض ملفوف بمنشفة : انها حلوى من الرز والزبيب المجفف المغروس فى الرز على شكل صليب . كان الصبى يحب تلك الكنيسة ، ويحب أيقوناتها التى يخلو أكثرها من الأطر ، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذى كان يرتعش رأسه . والى جانب قبر جدته الذى تغطيه بلاطة كبيرة ، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذى مات فى الشهر السادس من عمره والذى لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع اذن أن يتذكره ؛ غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير ، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه اشارة الصليب فى كثير من التقى

والخشوع ، وينحنى أمام القبر ويقبّله . واليكم الآن الحلم الذى رآه : رأى نفسه يسير مع أبيه فى الطريق المؤدية الى المقبرة ، فيمران أمام الحانة . انه ممسك أباه من يده ، ينظر الى الحانة مذعوراً . ان هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه ! لكأن ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس : انهم عدد كبير من أهل المدينة بملابس العيد ، وفلاحات مع أزواجهن ، وخليط كبير من البشر . هم جميعاً سكارى وهم جميعاً يغنون ؛ وأمام باب الحانة تُرابط عربة ، ولكنها عربة عجيبة غريبة هى عربة من تلك العربات الكبيرة التى تجرها فى العادة خيول ضخمة قوية ، والتى تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة . كان الصبى دائماً ينظر بكثير من اللذة والمسرة الى تلك الخيول الضخمة ذات الأعرف الطويلة والسيقان القوية ، التى تسير بخطى هادئة موزونة جارّة وراءها حملاً كأنه الجبل ضخامة ، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل ، حتى لكأن الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر . أما الآن فان الشىء الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد قُرنت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التى كثيراً ما رآها تضنى بجر حمل كبير من الخشب أو العلف على طرق متحفرة موحلة تغوص فيها عجلاتها الى المحاور ، ويضربها الفلاحون بسياطهم على خُطُمها بل وعلى أعينها ضرباً قوياً مبرحاً . لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء ، حتى ليكاد يبكى حزناً وألماً . وكانت أمه تضطر عندئذ الى اقصائه عن النافذة . وها هى ذى جلبة كبيرة تعلو : ان عدداً من الفلاحين الأقوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين ، مغنّين ،

عازفين على البالالايكا ، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء ، رامين أرديتهم على أكتافهم . وهذا واحد منهم ، وهو رجل ما يزال فى شرخ الشباب سميك الرقبة ، سمين الوجه ، أحمر اللون كجزرة ، يصرخ قائلاً لهم : «اركبوا ، اركبوا جميعاً ! سأنقل الجميع ، هيا اصعدوا !» فسرعان ما تجيبه قهقهات وصيحات تقول :

— أبفرس ضعيفة كهذه الفرس تقودنا جميعاً ؟

— هه ! ماذا دهاك يا ميكولكا ؟ . أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة هذه الضخامة ؟

— يميناً ان الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخى !

— اجلسوا ! سأنقل جميع الناس !

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد ، وهو يثب الى العربة أول الواثبين ، فيمسك بزمام الفرس ، وينتصب فى الأمام بقامته كلها ، ثم يردف قائلاً وهو فى العربة :

— لقد سافر الكميت منذ هنيهة مع ماتفى . وهذه الفرس يا اخوتى تغيظنى كثيراً ، وتحطم قلبى تحطيماً . اننى مستعد لأن أقتلها . انها لا تستحق ما تأكله من العلف . اقول لكم : اركبوا ! اجلسوا ! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو ! وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التى سيذوقها حين يأخذ يضربها .

قال بعضهم ضاحكاً :

— طيب ! اصعدوا ألم تسمعوا ؟ سوف تعدو الفرس .

— انها لم تعرف العدو منذ عشر سنين !

— لسوف تعدو !

— لا تأخذنكم شفقة أيها الأخوة ! فليتناول كل منكم سوطاً وليتهيأ !

— هيا بنا ! هلموا ! اضربوا !

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقهين مازحين . ركب ستة رجال وما يزال فى المكان متسع . أركبوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه . انها ترتدى فستاناً من قماش أحمر ، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويلتان ، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بخرزات زجاجية ، وتقضم حبات بندق وتنفجر ضاحكة من حين الى حين ، والجمهور من حولها يضحك كذلك . وكيف لا يضحكون ؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجرَّ مثل هذا الحمل عَدْواً ؟ وسرعان ما تناول صبيان فى العربة سوطين لمساعدة ميكولكا . ودوَّت فى الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير . أخذت الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير . ولكن أنَّى لها أن تعدو . انها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها . فهى تراوح وتئن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوى عليها . تضاعفت الضحكات فى العربة وفى الجمهور . ولكن ميكولكا غضب . وها هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن فى وسع دابته أن تجرى عَدْواً .

صاح شاب من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد :

— هل تسمحون لى بأن أجىء معكم ؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله :

— اركب ! اركبوا جميعاً ! سوف تحملنا جميعاً . سأضربها حتى الموت !

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن أصبح لا يعرف بماذا يضرب .

صاح الطفل يسأل أباه :

— أبتِ ! أبتِ ! ماذا يفعلون ؟ أبتِ ! لماذا يضربون الفرس المسكينة ؟

قال الأب :

— تعال ، تعال ، انهم سكارى يرتكبون حماقات . تعال ! لا تنظر اليهم .

وأراد الأب أن يقتاد الابن ، ولكن الطفل أفلت من يديه ، ثم لم يطق صبراً فركض نحو الفرس الشقية . كانت الفرس المسكينة قد ساءت حالها وخارت قواها . انها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما تستطيع بذله من جهد لتجرَّ العربة ، فتترنح وتكاد تسقط .

صرخ ميكولكا يقول :

— اجلدوها الى أن تفطس ما دام الأمر هكذا . سأضربها حتى الموت .

هتف شيخ من بين الجمهور يسأله :

— ما هذا ؟ أأنت مسيحى ؟ يا لك من متوحش !

وأضاف آخر يقول :

— هل رأى أحد فى حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجرّ حملاً ثقيلاً كهذا الحمل ؟

وصاح ثالث يقول :

— سوف تقتل الدابة أخيراً !

قال ميكولكا :

— ما تدخلك أنت ؟ الدابة دابتى ! ما أريده أفعله !

اركبوا جميعاً ! أريد حتماً أن تجرى الفرس عَدْواً .

وفجأةً ، انفجر ضحك عريض غطى كل شىء . لم تستطع الفرس أن تحتمل الضربات المتكررة ، فاذا هى تأخذ ترفس وتلبط . حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم . حقاً ان هنالك ما يبعث على الضحك : كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة هزيلة كهذه الفرس !

خرج من الجمهور شابان فتناولا سوطين ، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين .

صاح ميكولكا :

— على الخطم ، على العينين ، على العينين !

وهتف أحد ركاب العربة :

— أغنيةً أيها الاخوة !

فأخذ الجميع فى العربة يغنون بصوت واحد . هى أغنية مسعورة تصدح بها الحناجر ، وتصاحبها قرعات طبل ، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة . والمرأة السمينة تقضم البندق وتنفجر ضاحكة .

. . . ركض الطفل الى جانب الحصان ، وأسرع الى أمام . رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها ، على عينيها تماماً ! . . فأخذ يبكى . انقبض قلبه وسالت دموعه . لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط . ولكنه لم يشعر بشىء . لوى يديه ألماً . صرخ . اندفع نحو الشيخ ذى اللحية الشيباء الذى كان يهز رأسه مستنكراً هذا كلـه . امسكت يـدَه فلاحةٌ ، وأرادت أن تبعده . لكنه تملص منها ، وركض نحو الفرس من جديد . لقد انهارت قوى الفرس ، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة أخرى .

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد :

— شيطان يأخذك !

ورمى سوطه ، وانحنى الى تحت ، فتناول من قاع العربة خشبة طويلة ثقيلة ، فقبض على طرفها بيديه ، وأشهرها فوق ظهر الفرس بجهد . صاح بعضهم :

— سوف يقتل الفرس !

— سوف يهشمها !

صرخ ميكولكا :

— هى ملكى ، ولا شأن لأحد بها !

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتى من قوة ، فدوّى فى الجو صوت أصم .

صرخ بعضهم :

— اجلدوا الفرس ! اجلدوها ! مالكم توقفتم عن جلدها ؟

فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال ، وهوى على ظهر الفرس المسكينة بضربة قوية جديدة . تهاوت الفرس عند مؤخرتها ، ولكنها ما لبثت أن انتصبت ، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة . أخذت تجر فى كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة . غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات ، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة ، وتتالت الضربات قوية مطّردة . لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة .

صرخ بعضهم :

— عمرها طويل !

فصاح واحد فى الجمهور :

— ستفطس حالاً أيها الاخوة ! نهايتها قريبة !

وصرخ ثالث :

— فلتُضرب بفأس ! فلننته منها دفعة واحدة !

صرخ ميكولكا مهتاجاً :

— فلتذهبوا الى الشيطان ! أبعدوا !

ورمى الخشبة ، ثم انحنى مرة أخرى الى تحت ، فتناول من قاع العربة قضيباً من حديد ، وصرخ يقول مخاطباً الناس :

— احترسوا ! — ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة ، بكل ما أوتى من قوة ، فترنحت الدابة من شدة الضربة ، وتهالكت ، وحاولت ان تجرَّ العربة مرة أخرى ، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد ، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قُطعت قطعاً !

صاح ميكولكا يقول :

— اجهزوا عليها !

ووثب من العربة الى الأرض كمن فقد السيطرة على نفسه . وها هم أولاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب ، ويهرعون نحو الفرس المحتضرة . وقف ميكولكا الى جانب الدابة ، وأخذ يضربها بقضيب الحديد على ظهرها . فمدّت الفرس خطمها ، وزفرت زفرة عميقة ، وماتت .

صاح الجمهور يقول :

— قد أجهز عليها !

— لماذا لم تشأ أن تعدو ؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم ، ممسكاً قضيب الحديد بيديه :

— هى ملكى !

وكان واقفاً منتصب القامة كأنه يأسف على أنه اصبح لا يعرف من ذا يضرب !

هتفت عدة أصوات فى الجمهور تقول :

— يبدو انك لست مسيحياً !

ولكن الطفل المسكين أصبح لا يسيطر على نفسه ، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً ، حتى اذا وصل الى الدابة أحاط بذراعيه خطمَها الميت الدامى ، وأخذ يقبّلها على عينيها وعلى شفتيها . . . ثم اجتاحه حنق قوى ، فنهض واثباً وهجم على ميكولكا شاداً على قبضتيه الصغيرتين . ولكن أباه الذى كان يلاحقه منذ مدة ، أدركه فى تلك اللحظة ، فأمسك به ، وحمله بين ذراعيه الى خارج الجمهور قائلاً له :

— هيا ! فلنعدْ الى البيت .

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه :

— أبتِ . . . لماذا . . . الحصان المسكين . . . فعلوا به ؟ . .

ولكن أنفاسه تقطعت ، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات !

قال الأب :

— هم سكارى يرتكبون حماقات . ليس هذا شأننا . لنذهب !

أحاط الطفل أباه بذراعيه ، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً . . . ما يزال مختنقاً اختناقاً شديداً . . . وحاول الطفل أن يسترد انفاسه ، ويطلق صرخة قوية . . . واستيقظ راسكولنيكوف من النوم . . .

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضلّ الشعر لاهثاً . ونهض مذعوراً .

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملء رئتيه :

— الحمد للّه على أن هذا لم يكن الا حلماً ! ولكن ماذا حدث ؟ أيكون هذا بداية حمى ؟ يا للحلم الرهيب !

كان جسمه كله كالمحطم ، وكانت نفسه لا تضم الا ظلمات واضطراباً وابهاماً . وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه ، وهتف يقول مخاطباً نفسه :

— رباه ! هل من الممكن ، هل من الممكن حقا أن أتناول فأسا فأضرب بها رأسها وأحطم جمجمتها ؟ . . أتزلق فى الدم اللزج الدافئ . . . اكسر القفل . . . أسرق . . . أرتعش . . . اختبئ ملطخاً بالدم . . حاملاً فأساً بيدى ! . . رباه ، أهذا ممكن ؟

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة فى مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام .

وتابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به تعجب عميق وهو مطرق الرأس :

— ولكن ماذا دهانى ؟ لقد كنت أعلم حق العلم أننى لن أطيق ذلك ، فلماذا عذبت نفسى هذا التعذيب كله حتى الآن ؟ بالأمس ، بالأمس . . . حين مضيت اليها ، **لأتمرّن** على فعلتى ، أدركت حق الأدراك أننى لن أطيق ذلك . . . فلماذا أعود الى الأمر الآن ؟ لماذا اجتاحتنى الشكوك حتى الآن ؟ بالأمس ، حين كنت أهبط السلم ، قلت لنفسى انها فعلة حقيرة ، دنيئة ، خسيسة ، خسيسة جداً . . . كان يكفى ان تساورنى تلك الفكرة حتى ينقبض صدرى وحتى أشعر بذعر شديد وأنا **فى اليقظة** . . .

— لا ، لن أطيق هذا الفعل ، لن أطيقه ، ولو كانت حساباتى كلها صحيحة ، ولو كان ما عزمت عليه فى هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات . . . رباه ! فاننى لن أقدم عليه مع ذلك ، لن أطيقه ، لن أطيقه . . . فما بالى حتى الآن . . .

نهض راسكولنيكوف ، ونظر حواليه ذاهلاً . كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده فى هذا المكان . واتجه نحو جسر «ت . . .» . كان شاحب الوجه ، وكانت عيناه تحترقان ، وكان يشعر بالتعب فى جميع اعضائه ، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة . شعر انه ازاح الحمل الرهيب الذى كان يسحقه منذ مدة طويلة ، فتخففت نفسه واطمأنت روحه ، وعادت اليه السكينة بغتة . قال يدعو

الله مبتهلاً : «أرنى طريقى يا رب فأعدلَ عن تلك . . . الفكرة اللعينة !»

وفيما كان يعبر الجسر ، نظر هادئاً الى نهر نيفا ، والى حمرة الشمس الغاربة . فاذا هو ، رغم ضعفه ، قد اصبح لا يحس بالتعب . فكأن الدمل الذى نضج فى قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقأ الآن على حين فجأة . الحرية ! الحرية ! لقد تخلص الآن من السحر ، تحرر من الرقية ، انعتق من الفتنة .

فى المستقبل ، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، وحين سيستعرض كل ما وقع له فى تلك الأيام دقيقة دقيقة ونقطة نقطة ، فأن ظرفاً معيناً سيظل يجتذب انتباهه ، ويأسر اهتمامه ، ويكتسب فى نظره معنى خرافياً . ان ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل فى ذاته على أى شىء خارق ، سيصبح فى نظر راسكولنيكوف فى المستقبل نوعاً من نبوءة تصوّر مصيره وتحدد قدره . اليكم الأمر : لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قطُّ لماذا عاد أدراجه الى بيته فى ذلك اليوم عبر «سوق العلف» دون أى سبب يحضه على الذهاب الى هناك ، ورغم أنه ، هو المتعب المكدود المرهق المشعث ، كان فى حاجة الى أن يسلك للعودة الى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء . صحيح أن الدورة التى دارها لم تكن طويلة ، ولكن من الواضح أنه لا داعى اليها ولا فائدة منها البتة . وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات ان رجع الى مسكنه دون ان يتذكر الشوارع التى سلكها . ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائماً : لماذا وقع له ذلك اللقاء فى ميدان «سوق العلف» (الذى لم يكن هناك أى داع يحضه على

الذهاب اليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذى يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشأن والذى كان له ذلك التأثير الحاسم كله فى حياته ، وكان فى الوقت نفسه عرضاً طارئاً ، لماذا وقع له ذلك اللقاء فى تلك اللحظة نفسها ، فى تلك الدقيقة ذاتها من حياته ، فى تلك الدقيقة ذاتها التى كان لا يمكن ، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف ، الا أن تؤثر فى مصيره ذلك التأثير الحاسم الذى لا مناص منه ولا راد له ؟ سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذى وقع له انما كان كميناً يتربص به شراً .

كانت الساعة قريبة من التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف «سوق العلف» . كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالّهم ، ويجمعون بضائعهم ، ليعودوا الى منازلهم ، وكذلك كان يفعل زبائنهم . بالقرب من المطاعم الحقيرة الواقعة فى الأقبية ، وفى الأفنية القذرة المنتنة من منازل «سوق العلف» ولا سيما بالقرب من الخمارات كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء الناس وصغار المتكسّبين . كان راسكولنيكوف يحب ارتياد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأزقة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغير هدف محدد . فهنالك كانت أسماله البالية لا تلفت الانتباه ولا تثير الاستهجان . ان المرء يستطيع أن يسير فى هذه الأماكن مرتدياً ملابس على ما يشاء له هواه ، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به . فلما وصل راسكولنيكوف الى ناصية زقاق ك . . . ، رأى بائعاً وامرأته يبيعان ، كلٌ على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما الى ذلك . كان الزوجان يستعدان هما أيضاً للعودة الى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يثرثران مع

امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما . ان هذه المرأة هى اليزافيتا ايفانوفنا أو قل باختصار هى «اليزافيتا» كما كان يسميها جميع الناس . انها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا ، أرملة الموظف المرابية ، التى ذهب اليها راسكولنيكوف أمس ليرهن عندها ساعته ويتمرن على فعلته . . . كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزافيتا هذه التى كانت تعرفه هى أيضاً بعض المعرفة . انها بنت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القامة خرقاء السلوك ، خجول الطبع ، وجلة وديعة ، يعدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهى تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً . كانت اليزافيتا فى تلك اللحظة قد وقفت مفكرة أمام البائع وامرأته ، وفى يدها صرّة ، وكانت تصغى اليهما بانتباه شديد . ان الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة . فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتاحه احساس غريب هو نوع من الانشداه الشديد رغم أن اللقاء لا يشتمل فى ذاته على أى شىء يدعو الى الذهول .

قال لها البائع بصوت عال :

— ستعزمين أمرك بنفسك يا اليزافيتا ايفانوفنا . تعالى غداً ، فى نحو الساعة السابعة . سيحضرون هم أيضاً .

— غداً ؟

كذلك قالت اليزافيتا بصوت بطىء ، وكانت واجمةً مفكرة ، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها .

قالت لها زوجة البائع وهى امرأة فطنة بلهجة طلقة صريحة :

— انها لتخيفك كثيراً ، آليونا ايفانوفنا هذه ! حين يراك المرء ويسمعك ، يحسبك طفلة صغيرة . هذا مع انها ليست أختاً شقيقة وانما من ام أخرى ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك . . .

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزافيتا :

— ليس عليك الا أن لا تذكرى لآليونا ايفانوفنا هذه المرة شيئاً . ذلك ما أنصحك به ! تعالى الينا دون أن تستأذنيها ! الصفقة رابحة . وستدرك أختك ذلك فيما بعد .

— حقاً . . . قد آتى ؟

— نعم . . . غداً . . . فى نحو الساعة السابعة . وسيحضر أحد من عندهم أيضاً . ستعزمين أمرك بنفسك .

وأضافت زوجة الرجل تقول :

— وسنشعل السماور .

قالت اليزافيتا وهى ما تزال مترددة :

— طيب ، سآتى . . .

وانصرفت بخطىً بطيئة .

ان راسكولنيكوف الذى مرَّ فى تلك اللحظة لم يسمع اكثر من ذلك . لقد مرَّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت اليه الانتباه ، ولكنه حاول ألا تفوته من الحديث كلمة واحدة . وشيئاً فشيئاً ، حل الذعر فى نفسه محلَّ الانشداه ، وأحس بقشعريرة باردة تسرى فى ظهره . لقد علم فجأة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أن اليزافيتا ، أخت العجوز ورفيقتها الوحيدة فى دارها ، ستغيب عن البيت غداً فى الساعة السابعة

تماماً ، وأن العجوز ستكون اذن فى الساعة السابعة تماماً وحيدة فى مسكنها .

لم يكن قد بقى عليه الا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله . عاد كانسان حُكم عليه بالموت . لقد اصبح لا يفكر ، بل اصبح عاجزاً عن التفكير ، ولكنه كان يحس ، بكل كيانه ، أنه اصبح محروماً من حرية الرأى مجرداً من الارادة ، وأن كل شىء قد تقرر فجأة على نحو حاسم لا رجعة عنه .

يقينا ، لو كان عليه فى سبيل انفاذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة ، لما كان فى وسعه أن يعوِّل على ظرف يناسب نجاح مشروعه أكثر من هذا الظرف الذى يعرض له الآن ، وما كان ليسهل عليه فى كل حال أن يعلم علم اليقين ، بمثل تلك الدقة ، وبدون مخاطر يشتمل عليها اضطراره الى السؤال والتقصى ، أن العجوز التى كان قد قرَّر أن يقتلها ستكون ، فى الغداة ، وحيدةً بمسكنها ، وحيدة تماماً . . .

الفصل السادس

لقد اتيح لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذى حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزافيتا ايفانوفنا الى منزلهما . ان الأمر عادى بسيط تافه لا يشتمل على أى شىء خاص : هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة ، فأصبحت فى حالة عوز شديد ، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء . ولما كان عرض هذه الملابس للبيع فى السوق يؤدى

الى خسارة كبيرة ، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين فى الشراء . وكانت اليزافيتا تقوم بمثل هذه الأعمال ، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة ، فهى تحدد السعر العادل دائماً ، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن ، فما على المشترى الا أن يأخذ أو أن يدع . وكانت قليلة الكلام عامةً ، وكانت تبدو ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وجلة وديعة . . .

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح فى الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام ، وقد خلف هذا الوهم فى نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة . ثم انه ظل يميل دائماً الى أن يرى فى هذا الأمر كله شيئاً غريباً سرياً ، وسلسلةً من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة . كان طالب من معارفه اسمه بوكوريف ، قد اعطاه فى الشتاء الماضى أثناء حديث عارض جرى بينهما قبيل سفره الى خاركوف ، عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا ، ليلجأ اليها اذا هو احتاج الى اقتراض مبلغ من المال على رهن . وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف الى العجوز ، لأنه كان فى ذلك الوقت يعطى دروساً ، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى . ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر . كان يملك شيئين يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال : الساعةَ الفضية القديمة التى ورثها عن أبيه ، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته اياه تذكاراً حين افترقا . قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم ، فما ان رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة ، ودون أن يعرف أى شىء خاص عنها ، بكره لا سبيل الى التغلب عليه . وتلقى منها «ورقتين صغيرتين» . وبينما كان راجعاً الى بيته دخل فى الطريق حانةً

صغيرة حقيرة ، فطلب شاياً ، وجلس ، واسترسل فى احلام عميقة . ان فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف فى رأسه كما ينقف الفرخ فى البيضة ، وكانت تشغل باله كثيراً جداً . . .

على مقربة منه ، الى جانبه تقريباً ، كان يجلس حول مائدة أخرى ، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رآه فى حياته . كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً ، فهما الآن يحتسيان الشاى . وها هو ذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا ايفانوفنا هى أرملة موظف ، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر . ان هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة : لقد كان عند العجوز منذ هنيهة ، وها هو ذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هى نفسها . لا شك أن الأمر مصادفة ، ولكن فيما كان راسكولنيكوف لا يستطيع ان يتخلص من شعور خارق غير عادى ، اذا بشخص يأخذ يعزز فى نفسه هذا الشعور كأنما على عمد : لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه ، فجأة ، بعض التفاصيل عن آليونا ايفانوفنا . قال :

— هى عظيمة . . . يستطيع المرء فى كل لحظة أن يحصل منها على مال . . . غنيةٌ كيهودى ! قادرة على أن تقرضك خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ، ولكنها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد . كثيرون منا مروا بها . ولكنها سافلة .

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز . وصفها بأنها شريرة خبيثة ، وقال انها صاحبة نزوات : يكفى أن يتأخر المدين عن سداد الدين فى الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن . لا تقرض من المال الا مبلغاً يساوى ربع قيمة الرهن . تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة فى المائة بل وسبعة ، الخ الخ . . .

كان الطالب يتدفق فى الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه

افاضة لا ينضب معينها . وقد أضاف أن للعجوز أختاً اسمها اليزافيتا ، تضربها العجوز فى كل مناسبة ، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هى نفسها ؛ والعجوز تستعبد اليزافيتا استعباداً تاماً ، كطفلة صغيرة ، رغم أن اليزافيتا لا يقل طولها عن متر وثمانين سنتيمتراً بل يزيد . . .

وصاح الطالب يقول مقهقها :

— وهذه أيضاً امرأة عجيبة !

جرى الحديث عندئذ على اليزافيتا . كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك . أما الضابط فكان يصغى الى رفيقه بكثير من الاهتمام ، حتى لقد طلب منه أن يرسل اليه اليزافيتا ، لترقّع له ملابسه . لم يفـــوّت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة . عرف كل شىء دفعة واحدة : عرف أن اليزافيتا هى الأخت الصغرى لآليونا ايفانوفنا ، ولكنها ليست شقيقتها وانما هى اختها مـــن أم أخرى ، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها . عرف أنها تعمل فى سبيل اختها نهاراً وليلاً ، تنهض فى منزلها بأعباء الطباخة والغسالة ، وتقوم فى الوقت نفسه بأعمال الخياطة للزبائن ، حتى لقد تتولى مسح الأرض فى المنازل مأجورة . وعرف أن كل ما تجنيه من مال انما يذهب الى اختها ، وانها لا تجرؤ على قبول أى تكليف أو القيام بأى عمل ، دون استئذان العجوز . وكانت العجوز قد كتبت وصيتها ، وكانت اليزافيتا تعرف أن هذه الوصية تنص نصاً صريحاً على أنها لن ترث شيئاً ، اللهم الا عدداً من قطع الأثاث والكراسى وما الى ذلك . أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن . . . ، للصلوات الدائمة على روح آليونا ايفانوفنا . ان اليزافيتا تنتمى الى طبقة التجار لا

الى طبقة الموظفين وهى غير متزوجة ، بشعة القوام جدا ، يزيد طولها على متوسط الطول كثيرا ، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذاءين باليين الكعبين . ولكنها تعنى بنظافتها أكبر العناية . والأمر الذى كان يدهش الطالب ويفجر ضحكه خاصةً هو ان اليزافيتا حبلى دائماً . . .

قال الضابط :

— ولكن ألم تقل انها قبيحة ؟

أجابه الطالب :

— نعم . . . ان لها بشرة مسودَّة دائماً ، حتى لكأنها جندى متنكّر ، ولكنها ليست قبيحة البتة ! . . ان وجهها لطيف جداً ، وان عينيها خاصة طيبتان حلوتان ! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس ، وهى هادئة مسالمة وديعة مستعدة لأن تَقنع بأى شىء . وان لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بانها فاتنة !

سأل الضابط ضاحكاً :

— أهى اذن تعجبك أيضاً ؟

قال الطالب :

— نعم ، لأن فيها غرابة ! واسمع الآن ما سأقوله لك : يميناً اننى مستعد لأن أقتل اختها ، تلك العجوز اللعينة ، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً ، مرتاح البال هادئ الضمير ! . . .

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف .

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكولنيكوف .

ما أغرب هذا !

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

— اذا أذنت فسألقى عليك سؤالاً جاداً : أنا انما قلت ذلك

كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً : هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هى ضارة لجميع الناس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت فى القريب ميتتها الطبيعية . هل تفهم ؟ هل تفهم ؟

أجاب الضابط وهو يحدِّق بانتباه شديد الى رفيقه الذى كانت حماسته ما تنفك تتأجج :

— طبعاً أفهم !

واصل الطالب كلامه فقال :

— فاسمع التتمة اذن : هناك تلك المرأة من جهة أولى ، وهناك من جهة ثانية قوىً فتية شابة نضرة ، تضيع لأنها محرومة من المساعدة ، وتُعدُّ بالألوف ، فى كل مكان . ان ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير ! ! ان ثمة مئات وربما ألوفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم . ان ثمة عشرات من الأسر يمكن انقاذها بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الاخلاقى ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قُتلتْ هذه العجوز ، وأُخذ مالها ثم وُقِفَ على خدمة الانسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر ؟ ماذا ؟ ألا تعتقد أن جريمةً طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيِّرة ؟ اننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوف غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد ليعيش مئات . مسألة حسابية ! وأى وزن فى ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة الغبية الشريرة ؟ ألا انها ليس لها من الوزن أكثر مما

لقملة أو خنفساء . لا بل ان وزنها دون ذلك ، لأن هذه العجوز ضارة . انها تمتص حياة الآخرين . انها شريرة . منذ مدة قصيرة عضَّت اختها اليزافيتا فى اصبعها ، وكادوا ان يقطعوا الاصبع !

قال الضابط :

— ما هى جديرة بالحياة طبعاً ، ولكن هذا نظام الطبيعة . . .

قال الطالب :

— نظام الطبيعة ، يا أخى ، يمكن تقويمه وتوجيهه ، والا غرقنا فى الأوهام والأباطيل . ثم انه بدون ذلك لا يكون ثمة انسان عظيم واحد . يقولون : «الواجب ، الضمير» — وأنا لا اعترض بشىء على الواجب والضمير ، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معانى الالفاظ . اسمع : سألقى سؤالاً آخر ، هل تصغى الىَّ ؟

قال الضابط :

— بل أنا الذى سألقى عليك سؤالاً ، أصغ الىَّ !

— هيه ! . .

— أنت الآن تتكلم وتتحدث ، ولكن قل لى : أأنت مستعد لأن تقتل العجوز **بنفسك** ؟

— لا ، طبعاً ! . . فانما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة ، ولست أتحدث عن نفسى . . .

— فى رأيى أنه ليس هناك ظل من عدالة ، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل بنفسك . والآن هلمَّ بنا نلعب البلياردو ! . .

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب . ان

الاحاديث التى سمعها لم تكن الا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها فى صور مختلفة بعض الاختلاف بصدد موضوعات شتى . ولكن لماذا وقع له أن يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء فى عين اللحظة التى كانت **هذه الآراء نفسها** تنبت فى ذهنه هو ؟ لماذا وقع له أن سمع ، فى نفس اللحظة التى تلبّث فيها فكره على العجوز ، حديثاً عن تلك العجوز نفسها ؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة . وكان لهذه الثرثرة العابرة التافهة التى جرت فى الحانة ، تأثيرٌ عميق فيه اثناء تتمة الأحداث ، فكأن ذلك كان نبوءة ونذيراً بقدر محتوم . . . .

. . . . . .

عاد راسكولنيكوف من «سوق العلف» الى بيته ، فارتمى على أريكته ، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك . هبط الظلام أثناء ذلك . ولم يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال . لم يستطع راسكولنيكوف فى يوم من الأيام أن يعرف هل فكّر فى شىء من الأشياء أثناء ذلك الوقت . وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى تلك نفسها التى أحسها فى النهار ، وسرَّه أن يعرف أن فى امكانه أن يرقد على الأريكة . وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص ، فنام .

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام ، نام بغير أحلام . وحين دخلت عليه ناستاسيا فى الساعة العاشرة من صباح الغد ، بذلت كثيراً من الجهد ولقيت كثيراً من العناء فى سبيل ايقاظه . كانت تحمل اليه شاياً وخبزاً . وكان الشاى فى هذه المرة أيضاً بقية شاى ، وفى هذه المرة أيضاً كان الابريق ابريقها هى .

هتفت ناستاسيا تقول مغتاظة :

— ما أكثر ما يستطيع أن ينام ! نعم انه لا ينقطع عن النوم ! . .

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير . كان يشعر بصداع فى رأسه . وقف منتصباً وسار بضع خطوات ، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد .

هتفت ناستاسيا :

— ماذا ؟ أتريد أن تنام أيضاً ؟ أتراك مريضاً ؟

لم يجب راسكولنيكوف .

— هل تريد شاياً ؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط :

— فيما بعد .

لبثت ناستاسيا ماثلة عليه لحظة ثم قالت :

— ربما كان مريضاً !

واستدارت وخرجت .

وعادت اليه فى الساعة الثانية تحمل حساء . كان ما يزال راقداً ، حتى انه لم يكن قد مسَّ الشاى . اغتاظت ناستاسيا ، فهزَّته غاضبة ونهرته قائلة له وهى تنظر اليه باشمئزاز :

— ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال ؟

فنهض وجلس ، ولكنه لم يجب بشىء ، وكان يحدِّق الى الأرض .

سألته ناستاسيا :

— أأنت مريض ؟

ولكنها فى هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب . استأنفت تقول بعد صمت :

ـــ حقاً ان عليك أن تخرج قليلاً الى الشارع ! سينفعك الهواء الطلق ! هل تأكل شيئاً من الطعام ؟

قال لها بصوت ضعيف واهن :

ـــ فيما بعد . . . اذهبى الآن . . .

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده .

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله فى شفقة ثـــم خرجت .

وبعد بضع دقائق ، رفع عينيه ، ونظر الى الشاى والحساء ملياً ، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل .

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة ، بطريقة آلية تقريباً . قلَّ صداع رأسه . حتى اذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد ، لكنه لم يستطع ان ينام مرة أخرى . لبث جامداً ، مضطجعاً على بطنه ، دافناً وجهه فى الوسادة . وبدأت تغزوه الأحلام . كانت جميع أحلامه غريبة جداً ، ها هو ذا يرى نفسه فى مكان ما بأفريقيا ، فى مكان ما بمصر ، فى واحة من الواحات . القافلة تستريح . الجمال راقدة بهدوء وسكون . ومن حوله حلقة من أشجار النخيل . جميع الناس يأكلون . اما هو فلا يزيد على أن يشرب ماء من جدول يجرى هناك على مقربة منه مصطخباً . ما أعظم الانتعاش الذى يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذى يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب ! . . ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط ، واضحةً متميزة . ارتعش راسكولنيكوف وثاب الى نفسه ، فلما رفع رأسه ، ونظر من النافذة ، عرف الساعة التى لعله فيها ، فاذا هو يثب عن أريكته كما لو رفعته قوة مجهولة ، صاحى الذهن

كل الصحو ، ثم يتجه نحو الباب ، سائراً على رؤوس أصابعه ، فيفتح الباب قليلاً برفق ، ويصيخ بسمعه الى الضجات الآتية من السلم . كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً . ولكن كل شىء كان فى السلم هادئاً ، حتى لكأن جميع الناس قد ناموا . . . بدا له أمراً عجيباً وأمراً شاذاً فى الوقت نفسه أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة ، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر ، بينما هناك أشياء يجب عليه أن يعملها ، أن يهيئها . لعل الساعة التى سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة . . . وهذا تعجلٌ خارق محموم مضطرب يستولى عليه بعد النوم والخدر والتوانى . على أن الاستعدادات ليست كثيرة . جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شىء وأن لا ينسى شيئاً . الا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنه كان يتنفس فى كثير من العناء . كان عليه قبل كل شىء أن يصنع علاقة وأن يخيط العلاقة الى المعطف : ذلك عمل يستغرق دقيقة . نبش صرة الملابس التى توجد تحت وسادته ، فسلَّ منها قميصاً عتيقاً ، قذراً ، مهترئاً كل الاهتراء ، غير صالح للاستعمال ، فانتزع من خرقة عصابة عرضها خمس سنتمترات وطولها أربعون سنتمترا . حتى اذا ثنى العصابة ثنيتين ، خلع معطفه الصيفى الواسع المصنوع من نسيج قطنى سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذى كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط اليه طرفى العصابة من الداخل تحت الابط الأيسر . كانت يداه ترتجفان وهو يخيط العصابة الى المعطف . ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه ، فلما عاد يرتدى معطفه كانت العلاقة لا تظهر من الخارج . ان راسكولنيكوف قد أعدَّ الابرة والخيط منذ مدة طويلة : لفَّهما بورق وأودعهما درج منضدته

الصغيرة . أما العلاقة فكانت اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو: كان على العلاقة أن تحمل الفأس . ان من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجول فى الشارع وهو يحمل بيده فأساً . ولو قد أخفى الفأس تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك الى ان يسندها ، وهذا أمر لا بد أن يلفت اليه انتباه الناس . أما الآن فليس عليه الا أن يدخل نصل الفأس فى العلاقة ، فتبقى الفأس طوال الطريق معلقة بالعلاقة فى داخل المعطف تحت الابط بهدوء ، عدا أن فى وسع راسكولنيكوف ، حين يغمد يده فى جيب المعطف من خارج ، أن يسند طرف المقبض ليمنع الفأس من التأرجح . ولما كان المعطف واسعا جداً حتى لكأنه كيس ، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئاً من خلال جيبه . ان فكرة صنع هذه العلاقة قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ أسبوعين .

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دسَّ أصابعه فى الفراغ الضيق الذى يفصل الأريكة «التركية» عن أرض الحجرة ، وأخذ يتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان ، فأخرج الرهن الذى كان قد هيأه وخبأه هناك منذ مدة طويلة . الحق أن هذا الرهن لم يكن رهناً ، وانما هو شريحة ملساء من خشب ، بحجم علبة فضية للسجائر . كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أثناء احدى جولاته ، وذلك فى فناء منزل كانت تشغل أحد أجنحته ورشةٌ ما . وقد ضمَّ الى الشريحة فيما بعد صفيحةً من حديد ، رقيقة ملساء ، — أغلب الظن ان هذه الصفيحة كانت كِسرة من شىء ما — التقطها من الشارع آنذاك أيضاً . حتى اذا شدَّ هذين الشيئين المتفاوتين حجماً — وكانت صفيحة الحديد أصغر من الشريحة الخشبية — ،

أحدَهما الى الآخر ، عُنى بربطهما بخيط متصالب بشدة ، ثم لفَّهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكَّها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحوِّل انتباه العجوز برهةً من الزمن — لأن العجوز ستنهمك فى حل العقد — فيختار هو اللحظة المواتية . ولقد كان هدفه من اضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، فى الوهلة الأولى على الأقل ، أن «الشىء» ليس الا قطعةً من خشب . وكان الرهن مخبأً تحت الأريكة منذ مدة . فما ان أخرج راسكولنيكوف الرهن حتى سمع صياحاً فى الفناء يقول :

— دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه :

— منذ مدة طويلة ! رباه ! . .

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلم الثلاث عشرة ، كقطة ، محاذراً ، ولم يند صوت عن وقع قدميه . ما يزال عليه أن يفعل أهم شىء : أن يسرق الفأس من المطبخ . فأما أن عليه أن يستعمل فأساً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة . وكان راسكولنيكوف يملك كذلك سكيناً مطوية تُستعمل فى الحدائق ولكنه كان غير واثق بالسكين ، وكان غير واثق بقواه خاصةً . لذلك وقع اختياره نهائياً على الفأس . ولنذكر فى هذه المناسبة صفةً غريبة تميزت بها جميع القرارات القاطعة التى اتخذها راسكولنيكوف لانفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له سخيفة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح حاسمة قاطعة . ان راسكولنيكوف ، رغم الصراع المضنى الذى كان يجرى فى

نفسه ، لم يستطع قط أن يصدِّق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ فى يوم من الأيام .

ولو قد اتفق له أن توصل يوماً الى أن يحسم جميع تلك المسائل ، فيبدِّد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك ، عدولَه عن شىء مستحيل عجيب سخيف ! ولكن الواقع انه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التى يجب حلها ومن الشكوك التى يجب تبديدها . أما طريقة الحصول على فأس ، فذلك أمر تفصيلى تافه لا يشغل باله كثيراً ، اذ لا شىء أسهل منه . ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت ، ولا سيما فى المساء : فهى تذهب الى الجيران تارة وتمضى الى الدكاكين تارة أخرى ، وتترك الباب مفتوحاً اثناء ذلك ؛ وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر . كان يكفى اذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق ، وأن يأخذ الفأس متى أزف الوقت ، ثم أن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شىء) ، فيعيد الفأس الى مكانها . غير أن شكوكاً كثيرة كانت تتجسس فى ذهن راسكولنيكوف : ماذا لو رجع بعد ساعة ليردَّ الفأس الى مكانها فكانت ناستاسيا قد عادت الى البيت مصادفةً أثناء غيابه ؟ سيكون عليه طبعاً أن يستمر فى طريقه ، وأن ينتظر خروجها من جديد . فماذا لو احتاجت أثناء ذلك الى الفأس فأخذت تبحث عنها ، وأخذت تصيح وتصرخ ؟ ان ذلك سيولد شبهةً أو هو سيولد فرصةً لشبهة فى أقل تقدير .

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد . لم يكن له متسع من الوقت أيضاً . لقد كان راسكولنيكوف يفكر فى الشىء الاساسى ، ويرجئ التفكير

فى التفاصيل الى اللحظة **التى يكتمل فيها اقتناعه** . ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجئ قط ، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف فى قرارة نفسه . كان لا يتخيل مثلاً أنه فى لحظة معينة سوف يكف عن التفكير ، وسوف ينهض ، وسوف يذهب الى هناك ، بكل بساطة ! . . فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهى الزيارة التى استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل **التمرين**) ، حتى هذه الزيارة لم تكن فى الواقع الا **محاولة** ، ولم يكن فيها جد . كل ما هنالك أنه قال لنفسه : «والله . . . سأذهب ، وسأحاول ، سأحقق ما أحلم به على الأقل» ، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً الا أن يبصق ويولى هارباً وقد امتلأ اشمئزازاً أمام نفسه . ولكن كان يبدو أنه قد أوغل فى التحليل الى النهاية ، وأنه حلَّ المشكلة الأخلاقية التى تطرحها هذه القضية . لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكين مسنونة ، ولم يبق لفكره أى اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه . غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج ، على نحو عنيد وبخنوع ، كأن شخصاً يدفعه الى ذلك ويجبره عليه . وهذا يومُ الأمس الذى جاء على غير توقع وكان يوماً حاسماً ، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً : لكأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجره ، معصوب العينين ، بقوة خارقة ، جراً لا فكاك له منه ، ولا سبيل له الى الاعتراض عليه ! أو كأن آلةً قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها ، وأخذت تجذبه اليها جذباً لا حيلة له فى دفعه !

فى أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً ، وهو : لماذا تنكشف جميع الجرائم بسهولة ويسر ؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً فى غير عناء ؟ وقد

توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً الى نتائج متنوعة شائقة . قال لنفسه ان السبب الأساسى فى ذلك لا يرجع الى استحالة اخفاء الجريمة استحالةً مادية بقدر ما يرجع الى المجرم نفسه . فجميع المجرمين انما يشعرون ، لحظةَ تنفيذهم جريمتهم ، بنوع من انهيار الارادة وفقدان الرأى السديد ، فاذا بالارادة والرأى يحل محلَّهما طيش صبيانى تماماً ، فى الوقت الذى يكون فيه المرء أحوج ما يكون الى العقل والحكمة والحذر . كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأن غياب الرأى السديد وانهيار الارادة الصلبة يستوليان على الانسان كما يستولى عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شىء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة . وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة ، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الافراد ، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض . أما هذا التساؤل : «هل المرض هو الذى يولد الجريمة ، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً ، بحكم طبيعتها ، شىء من مرض ؟» فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلِّها .

فلما انتهى الى هذه النتائج ارتأى أن أمثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو ، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامة الرأى وقوة الارادة طوال فترة تنفيذ خطته ، وذلك لسبب وحيد هو أن ما ينوى القيام به «ليس جريمة» . . . لندع جانباً طريقة وصوله الى هذه النتيجة ، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة . . . وحسبنا أن نضيف الى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها فى ذهنه الا دور ثانوى . كان يقول لنفسه : «سوف يكفينى أن أظل مسيطراً على ارادتى وعلى فكرى حتى تذلّل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت

فأصبح علىَّ أن أدقق فى أيسر تفاصيل القضية . . .» ولكن القضية لم تبدأ ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شىء . حتى اذا أزفت الساعة ، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به ، بل بصورة غير مقصودة وحتى تكاد تكون مفاجئة .

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم : انه حين وصل الى فسحة المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً ، قد ألقى على داخل المطبخ نظرة محاذرة مواربة ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست فى المطبخ أثناء غياب ناستاسيا ، وليتأكد من ان باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل الى المطبخ لأخذ الفأس . فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرةً فحسب بل كانت مشغولة كذلك ، فهى تُخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال ! فلما رأته قطعت عملها والتفتت نحوه ثم لم تحوِّل بصرها عنه الى أن غاب . وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً ، ولكن مهمته كانت قد أخفقت : ما من فأس ! وأسودَّت الدنيا فى عينيه .

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل : «من أين جئتُ بهذه الفكرة وهى أن ناستاسيا لا بد أن تكون فى هذه اللحظة غائبة حتماً ؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله ؟» وشعر بأنه مسحوق مُذل . كان من شدة غضبه يشتهى أن يسخر من نفسه . . . ان حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلى فى أعماقه .

توقف تحت باب المنزل حائراً متردداً . انه يكره أن يمضى الى الشارع هكذا ، تقيداً بالشكل ، ولكنه يكره أكثر من ذلك

أيضاً أن يعود الى غرفته . جمجم يقول : «يا لها من فرصة أضعتها ، أضعتها الى الأبد !» قال ذلك وهو تحت قبة المدخل ، ولكن ها هو ذا الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التى كان بابها مفتوحاً أيضاً . ارتعش راسكولنيكوف فجأة . لقد لمح فى هذه الحجرة ، على بعد خطوتين منه ، تحت دكة ، فى اليمين ، شيئاً يسطع . . . نظر حواليه : لم ير أحداً . اقترب من الحجرة سائراً على رؤوس أصابع قدميه ، وهبط درجتين ، ونادى البواب بصوت ضعيف . لم يجبه أحد . قال يحدث نفسه : «نعم ! البواب غائب . على كل حال ، أغلب الظن أنه فى مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً» . واندفع نحو الفأس بوثبة واحدة (ان الشىء الذى يسطع كان فأساً) . سحب الفأس من تحت الدكة حيث كانت موضوعة بين حطبتين ؛ وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الفأس فى العلاقة داخل المعطف ، ودس يديه فى جيبيه وخرج . لم يره أحد ! قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة : «لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان !» وشجعته هذه المصادفة كثيراً .

سار فى الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتعجل ، وذلك حتى لا يوقظ حوله شبهات . كان لا يكاد ينظر الى المارة ، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه ، بغية أن لا يلفت انتباه أحد . وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه : «ما أغبانى ! كان معى مال أولَ أمس ، ثم لم أشتر عمرة !» وأفلتت منه شتيمة . . .

وألقى نظرة على داخل أحد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة فى الجدار تشير الى السابعة وعشر دقائق . كان عليه أن يغذ الخطى ، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضى الى منزل

العجوز رأساً ، وانما ينبغى له أن يدور دورة . ان من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر فى الجهة الثانية .

فى الماضى ، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كلَّه ، كان يقدر أحياناً انه سيشعر بخوف شديد . ولكنه الآن لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البتة . الآن تشغله أفكار ليس لها أىُّ شأن بالموضوع ، وما أكثر تبدلها وتغيرها ! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلا انبثقت فى ذهنه فكرة توقف عليها ملياً ، هى أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً فى الميادين العامة . وشيئاً فشيئاً انتهى الى الاعتقاد بأنه اذا وُسِّعت «حديقة الصيف» بحيث تشمل كل «ساحة مارس» ، واذا ضُمَّت هذه الحديقة الى حديقة «قصر ميخائيل» ، فسيكون ذلك تجديداً فى المدينة ممتعاً ومفيداً فى آن . وهذا سؤال آخر يشده اليه بقوة . تساءل راسكولنيكوف : لماذا يحب الانسان فى المدن الكبرى ، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل ، أن يمكث خاصةً فى الأحياء التى ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه ، ولا يسودها الا الحمأ والعفن والقاذورات ؟ وتذكر عندئذ جولاته خلال «سوق العلف» ، فارتدَّ لحظة الى الشعور بالوضع الذى هو فيه ، فقال يحدث نفسه : «يا للسخف ! ان من الأفضل أن لا أفكر البتة !»

ووومضت فى ذهنه هذه الفكرة : «لا شك أن الذين يقادون الى المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التى يصادفونها فى طريقهم» . ولكن هذه الفكرة التى ومضت فى ذهنه بسرعة كسرعة البرق ، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضاً . لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء . . . ولكن ها هو ذا قد اقترب . . . هذا

هو المنزل . . . هذا مدخل العمارة ! وفى مكان ما ، رنَّت ساعة حائط على حين فجأة . قال راسكولنيكوف لنفسه متسائلاً : «ماذا ؟ أتكون هى السابعة والنصف ؟ أهذا ممكن ؟ مستحيل . . . لا شك أن هذه الساعة متقدمة ! . . »

وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل . ان عربة ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل ، فى تلك اللحظة نفسها كما لو عمداً ، أمامه تماماً ، فتخفيه اخفاءً كاملاً طوال مدة مروره . فما ان نفذت العربة الى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة . وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة . كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون . ولكن أحداً لم يلاحظه ، ولم يلتق بأحد البتة . وكانت نوافذ كثيرة مطلةً على الفناء المربع الواسع مفتوحة فى تلك اللحظة . ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه . لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه . والسلم الذى يفضى الى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل ، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم . . .

استرد راسكولنيكوف أنفاسه ، وضغط باحدى يديه خفقات

قلبه ، بينما كانت الأخرى تتلمس الفأس وتعدل وضعها . وأخذ يصعد محاذراً هادئاً مصيخاً بسمعه فى كل لحظة . ولكن السلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً . ان جميع الأبواب مغلقة . لم يلتق راسكولنيكوف بأحد . صحيح أن باب شقة غير مسكونة ، فى الطابق الثانى ، كان مفتوحاً . ان عدداً من الدهانين يعملون فى تلك الشقة ، ولكنهم لم يلاحظوه . توقف راسكولنيكوف لحظةً ، وفكَّر ، ثم تابع الطريق وهو يحدث نفسه قائلاً : «طبعاً . . . من الأفضل أن لا يوجدوا هنا . . . ولكن . . . ما يزال ثمة طابقان» .

هذا هو الطابق الرابع أخيراً . . . هذا هو الباب . . . هذه هى الشقة المقابلة . . . انها ما تزال خالية . . . وأغلب الظن ان الشقة التى تقع تحت مسكن العجوز فى الطابق الثالث خالية أيضاً . ان البطاقة المسمَّرة على الباب قد زالت . . . معنى ذلك أن سكانها قد رحلوا . . . كان راسكولنيكوف يشعر باختناق . ووميضت فى ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق : «ماذا لو انصرفت ؟» ولكنه لم يجب عن هذا السؤال ، وأنصت يصغى الى ما يجرى فى بيت العجوز : لا شىء الا الصمت . . . صمت كصمت القبور . واستدار مرة أخرى نحو السلم ، وتسمَّع مدة طويلة بانتباه شديد . . . وبعد ذلك ، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة ، وتهيأ ، وعدل مقبض الفأس فى العلاقة مرة أخرى . تساءل بينه وبين نفسه : «ألست مسرفاً فى الشحوب ، مسرفاً فى توتر الأعصاب ؟ انها شكَّاكة ريابة . . . أفلا ينبغى لى والحالة هذه أن أنتظر . . . الى أن يهدأ قلبى ويسكن روعى ؟»

ولكن قلبه لم يهدأ . بالعكس : أخذ قلبه ، كأنما على عمد ، يدقُّ دقاً أقوى فأقوى . . . لم يطق صبراً ، فمد يده

يبطء الى حبل الجرس ، وشدةً ، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر .

ما من جواب . فيمَ قرع الجرس بغير طائل ؟ ثم ان هذا ليس بالمستحسن . لا شك أن العجوز فى منزلها ، ولكنها الآن وحيدة وشكّاكة . لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها . . . وها هو ذا يضع أذنه على الباب مرة أخرى . أكانت حواسه مشحوذة شحذاً قوياً الى هذا الحد — وذلك ما يصعب أن يسلّم به الناس عامةً — أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً ؟ المهم أنه قد ميَّز ، على حين فجأة ، خشخشة يد محاذرة على مقبض الباب وحفيفَ ثوب يلامسه . لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب ، ويصيخ بسمعه من الداخل ، مثلما يصيخ هو بسمعه من الخارج ، حابساً أنفاسه مثله ، واضعاً أذنه على الباب مثله أيضاً . . .

تعمَّد راسكولنيكوف أن يتحرك ، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن لا تحس العجوز أنه يختبئ ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة ، ولكنه قرعه فى هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة ، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر . ان ذكرى هذه اللحظة ستعاوده فى المستقبل واضحة مضيئة ، لأنها قد انطبعت فى ذهنه الى الأبد . ان راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم فى يوم من الأيام بعد ذلك ، من أين جاءه ذلك المكر كله ، لاسيما أن فكره كان يظلم بين الفينة والفينة ، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه . . . وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحبُ لفتح الباب .

الفصل السابع

شُق الباب قليلاً كما حدث فى المرة الماضية ، وحدقتْ الى راسكولنيكوف من قرارة الظلام عينان حادتان ريّابتان . هنا فقد راسكولنيكوف هدوء اعصابه فارتكب خطيئة كبيرة أوشكت أن تفسد عليه كل شىء .

لقد خشى راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدةً معه ، وكان لا يأمل أن يرد اليها مظهرُه طمأنينتها ، فأمسك الباب وشدّه اليه ، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد ؛ فلما رأت العجوز ذلك لم تشدَّ الباب الى جهتها ، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً ، فأوشكت أن تُجرَّ الى فسحة السلم . وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة فى العتبة لتسد الطريق ، مشى اليها قُدماً ، فاذا بذعر شديد يستولى عليها ، واذا هى تتقهقر الى الوراء بوثبة واحدة ، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع ، وتشخص اليه بكل عينيها .

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع ذلك :

— نهارك سعيد يا آليونا ايفانوفنا .

ولكن صوته لم يطعه ، فقد كان متقطعاً مرتجفاً . وتابع كلامه يقول لها :

— جئتك بالرهن . . . ولكن فلنمض الى هناك حيث الضوء أكثر . . .

ولم ينتظر ان تدعوه الى الدخول بل نفذ الى الغرفة بخطى حازمة . جرت العجوز وراءه . وانحلت عقدة لسانها فقالت :

— رباه ! ما هذا ؟ من أنت ؟ ماذا تريد ؟

— عجيب يا آليونا ايفانوفنا . . . أنا راسكولنيكوف . . .

انك تعرفيننى منذ مدة طويلة . . . خذى . . . لقد جئتك بالرهن الذى وعدتك به آخر مرة . . .

قال لها ذلك ومدَّ اليها الرهن .

أخذت العجوز تتفحص الرهن ، ولكن سرعان ما عادت

عيناها تحدقان الى عينى الزائر الغريب . كانت تتفرس فيه بانتباه وخبث وخشية . انقضت دقيقة ، حتى لقد خُيل الى راسكولنيكوف أنه يرى فى عينيها نوعاً من السخرية ، كأنما هى قد ادركت كل شىء . شعر راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه ، وأن خوفاً يغزوه ، خوفاً يبلغ من الشدة أنه سوف يولى هارباً اذا هى ظلت تحدق اليه هذا التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة .

قال فجأة ، بخبث أيضاً :

— ما بالك تنظرين الىَّ هكذا كأنك لم تعرفينى ؟ خذى الرهن اذا شئت . . . والا لجأت الى غيرك ! ليس فى وقتى متسع . . .

ان راسكولنيكوف لم يشأ أن ينطق بهذه الأقوال ، ولكنها أفلتت منه من تلقاء نفسها فجأة .

استردت العجوز هدوءها . ان اللهجة الجازمة فى كلام الزائر قد اعادت اليها الثقة .

سألته وهى تنظر الى الرهن :

— ولكن ، سيدى ، لماذا تفاجئنى هكذا ؟ . . وما هو هذا الشىء الذى تريد أن ترهنه ؟

قال راسكولنيكوف :

— هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة . حدثتك عنها فى المرة الماضية .

مدت العجوز يدها وقالت :

— ولكن ما أشد شحوبك ! ويداك ما بالهما ترتجفان ! هل استحممت ، هه ؟

أجابها بصوت متقطع :

— بى حمى ! . .

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

— وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه ! . .

لقد بارحته قواه من جديد . ولكن جوابه كان معقولاً . تناولت العجوز الرهن .

سألت العجوز راسكولنيكوف ، وهى تتفرس فيه مرة أخرى ، وتروز الرهن بيدها :

— ما هذا ؟

— علبة سجائر . . . فضة . . . أنظرى .

— لا يبدو أنها من فضة ! . . لكنك لففتها لفا اكثر من اللزوم .

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الخيط مقتربةً من النافذة حيث كان الضوء أكثر (كانت جميع النوافذ فى بيتها مغلقة رغم الحرارة الخانقة) . تركت راسكولنيوف اذن بضع لحظات ، وأدارت له ظهرها . فكَّ راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلَّ الفأس من العلاقة ، ولكنه لم يخرجها اخراجاً تاماً ، فهو ما يزال يمسكها بيده اليمنى تحت المعطف . لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد ، وهو يحس أنهما تزدادان تخدراً وثقلاً لحظةً بعد لحظة ، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب . خشى أن يرخى الفأس وأن يتركها تسقط . . . وأخذ رأسه يدور فجأة . . . هتفت العجوز تقول بزعل وهى تنوى ان تتقدم نحوه :

— من ذا يخطر بباله حقاً أن يربط صرةً هذا الربط ؟

لم يبق فى وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها . وها هو ذا يخرج الفأس ، ويشهرها بكلتا يديه ، ويسقطها على

رأس العجوز وهو لا يكاد يعى ماذا يعمل ، ولا يكـــاد يبذل جهداً ، حتى لتوشك أن تكون الحركة التى قام بها حركةً آلية . لقد تمت هذه الحركة كما لو من تلقاء نفسها ودون أن تتدخل فيها قواه ، ولكنه ما أن أسقط الفأس حتى عادت اليه قواه .

كانت العجوز عارية الرأس على عادتها . وكان شعرهـا الشائب ، الخفيف ، المُدْهن ، المزيَّت كثيراً ، المضفور على صورة ذيل فأرة ، المشدود ببقية مشط ، كان يبرز ناتئاً على قفا رقبتها . ولأن قامتها قصيرة فان ضربة الفأس قد سقطت على قمة جمجمتها . أطلقت العجوز صرخة ، ولكنها صرخة ضعيفة جداً . ومال جسمها الى الأرض ولكنها استطاعت ان ترفع يديها الى رأسها . وكانت ما تزال تمسك «الرهن» باحدى يديها . هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة ، ثم بضربة أخرى ، باذلاً كل ما يملك من قوة ، وذلك بظهر الفأس أيضاً ، وعلى قمة الجمجمة كذلك . انبجس الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس مقلوبة ، وتهاوى الجسم الى وراء . تقهقر راسكولنيكوف ليخلى لها مكاناً ، ثم أسرع يميل على وجهها : كانت العجوز قد ماتت . لكأن عينيها المحملقتين تريدان أن تخرجا من حجاجيهما . والوجه كله ، ولا سيما الجبين ، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التى تصاحب الاحتضار .

وضع راسكولنيكوف الفأس على أرض الحجرة قربَ الميتة ، وأسرع يدس يده فى جيبها متحاشياً أن تتسخ يداه بملامسة الدم . دس يده فى ذلك الجيب الأيمن الذى أخرجت منه العجوز مفاتيحها فى المرة الماضية . كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه ، كان لا يشعر بظلام فكره أو بدوار فى رأسه . ان

يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان . سوف يتذكر راسكولنيكوف فى المستقبل أنه كان فى تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر ، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم . . . سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح . كانت المفاتيح ، كما فى المرة الماضية ، مجتمعةً فى حزمة واحدة تضمها بعضها الى

بعض حلقة من فولاذ . حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً الى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة . انها غرفة صغيرة جداً تنتصب فيها أيقونات فى داخل خزانة كبيرة ذات زجاج . وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير ، نظيف جداً ، له غطاء من حرير ، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجتمعة . وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج . شيء غريب : ما ان أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح فى قفل الخزانة ، وما ان سمع صريف المفاتيح ، حتى سرى فى كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة . وتمنى فجأة من جديد أن يدع كل شيء وأن ينصرف . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة . لقد فات أوان الانصراف . وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه الى الخطر . لقد خيل اليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من غيبوبتها . فاذا هو يترك المفاتيح والخزانة ، ويعود الى الجثمان راكضاً ، ويتناول الفأس ويشهرها فوق العجوز مرة أخرى ، ولكنه لا يسقطها عليها . لقد كانت العجوز ميتة . لم يبق مجال للشك فى هذا . وحين مـــال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب ، رأى رؤيةً واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وان قمتها كانت قد انحرفت قليلاً . اشتهى أن يضع هنالك اصبعه ، ولكنه منع نفسه عن ذلك : يكفيه أن يرى . وكان الدم قد شكّل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركة كبيرة . ولمح راسكولنيكوف ، على حين فجأة ، حبلاً صغيراً فى عنق العجوز ، فشدّه ، ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع ، وكان الى ذلك مشرباً بالدم . حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل . ولكن شيئاً ما كان يثبته . ثارت ثائرة راسكولنيكوف ، فشهر الفأس من جديد ، عازماً على

أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز ، لكنه لم يجرؤ أن يفعل ؛ واستطاع ، بعد دقيقتين من الجهد ، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان ، ملطّخاً بالدم يديه والفأس معاً . ثم سحب الحبل . لم يخطئ ظنه : هى صُرَّة مال . لقد عُلّق بالحبل صليبان ، أحدهما من خشب السرو ، والثانى من نحاس ، وعُلّقت به ايقونة صغيرة مطلية بالمينا ، وحافظة نقود من جلد شامواه ، صغيرة متسخة كل الاتساخ ، ولها اطار وحلقة من فولاذ . كانت حافظة النقود تبدو محشوة حشواً . وضعها راسكولنيكوف فى جيبه دون أن يدقق فيها . ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز . وركض الى غرفة النوم من جديد ، حاملاً الفأس فى هذه المرة .

وبسرعة محمومة ، أمسك المفاتيح ، وعاد ينهمك فى معالجتها ، ولكن دون أن يفلح أيضاً ، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل . ليس يرجع ذلك الى أن يديه كانتا ترتجفان ، وانما يرجع الى أنه كان يخطئ فى كل مرة . كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب ، وأنه لا يدخل فى القفل ، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله . وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح الكبير المسنّن الذى يتأرجح الآن بين سائر المفاتيح الصغيرة ، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه فى المرة الماضية) ، بل يناسب صندوقاً ما ، وأن كل شىء ربما كان مودعاً مخبأً فى ذلك الصندوق . ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج ، وأسرع يندس تحت السرير ، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن فى هذا المكان . ولم يخطئ فى ظنه اذ كان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير ،

يزيد طوله على أرشين ، وله غطاء محدودب منجّد بجلد رقيق أحمر تزينه مسامير صغيرة من فولاذ . انطبق المفتاح المسنّن على القفل انطباقاً تاماً ، وفُتح الصندوق . هذا معطف من فرو الأرنب مبطن بحرير أحمر ، يعلو سائر الأشياء التى يضمها الصندوق ،

ويحميه شرشف أبيض يوجد تحته فستان من الحرير ثم شال . وفى قرارة الصندوق لا يبدو أنه يوجد الا خرق . أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطخين بالدم ، قائلاً لنفسه : «هى حمراء ، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره» ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك ، وتساءل مذعوراً : «رباه ! أأنا بسبيل أن أصبح مجنوناً ؟»

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة فى قرارة الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف ، على حين فجأة ، ساعة ذهبية . فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمه الصندوق . كان بين الخرق ، فعلاً ، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايفانوفنا ثم لم يستردوها) :

فهناك أساور وسلاسل وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك . ان بعض هذه الأشياء موضوع فى علب ، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر ، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط فى عناية وحرص . أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه ، مهملاً حتى أن يفض الصُّرر ويفتح العلب . ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء . . .

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام فى الغرفة التى يرقد فيها جثمان العجوز . تجمَّد وانشل حتى لكأنه ميت . ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيِّم . فظن أنه كان ألعوبةَ وهمٍ من أوهام الخيال . وما هى الا برهة وجيزة حتى سمع صرخةً ضعيفة تنطلق على حين بغتة ، كانت تلك الصرخة أشبه بأنَّة خافتة متقطعة ، ثم عاد الصمت يخيِّم من جديد . ان صمتاً كصمت الموت قد ساد الجوَّ خلال دقيقة أو دقيقتين . قرفص راسكولنيكوف قرب الصندوق ينتظر ، وهو لا يتنفس الا بكثير من العناء . ثم نهض بوثبة واحدة ، فأمسك الفأس ، واندفع يخرج من غرفة النوم .

فى وسط الغرفة كانت اليزافيتا واقفةً وفى يدها سلة كبيرة . انها تنظر الى أختها الميتة مذعورةً مصعوقة . كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكِّنها من أن تصرخ . فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة فى مهب الريح . وسرت فى جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة . وتقبَّض وجهها بتشنجات . رفعت ذراعها ، وفتحت فمها ، دون أن تصرخ مع ذلك ، وأخذت تتقهقر الى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف ، محاولةً أن تلطو فى ركن من الأركان . وكانت أثناء ذلك تحدق اليه وتتفرس فيه ، ولكنها ما تزال

خرساء لا تنطق ، كأنما انقطعت أنفاسها . هجم راسكولنيكوف عليها مسلَّحا بفأسه . تقلصت شفتا اليزافيتا من الألم ، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين اذا رأوا الشىء الذى يخيفهم ، همُّوا أن يصرخوا دون ان يحوِّلوا نظراتهم عن الشىء الذى يثير خوفهم . مسكينة اليزافيتا ! كانت تبلغ من السذاجة والبساطة ومن فرط ما عانته من اضطهاد ورعب فى حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمى وجهها ، مع أن هذه الحركة هى الحركة الطبيعية فى مثل تلك اللحظة ، لأن الفأس انما كانت مصوَّبة الى رأسها . اكتفت اليزافيتا بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التى لا تحمل شيئاً ، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما لتدفعه عنها . هوى راسكولنيكوف عليها بحدِّ الفأس ، فأصابت الضربة جمجمتها ، وشقت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً . سقطت اليزافيتا على الأرض كتلةً واحدة ، فتناول راسكولنيكوف سلتَّها ، وقد طار صوابه كله ، فرماها وأسرع راكضاً الى حجرة المدخل .

كان الذعر يستولى عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شىء ، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التى لم تكن فى الحسبان قط . انه الآن يتعجل مغادرة المكان باقصى سرعة . ولو كان عندئذ فى حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم ؛ لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذى يتصف بأنه يائس فظيع مستحيل ؛ لو استطاع أن يتصور ، عدا ذلك ، العقبات الكثيرة التى ما يزال عليه أن يجتازها ، وربما الجرائم الكثيرة التى سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة الى مسكنه ، اذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شىء ، وأن يبادر فوراً الى تسليم نفسه ، لا عن خوف ، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز

مما فعل . لقد كان الاشمئزاز ، خاصةً ، يزداد دقيقةً بعد دقيقة . ما كان له الآن ، بحال من الأحوال ، أن يقترب من الصندوق ، أو حتى من الغرفة .

ولكن نوعاً من الذهول ، بل ومن الحلم ، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء ؛ حتى لكأنه فى بعض اللحظات قد نسى نفسه ، أو قل نسى الأمر الأساسى وتشبث بالتفاصيل وحدها . ثم انه حين ألقى نظرة على المطبخ لمح دلواً موضوعاً على دكة ، وممتلئاً نصفه بالماء . فارتأى أن يغسل فيه يديه والفأس . كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين . أغطس حدَّ الفأس فى الماء ، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة فى صحن متثلم ، وأخذ يغسل يديه داخل الدلو . فلما انتهى من غسلهما ، سحب الفأس ، فنظَّف نصلها ، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضها فى المواضع الملطخة بالدم ، حتى لقد استعمل فى تنظيفه الصابون . وبعد ذلك مسح الفأس كلها بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود فى المطبخ . ثم اقترب من النافذة ، وراح يفحص الفأس بانتباه شديد . لم يبق على الفأس أى أثر ، ولكن مقبضها ما يزال رطباً . دسَّ راسكولنيكوف الفأس فى العلاقة التى خاطها فى داخل معطفه ، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحذاءين ، بالقدر الذى أتاحه له النور الضعيف . لا شيء ، من النظرة الأولى ، يبدو على مظهره من خارج . على الحذاءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع . بلَّل راسكولنيكوف خرقة ومسح الحذاءين . على أنه كان يعرف أنه لا يفحص نفسه جيداً ، وأنه ربما كان هنالك شيء يلفت الأبصار ولكنه لا يلاحظه . وقف فى وسط الغرفة حائراً . وهذه فكرة مظلمة قاتمة تغزوه ،

وهى أنه يتصرف تصرف مجنون ، وأنه لا يملك فى هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه ، وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير ما يفعله الآن . دمدم يقول : «رباه ! ان علىَّ أن أهرب ، أن أهرب !» واندفع نحو حجرة المدخل . ولكنْ هناك انما كان ينتظره رعب لم يشعر بمثله فى حياته !

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك ، وأخذ ينظر فلا يصدِّق عينيه : ان الباب الذى يفضى الى فسحة السلم ، هذا الباب الذى قرع جرسه ودخل منه منذ قليل ، هو الآن مفتوح ، موارب بعرض راحة يد كاملة . لا مفتاح ولا مزلاج اذن ، طوال الوقت الذى انقضى ! ان العجوز لم تغلق الباب اذن بعد دخوله ، ربما من باب الاحتياط والحذر ! ولكن ما هذه الخواطر ؟ ألم يرَ اليزافيتا بعد ذلك ؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكان ما ؟ انها لم تخترق الجدران على كل حال !

وأسرع راسكولنيكوف الى الباب فأوصد المزلاج .

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه :

— لا ، لا ، ليس هذا ما يجب علىَّ أن أفعله . ينبغى أن أنصرف ، أن أنصرف . . .

وسحب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخذ ينصت الى ضجات السلَّم متجسساً .

لبث يتجسس هذا التجسس مدةً طويلة . هناك ، فى بعيد ، ربما عند باب العمارة ، أصوات رجلين صارخين معولين ، يتشاجران ويتشاتمان . تساءل راسكولنيكوف : «ما بالهما ؟» وانتظر صابراً . وصمت كل شيء فى آخر الأمر دفعةً

واحدة : افترق الرجلان . استعد راسكولنيكوف للخروج ، فاذا بباب فى الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاخباً ، فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميعاً ؟» وعاد يغلق الباب عليه من جديد ، وانتظر . وأخيراً انقطعت كل ضجة ، فما من حركة وما من نأمة . خرج راسكولنيكوف . ولكنه ما ان وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرةً أخرى أصوات وقع أقدام .

ان أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد ، من أسفل السلَّم ، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد ، تذكّر تذكراً واضحاً جداً ، أنه منذ سمع صدى أول خطوة ، أوجس فوراً لسبب ما أن **ذلك آت الى هنا** حتماً ، الى الطابق الرابع ، الى مسكن العجوز . لماذا ؟ ماذا كان فى تلك الضجة من شىء خاص ذى دلالة الى هذا الحد ؟ كانت الخطوات ثقيلة ، موزونة ، أميل الى البطء . ها هو ذا **القادم** يجتاز الطابق الأول ، ها هو ذا يستمر فى الصعود ، ان صوت وقع خطاه يزداد قوة ، وما ينفك يزداد قوة ! ان راسكولنيكوف يسمع الآن لهاثه . ها هو ذا يبلغ الطابق الثالث . . . هو قادم الى هنا ! أحس راسكولنيكوف فجأة بتجمد فى جسمه . ان الأمور تجرى كما تجرى فى الأحلام تماماً ، حين يرى النائم نفسه ملاحَقاً مطارَداً ، فيقترب منه خصمه ويريد قتله ، فيظل مسمَّراً فى مكانه ان صح التعبير ، عاجزاً عن تحريك ذراعيه .

ولم يثب راسكولنيكوف الى رشده الا حين أخذ القادم يعبر الى الطابق الرابع . فاستطاع عندئذ أن يرجع الى البيت مسرعاً

محاذراً ، وأغلق على نفسه الباب ، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفيقاً بلا ضجة ، تقوده فى ذلك غريزته ، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه . وكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً . ان كلا من الرجلين يقف الآن أمام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل ، حين لم يكن يفصل بينهما الا سُمْك الباب ، وحين كان راسكولنيكوف مصيخاً بسمعه يتصنت .

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة . قال راسكولنيكوف يحدِّث نفسه وقد تقلصت يده على الفأس : «لا بد أنه طويل وضخم» . حقاً ان ذلك كله يشبه الأحلام شبهاً كبيراً . أمسك الزائر حبل الجرس ، وشدَّه شداً قوياً .

فما ان دوَّى رنين الجرس حتى أحسَّ راسكولنيكوف بأنه يسمع ضجة خفيفة فى الغرفة كأن أحداً قد تحرك ؛ حتى لقد أنصت جاداً خلال بضع ثوان ؛ وقرع الزائرُ المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر ثم اذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتى من قوة . فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً الى المزلاج الذى أخذ يتهزز فى الرزة . ان راسكولنيكوف يتوقع ، وقد شلَّه الرعب ، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة الى أخرى . والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً . فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج . خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده . ولكنه أمسك عن ذلك ، لأن **الرجل** كان سيلاحظ هذه الحركة . أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار ، وقال يحدث نفسه : «ها أنا ذا أوشك أن أقع» . ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم ، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف الى رشده .

زأر الرجل المجهول يقول بصوت أجش :

— هيه ! ماذا ؟ هل هما نائمتان هناك أم أن أحداً خنقهما ؟ اللعنة عليكما ! هيه ! أنتِ يا آليونا ايفانوفنا ! يا عجوز النحس ! وأنتِ يا اليزافيتا ايفانوفنا ، يا جمالاً لا يضارع ! افتحا الباب ! آه . . . يا للعنة ! أهما نائمتان حقاً ؟

وجُنَّ من الغضب مرة أخرى فشدَّ حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية . لا شك أنه رجل خطير الشأن ، وأنه فوق ذلك من روَّاد هذا المنزل الذين ألفوا التردد اليه .

وفى تلك اللحظة نفسها سُمع صوتُ وقع خطوات صغيرة متعجلة على درجات السلم . كان شخص آخر يقترب . ولم يسمع راسكولنيكوف ضجة مجيئه فى أول الأمر .

صاح القادم الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذى كان لا يزال يشد الحبل :

— هل يمكن أن لا يكون فى البيت أحد ؟ نهارك سعيد يا كوخ !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «صوته يدلُّ على أنه شاب فى ريعان الشباب» .

أجاب كوخ :

— لا يعلم الا الشيطان ماذا جرى ! لقد أوشكت أن اكسر القفل . ولكن كيف تعرفنى أنت ؟

— ما هذا الكلام ؟ ألم أغلبك أمس الأول ثلاث مرات متتالية فى البلياردو بمقهى «جامبرينوس» ؟

— آ . . .

— أليستا اذن فى البيت ؟ هذا شىء غريب ! وهو فوق

ذلك شىء مزعج ! أين عساها ذهبت ، هذه العجوز ؟ لقد كنت آتياً اليها لأعمال . . .

— أنا أيضا آتٍ اليها لأعمال ، يا سيدى ! . .

صاح الشاب يقول :

— ماذا نفعل اذن ؟ يا لسوء الحظ ! كنت احسب أننى سأحصل على بعض المال .

— طبعاً لم يبق لنا الا أن ننصرف ، ولكن لماذا حددتْ لى موعداً ؟ يا للعجوز الشمطاء ! هى التى حددت لى هذا الموعد ! ثم اننى قد اضطررت من أجل الوصول أن أدور دورة طويلة . أين عساها ذهبت ؟ اننى لا أفهم ! انها تقبع فى بيتها طول العام ، هذه العجوز الشمطاء . . . وتعفن فى مكانها لا تبارحه . . . لأنها تشكو من أوجاع ساقيها فما بالها تمضى تتجول الآن على حين فجأة ؟ . .

— ما رأيك الآن فى أن نسأل البواب ؟

— نسأله عماذا ؟

— نسأله عن المكان الذى ذهبت اليه ، وعن الوقت الذى ستعود فيه !

— همْ . . . نسأل ؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذى ذهبت اليه وهى لا تذهب الى أى مكان فى يوم من الأيام ؟

قال الرجل ذلك وشدَّ قبضة الباب مرة أخرى ، ثم أضاف :

— لا فائدة ! لم يبق الا أن ننصرف !

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً :

— انتظر ! أنظر . . . ان الباب يتحرك حين يُهزُّ .

— وماذا فى هذا ؟

— هذا يعنى أن الباب ليس مقفلاً بالمفتاح ، وانما هو موصد بالمزلاج وحده . ألا تسمع صرير المزلاج ؟

— وماذا فى هذا ؟

— كيف لا تفهم ؟ معنى ذلك أن احداهما ، فى أقل تقدير ، موجودةٌ فى البيت ؛ فلو انهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج ، لا بالمزلاج من داخل . انك تسمع صرير المزلاج . . . ألا تسمعه ؟ ومن أجل اغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون فى البيت أحد . هل فهمت ؟ هما اذن فى بيتهما ، ولكنهما لا تريدان أن تفتحا .

صاح كوخ يقول مدهوشاً :

— حقاً . . . حقاً ! تُرى ماذا تصنعان ؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد .

هتف الشاب يقول مرة أخرى :

— انتظر ! كفاك هزاً للباب ! ان فى الأمر سراً ! لقد قرعتَ الجرس وهززت الباب فلم تفتحا ! . . معنى هذا : اما أنهما مغشىٌّ عليهما ، واما أنهما . . .

— واما أنهما ماذا ؟

— هلم نستدعى البواب . الأفضل أن يتولى هو ايقاظهما !

— موافق .

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم . ولكن الشاب ما لبث أن قال :

— انتظر ! ابق أنت هنا ، وأنا استدعى البواب .

— أبقى هنا ؟ لماذا ؟

— لا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث .

— لك ما تشاء . . .

قال الشاب بلهجة متحمسة :

— أرأيت ؟ اننى أهيئ نفسى لوظيفة قاضى تحقيق ! الأمر واضح ، وا . . . ضح ! لا شك أن هناك سراً .

واندفع الشاب راكضاً على السلم .

فلما أصبح كوخ وحيداً شدَّ حبل الجرس برفق ، فرنَّ الجرس رنةً واحدة ، ثم هزَّ قبضة الباب مرة أخرى ببطء ، كمن يفكر أو يحاذر ، فهو يشدها اليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً الا بالمزلاج . ثم مال الى تحت لاهثاً ، ونظر من ثقب القفل ، ولكن المفتاح كان مدسوساً فى القفل من الداخل ، فلا يمكن أن يُرى شىء .

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً ، قابضاً على فأسه . كان فى حالة قريبة من الهذيان . حتى لقد كان يتهيأ لأن يقاتلهما متى دخلا . ولقد خطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعةً واحدة فيناديهما من خلال الباب . واستبدت به فى بعض اللحظات رغبة مجنونة رعناء فى أن يسخر منهما ، وان يستهزئ بهما ، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب . لقد ومضت فى ذهنه بمثل سرعة البرق هذه الفكرة : «الأفضل أن يتم الأمر بأقصى سرعة» . قال الزائر :

— اللعنة ! ولكنه . . .

وكان الوقت ينقضى . مضت دقيقة ، ومضت دقيقة أخرى . . . دون أن يرجع أحد . أخذ كوخ يضطرب .

وها هو ذا يهتف فجأة :

— اللعنة !

ونفد صبره ، فترك مكانه ، وهبط بسرعة هو أيضاً . ان أصوات وقع حذاءيه تدوّى على السلّم . ثم انقطعت هذه الأصوات .

— ما العمل يا رب ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشقّ الباب . لم يسمع أية نأمة . وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير ، خرج على حين فجأة وأغلق الباب وراءه بقدر ما يستطيع من احكام ، واندفع يهبط السلم .

حتى اذا اجتاز ثلاث فسح للسلم سمع صخباً شديداً يدوّى تحت . أين يختبئ ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبئ . حتى لقد تهيأ لأن يقفل راجعاً وأن يعود الى بيت العجوز ركضاً .

— هيه ، لعنة الله عليه ! يا للشيطان ! أوقفوه !

ان الشخص الذى أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة فى أسفل ، وأخذ يهبط السلم تدحرجاً ان صح التعبير ، صائحاً بأعلى صوته :

— ميتكا ! ميتكا ! ميتكا ! ميتكا ! • شيطان يقشر جلدك !

وانتهى الصراخ بعويل حاد ، فكانت اصداؤه تترجع فى فناء المنزل ثم صمت كل شيء . ولكن فى تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عالٍ . لعل عددهم ثلاثة أو أربعة . وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان ، صوت الشاب الذى كان

يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل . قال لنفسه : «انهم هم !» .

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى الى لقائهم قُدُماً قائلاً لنفسه : «ليكن ما يكون !» . لقد ضاع كل شيء : اذا استوقفوه فقد ضاع كل شيء ، واذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم سيتذكرونه . . . أوشكوا أن يلتقوا . ليس يفصلهم الآن الا طابق واحد ! واذ بالنجاة تواتيه فجأة ! فبعد بضع درجات ، على اليمين ، كانت هناك شقة خالية مفتوحٌ بابها ، هى تلك الشقة نفسها التى تقع فى الطابق الثانى التى كان يعمل فيها الدهانون . لقد غادرها الدهانون منذ قليل ، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً . لا شك أنهم هم الذين خرجوا منذ قليل محدثين صخباً شديداً . ان خشب الأرض فى هذه الشقة ما يزال طلاؤه غضاً . وفى وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاةٌ كبيرة . تسلل راسكولنيكوف الى الشقة من الباب المفتوح فى مثل لمح البصر سرعةً ، ولطا على الحائط . وحسن ما فعل لأن الرجال كانوا قد وصلوا الى فسحة السلم ، فداروا وصعدوا الى الطابق الرابع ، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال . انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رؤوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً .

ما من أحد كان على السلم ! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة ! اجتاز العتبة مسرعاً ، حتى اذا سار فى الشارع ، التفت يسرة .

كان يعلم حق العلم ، كان يعلم علمَ اليقين أنهم فى هذه اللحظة نفسها موجودون فى بيت العجوز ، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ

قليل ، وأنهم ينظرون الى الجثتين ، وأنهم لن يحتاجوا الى أكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الادراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيزة ، وأنه أفلح فى الاختباء بمكان ما ، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم ان صح التعبير . ولعلهم قدروا أيضا أن هذا القاتل قد اعتصم بالشقة الخالية بينما كانوا يصعدون السلم . ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف ان يعجّل سيره ، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل الى المنعطف التالى . تساءل : «ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب ؟ ماذا لو انتظرتُ فترة ما فى سلمّ منزل مجهول ؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله : «لا ، هذا رأى فاسد !» وتساءل أيضاً : «ماذا لو رميت الفأس فى مكان ما ؟ ماذا لو ركبت عربة ؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله : «لا ، هذا رأى فاسد ، رأى فاسد !» .

وها هو ذا يصل أخيراً الى زقاق ، فيدخل فيه وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة . ولكنه فهم انه الآن تملّص من الورطة او يكاد اذ انه فى هذا الزقاق لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك . ثم ان الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيرا فضاع راسكولنيكوف فى الجمهور كحبة رمل . ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدّت قواه ، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير . كان العرق يسيل منه ، وكانت عنقه مبتلة مخضلة ، حتى ان أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف الى القناة : «ما أكثر ما شربتَ !»

أصبح راسكولنيوف لا يعى نفسه كثيراً ، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة . ان اللحظة الوحيدة التى بقيت فى ذاكرته هى اللحظة التى وصل فيها الى رصيف القناة ،

فأرعبه أن يرى أن الناس هناك قليل ، فمن الممكن أن يُلاحظ . فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه الى الزقاق . ومع ذلك ، ورغم أنه قد بلغ من الضعف أنه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، فقد دار دورة طويلة ، ورجع الى بيته من جهة أخرى تماماً .

وحين اجتاز مدخل العمارة التى فيها بيته ، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد . ومهما يكن من أمر فانه لم يتذكر الفأس الا حين صار فى السلّم ، مع أن هذه المسألة هى من أخطر المسائل التى كان عليه أن يحلها . لقد كان عليه أن يعيد الفأس الى مكانها مهما كلّف الأمر ، وذلك على أخفى نحو ممكن . يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً حتى أن يتصور أن من الأفضل له ، بدلاً من اعادة الفأس الى مكانها ، أن يرميها ، ولو بعد مدة ، فى أى مكان ، فى فناء عمارة من العمارات .

جرى كل شىء على خير وجه . كان باب غرفة البواب مغلقاً ، ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح . معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون فى غرفته . ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجز عن التفكير فى أى شىء أنه أقبل على غرفة البواب بخطى حازمة ، وفتح الباب . ولو قد سأله البواب عندئذ : «ماذا تريد ؟» اذن لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد اليه الفأس . ولكن البواب كان غائباً فى هذه المرة أيضاً ، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الفأس الى مكانها تحت الدكة ، حتى انه لم يفته أن يضع فوقها الحطبة التى كانت موضوعة عليها حين أخذها . واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف فى طريقه أى مخلوق . وكان باب صاحبة البيت مغلقاً . حين دخل راسكولنيكوف حجرته ارتمى على الأريكة

دون أن يخلع ملابسه . ولم ينم ، وكان فى حالة تشبه التخدر ، فلو قد دخل عليه أحد فى ذلك الوقت ، لأسرع يثب عن سريره واقفاً ، ولأخذ يصرخ . ان شزرات من أفكار تتصادم فى رأسه ، ولكنه ، رغم الجهود التى بذلها ، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار ، ولم يستطع أن يتلبث على واحدة منها . . .

الجزء الثانى

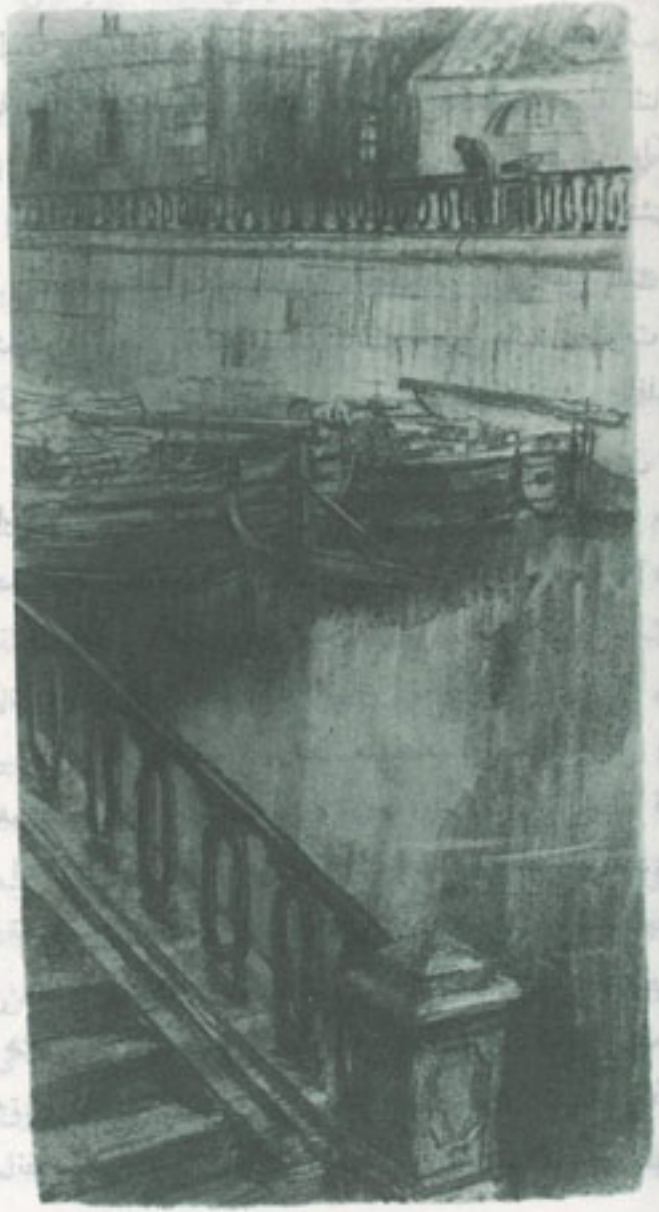

الفصل الاول

لبث راسكولنيكوف راقداً هذا الرقاد زمناً طويلاً . وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل قد حل منذ وقت بعيد ، ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض . ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنه النهار . كان مستلقياً على ظهره ، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدر . ومن الشارع ، كانت تصل اليه أصوات عويلٍ رهيبة ، وهى أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية من الصباح ، وكانت هى التى توقظه من نومه . قال راسكولنيكوف لنفسه : «آ . . . ها هم السكارى يخرجون من خمَّاراتهم . لا شك ان الساعة تجاوزت الثانية !» وبوثبة واحدة ، نهض على حين فجأة عن الأريكة وقال يخاطب نفسه : «ماذا ؟ أتكون هى الساعة تجاوزت الثانية ؟» ثم عاد يجلس على الأريكة ، وسرعان ما عاد الى ذهنه كل شىء ، فاذا هو يتذكر كل ما حدث ، دفعةً واحدة فى لحظة قصيرة .

اعتقد فى أول الأمر أنه فقد عقله . وها هى ذى رعدة باردة تسرى فى جسمه . ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التى انتابته منذ مدة بينما كان نائماً ؛ وهى تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك . فتح الباب وأصاخ بسمعه : كان كل شىء فى المنزل ينام نوماً عميقاً . دُهش ، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله . لم يستطع أن يفهم كيف

أمكنه ، فى الليلة البارحة ، حين دخل غرفته ، أن لا يوصدها بالكلاَّبة ، وأن يرتمى على أريكته دون أن يخلع ملابسه ، بل ودون أن يخلع قبعته . كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهى ترقد الآن قرب الوسادة . تساءل راسكولنيكوف : «لو دخل علىَّ أحد ، فماذا كان يمكن أن يظن ؟ أكان يمكن أن يظن أننى سكران ، ولكن . . .» وهرع نحو النافذة . كان الضوء منتشراً . وأسرع يتفحص نفسه من القدمين الى الرأس ليرى ألا يزال على ثيابه آثار . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه ان هذه الطريقة ليست هى الطريقة التى يجب عليه أن يتبعها ، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً . قلب ثيابه ثم قلبها ، منقباً فى كل درزة . ثم لم يثق بحسن ملاحظته ، فأعاد فحصها مرة ثالثة . ولكن لم يكن ثمة شىء . كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أى أثر ، الا بضع قطرات من دم متخثر فى أسفل سرواله المهترئ المتنسِّل . تناول سكيناً مطوية كبيرة فقصَّ بها حاشيتى السروال . كان يبدو حقاً أنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار . وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التى أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن فى جيبه . لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها ، لا ولا فكَّر فيها منذ قليل ، حين كان يفتش ثيابه . ما معنى هذا ؟ وها هو ذا قد أخذ يسلُّها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعةً ، ثم يرميها على المنضدة . حتى اذا فرغ من اخراج كل شىء ، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق فى الجيوب شىء ، مضى يضعها جميعاً فى أحد الأركان . ففى أسفل ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذى يغطى الجدار والذى كان منزوعاً ممزقاً . فما هى الا لحظات

حتى دسَّ جميع الأشياء فى الثقب تحت الورق ، وقال يحدث نفسه : «حسن ! دخل كل شيء ! لا أحد رأى ولا أحد عرف ! حتى حافظة النقود اختفت !» قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر ببلادة الى الركن الذى أصبح ورق الحائط فيه منتفخاً مزيداً من الانتفاخ . ولكنه لم يلبث أن ارتعش من الرعب على حين فجأة ، ودمدم يقول يائساً : «رباه ! ماذا فعلت ؟ أهكذا يُخبَّأ شيء من الأشياء ؟»

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدِّر أنه سيأخذ من عند العجوز أشياء ، وانما كان يتصور أن لا يجد الا مالاً ، لذلك لم يهيئ مخبأً يخفى فيه ما يأخذ من أشياء . قال يسأل نفسه : «ولكن هل هناك الآن ما يدعو الى الابتهاج ؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء ؟ حقاً لقد ذهب عقلى !» وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم ، وسرعان ما عادت اليه تلك الرعدة التى لا تطاق . وها هو ذا يشد اليه ، على نحو آلى ، معطفه القديم الذى كان يرتديه طالباً ، والذى يوجد الآن على كرسى ، وهو معطف شتوى دافئ ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية . شدَّ راسكولنيكوف المعطف ، وغطى به جسمه . فاستولى عليه النوم والهذيان من جديد ، وغاب عنه شعوره .

فما ان انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى ، وعاد يسرع الى ثيابه سائلا نفسه : «كيف أمكننى أن أنام بينما لم أفعل شيئاً بعد ؟ نعم ، اننى لم أفعل شيئاً بعد ! حتى العلاقة لم أنزعها من تحت الابط حتى الآن ! كيف أمكننى أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر ، كيف أمكننى أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة ؟» وانتزع العلاقة ، ثم أسرع يقطعها قطعاً صغيرة يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل :

«ان قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال ، أو هذا ما يخيَّل الىَّ . . .» ذلك ما كان يردده راسكولنيكوف واقفاً فى وسط الغرفة . ثم أخذ يجيل بصره حواليه ، على أرض الغرفة ، فى جميع الجهات ، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء . فعل ذلك باهتمام يثير الألم . لقد كان على يقين من أن كل شيء يبارحه ، حتى ذاكرته ، وحتى أية قدرة على التفكير ، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به . قال يسأل نفسه : «ماذا ؟ أيكون الأمر قد بدأ منذ الآن ؟ أيكون هذا هو العقاب ؟ نعم ، نعم ، هذا هو العقاب !» وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاةً على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم . فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد : «ماذا فعلت ؟»

هنا راودته فكرة غريبة : ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم ، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم ! . . وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه : «معنى هذا أنه لا بد أن يكون فى الجيب دم ، لأننى دسست حافظة النقود فى الجيب رطبةً مخضلةً» . وقلب جيبه فى مثل لمح البصر سرعةً ، فتحقق من صدق ظنه : كان فى بطانة الجيب بقع دم فعلاً ! قال لنفسه : «اذن لم يذهب عقلى ذهاباً تاماً ، اذن ما زلت احتفظ بفكرى وذاكرتى . . . ولولا ذلك لما تذكرت ، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة !» قال ذلك وهو يشعر بالانتصار ، حتى لقد أفلتت من صدره تنهيدة فرح . وأردف يخاطب نفسه : «لم يكن ذلك اذن الا غيبوبة عابرة ، لم يكن الا وهناً ناشئاً عن الحمى !» وانتزع

من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر . وفى تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأناره ، فرأى راسكولنيكوف على الجورب الذى كان خارجاً من الحذاء ، آثار دم . هكذا بدا له فخلع حذاءه . «نعم ، هى آثار دم . ان كل طرف الجورب مرتوٍ بالدم !» أغلب الظن أنه لم يحاذر فمشى على بركة الدم ، وكان حذاءاه مثقوبين . . . تساءل راسكولنيكوف : «ولكن ما العمل بهذا ، الآن ؟ أين أضع هذا الجورب ، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب ؟»

لمَّ كل شىء ، وأمسكه بيده ، ولبث واقفاً جامداً فى وسط الغرفة . قال يحدث نفسه : «أأرميه فى المدفأة ؟ لا . . . فانهم سيفتشون المدفأة قبل أن يفتشوا أى مكان آخر ! أأحرقه ؟ ولكن بماذا أحرقه ؟ ليس عندى عيدان كبريت . خير من ذلك أن أخرج فأمضى أرمى هذا كله فى مكان ما ! نعم ، الأفضل أن أرمى هذا كله !» ذلك ما ردَّده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد . وأضاف : «ويجب أن أرميه فوراً ، يجب أن لا أضيع وقتاً ، يجب أن أرميه فى هذه الدقيقة نفسها ! . .» ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد ؛ ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التى لا تطاق ؛ ومن جديد شدَّ اليه معطفه يغطى به جسمه . وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدةً طويلة ، خلال ساعات عدة ، وهى «أن عليه فوراً ، بلا ابطاء ، أن يخرج فيرمى هذا كله فى مكان ما ، حتى لا يراه أحد ، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة ، بسرعة كبيرة ، بأقصى سرعة ممكنة !» وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان . ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض . وهذه ضربة شديدة على الباب تردُّ اليه شعوره .

— هلاَّ فتحت الباب أخيراً ! أأنت حىّ أم لا ؟ انه لا يفعل شيئاً غير أن ينام . نعم ، انه ينام أياماً بكاملها ، مثل كلب . يا له من كلب ! افتح ! هلاَّ فتحت ! لقد دقت الساعة العاشرة !

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهى تقرع الباب بقبضة يدها .

قال صوت رجل :

— قد لا يكون فى غرفته !

قال راسكولنيكوف لنفسه : «عجيب ! هذا صوت البواب . . . ماذا يريد منى ؟»

وانتفض واثباً ، وجلس على الأريكة . كان قلبه يدق دقاً قوياً الى حد الألم .

قالت ناستاسيا ترد على الرجل :

— لولا أنه فى غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكُلاَّبة ؟ عجيب ! هو الآن يحبس نفسه ! أهو يخاف أن يُخطف ؟ افتح يا نؤام ! استيقظ يا كسلان !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «ماذا يريدان منى ؟ لماذا يجىء البواب ؟ لقد اكتُشف اذن كل شىء ! أأقاوم أم أفتح ؟ سأضيع . . .»

وانهض جسمه ، ومال الى أمام ، وسحب الكَلاَّبة . كانت غرفته صغيرة بحيث يمكن ان يسحب الكلابة دون أن يغادر سريره .

صدق ظنه : كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب .

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة ، وشخص هو ببصره الى

البواب وقد بدا عليه التحدى واليأس . مدَّ اليه البواب ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع ، وقال له وهو يناوله الورقة :

— استدعاء من المكتب !

— أى مكتب ؟

— الشرطة تستدعيك الى المكتب . . . ما من أحد يجهل ما هو المكتب ! . .

— الشرطة ؟ . . لماذا ؟ . .

— أأنا أعلم ؟ هم يستدعونك ، فاذهب اليهم !

قال البواب ذلك ، وتفرس فى وجه راسكولنيكوف ، وألقى نظرة حواليه ، ثم استدار لينصرف .

كانت ناستاسيا تنظر الى راسكولنيكوف ، ولا تحوِّل بصرها عنه . وها هى ذى تسأله الآن :

— أحسب أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟

التفت البواب . وأضافت ناستاسيا قولها :

— ان بك حمى منذ أمس ! . .

لم يجبها راسكولنيكوف . وما يزال يمسك الورقة التى لم يفضَّها بعد .

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير :

— لا . . . لا تنهض ! أنت مريض ! لا تذهب الى الشرطة اليوم ! . . ما من أمر خطير يدعو الى الاسراع . ما هذا فى يدك ؟

نظر راسكولنيكوف الى يده . كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال ، والجورب ، وبطانة الجيب المنزوعة . لقد نام وهو ممسك بهذا كله بيده اليمنى . سوف يتذكر فى المستقبل ،

حين سيفكر فى هذا الأمر ، أنه استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى ، فضغط على هذه الاشياء بيده ضغطاً قوياً ، وعاد ينام وهو على هذه الحال .

— عجيب أمره ! لمَّ هذه الخرق من الأرض ، ثم هو ينام معها كأنها كنز ثمين . . .

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية المَرَضية . أسرع راسكولنيكوف يدسُّ الأشياء كلها تحت معطفه ، وحدَّق الى الخادمة بنظرة نافذة ، فشعر ، رغم أنه لم يكن فى تلك اللحظة قادراً على أن يحكم على الأمور حكماً صحيحاً دقيقاً ، شعر أن من سيُقبض عليه ويُعتقل لا يُعامل هذه المعاملة . ومع ذلك تساءل : «ولكن لماذا تستدعينى الشرطة ؟»

قالت له ناستاسيا :

— أتشرب شاياً ؟ هل تريد ؟ فى وسعى أن أجيئك بشاى . ما يزال عندنا بقية !

دمدم راسكولنيكوف مجيباً وهو يقف :

— لا بل سأذهب الى الشرطة . . . سأذهب الى الشرطة فوراً .

قالت ناستاسيا :

— لن تقوى حتى على هبوط السلم !

— سأذهب !

— افعل ما تشاء !

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت فى اثر البواب . فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال فى الضوء ، ثم قال لنفسه : «هناك بقع ، لكنها لا تكاد ترى ، فكل شىء متسخ متآكل ممحو . فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً .

الحمد لله على أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة» قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فضَّ الورقة وهو يضطرب اضطراباً شديداً وأخذ يقرأ . لبث يقرأ مدة طويلة ، مدة طويلة ، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادى من قسم الشرطة بالحى ، يُطلب منه فيه أن يحضر الى مكتب مفوض الشرطة فى الساعة التاسعة والنصف من هذا اليوم نفسه .

تساءل راسكولنيكوف وهو يعانى حيرة أليمة : «أمعقول هذا ؟ أنا لا شأن لى بالشرطة شخصياً ! ولماذا فى هذا اليوم ذاته ؟ رباه ! ألا فلينته هذا كله بأقصى سرعة !» قال ذلك وهمَّ أن يركع ليصلى ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن رأيه وقهقه ساخراً ، لا ساخراً من الصلاة بل من نفسه . وأخذ يرتدى ثيابه مسرعاً ، قائلاً لنفسه : «ان كنت قد هلكت فلأهلك ! يستوى عندى كل شىء ! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة) . سوف يتسخ بالتراب مزيداً من الاتساخ ، فيختفى ما بقى عليه من آثار الدم» . ولكنه ما ان لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزاً مذعوراً . ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى ، فعاد يلبسه . ومرةً أخرى انفجر يضحك مقهقهاً . «ما هذا كله الا مواضعات شكلية ! كل شىء نسبى !» ، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله ، ولكنه يرتعش بكل جسمه ، وأردف يقول لنفسه : «لقد لبست الجورب مع ذلك ! لبسته أخيراً مع ذلك !» وحين قال هذا الكلام ، كان ضحكه يتحول الى يأس . وأضاف يقول : «لا ، ان هذا فوق طاقة قواى . . .» كانت ساقاه تصطكان . فدمدم فى نفسه قائلاً : «هو الخوف !» وألمَّ به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر . تابع كلامه يقول وهو يتجه نحو السلم : «هذه حيلة ! انهم

يريدون استدراجى الى هناك بالحيلة ، ليواجهونى بعد ذلك بالوقائع كلها . والمصيبة أننى فى حالة تشبه الهذيان . . . فقد تفلت منى حماقة ما . . .»

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء فى الثقب وراء ورق الجدار فتساءل : «ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابى ؟» . وتوقف عن السير . ولكن اليأس والاستهتار — ان صح التعبير — اللذين كانا يستوليان عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ على أن حرَّك يده باشارة تدل على قلة الاكتراث وتابع سيره قائلاً لنفسه : «فلينته هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة !»

كان الحر فى الخارج شديداً لا يطاق . ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام . هو جوٌّ الغبار والآجر والكلس مرةً أخرى ؛ هو جو الدكاكين العفنة والخمارات الكريهة من جديد . وها هم أولاء السكارى يطالعونه عند كل خطوة يخطوها والسعاة والحوذيون المكدودون . وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه . وأخذ يحس بدوار فى رأسه ، كما يحدث هذا عادة للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة فى يوم شديد القيظ .

فلما بلغ منعطف شارع **الليلة البارحة** ، نظر الى **تلك** العمارة بقلق وألم ، ثم لم يلبث أن حوَّل عنها عينيه فوراً .

وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه : «اذا استُجوبتُ فقد اعترف !»

ان قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً . لقد نُقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة الى مقر جديد يقع فى الطابق الرابع من عمارة بُنيت حديثاً . كان راسكولنيكوف قد ذهب مرةً الى المقر القديم ، ولكن هذا حدث

منذ مدة طويلة جداً . حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه : «لا بد أنه بواب ، ولا بد اذن أن يكون قسم الشرطة فى هذه الجهة» . وصعد السلم على غير هدى . كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شيء .

وقال لنفسه وهو يصعد الى الطابق الرابع : «سأدخل فأجثو على ركبتىَّ وأروى كل شيء» .

السلم ضيق ، شديد الانحدار ، ملىء بالقاذورات . مطابخ جميع الشقق فى كل الطوابق تطل على هذا السلم ، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً . لذلك يكون الجو فى السلم خانقاً جداً . بوابون يحملون سجلات تحت الابط ، وسعاة شرطة ، وزوار كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع . باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً . دخل راسكولنيكوف ، ووقف فى حجرة المدخل . الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب ينتظرون دورهم . الحر خانق هنا أيضاً . تضاف الى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التى تبعث فى النفس شعوراً بالغثيان . انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضى الى المكتب التالى . ان جميع الغرف صغيرة ، واطئ سقفها جداً . كان راسكولنيكوف نافد الصبر الى درجة رهيبة وكان نفاد صبره هذا يدفعه الى أن يوغل مزيداً من الايغال . لم يلاحظه أحد . فى المكتب التالى كان يكتب كتابٌ لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه ، ولا يوصف مظهرهم الا بأنه مظهر غريب عجيب فى أقل تقدير . اتجه راسكولنيكوف الى أحدهم . سأله هذا :

— ماذا تريد ؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذى تلقاه من مكتب الشرطة .

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة :

— هل أنت طالب ؟

فأجابه راسكولنيكوف :

— نعم ، طالب سابقاً .

تفرس فيه الموظف ، ولكن بدون أى فضول . هو رجل مشعث الشعر توحى نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «من هذا الرجل لن أعرف شيئاً ان جميع الأمور عنده سواء» .

قال الموظف وهو يشير باصبعه الى الباب التالى :

— اذهب الى السكرتير !

دخل راسكولنيكوف الغرفة التى دله عليها الرجل (وهى الرابعة فى صف الغرف) . انها صغيرة جداً كذلك ، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من الجالسين فى المكاتب السابقة . وبينهم سيدتان . فأما الأولى وهى ترتدى ملابس حداد فقيرة ، فقد كانت جالسة أمام منضدة قبالة سكرتير يُملى عليها فتكتب . وأما الثانية فهى امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه ، صارخة الزينة ، مترفة التبرج ، تضع على صدرها حلية كبيرة كأنها صحن . وكانت هذه المرأة الثانية واقفة ، متنحية بعض التنحى ، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً . مدَّ راسكولنيكوف ورقته الى السكرتير ، فألقى عليها السكرتير نظرة سريعة وقال له : «انتظر» وواصل اهتمامه بالسيدة التى ترتدى ثياب الحداد .

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث نفسه : «لم يستدعونى اذن من أجل ذلك الأمر» . وأخذ يسترد شجاعته ، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته .

قال لنفسه : «أن أيسر حماقة ارتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحنى فضحاً تاماً» . ثم أضاف : «همْ ! . . خسارة أنه لا هواء هنا . . . الجو خانق . . . ان رأسى أخذ يدور بمزيد من الشدة . . . وفكرى أيضاً . . .»

شعر راسكولنيكوف باضطراب رهيب يغزو كيانه كله . خشى أن لا يستطيع السيطرة على نفسه . حاول أن يتشبث بأى شىء لا علاقة له بهمومه ويفكر فيه ، ولكنه لم يفلح . كان السكرتير يشغل باله كثيراً : ان راسكولنيكوف ما ينفك يحاول أن يقرأ فى وجهه شيئاً ، أن يوجس فى وجهه شيئاً . هو شاب فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، له وجه مسمر كثير الحركة ، يوهم مظهره بأنه أكبر من سنه ، شديد العناية بهندامه ، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً ، مدهَّن الشعر ، له فرق يهبط حتى النقرة ، فى أصابعه البيضاء المؤنقة تسطع خواتم كثيرة ، وصدرته تزدان بسلاسل من ذهب . حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك ، ببضع عبارات بالفرنسية ، فكان كلامه بالفرنسية حسناً .

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التى كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسياً كان يوجد الى جانبها ، قال لها :

— اجلسى يا لويزا ايفانوفنا !

فأجابته السيدة قائلة :

— Ich danke [1]

وجلست ، فخشخش حرير . ان ثوبها الأزرق كزرقة السماء ، المزدان بتخاريم بيضاء ، المنتفخ كمنطاد ، قد انتشر حول الكرسى ، فشغل نصف الغرفة تقريباً ، وانتشرت منه روائح عطر ، ولكن السيدة أظهرت وجلها من احتلال كل هذا المكان ، ومن نشر كل هذا العطر ، فكان فى ابتسامتها التى ظاهرها الوقاحة كثير من القلق والجبن .

انتهت المرأة التى ترتدى ثياب الحداد ، فنهضت أخيراً . فاذا بضابط يدخل بضجة على حين فجأة ، ضابط يوحى مظهره بالحماسة والنشاط ويرنح كتفيه كلما خطا خطوة . ألقى الضابط على المنضدة قبعته المزدانة بشارة رسمية ، وجلس على مقعد . ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها منذ لمحته ، وانحنت تحييه تحيةً عميقة بنوع من الاعجاب ، ولكن الضابط لم يولها أىَّ انتباه . ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود الى الجلوس بحضوره . ولم يكن هذا الضابط الا مساعد مفوَّض الشرطة . ان له شاربين أحمرين مدببين يستويان أفقياً على جانبى وجهه ، وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شىء ، الا عن الغطرسة . ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء : ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً ، وكانت هيئته ، رغم حالة الانهيار التى هو فيها ، لا تتفق وهذه الملابس ، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة طويلة بعض الطول ، مدقِّقة بعض التدقيق ، فشعر الضابط بزعل شديد ، وصاح يسأل راسكولنيكوف :

---

[1] شكراً . (بالألمانية فى الأصل) .

— وأنت ، ماذا تريد ؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدى مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويرتبك أمام نظرته الكاسرة .

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

— استُدعيت الى هنا ؛ هو استدعاء . . .

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

— بشأن المطالبة بدفع مال . هذا هو **الطالب** !

قال السكرتير ذلك ودفع الى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له الى موضع منه ، وأضاف يقول :

— اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : «بشأن المطالبة بدفع مال ؟ أى مال ؟ اذن ليس الأمر **ذلك** الأمر !» . وارتعش من الفرح . شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف . ان حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفيه .

صرخ الضابط يسأله :

— قيل لك أن تحضر فى أية ساعة أيها السيد ؟ لقد ورد فى ورقة استدعائك أن تحضر فى الساعة التاسعة ، والساعة الآن هى الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟

لا يدرى الا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شىء .

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ ، ومن فوق كتفه :

— لم أستلم ورقة الاستدعاء الا منذ ربع ساعة . أحسب أننى يكفينى أن أجىء رغم الحمّى . . .

ان راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضب مفاجئ لم

يكن فى الحسبان ، ولكنه يجد فى هذا الغضب لذةً ومتعة .

— لا تصرخ ، أرجوك !

— لست أصرخ . بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة ، وأنت تصرخ . ولما كنتُ طالباً ، فأننى لا أسمح بأن يتكلموا معى بهذه اللهجة .

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغى ويزبد . ثم اذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز ، ويصيح قائلاً لراسكولنيكوف :

— اسكت . أنت هنا فى مكتب رسمى . لا تكن فظاً أيها السيد !

فصرخ راسكولنيكوف :

— وأنت أيضاً فى مكتب رسمى ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخّن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أى اعتبار !

وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا توصف .

وكان السكرتير ينظر اليهما مبتسماً . واضح أن الضابط الذى كان يغلى ويفور قد أُفحم .

وأخيرا صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعياً :

— ليس هذا شأنك . تفضل بالأدلاء بالافادة المطلوبة منك . أره الشكوى يا الكسندر جريجوريفتش . أنت مطالب بمال تتهرب من دفعه . يا للشاطر ! . .

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه :

أمسك الورقة بشراهة ، محاولاً أن يكتشف اللغز بأقصى سرعة . قرأ الورقة مرةً أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً . فقال للسكرتير يسأله :

— ما هو الموضوع ؟

— أنت مدين بمال عليك أن تدفعه . هناك سند تتعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به . وعليك الآن اما أن تدفع كل شيء ، بما فى ذلك النفقات والغرامات ، الخ ؛ واما أن تحدد ، كتابةً ، الموعد الذى ستكون فيه قادراً على دفع المال ، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة ، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين . أما الدائن ففى وسعه أن يبيع أمتعتك ، وأن يلاحقك وفقاً للقانون .

— ولكن . . . ولكننى لست مديناً لأحد بشيء !

— ذلك أمر ليس من شأننا . لقد تلقينا سنداً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً مستحق الدفع وفقاً للقانون ، كنتَ أنت قد وقعته منذ تسعة أشهر باسم السيدة زارنتسينا ، أرملة موظف من الدرجة الثامنة ، ثم انتهى هذا السند الى يدى المستشار تشيباروف ، ومن أجل هذا انما استدعيناك ، وعليك الآن أن تدلى بافادتك .

— ولكن هذه السيدة هى صاحبة البيت الذى أقيم فيه . . .

— هل يغيِّر هذا من الأمر شيئاً ؟

كان السكرتير ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على شفقة ، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردُّه الى أن أمامه شاباً غراً قد وقع فى الورطة لأول مرة وكأنه يقول له : «هيه ! كيف حالك الآن ؟» ولكن راسكولنيكوف لم يهتم أى اهتمام بالسند أو تحصيله ! حقاً ان هذا لا يستحق ،

الآن ، أقل قلق ، ولا يستحق أيسر انتباه ! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغى أو يجيب أو حتى يسأل ، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلى . ان فرحه الناشئ عن شعوره بأنه فى أمان ، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذى كان يتربص به ، هو ما كان يملأ كل كيانه فى هذه اللحظة . لم يبق فى نفسه مكان للتبصر ، والتحليل ، والاحتياطات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، والافتراضات ، والشكوك ، والاستجوابات . هذه دقيقة فرح ملىء ، فرح مباشر ، فرح غريزى صرف . ولكن فى تلك الدقيقة نفسها دوّى فى المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة . ان الضابط الذى كان ما يزال يغلى ويفور من الاهانة التى أُلحقت به منذ قليل ، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة فى محاولة لاثبات عظمته المنهارة على السيدة الضخمة الجسم التى كانت تتأمله منذ دخل ، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال (وكانت السيدة التى تلبس ثياب الحداد قد خرجت) :

— آ . . . هأنت يا . . . ماذا جرى عندك فى الليلة الماضية ، هه ؟ لقد عدت تثيرين الفضائح ، وتعرضين دعاراتك فى عرض الشارع ! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر ! أتراك تحلمين بأن تقضى أيامك فى سجن من السجون ؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات الى أننى سأكون فى المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهأنت ذى تستأنفين . . . تستأنفين . . . يا . . . يا . . .

سقطت الورقة التى يحملها راسكولنيكوف من يديه . نظر مبهوراً الى السيدة المخشخشة التى تعامل بمثل هذه الفظاظة . ولكنه سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسلِّيه ،

فكان يصغي متلذذاً ، حتى لقد أحس برغبة فى أن يضحك ، فى أن يضحك مقهقهاً ، فالى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة !

بدأ السكرتير يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً :

— ايليا بتروفتش . . .

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنه رأى أن من الأفضل أن ينتظر لحظةً مناسبةً أكثر من هذه اللحظة ، لأنه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الضابط العنيف ، اللهم الا باللجوء الى القوة .

أما السيدة المخشخشة فانها أخذت ترتجف منذ انطلق الرعد ودوّت الصاعقة . ولكن الشيء الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترفقاً وتلطفاً ، وأن ابتسامتها للضابط الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر ما كانت الشتائم الموجهة اليها تزداد كثرةً وشدةً . كانت تراوح فى مكانها ، ولا تنى تنحنى احتراماً للضابط ، منتظرةً مع ذلك ، بصبر نافد ، أن يتيح لها أن تقول كلمة . وكوفئ صبرها فعلاً ، فما ان سكت الضابط حتى أسرعت تقول بنبرة ألمانية ظاهرة ، رغم انها تكلمت الروسية بطلاقة :

— لم يحدث فى بيتى عربدة ولا مشاجرة ، يا سيدى الكابتن ، ولا حدثت فضيحة ، لم تحدث أية فضيحة ! كل ما فى الأمر انه جاء سكران . . . سأقص عليك كل هذا يا سيدى الكابتن . . . حقاً أنا لست مذنبة . . . ان بيتى بيت لائق يا سيدى الكابتن ، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدى الكابتن . . . وأنا نفسى ، أنا نفسى ، لم أسمح بأية فضيحة ، فى أى يوم من الأيام ، فى أى يوم من الأيام . ولكنه جاء سكران ثم طلب ثلاث زجاجات ، ثم رفع قدمه فى الهواء وأخذ

يعزف بها على البيانو . . . ذلك أمر لا يستحسن أبداً فى بيت لائق . ثم خرّب لى البيانو . قلت له : ما هذه آداب مستحبة ، ما هذه آداب مستحبة . . . فتناول عندئذ زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم . . . عندئذ ناديت البواب . . . فجاء كارل . . . وحين جاء كارل ، ورّم الرجل عين كارل ، وورّم أيضاً عين هنرييت ، وصفعنى أنا نفسى ، خمس صفعات ! . . . ليس من الظرف فى شيء أن يفعل أحد ذلك فى بيت لائق يا سيدى الكابتن . عندئذ صرخت . . . ولكنه مضى عندئذ الى النافذة المطلة على القناة ففتحها ، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير ، وذلك عيب حقاً . . . كيف يرضى أن يقف الى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير ؟ هذا عيب ، عيب ، عيب ! . . . شدّه كارل من رداء «الفراك» الذى كان يرتديه ، شدةً ليبعده عن النافذة . . . وعندئذ يا سيدى الكابتن — أعترف لك بذلك ، نعم أعترف لك بذلك — مزّق له كارل رداءه . . . ولكنه أخذ عندئذ يصيح قائلاً انه يطالب بخمسة عشر روبلاً ، لأن رداءه تمزق . فدفعت له ، يا سيدى الكابتن ، دفعت له بنفسى ، دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن ردائه . ما هو بالزائر اللائق يا سيدى الكابتن هو الذى قام بهذه الفضيحة ! وقد قال لى : سوف ترين . . . لأنشرنّ هجاء مقذعاً لكم . ان لى صلات بجميع الجرائد . وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء ! أهذا كلام يقال لى ؟

— آ . . . هو اذن كاتب ؟

— نعم يا سيدى الكابتن ، وهو أيضاً زائر غير لائق ، لأنه لم يتورع ، فى منزل لائق ، أن . . .

— كفى ، كفى ، سبق أن قلت لك وكررت ان . . .

عاد السكرتير يتكلم فقال بلهجة ذات مغزى :

— ايليا بتروفتش !

رشقه الضابط بنظرة سريعة فهز السكرتير رأسه بحركة خفيفة .

وتابع الضابط كلامه فقال :

— اسمعى أيتها المحترمة لويزا ايفانوفنا ! اليك كلمتى الأخيرة ! أقول لك آخر مرة : اذا حدثت فى بيتك اللائق ، بعد الآن ، فضيحةٌ واحدة ، فسأتولى بنفسى وضعك فى قفة سلطة ، كما يقال بالأسلوب الرفيع . مفهوم ؟ . . . اذن هكذا . . . أديب . . . كاتب . . . أخذ فى «منزلك اللائق» خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه . آ . . . هؤلاء هم المؤلفون ! (قال الضابط ذلك وهو يرمى راسكولنيكوف بنظرة احتقار) . وأمس الأول ، فى حانة من الحانات ، حدثت قصة أخرى : تغدّى واحد من هؤلاء المؤلفين ، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة التى أصابها ، وقال لصاحب الحانة : «سأكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً» . وفى الأسبوع الماضى ، على ظهر سفينة من السفن ، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشارى الدولة بأشنع الشتائم ، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصةً . ومؤلف ثالث ، لم يمكن طردُه من أحد محال بيع الحلوى الا دفعاً فى ظهره . هؤلاء هم الادباء ، هؤلاء هم الكتاب ، والطلاب والدعاة ! أف ! . . أما أنت فانصرفى الآن ، ولكن اعلمى أننى سأزورك ، فاياك ثم اياك . . . مفهوم ؟

أخذت لويزا ايفانوفنا ، وقد ازدادت تلطفاً وتوددا عن ذى قبل ، أخذت تنحنى انحناء الاحترام فى جميع الاتجاهات ، وما زالت تتقهقر الى وراء أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب . ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان

وجهه النضر المتفتح بسالفين أشقرين رائعين كثيفى الشعر . انه نيكوديم فومتش ، مفوّض الشرطة بذاته . أسرعت لويزا ايفانوفنا تنحنى احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء ، ثم ولّت هاربةً من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة .

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش ، بلهجة محبّبة ودود :

— ماذا ؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار ؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب ؟ لقد سمعت كل شىء وأنا أصعد السلّم !

قال ايليا بتروفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة الى أخرى ، مثقل الذراعين بأوراق ، مرنّحاً عطفيه ترنيحاً جميلاً ، عند كل خطوة ، على عادته :

— وكيف لا ! انظر أرجوك الى هذا السيد مثلاً : هو كاتب ، هو طالب أو طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع سندات ، يرفض اخلاء المسكن ، الشكاوى الكثيرة أودعت ضدّه ، ثم هو ينزعج لأننى أدخّن سيجارة بحضوره . هو نفسه يتصرف تصرفاً غير لائق فانظر اليه ما أجمل مظهره !

قال نيكوديم فومتش :

— ليس الفقر عاراً يا صديقى . ونحن نعلم أنك مثل بارود ولا تطيق احتمال أى انزعاج . . .

ثم اتجه الى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :

— أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الاساءة الى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك . ولكنك أخطأت : ثق أن

هذا الرجل من أنبل الرجال . ولكننى أعترف لك بأنه عنيف ، عنيف كالبارود ، كالبارود . . . يشتعل ، يفرقع ، ينفجر ، ولكن كل شيء ينتهى بعد ذلك ! ولا يبقى الا قلبه الذى هو من ذهب ! . . حتى لقد أُطلق عليه لقب «الضابط بارود» منذ كان يخدم فى الكتيبة .

صاح ايليا بتروفتش يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره ، ولكنه ما يزال مهتاجاً :

— ويا لها من كتيبة !

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة فى أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود الى أبعد حدود اللطف والود . فبدأ يقول بلهجة طلقة ، متجهاً بكلامه الى نيكوديم فومتش :

— انظر يا كابتن ، ضع نفسك فى مكانى . . . أنا مستعد لأن أعتذر الى السيد ، اذا كنت قد أخطأت فى حقه أى خطأ . أنا طالب فقير ، مريض ، مرهق (هذا ما قاله : مرهق) بالبؤس . أو قل اننى كنت طالباً فى الماضى ، ثم أصبحت عاجزاً عن سدّ حاجاتى فتركت الدراسة . ولكننى سأتلقى مالاً بعد قليل . ان أمى واختى تعيشان فى اقليـــم س . . . ، وسوف ترسلان الىّ مالاً فأدفع ما علىّ . ان لصاحبة البيت الذى أقيم فيه قلباً طيباً كريماً ، ولكنها غضبت كثيراً ، لأننى فقدت موردى من اعطاء دروس خاصة ، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكنى منذ أربعة أشهر تقريباً ، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث الىّ بوجبات الطعام . . . لذلك ترانى لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً . هى تطالبنى بمال مستعينةً بهذا السند الذى وقعته لها ولكن من أين أجيء بمال أدفعه ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم !

عاد السكرتير يقول من جديد :

— هذا أمر ليس من شأننا !

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش ، لا السكرتير ، ومحاولاً أن يخاطب فى الوقت نفسه ايليا بتروفتش ، رغم أن هذا كان يتظاهر بأنه منهمك بأوراقه ، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار ، قال :

— اسمح لى ، اسمح لى ، أنا أوافقك كل الموافقة ، ولكن اسمح لى أيضاً أن أشرح ظروفى ؛ اسمح لى أن أذكر لك من جهتى أننى أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين ، منذ وصلت من الأقاليم ، وأننى قبل كل شيء ، قبل كل شيء . . . نعم ، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأننى منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها ؟ نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً . . . كلاماً فقط . . . وكانت ابنتها فتاة . . . أعجبتنى على كل حال ، وان لم أكن قد تولهت بحبها ! هو الشباب ، باختصار ! فكانت صاحبة البيت تمهلنى فى الدفع كثيراً . . . وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من الطيش . . .

قاطعه ايليا بتروفتش بفظاظة ، شاعراً بالانتصار :

— ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد ، ثم ان وقتنا ليس فيه متسع للاصغاء اليك . . .

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف ، رغم أنه أصبح يشق عليه الى أبعد حدود المشقة أن يقول أى شيء . قال يرد :

— لا ، اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لكم من جهتى كيف جرت الأمور . . . وأن أرويها مرتبةً ، رغم أننى أوافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله . . . اليكم

ما حدث : منذ سنة ، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس ، وبقيت أنا مستأجراً للمسكن الذى أقيم فيه ، فلما جاءت صاحبة البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لى (قالت لى ذلك بصداقة ومودة) : انها تثق بى ثقة مطلقة ، ولكنها سألتنى الا أستطيع أن أوقع لها سنداً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً ، هو المبلغ الذى تعتقد أننى مدين لها به ؟ اسمح لى . . . لقد قالت لى بالحرف الواحد انها ستظل تمهلنى بعد تسليمها هذا السند ، ستظل تمهلنى فى الدفع ما شئت ، وانها لن تستخدم بحال من الأحوال ، بحال من الأحوال — هذه أقوالها هى — لن تستخدم هذا السند اذا لم أدفع من تلقاء نفسى . وها هى ذى الآن ، بعد أن فقدت موردى من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به ، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله . فما رأيكم فى هذا ؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

— ان هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا فى شىء أيها السيد ! عليك أن توقع الافادة والتعهد . . . أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم تكن مولها بحبها ، وأما الظروف المحزنة التى أعقبت ذلك . . . فهذا كله لا شأن لنا به البتة !

دمدم نيكوديم فوميتش يقول لصاحبه الضابط وهو يجلس الى مكتبه ويمضى يوقع بعض الأوراق :

— أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتش بشىء من الحرج .

قال السكرتير لراسكولنيكوف :

— اكتب !

فسأله راسكولنيكوف بلهجة فظة :

— ماذا أكتب ؟

— سأملى عليك . . .

خيل الى راسكولنيكوف أن السكرتير أصبح يعامله بمزيد من الازدراء والاحتقار بعد تلك الاعترافات التى أوردها . ولكن الشىء الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة لا يبالى بالرأى الذى قد يراه غيره فيه . وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر سرعةً ، حدث له فى ثانية واحدة ، فلو شاء أن يفكر لحظة واحدة لأدهشه فى أغلب الظن أن يكون قد حدَّث هؤلاء الموظفين على هذا النحو ، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مُسارَّاته . من أين جاءته هذه الاعترافات ؟ لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه اليهم كلمة فيها شىء من مودة وصدق ، وذلك من فرط الفراغ الذى أصيب به قلبه . ان احساساً غامضاً بالوحدة ، احساساً مبهماً بعزلة أليمة لا نهاية لها ، قد اجتاح شعوره على حين فجأة . لا ، ليس صَغار اعترافاته العاطفية أمام ايليا بتروفيتش لا ولا صَغار انتصار الضابط عليه هو الذى هزّ قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق . آه . . . انه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار ، وأن يكون فى الآخرين صغار ، وليست تعنيه المطامح ، ولا الضباط ، ولا النساء الألمانيات ، ولا تحصيل السندات ، ولا المكاتب ، ولا غير ذلك ! . . انه لو حكم عليه بالحرق حياً فى هذه اللحظة ، لما قام بحركة واحدة ، ولما زاد على أن يصغى الى الحكم الذى صدر عليه ، اذا هو أصغى . ان شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن فى كيانه ، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين ، شيئاً هو حادث لا يُتنبأ به ولا سابقة له . ان راسكولنيكوف لم يدرك ذلك

الشيء . ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس ، هؤلاء الموظفين فى قسم الشرطة بالحى ، لا يستطيع أن يخاطبهم بأى كلام فضلاً عن الافضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل . بل لقد أحسَّ راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب أقربائه بحال من الأحوال ، ولو كانوا اخوة وأخوات . ان راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة ، فى يوم من الأيام ، باحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول والغرابة . والأمر الذى كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان احساساً ولم يكن فكرة . نعم كان احساساً مباشراً ، كان احساساً أشد ايلاماً من جميع الاحساسات التى شعر بها طوال حياته .

أملى عليه السكرتير صيغة الاقرار المستعملة فى هذه الحالة : لا أستطيع أن أدفع . أتعهد بالدفع بتاريخ كذا . لن أغادر المدينة . لن أبيع أشيائى ، ولن أتنازل عنها لأحد ، الخ .

قال له السكرتير وهو ينظر اليه باهتمام :

— أرى أنك لا تستطيع الكتابة ، وأن القلم يسقط من يدك . هل أنت مريض ؟

— نعم . . . اشعر بدوار فى رأسى . . . ولكن أكمل مع ذلك !

— انتهى ! لم يبق عليك الا أن توقع .

وقع راسكولنيكوف الاقرار ، فتناول السكرتير الورقة وانصرف عنه الى الاهتمام بأشخاص آخرين .

رد راسكولنيكوف الريشة الى مكانها ، ولكنه بدلاً من أن ينهض ويذهب ، وضع كوعيه على المنضدة ، وضغط رأسه بين يديه . كان يشعر كأن مسماراً قد دُق فى قمة جمجمته .

ووافته فكرة غريبة على حين فجأة : أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليه كل ما حدث فى الليلة البارحة ، كلَّ ما حدث ، حتى أيسر التفاصيل ، وأن يقوده بعد ذلك الى غرفته ، فيريه الأشياء هناك ، عند الركن ، فى الثقب . وبلغت رغبته فى ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفيذ . لكنه لم يلبث أن قال لنفسه : «ربما كان علىَّ اولاً أن أفكر لحظةً» . ثم سرعان ما أضاف يقول : «لا بل الأفضل أن لا أفكر البتة وأن أتخلص من كل شيء دفعة واحدة» . وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمَّر فى مكانه : كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة الى ايليا بتروفيتش ، فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل :

— لا ، مستحيل ، سوف يخلى سبيلهما كليهما ! أولاً ، هناك تناقض . احكم فى الأمر بنفسك : لو كانا هما القاتلين فلماذا يستدعيان البواب ؟ أليفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما ؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر ؟ ألا ان هذا ليكون اسرافاً فى المكر ! ثم ان الطالب بستریاكوف قد رآه البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله . وكان فى صحبة ثلاثة أصدقاء ودَّعهم عند المدخل . وبحضور اصدقائه هؤلاء انما سأل البوابين أين يوجد مسكن العجوز . فكِّر قليلاً : أكان يلقى هذا السؤال لو أنه جاء لهدف كهذا الهدف ؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت ، عند بائع الجواهر ، قبل أن يصعد الى بيت العجوز ، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد الى بيت العجوز فى الساعة الثامنة الا ربعاً على وجه التحديد . . . ففكر الآن . . .

— اسمح لى ! فكيف نفسِّر هذا التناقض الشديد فى

أقوالهما ؟ هما يؤكدان أنهما قرعا الباب ، وأن الباب كان مغلقاً ، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان فى صحبة البواب . فما تفسير هذا التناقض ؟

— هنا انما يكمن سر القضية : لقد كان القاتل فى داخل البيت حتماً ، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج ، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً . ففى تلك الفترة بعينها ، أعنى الفترة التى انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة انما تمكّن **القاتل** من هبوط السلم ، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى . ان كوخ الآن يرسم على نفسه اشارة الصليب بكلتا يديه قائلاً : «لو قد لبثت فوق ، اذن لوثب علىّ وقتلنى بفأسه !» ان كوخ ينوى أن تقام له فى الكنيسة صلاة شكر لله على ما خصه به من نعمة النجاة ! هىء هىء ! . .

— والقاتل ، ألم يره أحد ؟

— كيف يمكن أن يراه أحد ؟ ان المنزل أشبه بسفينة نوح .

بهذا عقّب السكرتير الذى كان يصغى الى الحديث من مكانه . وكرر نيكوديم فوميتش يقول بحرارة شديدة :

— أقول لكم ان القضية واضحة ، واضحة جداً !

فقال ايليا بتروفتش معارضاً :

— لا ، ليست واضحة البتة !

رفع راسكولنيكوف قبعته ، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه . . .

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسى ، ورأى رجلاً يسنده من يمين ، وآخر يقف من شمال وهو يحمل بيده

كأساً مملوءة بماء أصفر ، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدّق اليه ويتفرس فيه . نهض راسكولنيكوف عن كرسيه .

فسأله نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة :

— ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

فقال السكرتير وهو يرجع الى منضدته ويرتد الى أوراقه :

— انه ، منذ كان يكتب الاقرار ، كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه !

وصاح ايليا بتروفيتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً ، صاح يسأله :

— أأنت مريض منذ مدة طويلة ؟

كان ايليا بتروفيتش قد لاحظ المريض طبعاً اثناء اغمائه ، ولكنه ابتعد فوراً منذ رآه يفيق .

لم يزد راسكولنيكوف فى الاجابة عن سؤال ايليا بتروفتش على أن دمدم يقول :

— منذ أمس . . .

— وهل خرجت أمس ؟

— نعم خرجت .
— مريضاً ؟
— مريضاً .
— فى أية ساعة ؟
— بعد الساعة السابعة من المساء .
— الى أين ذهبت ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال .
— الى الشارع !
— جواب مختصر مفيد !

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً . وقد أجاب عن تلك الاسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفتش . قال نيكوديم فوميتش :

— هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، وأنت . . .

فأجابه ايليا بتروفتش بنبرة غريبة بعض الغرابة :

— لا . . . بأ . . . س ! . .

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر ، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذى كان يحدق اليه من مكانه . وصمت الجميع فجأة . شىء غريب .

ثم قال ايليا بتروفتش يختم الحديث :

— طيب ! فى وسعك أن تنصرف .

خرج راسكولنيكوف . ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً . وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش ، المتسائل المستفسر ، أكثرها وضوحاً وتميزاً . . . حتى اذا صار راسكولنيكوف فى الشارع ثاب اليه كل وعيه وعاد اليه كل شعوره .

— تفتيش ! تفتيش ! سيقومون بتفتيش فوراً ! يا للصوص ! انهم يشتبهون فىَّ ! . .

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مغذاً خطاه للرجوع الى بيته . لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه الى قمة رأسه .

الفصل الثانى

قال راسكولنيكوف فى نفسه متسائلاً : «وماذا لو كان التفتيش قد تم ؟ ماذا لو وجدتهم فى بيتى ؟»

ولكن راسكولنيكوف عاد الى بيته فلم يجد فيه أحداً ، ولا كان أحد قد جاء يفتشه . حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً . ولكن رباه ! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء فى الثقب منذ قليل ؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن ، ودسَّ يده وراء الورق ، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدسّها فى جيوبه واحداً تلو آخر . عرف أن مجموع الأشياء ثمانية : علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للآذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقّق كثيراً) ، ثم أربع علب صغيرة من الجلد ، فيها جواهر ؛ ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد ؛ ثم شىء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً ، وأغلب الظن أنه وسام . . .

وزَّع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه ، ووضع بعضها فى الجيب الأيمن من سرواله ، وهو الجيب الوحيد الذى بقى للسروال ؛ وجهد أن يدسَّها فى هذه الجيوب بحيث لا تمكن رؤية شىء من خارج . وتناول حافظة النقود أيضاً . ثم

خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها فى هذه المرة مفتوحا تماماً .

كان يمشى بخطى سريعة ثابتة . ورغم أنه كان محطماً فقد كان وعيه صافيا . كان يخشى أن يلاحق ويطارد ، كان يخشى ان سيُصدر قرار بوضعه تحت المراقبة بعد نصف ساعة ، أو بعد ربع ساعة . فلا بد له اذن ، مهما كلف الأمر ، أن يغيّب هذه الأشياء التى تثبت ارتكابه جريمة القتل ؛ لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة ، وبعض تفكير . . . ولكن الى أين يذهب ؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبتّ فيه : «أن يرمى جميع الأشياء فى القناة ، فتسقط الاثباتات فى الماء ، وتسقط معها القضية !» ذلك ما كان قد عزم عليه فى الليلة السابقة ، أثناء هذيانه ، فى تلك اللحظات التى كان يحاول فيها (وقد تذكر هذه المحاولات) أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه : «أسرع ، أسرع ، تخلص من هذا كله !» . ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً .

ظل راسكولنيكوف يتجول مدة نصف ساعة وربما أكثر على طول قناة كاترينا ، ونظر مراراً الى السلالم التى تهبط الى الماء ، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ ، فاما أن أطوافاً توجد عند أسفل الدرجات وعليها نساء يغسلن غسيلهن ، واما أن مراكب قد ربطت هنالك بالاقلاس وجميع الأمكنة تعج بالناس . هذا عدا أن فى الامكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطئ . أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل الى تحت ، عمداً ، ثم يتوقف ليرمى شيئاً من الأشياء فى الماء ؟ وماذا لو طافت العلب على

سطح الماء بدلاً من أن تغوص الى القاع ؟ لا شك أنها ستطفو ، ولا شك أن جميع الناس سيرونها ! بل ان جميع من لقيهم فى طريقه حتى الآن كانوا يتفرسون فيه كأنهم لا همَّ لهم سواه ! قال لنفسه : «لماذا يتفرسون فىَّ هذا التفرس ؟ اللهم الا أن يكون هذا وهماً منى لا أكثر !»

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب الى مكان ما على شاطئ نهر نيفا . ان شاطئ نهر نيفا لا يعج بالناس كما يعج بهم شاطئ القناة . فهنالك لن يُلاحظ كما يلاحظ هنا ، وهنالك يكون رمى الأشياء فى الماء أسهل منه هنا على كل حال ؛ وهو هنالك أبعد عن المكان الذى وقعت فيه الحادثة منه هنا ؛ نعم ، هذا خاصةً ! وسرعان ما دُهش على حين فجأة : كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة ، قلقاً خائفاً ، فى أمكنة خطرة هذا الخطر كله ، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة ؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشىء الا أن ينفذ مشروعاً تصوره فى نومه أثناء هذيان ؟ اذن لقد أصبح ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، ولقد أصبح شديد النسيان ! انه يعرف هذه الحقيقة الآن ! لا شك أن عليه أن يسرع . نعم ، ان عليه أن يسرع حتماً !

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع «ف . . .» غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره : «لماذا نهر نيفا ؟ لماذا الماء ؟ أليس الأفضل ان أذهب الى مكان بعيد جداً ، ولو الى الجزر مرةً أخرى ، فأختار مكاناً فى الغابة خالياً من الناس ، فأدفن كل شىء تحت احدى الأشجار ، بعد أن أضع على المكان علامةً تهديني اليه فى المستقبل ؟» ورغم شعوره بأنه عاجز عن

التمعن فى هذا كله تمعناً واضحاً ، فان الفكرة قد بدت له سليمةً لا اعتراض عليها .

ولكن لم يُكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً ، وانما جرت الأمور مجرى آخر . فما ان خرج من شارع «ف . . .» الى أحد الميادين ، حتى رأى على يساره ، فجأةً ، مدخلَ فناءٍ محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات ، ورأى على اليمين ، بعد المدخل مباشرةً ، سوراً «أصم» بغير ملاط ، هو سور عمارة مجاورة ذات أربعة طوابق ؛ ورأى على اليسار ، حاجزاً من خشب يوازى ذلك السور ، ويقع بعد المدخل مباشرة ، ويبلغ طوله نحو عشرين خطوة ثم ينعطف يساراً . هذه أرض خلاء تتكدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة . فاذا نظر الناظر الى آخر الفناء بعد الحاجز ، رأى ركنَ سقيفة من حجر ، واطئة ، مسودة من الدخان ، لعلها كانت جزءاً من ورشة . فلا بد أن مصنعاً للعربات أو للأقفال أو شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا ، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم فى كل مكان تقريباً منذ باب المدخل . قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة : «وجدت ضالتى ! أرمى كل شىء هنا ثم أنصرف !» . واذ لم يرَ أحداً فى الفناء ، أسرع يجتاز الباب ، فاذا هو يلمح ، بالقرب من الباب ، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبى ، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً فى المحلات التى من هذا النوع ، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذيون وأشباههم) ؛ وفوق المزراب كُتبت على السياج ، بالطباشير ، الجملة التى تكتب عادةً من باب المزاح ، بخط ردىء وأخطاء املائية : «ممنوعن الوقوف هنا» . قال راسكولنيكوف يغبط نفسه : «لهذا المكان هذه الميزة على الأقل ، وهى أن أحداً لن يشتبه فى أننى دخلته ووقفت فيه» .

وأضاف : «أرمى هنا كل شىء ، كل شىء ، دفعةً واحدة ، كدسةً واحدة ، ثم أمضى !»

وألقى على ما حوله نظرة أخرى ، وفيما كان يدخل يده فى جيبه اذا هو يرى ، حذاء الجدار ، فى المسافة التى تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين ، صخرةً كبيرة غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرين كيلوجراماً . ان الرصيف يقع خلف الجدار الحجرى فى الشارع . وان وقع أقدام المارة ، وهم كثُر دائماً فى هذا المكان ، يُسمع فى الداخل . ولكن

أحداً لا يستطيع أن يراه فى هذه الجهة من الباب الا اذا دخل ، وذلك أمر يمكن أن يحدث ، فلا بد لراسكولنيكوف اذن أن يسرع .

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كلتيهما امساكاً قوياً ، واستجمع قواه كلها ، فزحزح الصخرة من مكانها . ان حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة . فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمى فى هذه الحفرة كل ما كان فى جيوبه ، وكانت حافظة النقود آخر شىء رماه ، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الأخرى وبقى فى الحفرة متسع . ثم أمسك بالصخرة من جديد ، وردها الى وضعها الأصلى مرةً واحدة ، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلى الا قليلاً . ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض ، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة وعجنه بقدمه . وأصبح من المستحيل أن يُلاحَظ أى تغير .

وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان ، فاذا هو مرةً أخرى ، كما حدث له فى مكتب الشرطة منذ قليل ، يشعر بفرح قوى جارف يستبد به لحظةً . قال يحدث نفسه : «ها هى ذى الاثباتات قد دفنت فى باطن الأرض ! من ذا الذى يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة ؟ لعل هذه الصخرة موجودة فى هذا المكان منذ وجد المنزل ، وستظل باقية ما بقى ! وهَبْهم اكتشفوا الأشياء ، فمن ذا الذى يمكن أن يشتبه فىَّ ؟ انتهى الأمر ! لا براهين بعد الآن !» وأخذ يضحك . سوف يتذكر فى المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلاً ، وانه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان . ولكنه ما ان دخل بوليفار ك . . . الذى التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة ، حتى انقطع ضحكه فجأة . ان خواطر أخرى توافى ذهنه الآن . بدا

له على حين فجأة أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل الى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التى جلس عليها غارقاً فى أفكاره بعد انصراف الفتاة ، وأنه سيؤلمه أشد الايلام أن يصادف ، من جديد ، الشرطىَّ ذا الشاربين الذى أعطاه حينذاك عشرين كوبكاً . ودمدم يقول : «شيطان يأخذه !»

كان يسير وهو يرمق ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة . ان جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه انها النقطة الرئيسية ، وأنه الآن ، الآن على وجه التحديد ، يقف وجهاً لوجه أمام هذه النقطة الرئيسية ، وذلك لأول مرة منذ شهرين .

ثم اذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب : «ليأخذ الشيطان هذه القصة . دعنا ! ما دامت القصة قد بدأت ، فلتذهب الى الشيطان . . . هى و«الحياة الجديدة» ! ما أغبانى ! ما أكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب ! ما أكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات ! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار ، منذ قليل ، أمام ذلك التافه ايليا بتروفتش ! . . على كل حال . . . لا ضير . . . اننى لا أكترث بهم ، لا أكترث بهم ولا بأننى أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً ! ليس هذا هو الأمر . . . ليس هذا هو الأمر البتة !»

وتوقف فجأةً . ان سؤالاً جديداً لم يكن فى حسبانه قط ، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة ، يحيِّره الآن ويصعقه صعقاً . قال يسأل نفسه :

«لو كنت قد نفَّذتَ هذا الأمر عن وعى حقاً ، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاهة ، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً ، فكيف تفسِّر أنك الى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود ، وأنك لا تعرف

ما الذى أردت أن تجنبه ولا تدرك الهدف الذى ارتضيت فى سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيت فى سبيله عامداً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقارة والخسة والدناءة ؟ ألم تكن تريد منذ لحظة أن ترمى فى الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الأشياء التى لم تكلف نفسك حتى عناء النظر اليها ؟ كيف تفسر هذا كله ؟»

نعم هذه هى الحقيقة ! هذه هى الحقيقة تماماً ! وكان هو يعلم هذه الحقيقة منذ مدة . ان هذا السؤال ليس جديداً عليه . انه حين قرر فى الليل أن يرمى كل شىء فى الماء ، انما قرر هذا القرار بدون أى تردد ، وبدون أية مماحكة ، كما لو كان ينبغى له أن يفعل هذا نفسه لا أى شىء سواه . . . نعم انه يعلم كل هذا ، وانه يتذكر كل هذا ، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة ، لحظة كان ينبش صندوق العجوز ويُخرج منه العلب . . . نعم هذه هى الحقيقة !

«والسبب هو اننى مريض جداً (الى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف عابساً فى نهاية المطاف) . لقد عذبت نفسى ومزقت نفسى وصرت أنا نفسى لا أعرف ماذا أفعل . . . وأمس ، وأمس الأول ، وفى جميع تلك الأيام الأخيرة ، كنت امزق نفسى بغير انقطاع . حين سأشفى من مرضى ، فلن . . . لن أمزق نفسى بعد ذلك . . . ولكن ماذا . . . ماذا اذا لم يُكتب لى الشفاء ؟ يا رب ! مللت هذا كله !» كان راسكولنيكوف يسير دون ان يتوقف . كان يرغب رغبة رهيبة فى أن يسلو على أى نحو من الانحاء ، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو . وهذا احساس جديد لا يستطيع التغلب عليه يجتاح نفسه شيئاً بعد شىء ويشتد فى كل دقيقة . هو نوع من اشمئزاز

لا حد له ، اشمئزاز يشبه أن يكون جسمياً ، اشمئزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه فى طريقه ، اشمئزاز عنيد ، كاسر ، حاقد ، مبغض . ان جميع المارة الذين يلقاهم كريهون ، كريهةٌ وجوههم ، كريهة حركاتهم ، وحتى مشيتهم كريهة . لو توجَّه أحد اليه بكلام فى هذه اللحظة ، لما زاد على أن يبصق فى وجهه ، ولربما عضَّه . . .

وتوقف عن السير فجأة ، لحظة صار على رصيف «نيفا الصغير» فى جزيرة فاسيليفسكى قربَ الجسر . قال لنفسه : «انه يسكن هنا فى هذا البيت ! ما معنى هذا ؟ لقد جئت اذن الى رازوميخين عامداً ! ها قد تكرر اليوم عين ما حدث فى ذلك اليوم . . . ولكن هذا أمر عجيب جداً : أأنا جئت الى هنا واعياً عامداً أم أننى مشيت على غير هدى فاذا بى أصل الى هذا المكان مصادفة ؟ . . لا بأس ! كنت أقول . . . أمس الأول . . . اننى سأذهب اليه غداة قيامى بذلك **العمل** . . . طيب . . . أى ضير فى هذا ؟ سأذهب اليه ! ماذا جرى ؟ لكأننى الآن لا أجرؤ أن أذهب اليه . . .» .

وصعد الى الطابق الخامس حيث يسكن رازوميخين .

كان رازوميخين فى بيته ، فى غرفته الصغيرة ، يعمل ، يكتب . فتح الباب بنفسه . انهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر . كان رازوميخين يرتدى روباً منزلياً مهترئاً يكاد يكون خرقة بالية ، وكان عارى القدمين الا من بابوج ؛ ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه ، ولا مشط شعره . ارتسم على وجهه تعبير عن الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلاً عليه ، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين :

— ماذا ؟ أأنت ؟

ثم صمت وصفَر ، ثم أردف يقول وهو ينظر الى اسمال راسكولنيكوف الرثة :

— هل من الممكن أن تكون أحوالك سيئة الى هذا الحد ؟ لقد تفوقتَ عليَّ فى هذا المجال كثيراً . اجلس ، اجلس ! لا بد أنك متعب !

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع ، وهى أسوأ حالاً من أريكته ، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له :

— هيئتك تدل على انك مريض جداً . هل تعلم هذا ؟

وجسَّ نبضه ، فسحب راسكولنيكوف يده بحركة حادة ، وقال له :

— لا داعى الى ذلك . لقد جئت . . . اليك السببَ الذى دفعنى الى المجىء : فقدت جميع الدروس التى كنت أعطيها . . . أود أن احصل . . . ولو على . . . لكن لا داعى الى ذلك . . . أصبحت فى غير حاجة الى دروس . . .

قال رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه :

— انت تهذى ! اتدرى ؟

— لا . . . لست أهذى !

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الاريكة . انه حين صعد الى رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه . وها هو ذا يدرك الآن على حين فجأة أنه لا شىء يضايقه أكثر مما يضايقه أن يرى الآن أى انسان من الناس وجهاً لوجه . ان كل ما فى نفسه من بغض قد ثار الآن . ولقد أوشك أن يختنق غضباً من نفسه منذ أن اجتاز عتبة بيت رازوميخين .

قال فجأة :

— وداعاً !

واتجه نحو الباب .

— ولكن انتظر ! انتظر ، يالك من غريب !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

— لا داعى !

سأله رازوميخين :

— فلماذا جئت اذن ؟ أتراك جننت ؟ ان فى سلوكك هذا ما يشبه أن يكون اهانة لى . لن ادعك تنصرف وأنت على هذه الحال .

— اذن فاسمع ! لقد جئت اليك لأننى لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدنى أن أبدأ . . . نعم جئت اليك لأنك أفضل منهم جميعاً ، لأنك أذكى منهم جميعاً ، ولأنك حصيف الرأى سديد الحكم . ولكننى أرى الآن أننى لست فى حاجة الى شىء . هل تسمع ؟ لست فى حاجة الى شىء اطلاقاً . . . لا الى خدمات أحد ولا الى عطف أحد . . . سأدبر أمورى . . . بنفسى ، وحدى . نعم . . . يكفى هذا . دعونى وشأنى أنتم جميعاً !

— ولكن انتظر لحظة يا سخيف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً ! إعملْ ما تشاء ! ولكن اسمع قليلاً : أما الدروس فأنا نفسى لا أعطى الآن دروساً ، لا ولا اكترث بالدروس ! غير أن عندى فى السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف ، هو فى رأيى خير درس ، ولو ساومنى تجارٌ على أن أعدل عنه فى مقابل خمسة دروس لما فعلت ! انه ينشر كتباً عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تتخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب . ان

الناس يتخاطفونها تخاطفاً ! العناوين وحدها تساوى وزنها ذهباً ! أنت تدعى دائماً أننى غبى ، فاعلم ياعزيزى أن هنالك أناساً أغبى منى ، أقسم لك على ذلك ! لقد أخذ هو أيضاً يجارى التيار ، ويتبع الاتجاهات الجديدة . انه شخصياً لا يفهم شيئاً البتة ، ولكننى أشجعه طبعاً على السير فى هذه الطريق . أنظر عندى ما يزيد على الملزمتين المطبوعتين باللغة الالمانية . فى رأيى أن الكلام الذى تضمانه ليس الا دجلاً وشعبذة . ان الكاتب يطرح هذا السؤال : هل المرأة انسان أم هى ليست انساناً . وقد انتهى الى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة انسان . . . ان خيروفيموف يهيئ هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة ، وأنا أتولى الترجمة . . . وسوف نطيل النص الألمانى الذى يتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله ست ملازم ، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة ، ثم نحدد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبكاً . طيب ! وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات ، أى خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب ولكننى أخذت منه ستة روبلات سلفة . ومتى انتهينا من هذا الكتاب ، فسنترجم كتاباً عن الحيتان . وقد اخترنا من كتاب «الاعترافات» عدداً من النمائم التى سنترجمها أيضاً . لقد قال أحدهم لخيروفيموف ان روسو يشبه راديشيف . وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه . . . شيطان يأخذه ! . . ها نحن اذن نصل الى الأمر الأساسى : هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب «هل المرأة انسان ؟» اذا كنت تريد أن تفعل ذلك ، فخذ النص على الفور ، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً — كل ذلك على نفقة الناشر — واقبلْ هذه الروبلات الثلاثة ، فاننى قد تقاضيت سلفةً عن ترجمة الملزمة

الأولى والملزمة الثانية ، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك . حتى اذا فرغتَ من ترجمة ملزمتك ، قبضتَ ثلاثة روبلات أخرى . واننى لأرجوك خاصةً أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمةٌ أقدمها أليك . بالعكس : فاننى ما ان رأيتك داخلاً علىَّ حتى قلت لنفسى : سوف يفيدنى كثيراً . فأنا أولاً ضعيف فى الاملاء ، وأنا ثانياً أقرب الى الضعف فى اللغة الألمانية ؛ لذلك ترانى فى أكثر الأحيان ألفّق وأخترع ، وأعزّى نفسى قائلاً ان النتيجة تكون بذلك أفضل . ولكن من يدرى ؟ قد لا تجىء النتيجة أفضل بل أسوأ ! . . هيه ، أتقبل أم لا ؟

تناول راسكولنيكوف النص الألمانى صامتاً ، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً ، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة . وتابعه رازوميخين بنظراته مشدوهاً . ولكن ما ان وصل راسكولنيكوف الى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة ، وصعد ثانيةً الى بيت رازوميخين ، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة ، خرج مرةً أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً .

زأر رازوميخين وقد ثارت ثائرته أخيراً :

— لا شك فى أنك مصاب بحمى حارة ! ما هذه المهزلة التى تمثّلها ؟ انك تفقدنى صوابى . لماذا جئت اليَّ اذن أيها الأحمق ؟

دمدم راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

— لست فى حاجة الى . . . ترجمة ! . .

فصرخ رازوميخين يسأله من أعلى :

— أنت فى حاجة الى ماذا اذن ؟

تابع راسكولنيكوف هبوطه فى صمت .

— اسمع ! أين تسكن الآن ؟

لم يجب راسكولنيكوف .

— شيطان يأخذك !

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار فى الشارع . وعلى جسر نيقولاى ، اضطر أن يثوب الى رشده مرةً أخرى ، بسبب حادث مزعج وقع له : لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة ، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه الى تحذيراته التى كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة . وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره ، فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرف بأسنانه ، ووثب الى الافريز (لقد كان يمشى فى وسط الجسر لا حيث يمشى المشاة ، لا يدرى المرء لماذا !) . فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات :

— حصل على جزائه !

— يا له من محتال !

— حيلة معروفة : يتظاهرون بالسكر ويرتمون عامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً !

— من هذا يعيشون يا أصدقائى ، هذا مصدر رزقهم . . .

ولكن فى تلك اللحظة التى رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب الافريز آخذاً بحكّ ظهره ، متابعاً بنظرته المشدوهة الحانقة ، ابتعاد العربة ، أحسَّ فجأةً بأن أحداً يدس مالاً فى يده . فنظر فرأى أمامه امرأة متقدمة فى السن — لا شك أنها زوجة تاجر — على رأسها قلنسوة من نسيج ، وقدماها فى حذاءين من الجلد الرقيق ، ومعها فتاة تلبس قبعةً وتحمل بيدها شمسية خضراء ، ولعلها بنتها . قالت له السيدة وهى تدس المال فى يده : «خذ هذا يا صاحبى لأجل الله» . أخذ راسكولنيكوف

الصدقة ، وتابعت المرأتان طريقهما . وكانت الصدقة قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبكاً . لا شك أنهما ظنتا من زيه الغريب ومظهره الزرى أنه شحاذ محترف . أما العشرون كوبكاً — وهى مبلغ ضخم بالقياس الى صدقة — فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التى أثارت شفقتهما .

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده ، وسار عشر خطوات ، ثم التفت يواجه نهر نيفا فى اتجاه «القصر» . كانت السماء صافية لا يعكرها سحاب ، وكان الماء أزرق اللون تقريباً ، وذلك ما لا يتفق الا فى القليل النادر . وكانت قبة الكاتدرائية ، التى لا تبرز هذا البروز الا حين يُنظر اليها من هذا المكان من الجسر على بعد عشرين خطوة تقريباً من برج صلاة صغير ، كانت متألقة ساطعة ، وكان الناظر اليها يستطيع ، بفضل شفافية الهواء ، أن يميِّز أدق زخارفها . هدأ ألم راسكولنيكوف ، ونسى ضربة السوط التى هوى بها الحوذى على ظهره . ان فكرةً مقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله . حدَّق ملياً الى هذه الأماكن التى كانت مألوفة له . لقد حدث له فى الماضى ، حين كان ما يزال يتردد الى الجامعة ، حدث له مراراً كثيرة قد تُعدُّ بالمئات ، ولا سيما أثناء عودته الى بيته ، أن وقف فى هذا المكان نفسه ، فأخذ يتأمل المشهد الرائع ، فكان يُدهش دائماً من الأثر المبهم الذى يحدثه هذا المشهد فى نفسه . لقد كان هذا المشهد الفخم يبدو له دائماً خالياً من الروح ، يبدو له أخرس عقيماً بارداً برود غريباً . . . وكان راسكولنيكوف يُدهش فى كل مرة من الاحساس القاتم الملغز الذى يشعر به ، وكان لشكّه فى نفسه يرجئ دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه . وقد تذكر الآن فجأةً ، بدقة حادة ، جميع

المسائل التى هاجمته وحاصرته ، فبدا له أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً . ان مجرد توقفه فى هذا المكان نفسه الذى كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً شاذاً كما لو ظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر فى نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعنى بنفس الموضوعات التى كانت تستهويه فى الماضى . . . وفى الآونة الأخيرة أيضاً . أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً . ولكن قلبه قد انقبض فى الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب . بدا له أن ماضيه كله ، وأفكاره كلها ، وجميع المسائل والعواطف التى كان يعالجها فى الماضى ، وهذا المشهد نفسه ، وهو ذاته ، وكل شىء . . . كل شىء يرقد الآن فى أسفل ، تحت قدميه ، فى قرارة هوةٍ سحيقة لا نهاية لها . . . كان يبدو له انه يطير الى مكان ما فى الأعالى وأن كل شىء يختفى ويزول ويغيب . . . وعلى اثر حركة غير ارادية من يده أحسَّ بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته ، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً ، ثم رماها فى الماء بحركة يسيرة ، واستدار على عقبيه وعاد يسير فى طريق بيته . كان يحس فى تلك اللحظة كما لو قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم .

ولم يرجع الى بيته الا عند هبوط الليل ؛ أى انه ظل يسير ست ساعات كاملة . ولو سألته عن الطرق التى سلكها لما استطاع أن يجيبك بشىء . خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على الأريكة ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره . . .

وأفاق فى وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة . ما هذه الصرخة يا رب ! لم يسبق له فى يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة الى هذا الحد : عويل ، ونشيج ،

وصريف أسنان ، وصرخات ، وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه الهمجية ، ووحشية كهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروَّعاً مهدود القلب . ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد . وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت فجأةً ، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد . كانت تعول وتئن وتصيت وتتضرع ، وتشوه الألفاظ من فرط سرعتها حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها . لعلها كانت تبتهل الى من يضربها أن يكف عن ضربها ؛ ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم ، نعم . . . ان أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرحاً بلا شفقة ولا رحمة . وهذا صوت الرجل الذى يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبح . كان هذا الرجل يقول كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يُفهم من فرط سرعته واختناقه ! . . وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بغتة كورقة فى مهب الريح : تعرَّف صوت الرجل . انه صوت ايليا بتروفتش . ماذا ؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت ؟ نعم ، انه يضربها بقدمه ، ويطرق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليه الضجات والصرخات والضربات ، ولا تخطئ فى الدلالة عليه . ماذا جرى اذن ؟ هل انقلب العالم عاليه سافله ؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع فى جميع الطوابق ، من أعلى السلَّم الى أدناه ، أصوات جمهور من الناس يحتشد صارخاً صائحاً . أناس يصعدون ، وأناس ينزلون ، والجلبة تزداد ، والأبواب تقرقع . . . وأناس آخرون يهرعون مسرعين . «لماذا ؟ لماذا ؟ أهذا ممكن ؟» . كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقا بأنه قد أصبح مجنونا ، ولكن لا ، انه ما يزال يسمع

ذلك كله واضحاً كل الوضوح . . . لا بد اذن أنهم آتون اليه أيضاً ، «لأن . . . نعم . . . لأن كل شيء يرجع . . . الى أنني . . . بالأمس . . . قد . . . رباه !» . أراد أن يغلق الباب بالكلابة ، ولكن يده رفضت أن تطيعه ، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك شيئاً من جهة أخرى . لقد كان الخوف يطوّق نفسه كدرع من جليد ، ويعذبه ويشلّه . . . ولكن ها هي ذي الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت عشر دقائق طويلة . . . ان صاحبة البيت تئن الآن وتتأوه . أما ايليا بتروفتش فاستمر يهدّد ويتوعد ويشتم . . . وبدا أخيراً أنه هدأ هو أيضاً ، ثم أصبح صوته لا يُسمع البتة . «أتراه انصرف ؟ يا رب !» . نعم ، لقد انصرف . وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي . هذا بابها يُغلق مقرقعاً . . . هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعا فيعود كل منهم الى مسكنه . . . انهم يتأوهون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارة بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً) . . . لا شك أن عددهم كبير جداً يكاد يضم جميع سكان المنزل . تساءل راسكولنيكوف : «رباه ! أهذا كله ممكن ؟ ولماذا ، لماذا جاء الى هنا ؟»

تهالك راسكولنيكوف مهدود القوى على أريكته من جديد ، ولكن جفنه لم يعرف الى الغمض سبيلاً بعد ذلك . ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب . وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة . لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء . فلما نظرت اليه ملياً فعرفت أنه ليس نائمـــاً ، وضعت الشمعة على المنضدة ، وأخذت ترتّب على المائدة

ما كانت تحمله اليه : خبزاً ، وملحاً ، وصحناً ، وملعقة . قالت :

— لم تأكل شيئاً منذ أمس ! ظللتَ تتسكع هنا وهناك طوال النهار ، وهذه حمى شديدة تنتابك الآن !

قال راسكولنيكوف لناستاسيا :

— ناستاسيا ، لماذا ضربوا صاحبة البيت ؟

فأجابته وهي تنظر اليه ملياً :

— من ضرب صاحبة البيت ؟

— منذ قليل ، منذ نصف ساعة . . . ضربها ايليا بتروفتش مساعد مفوض الشرطة ، هنا ، في السلم . . . لماذا ضربها هذا الضرب ؟ . . ولماذا جاء ؟ . .

تفرست فيه ناستاسيا صامتةً مقطبةً مدة طويلة . لقد آلمه هذا ، ثم شعر بخوف .

سألها راسكولنيكوف وجلاً ، بصوت واهن :

— ناستاسيا ، لماذا تصمتين ؟

فقالت تجيبه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها :

— هو الدم .

— الدم ؟ أي دم ؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يتقهقر فيلتصق بالحائط . ما تزال ناستاسيا تنظر اليه صامتة . ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة :

— لم يضرب أحد صاحبة البيت .

فنظر اليها وهو لا يكاد يتنفس ، وقال لها بمزيد من الوجل :

— سمعت الجلبة بنفسي . . . لم أكن نائماً . . . جلست

هنا . . . وسمعت كل هذا مدة طويلة . . . جاء مساعد مفوض الشرطة . . . وخرج الجميع من شققهم ، وهرعوا الى السلم . . .

— لم يجئ أحد . الدم هو الذى يصرخ فيك . حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يتخثر ويسد الكبد ، تتراءى للمرء عندئذ رؤى . . . أتريد أن تأكل أم لا ؟

لم يجب راسكولنيكوف . وظلت ناستاسيا واقفةً الى جانبه ، لا تتكلم ، وما تزال تتفرس فيه .

— اسقينى يا ناستاسينكا . . .

نزلت ناستاسيا ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرةً صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء . لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك . كل ما يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد ، وأنه قلب ماء الجرة على صدره . ثم أغمى عليه .

الفصل الثالث

ولكنه لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه . كان يعانى حالة حمى مصحوبة بهذيان ، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعي . وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة . كان يتراءى له تارةً أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله ، وأنهم يريدون أن يأخذوه ، أن ينقلوه الى مكان ما ، وأنهم يتناقشون ويشتجرون فى أمره . وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيداً فى غرفته على حين فجأة : فقد ذهب الناس جميعاً لأنهم خافوا منه ، فهم يشقون الباب من حين الى حين لينظروا اليه ، وليهددوه ؛ وهم يتآمرون عليه ، ويضحكون منه ، ويزدرونه ، ويستفزونه . وقد تذكر

راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهرةً عليه قرب سريره مراراً . واستطاع كذلك أن يميز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً ، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد . وكان ذلك يحزنه ويؤلمه ، حتى لقد كان يبكى . وكان يتراءى له فى

بعض الأحيان أنه راقد فى سريره منذ شهر ، وكان يتراءى له فى أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر . ولكن ما باله نسى **ذلك الأمر** ، ما باله نسى **ذلك الأمر** نسياناً تاماً ! على أنه كان يتذكر فى كل لحظة أنه قد نسى شيئاً لا يجوز له أن ينساه . وكان عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر ، ويتعذب ويئن ، ثم اذا هو يستولى عليه خنق مسعور أو

منذ أربعة أيام لم تطعم شيئاً ، غير قليل من الشاى جُرِّعته بالملعقة . وقد جئتك بزوسيموف مرتين . هل تتذكر زوسيموف ؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتباه ، ثم قال انك سليم معافى ، الا من ضربة أصابت رأسك . وأضاف ان الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجاً عصبياً بسيطاً مردُّه الى سوء التغذية . فقد كنت فى حاجة الى بيرة وفجل ، فلما حُرمت منهما مرضت . ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضى بسرعة ، ستبرأ فى القريب أحسن ما يكون البرء . يا له من رجل لامع ، زوسيموف هذا . لقد نجح نجاحاً فائقاً فى الطب منذ الآن .

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد :

— لا نريد أن نؤخرك . هلاَّ تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة !

وتابع يكلم راسكولنيكوف :

— لاحظ يا روديا أن هذه هى المرة الثانية التى يوفد فيها مكتبهم مندوباً . ولكن مندوبهم فى المرة الماضية لم يكن هذا الشاب ، بل كان رجلاً آخر ، ومع ذلك الرجل الآخر انما تباحثنا .

وعاد يسأل المستخدم قائلاً :

— من ذلك الذى جاء فى المرة الماضية ؟

فأجابه المستخدم :

— لا شك أنك تقصد الذى جاء منذ ثلاثة أيام . انه الكسى سيميونوفتش . هو يعمل فى المحل أيضاً .

— أرى أنه أبرع منك . ما رأيك ؟

— نعم ، انه أكثر وقاراً .

— أهنئك ! طيب ، أكمل !

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة :

— اليك الموضوع : بواسطة افاناسى ايفانوفتش فاخروشين الذى أرجو أن تكون قد سمعت عنه ، وبطلب من السيدة والدتك ، وصلت الى مكتبنا حوالة مالية لك ؛ فاذا كنت فى حالة تمكنك من الفهم ، فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلا تلقاها سيميون سيميونوفتش من افاناسى ايفانوفتش بناءً على طلب من السيدة والدتك . هل أُبلغت هذا الأمر ؟

قال راسكولنيكوف حالماً مفكراً :

— نعم ، أذكر . . . فاخروشين . . .

هتف رازوميخين يقول :

— هل سمعت ؟ انه يعرف التاجر فاخروشين ، فكيف لا يكون فى حالة تمكنه من الفهم ؟ ثم اننى ألاحظ أنك رجل عاقل ، فهيَّا أكمل حديثك . انه ليحلو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل .

فتابع المستخدم كلامه فقال :

— نعم ، ان فاخروشين هذا نفسه ، أفاناسى ايفانوفتش فاخروشين ، لم يتردد ، حين طلبت السيدة والدتك ذلك — وهى التى أوصلت اليك بواسطته ، فى مرة سابقة ، مبلغاً من المال — لم يتردد فى هذه المرة أيضاً أن يكتب الى سيميون سيميونوفتش طالباً منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً ، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل .

— يميناً ان قولك «بانتظار ان يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل» هى خير ما خرج من فمك . ولا بأس كذلك فى قولك «السيدة والدتك» . ما رأيك الآن ؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا ؟

— أتمنى ذلك . . . كل ما أريده هو أن يعطينى ايصالاً صغيراً يشهد باستلامه المبلغ .

— سيكتب لك الايصال فوراً . ما هذا الذى معك ؟ أهو سجل ؟

— نعم ، سجل .

— هاته . هيّا يا روديا ! انهض قليلاً . سأسندك . وقّع له اسمك دفعةً واحدة . خذ القلم يا صاحبى ، لأن حاجتنا الى المال ماسة ، ماسة . . .

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم :

— لستُ فى حاجة . . .

— لستَ فى حاجة الى ماذا ؟

— لن أوقّع .

— ولكن كيف يمكن أن . . . بغير توقيع ! . . . ياللعنة !

— لستُ فى حاجة الى مال .

— لستَ فى حاجة الى مال ؟ ألا انك لتكذب يا عزيزى . أنا شاهد على أنك تكذب .

قال رازوميخين ذلك ، والتفت يخاطب الشاب :

— لا تقلق ، أرجوك . . . هو يقول هذا ، ولكنه يهذى . من جديد . ثم انه يتفق له أن يهذى فى الحالة الطبيعية . أنا أعرفه . وأنت رجل عاقل . ليس علينا اذن الا أن نرشده ، أو قل أن نرشد يده ، فيوقّع . هيّا ، ساعدنى !

— يمكننى أن أرجع مرة أخرى .

— لا ، لا ، لماذا تزعج نفسك مرةً أخرى ؟ أنت رجل عاقل . . . هلمَّ يا روديا ، لا تؤخر ضيفنا . . . أنت ترى أنه ينتظر منذ مدة .

قال رازوميخين ذلك وتهيأ ، جاداً كل الجد ، لأن يقود يد راسكولنيكوف . فقال له راسكولنيكوف :

— دع عنك . سأوقّع بنفسى .

وتناول القلم ، ووقّع .

فدفع له المستخدم المال ، وخرج .

— مرحى ! والآن يا عزيزى ، ستأكل ! هه ؟

— نعم سآكل ! .

قال رازوميخين يسأل ناستاسيا التى لبثت هناك طوال تلك المدة :

— هل عندكم حساء ؟

— نعم ، عندنا حساء من أمس .

— أهو حساء بالرز والبطاطس ؟

— بالرز والبطاطس .

— قدّرت ذلك . هاتى الحساء ، وأتينا بشاى !

— حالاً !

نظر راسكولنيكوف حواليه مدهوشاً مخبولاً شاعراً بذعر أخرس . لقد قرر أن يصمت وأن ينتظر تتمة الأحداث . قال يحدث نفسه : «يخيَّل الىَّ أننى لا أهذى الآن . يخيل الىَّ أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام !»

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء ، وأعلنت أن الشاى سيكون مهيأً بعد قليل . من أجل الحساء ظهرت ملعقتان وصحنان وجميع أدوات المائدة : وعاء الملح ، ووعاء الفلفل ، ووعاء الخردل لتطييب اللحم ، الخ . ان مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُراع منذ مدة طويلة . وكان غطاء المائدة نظيفاً .

قال رازوميخين :

سلَّ رأسه ، ودفع الملعقة بنزوة طارئة ، وتهالك على الوسادة . ان رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقية من ريش ، تجلِّلها أغطية نظيفة . وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك وأدركه .

أعلن رازوميخين وهو يعود الى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد :

— يجب على باشنكا أن ترسل الينا فى هذا اليوم نفسه شيئاً من مربِّب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً .

قالت ناستاسيا التى كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة ، وترشف شايها فيرشح «من خلال السكر» فى فمها :

— ولكن من أين عساها تأتى الآن بالتوت ؟

— التوت يا عزيزتى ستجده عند البقال . هل تعلم يا روديا ؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً ! حين هربت من عندى هروب وغد من الأوغاد ، دون أن تذكر لى عنوانك ، غضبتُ غضباً بلغ من الشدة أننى قررت فوراً أن أعثر عليك . . . وأن أعاقبك ! وأخذت فى ذلك اليوم نفسه ابحث عنك . . . يمكن أن يقال اننى ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدى اليك . . . كنت قد نسيت عنوانك الحالى ، أو قل اننى ما نسيته لأننى ما كنت أعرفه أصلاً . أما مسكنك القديم ، فان كل ما كنت أذكره عنه هو أنه يقع فى مكان ما من «الأركان الخمسة» بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف» . . . والحق أن ذلك السيد ، صاحبَ العمارة ، لم يكن اسمه خارلاموف ، بل بوخ . فانظر كيف يخطئ المرء بسبب التجانس اللفظى ! الخلاصة أننى غضبت غضباً شديدا ، غضباً بلغ من الشدة أننى ذهبت من الغد رأساً الى مكتب تسجيل العناوين : فاذا أنا أعرف منهم

عنوانك فى غضون دقيقتين . نعم ، نعم ، انك مسجل عندهم !

— مسجَّل !

— نعم ، نعم ، مسجَّل . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف . لست أخترع شيئاً : لقد جرى هذا أمامى . هوه ! ما لنا نتوه فى التفاصيل ! . . على كل حال ، ما ان جئت الى هنا ، حتى كنت أعرف جميع شئونك ، نعم ، جميع شئونك ! يا صديقى أنا أعرف كل شىء . وناستاسيا شاهدة على ذلك . لقد أرتنى ايليا بتروفتش . وتعارفت مع نيكوديم فومتش ، والبواب ، والسيد زاميوتوف ، الكسندر جريجوريفتش زاميوتوف ، سكرتير قسم شرطة الحى ، وعرفت أخيراً باشنكا . . . باشنكا . . . انها زهرة من عرفتهم . ناستاسيا تعرف ذلك .

تمتمت ناستاسيا تقول وهى تضحك ضحكة فيها شىء من مكر :

— عرف كيف يتملقها .

— عليك أن تضعى السكر فى فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا !

صاحت ناستاسيا تقول وهى تنفجر ضاحكةً :

— يا للكلب !

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك :

— ليس اسمى نيكيفوروفنا بل بتروفنا .

قال لها رازوميخين :

— أحطنا علما بذلك .

ثم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

— هكذا يا صاحبى الخلاصة اننى أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل ، دفعةً واحدة ، جميع الأوهام المعششة فى هذه النواحى . ولكن باشنكا غلبتنى . يا صديقى ، ما كنت لأتصور فى يوم من الأيام أنها جذابة . . . الى هذا الحد . . . هه ؟ ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف ، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميخين فى لحظة من اللحظات ، ورغم أنه ما يزال يحدق اليه .

تابع رازوميخين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أى حرج من صمت راسكولنيكوف وكأنه يوافق على كلام صاحبه :

— نعم ، انها انسانة ممتازة من جميع الجهات .

هتفت ناستاسيا تقول من جديد ، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً :

— يا له من حيوان !

— المصيبة يا صديقى أنك لم تعرف كيف تتدبر أمرك منذ البداية . ان على المرء أن يتبع فى معاملتها طريقة غير طريقتك . ان لها طبعاً . . . غريباً ! سنتكلم عن طبعها فيما بعد . ولكن كيف استطعت أن تُفسد أمورك معها الى الحد الذى انقطعت معه عن ارسال طعامك اليك ؟ وما قصة السند تلك ؟ أأنت جننت ؟ كيف ترضى أن توقّع سندات ؟ ومشروع الزواج ذاك ، حين كانت ابنتها ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة ؟ اننى أعلم كل شىء ! أنا أدرك أننى هنا أمسُّ الوتر الحساس ، وأننى حمار . معذرة ، معذرة . ولكن قل لى بمناسبة الحماقات ما رأيك : ليست براسكوفيا بافلوفنا حمقاء الى الحد الذى قد يفترضه المرء من أول نظرة ، أليس كذلك ؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه ، مشيحاً بوجهه ، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل :

— نعم . . .

فهتف رازوميخين وقد أسعده اسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب :

— أليس كذلك ؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً ، هه ؟ ان لها طبعاً لا يُتوقع أبداً . أنا ، بصراحة ، يحيّرنى هذا الطبع يا صاحبى . لا بد أنها فى الأربعين من عمرها . . . هى تقول انها لم تتجاوز السادسة والثلاثين . هذا حق من حقوقها . على أننى (أحلف لك !) لا أحكم عليها الا من وجهة النظر الفكرية ، من وجهة النظر . . . الميتافيزيقية وحدها . ان ما يقع بيننا يدخل فى نطاق الرمز . هو نوع من علم الجبر يـــا صاحبى . . . لست أفهم من ذلك شيئاً . سخافات كل هذا ! ولكنها اذ رأت أنك لم تعد طالبا ، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس ، وأنك أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك ، وأنها غدت منذ موت آنستها لا تستطيع أن تعدك عضواً فى الأسرة ، قد انتابها ذعر . واذ انك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش فى الماضى ، فقد قام فى ذهنها أن تطردك . وكانت تفكر فى هذا المشروع منذ مدة ، ولكن السند كان يقلقها كثيراً ، ولما كنت قد أكدت لها أن أمك ستدفع . . .

— قلت لها ذلك حقارةً منى . . . ان أمى توشك أن تستجدى أكف الناس . . . لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بى وأن تطعمنى . . .

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عال واضح .

أجابه رازوميخين :

— نعم ، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة . ولكن المشكلة هى أنه فى تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف ، وهو برتبة مستشار ورجل من رجال الأعمال ؛ فلولا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا ، وهى المرأة الخجول ، أن تتخذ أى اجراء . ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل ، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال : هل هناك أمل فى قبض قيمة السند ؟ وكان الجواب بنعم ، لأن هناك أماً لها معاش مقداره مائة وخمسة وعشرون روبلاً ، فلن تضن على ابنها رودنكا باخراجه من المأزق ولو اضطرها ذلك الى حرمان نفسها من الطعام ، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدةً فى سبيل انقاذ أخيها الحبيب . على هذا اعتمد الرجل . ما بالك تضطرب هذا الاضطراب ؟ هأنت ذا ترى يا صاحبى أننى أعرف الآن قصتك ، أعرفها من ألفها الى يائها . لم يذهب سدى ما أفضيتَ به الى باشنكا من مسارّات حين كنت ما تزال تعد نفسك من اقربائها بصفة زوج ابنتها المقبل . . . ولئن كنت أقول لك هذا الكلام ، فلأننى صديقك . اسمع اذن ما حدث : حين يسترسل الانسان الشريف الحسّاس فى مسارّات حميمة ، فان رجل الأعمال يجلس الى منضدته وينهمك فى الحساب ليخرج بمنفعة . وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشيباروف ، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السند . وحين علمت أنا بهذا كله ، أردت أن أتدخل فى الأمر فأرسل سائلى الكهربائى اليه هو أيضاً . ولكن الانسجام قام بينى وبين باشنكا أثناء ذلك ، فأوقفت القضية كلها ، وقضيت عليها فى مهدها ، اذ كفلت أن تدفع المبلغ . لقد أصبحت كفيلك يا صاحبى ،

هل تسمع ؟ واستدعينا تشيباروف ، فدسسنا فى فمه عشرة روبلات ، فرد السند الذى يشرفنى ، يا سيدى ، أن أقدمه اليك . لن تطالب بعد الآن بسند ، بل ستُصدَّق على عهد الشرف وحده . خذ السند . لقد مزقته قليلاً ، كما يجب أن أفعل . . .

وضع رازوميخين السند على المائدة . فألقى راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة ، ثم التفت الى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً ، فاستاء رازوميخين من ذلك ، وقال بعد دقيقة :

— أرى يا صاحبى أننى كنت غبياً مرة أخرى . لقد ظننت أننى بثرثراتى سأسرّى عنك وأسلّيك ، وهأناذا ألاحظ الآن أننى لم أزد على أن حركت غضبك !

— أأنت الشخص الذى كنت أثناء هذيانى لا أتعرفه ؟

كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً ، ودون أن يلتفت اليه . فأجاب رازوميخين :

— نعم أنا ، حتى ان حضورى قد سبب لك بعض نوبات الهياج ، ولا سيما حين جئت اليك بزاميوتوف .

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف ، وحدّق الى رازوميخين سائلاً :

— زاميوتوف ؟ سكرتير مفوض الشرطة ؟ لماذا جاء ؟

— ولكن ماذا دهاك ؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب ؟ لقد أراد أن يتعرف اليك . . . وانما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً . وكيف كان يمكننى ، لولاه ، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك ؟ انه رجل شهم ، رائع . . . فى نوعه طبعاً . ونحن الآن صديقان ، نلتقى كل يوم تقريباً . ذلك أننى سكنت فى

مكان قريب . ألم تعرف ذلك بعد ؟ نعم ، انتقلت منذ برهة وجيزة . وقد ذهبنا معاً الى لويزا مرة أو مرتين . أتتذكر لويزا ايفانوفنا ؟

ـــ هل كنت أهذى ؟

ـــ أظن ذلك ! كنتَ غيرَ نفسك !

ـــ وماذا كنتُ أقول ؟

ـــ ماذا كنتَ تقول ؟ هه . . . معروف ماذا يمكن أن يقول رجل يهذى . والآن ، يا صاحبى ، لم يبق لنا وقت نضيعه . الى العمل !

نهض من الكرسى وتناول قبعته .

ـــ ماذا كنتُ أقول ؟

ـــ ما باله يصر ؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار ؟ لا تقلق اذن . لم يفلت منك كلام فى حق السيدة الكونتيسة . ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع «البولدوج» ، وتكلمت عن أقراط أذن ، وعن سلاسل ذهبية ، وعن جزيرة كريستوفسكى ، وعن بواب ما ، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوّض الشرطة . ثم انك يا سيدى قد اهتممت اهتماماً عظيماً بجوربك ، فكنت تتوسل ان نسرع ونعطيك جوربك فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه فى كل ركن من الأركان ، حتى اذا وجده ، حتى اذا وجد تلك القاذورة حملها اليك بيديه ، بيديه البيضاوين المعطّرتين المجللتين بالخواتم . عندئذ هدأ روعك ، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة يوماً كاملاً ، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك . لا بد أنها ما تزال فى مكان ما تحت غطائك ! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك ، حتى لقد كنت تبكى وأنت تطالب

بتلك القصاصات . تساءلنا أية قصاصات تعنى ، ولكن كان كلامك مشوشاً فلم نفهم منه شيئاً . والآن كفى كلاماً ، ولنبادر الى العمل . هذه خمسة وثلاثون روبلاً . اننى آخذ منها عشرة ، وسأعود اليك بالحساب بعد ساعتين . وفى أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف ، الذى كان ينبغى أن يكون هنا منذ مدة طويلة ، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . وأنت يا ناستاسيا ، أرجوك أن تعنى به اثناء غيابى ! أعطيه ما يشربه ، أو أعطيه شيئاً آخر اذا هو رغب فى ذلك . أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب قوله . الى اللقاء !

قالت ناستاسيا منذ خرج :

ـــ انه يدعوها باشنكا ! آه ! يا للماكر !

ثم فتحت الباب وأصاخت بسمعها ، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط . انها تتحرق شوقاً الى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام انها كانت مفتتنة برازوميخين افتتاناً واضحاً .

فما ان أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه ، ووثب عن السرير كالمجنون . كان قد انتظر خروجهما نافدَ الصبر الى حد الاحتراق والتشنج ، ليباشر العمل بأقصى سرعة . ولكن ما هو هذا العمل الذى يريد أن يقوم به ؟ ها هو ذا قد أصبح ، كأنما على عمد ، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل ! «رباه ! قل لى شيئاً واحداً يا رب : أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد ؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شىء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً ؟ أكانوا يعبثون بى بينما أنا راقد هنا ؟ أتراهم سيدخلون علىَّ فجأة ليقولوا انهم يعرفون كل شىء منذ مدة طويلة ، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين ؟ . . ما العمل الآن ؟ هأناذا نسيت ما

يجب أن أعمله ، كأنما على عمد ! هأناذا نسيته مع أننى كنت أتذكره منذ قليل . . .»

ظل راسكولنيكوف واقفاً فى وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً حيرة أليمة . ثم اقترب من الباب ، ففتحه وأخذ يتنصت ؛ ولكن ليس هذا ما كان يريد أن يعمله . وكأنه تذكر على حين فجأة ، فاذا هو يهرع نحو الركن ، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار . أخذ يفتش هنالك بانتباه ، وأدخل يده فى الثقب يتلمسه ، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً . . . فاتجه عندئذ نحو المدفأة ، ففتحها ، ونبش رمادها ، فعثر على قصاصات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها فى هذا المكان . اذن لم ينظر أحد فى المدفأة . وعندئذ تذكر الجورب الذى جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل . ان ما قاله رازوميخين صحيح . ان الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً ، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحك أن زاميوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة .

«هوه ! زاميوتوف ! . . قسم الشرطة ! ولكن لماذا استدعى الى قسم الشرطة ؟ أين كتاب الاستدعاء ؟ هوه ! اننى أخلط ! لقد استدعيت الى قسم الشرطة فى يوم ماضٍ ! وكنت حينذاك أدقق النظر فى الجورب . والآن . . . والآن . . . لقد كنت مريضاً . . . لماذا جاء زاميوتوف الى هنا ؟ لماذا أتى به رازوميخين الى بيتى ؟» .

بهذا تمتم راسكولنيكوف مهدودَ القوى ، وهو يعود الى الجلوس على سريره . وتابع حديثه لنفسه :

«ماذا يجرى ؟ أأنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان ؟ يبدو لى أن هذا كله الآن

واقع . . . آ . . . تذكرت : أهرب ، يجب أن أهرب بأقصى سرعة ، يجب أن أهرب حتماً . نعم ، ولكن الى أين ؟ وأين ثيابى ؟ لم يبق ثمة حذائى . لقد أخذوها . . . لقد أخفوها عنى ! فهمت ! آ . . . هذا معطفى . . . لقد نسوه ! وهذا هو المال على المائدة ! الحمد لله ! وهذا هو السند . . . سآخذ المال وأهرب . سأستأجر بيتاً آخر ، ولن يعثروا علىَّ ! نعم ، ولكن مكتب العناوين . . . آه . . . سيكتشفوننى ! سيكتشفنى رازوميخين ! الأفضل مع ذلك أن أهرب . . . ان أهرب الى مكان بعيد ، الى أمريكا ، ثم أبصق عليهم . . . ويجب أن آخذ السند أيضاً . . . فقد ينفعنى هناك . . . ماذا آخذ أيضاً ؟ هم يعتقدون أننى مريض ! لا يخطر ببالهم أن فى امكانى أن أمشى . . . هأ هأ هأ ! قرأت فى أعينهم أنهم يعرفون كل شىء ! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم ! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة ! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت ؟ ما هذا ؟ شاى ؟ آ . . . ما تزال توجد بقية من بيرة ، نصف زجاجة ، باردة تماماً !»

أمسك الزجاجة التى كان قد بقى فيها ما يملأ كأساً كبيرة ، فأفرغها فى جوفه دفعةً واحدة ، متلذذاً ، كأنما ليطفئ النار التى تحرق صدره . ولكن قبل أن تنقضى دقيقة واحدة ، كانت البيرة قد صعدت الى رأسه ، فاذا برعدة خفيفة تسرى فى ظهره ، رعدة توشك أن تكون لذيذة ، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه . أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلى مزيداً من الغليان ، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف . فاهتدى الى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً ، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخو المحشو بالقطن الذى يقوم الآن مقام معطفه

الممزق ، وزفر زفرة خفيفة ، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً .

واستيقظ حين سمع أحداً يدخل عليه ، ففتح عينيه ، فرأى رازوميخين . كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً ، ووقف على العتبة متسائلاً أيدخل أم لا يدخل . أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً ، ونظر الى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما .

قال رازوميخين :

— هه . . . أنت غير نائم ؟ ها أنا ذا !

ثم صرخ ينادى ناستاسيا فى السلّم قائلاً :

— ناستاسيا ، هاتى الصرة !

وعاد يقول لراسكولنيكوف :

— سأقدم اليك الحساب فوراً .

سأل راسكولنيكوف وهو يلقى على ما حوله نظرة قلقة :

— كم الساعة الآن ؟

— يمكننا أن نقول ، أيها الأخ العزيز ، انك غير محروم من النوم . لقد حان المساء . لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة . معنى ذلك أنك نمت ست ساعات أو أكثر . . .

— رباه ! كيف أمكن أن . . .

— ماذا ؟ انك قد أحسنت صنعاً . ما أحسب أنك مستعجل ! ما أحسب أنك مرتبط بموعد ! أليس كذلك ؟ نحن نملك اذن كل وقتنا . انى منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك . جئت اليك مرتين ، ولكنك كنت ما تزال نائماً . وقد ذهبت مرتين أيضاً الى زوسيموف . ولكننى لم أجده . لا ضير ! سوف يجىء . . . ثم انى قد تغيبت لأمور شخصية صغيرة . أنت تعلم أننى قد انتقلت اليوم من مسكنى ، انتقلت

منه مع عمى . . . ان لى عماً الآن . ولكن دعنا من هذا كله . . . سحقاً لهذا كله ! هاتى الصرة يا ناستاسيا . سوف . . . فوراً . . . وكيف صحتك الآن يا صاحبى ؟

قال راسكولنيكوف :

— صحتى حسنة . أبللت من المرض . أأنت هنا منذ مدة طويلة ؟

— قلت لك انى أنتظرك منذ ثلاث ساعات .

— نعم ، ولكن . . . قبل ذلك ؟

— قبل ماذا ؟

— منذ متى تأتى الى هنا ؟

— ألم أقصص عليك ذلك ؟ ألا تتذكر ؟

شرد فكر راسكولنيكوف . ان ما جرى فى هذه الفترة يبدو له حلماً . كان عاجزاً عن أن يتذكر أى شىء بنفسه ، وألقى على رازوميخين نظرة مستفسرة .

قال رازوميخين :

— آ . . . اذن نسيت ! لقد بدا لى فى الصباح ان عقلك . . . أما الآن فقد أحسن اليك النوم وشفاك . حقاً ان هيئتك الآن أفضل كثيراً مما كانت . مرحى ! الى العمل اذن ! وسوف تتذكر فوراً ! أنظر الى هنا ، أيها السيد العزيز !

وأخذ رازوميخين يفض صرته التى كان يبدو أنه يوليها أكبر اهتمام .

— نعم يا عزيزى ، هذا أمر يهمنى كثيراً ، ذلك أن علىَّ أن أجعلك رجلاً . هيا بنا ! لنبدأ من فوق .

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وان تكن من طراز عادى بخس الثمن :

— هل ترى هذه القبعة ؟ سأجربها عليك ، أتسمح بذلك ؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه باستياء :

— لا الآن . . . بل وفى وقت آخر . . .

— لا سبيل الى التملص يا صاحبى . لا تصرَّ ! فى وقت آخر يكون الوقت قد فات . لن أنام الليل اذا لم أجربها عليك ، ذلك أننى اشتريتها كيفما اتفق ، دون أن أعرف قياس رأسك .

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المنتصر :

— انها تناسبك . . . تناسبك كثيراً . لكأنها فصِّلت لك . لباس الرأس ياعزيزى أهم جزء من أجزاء اللباس ، فهو الذى يحدِّد مكانتك فى المجتمع . ان تولستياكوف ، وهو صديق قديم لى ، يضطر الى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر فى مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رؤوسهم ، والناس يردون ذلك الى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنه أحسَّ بالخجل من قبعته الرديئة التى تشبه أن تكون عش عصفور . نعم ، تلك هى أسباب حياء هذا الرجل ! انظرى يا ناستاسيا ، انظرى الى هاتين القبعتين : انظرى الى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتى من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوَّرة المشوَّهة ، التى لا يدرى أحد لماذا سمّاها قبعة بالمرستون ٥) ، ثم انظرى الى هذه الآية من آيات فن الجواهر ، واحزر كم دفعت ثمنها ؟ ما رأيك ؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا ؟ (لقد التفت رازوميخين الى الخادمة يسألها ، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب) .

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله :

— عشرين كوبكاً على الأقل !

فهتف يقول مستاءً :

— عشرين كوبكاً يا غبية ، يا حمقاء ؟ بعشرين كوبكاً لا يمكن شراؤك أنت فى هذه الأيام ! لقد دفعت ثمانين كوبكاً ، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة الا لأنها مستعملة . ثم اننى اشتريتها على شرط : ان فى وسعك أن تذهبى الى البائع فى السنة القادمة ، متى اهترأت هذه القبعة ، فاذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً ، أحلف لك ! . . والآن هلموا الى الولايات المتحدة الأمريكية ٥ ، كما كنا نسميها فى المدرسة . ولكننى أنبِّهك قبل كل شىء الى أننى معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفى خفيف) : لا ثقب فيه ، ولا بقعة ؛ هو اذن ، رغم أنه لُبس من قبل ، سروال جيد ؛ ناهيك عن الصديرة التى تناسبه على نحو ما توجب الموضة . أما أنه لُبس من قبل ، فتلك مزية ، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة . اسمع يا روديا : لكى ينجح المرء فى الحياة ، يكفيه فى رأيى أن يراعى الفصول : اذا لم تطالب بهليون فى شهر كانون الثانى ، فسيبقى لك دائماً بضعة روبلات فى حافظة نقودك . ونفس الشىء يمكن القول عن هذا السروال . نحن الآن فى منتصف فصل الصيف ، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً . صحيح أنك ستحتاج فى فصل الخريف الى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء ، وسيكون عليك أن ترمى هذه الملابس ، لا سيما وأنها ستكون قد بليت ، بسبب اهمالك طبعاً . . . ولكن فلنعد الى سؤالنا : احزر كم دفعت ثمن هذا السروال ! روبلين وخمسة وعشرين كوبكاً ! لاحظ أننى اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذى اشترطته فى شراء القبعة : ان من حقك أن تستبدل به

سروالاً بالمجان متى اهترأ . فعلى هذا النحو انما تتم الصفقات في دكان فدايف : يدفع المشترى مرة واحدة الى الأبد ، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط . ولننتقل الآن الى الحذاءين . كيف تجدهما ؟ واضح أنهما مستعملان ، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين ، فهذه بضاعة أجنبية : ان سكرتير سفارة انجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي في السوق . لم يكن قد انتعلهما الا ستة أيام ، ولكنه كان في حاجة ماسة الى المال . الثمن : روبل وخمسون كوبيكاً . صفقة رابحة ، أليس كذلك ؟

قالت ناستاسيا :

— ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه !

— قد لا يكونان على قياس قدميه ؟ فما هذا الذي أخذته معي اذن ؟

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاءً قديماً مهترئاً مثقباً متسخاً بوحل جاف هو أحد أحذية راسكولنيكوف . ثم أردف :

— لقد اتخذت الاحتياطات اللازمة ! ماذا تظنين ؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب ! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية محكمة . أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت . اليك ثلاثة قمصان من نسيج سميك ، ولكن صدرها على آخر موضة . لنحسب الآن التكاليف كلها . قبعة : ثمانون كوبكاً ؛ ملابس أخرى : روبلان وخمسة وعشرون كوبكاً ؛ المجموع : ثلاثة روبلات وخمسة كوبكات ، الحذاءان : روبل وخمسون كوبكاً ، لأنهما في حالة جيدة جداً . المجموع : أربع روبلات وخمسة

وخمسون كوبكاً ، الملابس الداخلية ، جملةً واحدة ، خمسة روبلات . المجموع : تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبكاً . الباقي : خمسة وأربعون كوبكاً ، نقوداً نحاسية من فئة الخمسة كوبكات . اليك هي . خذها . هكذا يا روديا تكون قد «تهندمت» الآن ، لأن معطفك برأيي ما يزال قابلاً للاستعمال ، حتى انه لا يخلو من وجاهة . أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر ! • أما الجوارب وما الى ذلك ، فانني أترك لك أمر الاهتمام بها . وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلا . وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن . ان باشنكا ستمهلك امهالاً غير محدود ، كما قلت لك . والآن يا عزيزي ، اسمح لي ان أبدل لك قميصك لأنني لا استغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل اليك من هنا . . .

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً الى الكلام المرح الذي تدفق من فم رازوميخين :

— دعني ! لا أريد !

قال رازوميخين مصراً :

— لا مناص يا عزيزي ! لن يقول أحد انني أبليت حذاءيَّ في غير طائل !

ثم التفت يقول لناستاسيا :

— هلمي يا ناستاسينكا ! لا تستحي ! ساعديني ! نعم . . . هكذا . . .

استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدلا قميص راسكولنيكوف ، رغم المقاومة التي أبداها . وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته ، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلاً لنفسه :

«سيلبثان مدة طويلة لا يتركانى وشأنى» ثم سأل وهو ينظر الى الجدار :

— بأى مال اشتريتَ هذه الأشياء كلها ؟

فأجابه رازوميخين متعجباً :

— بأى مال ؟ عجيب ! بمالك أنت . لقد جاء الى هنا مستخدمٌ من عند فاخروشين يحمل اليك مالاً أرسلته أمك . ألا تتذكر ؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق :

— نعم ، الآن تذكرت !

فتأمله رازوميخين مقطباً قلقاً .

وفُتح الباب ، ودخل رجل طويل القامة قوى البنية . أحسَّ راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل .

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح :

— زوسيموف ! أخيراً وصل !

الفصل الرابع

زوسيموف رجل طويل القامة ، سمين الجسم ، ممتلئ الوجه ، شاحب اللون ، حليق اللحية ، يوشك شعره المسبل أن يكون من فرط شقرته أبيض . على عينيه نظارتان ، وفى احدى أصابعه السمينة المنتفخة خاتم كبير من ذهب . انه فى السابعة والعشرين من عمره . يرتدى معطفاً أنيقاً واسعاً مصنوعاً من نسيج صوفى خفيف ، وسروالاً صيفياً فاتح اللون ، وبوجه عام كان لباسه واسعاً أنيقاً جديداً . ان قميصه الناصع البياض

يتألق تألقاً باهراً ، وان ساعته تزدان بسلسلة سميكة . أما حركاته فهى تظل بطيئة بعض البطء ، ثقيلة بعض الثقل ، رغم انها ليست خالية من انطلاق مصطنع . هذا الى أن الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح ، رغم جميع الجهود التى يبذلها لاخفائه . ان كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع ، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفة طيبة .

هتف رازوميخين يقول له :

— لقد ذهبت اليك مرتين يا صاحبى ! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى .

قال زوسيموف :

— نعم ! نعم !

ثم أردف يسأل راسكولنيكوف وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير بغير تحرج :

— هيه ! كيف حالنا الآن ؟

قال رازوميخين :

— ما يزال مكتئب المزاج ، ولقد كاد يبكى منذ قليل حين بدلّنا له قميصه !

— هذا طبيعى ! . . كان يمكنكم أن ترجئوا ذلك الى حين آخر ما دام يضايقه . . . النبض جيد . أما زلتَ تشعر بشىء من صداع فى رأسك ؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً :

— لا ! صحتى حسنة ! أنا معافى !

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمع العينين متقد النظرات . ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط . وكان زوسيموف يراقبه بانتباه فقال بلهجة متثاقلة :

— كل شيء على ما يرام . هل أكل شيئاً ؟

ذُكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله .

قال الطبيب :

— يمكن اطعامه كل شيء ! حساء ، شاى . . . ولكن لا فطر ، ولا قثاء طبعاً . وقد لا يناسبه لحم البقر أيضاً . ولكن علام هذا الكلام كله ؟ (وتبادل نظرةً مع رازوميخين) . ولا حاجة الى الدواء بعد الآن ، لا حاجة الى شيء بعد الآن . غدا أرى . . . على أننا نستطيع اليوم فى الواقع أن . . . ولكن . . .

قال رازوميخين :

— سأصطحبه مساء غد فى نزهة . نذهب أولاً الى حديقة يوسوبوف ، ثم نذهب بعد ذلك الى «قصر الكريستال» .

— لو كنت فى مكانك لتركته غداً حيث هو . قد أخرج معه لحظة قصيرة . . . على كل حال سوف نرى .

— خسارة . . . ذلك أننى أحتفل اليوم بانتقالى الى المسكن الجديد الذى يقع على بعد خطوتين من هنا . ليته يستطيع أن يشاركنا ، ولو راقداً على أريكته ! أما أنت فسوف تجيء ، أليس كذلك ؟ (قال رازوميخين هذا متجهاً بالكلام فجأة الى زوسيموف) . لن تنسى ، هه ؟ قد وعدتنى بهذا .

أجاب زوسيموف :

— قد أجيء ، ولكننى اذا جئت فسأجيء متأخراً . ماذا أعددت للحفلة ؟

— لم أهيئ أشياء كثيرة ! شاى ، فودكا ، سمك مجفف ، فطائر أيضاً . ليس بيننا غرباء .

— من سيحضر ؟

— رفاق من هذا الحى ، أكثرهم لا أعرفه من قبل .

وسيحضر الاحتفال عمٌ لى جاء بالأمس الى بطرسبرج لأعمال ، ولا أراه الا مرةً واحدة كل خمس سنين .

— ما هو عمك هذا ؟

— سلخ حياته كلها فى مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد . . . وقد أحيل على التقاعد فهو يتقاضى معاشاً صغيراً . عمره خمسة وستون سنة . . . لا داعى الى الكلام عنه . . . على أننى أحبه فى الواقع . سيجيء بورفيرى بتروفتش أيضا ، قاضى التحقيق فى الحى . انه متخصص فى القانون . ولكنك تعرفه . . .

— هل يمت اليك بقرابة أيضاً ؟

— قرابة بعيدة جداً ! ولكن لماذا أراك معتكر المزاج ؟ آمل أن لا تحملك المشاجرة التى وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة . . .

— هوه ! أنا لا اكترث به .

— أحسن ، أحسن . وهكذا ستضم الحفلة طلاباً ، واستاذاً ، وموظفاً ، وموسيقياً ، وضابطاً وزاميوتوف . . .

— قل لى : ما الذى يمكن أن يجمع بينك أو قل بينه (هنا أومأ زوسيموف باشارة من رأسه الى راسكولنيكوف) وبين رجل مثل زاميوتوف ؟

— يا لهؤلاء المتذمرين ! المبادئ طبعاً ! يميناً انك جالس على المبادئ كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هواك . أما أنا ففى رأيى أن الانسان الطيب الخير هو فى ذاته مبدأ من المبادئ . ولا يهمنى أى شيء آخر . وزاميوتوف رجل رائع فى نظرى .

— هو على كل حال رجل يعرف معرفة رائعة كيف يلعب على حبلين وكيف يجنى ربحاً من طرفين .

صاح رازوميخين وقد ازداد استياؤه ازدياداً شديداً :

— ما شأني أنا وهذا ؟ ولا اكترث بأنه يلعب على حبلين ويجني الربح من طرفين . وليس هذا ما مدحته عليه . ان كل ما قلته لك هو أنه في نوعه انسان جيد . ولو نظرنا الى جميع أنواع البشر وقدرناهم من جميع الجوانب لوجدنا ان الطيبين والأخيار ليسوا بكثيرين . انني لعلى يقين من أنني أنا نفسي لا أستحق أن أُشترى ببصلة ، ولو أُضفت أنت اليَّ .

— أنت تخطئ ! أنا مستعد لأن اشتريك ببصلتين اثنتين !

— أما أنا فلا اشتريك الا ببصلة واحدة . ها . . . يا لك من فكاهي ! ثم ان زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً . ولسوف تأتي مناسبات أشدُّ فيها أذنيه ، ولكن يجب عليَّ بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصده . لا سبيل الى اصلاح انسان بسوء المعاملة ، ولا سيما اذا كان صبياً ، فانما يجب على المرء أن يمكر مزيداً من المكر حين يُعامل صبياً صغيراً . ولكنكم ، معشر التقدميين المتصلبين ، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً ، ولا تحترمون الطبيعة الانسانية . وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الانسانية انما تسيئون الى أنفسكم . واذا كنت تحرص علي أن تعرف كل شيء ، فاعلم أن لنا ، أنا وهو ، قضية مشتركة .

— هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة ، ما هي ؟

— هي قضية ذلك الدهّان نفسه . نعم ، سوف ننقذه من تلك الورطة ! على أنه أصبح الآن غير معرَّض لأي خطر . لقد أصبحت القضية الآن واضحة ، واضحة جداً . وكل

ما يقع على عاتقنا هو أن ندفعها الى نهايتها بسرعة .

— من ذلك الدهان ؟

— كيف ؟ ألم أقصص عليك القصة ؟ ها . . . فعلاً . . . أنا لم أقصص عليك الا البداية . . . ان جريمة قتل العجوز المرابية ، أرملة الموظف . . . أقصد . . . ان الدهان اصبح الآن مقحماً في هذه القضية .

— سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل . . . حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام . . . لي سبب . . . نعم ، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف و . . .

— وقد قُتلت اليزافيتا أيضاً !

بذلك نطقت ناستاسيا على حين فجأة ، متجهةً بالكلام الى راسكولنيكوف . كانت قد بقيت في الغرفة طوال ذلك الوقت ، مستندةً الى الباب ، تتابع الحديث .

تمتم راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع :

— اليزافيتا ؟

قالت ناستاسيا :

— نعم اليزافيتا ، السمسارة . ألا تعرفها ؟ كانت تجيء الى هنا ، تحت ، حتى لقد رقَّعت لك قميصاً .

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط ، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء ، فاختار من هذه الأزهار زهرةً مخططة بلون بني ومرسومةً رسماً رديئاً ، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصي عدد تويجاتها وعدد الأسنان في حافات أوراقها . وشعر بأعضائه تتخدَّر ، حتى بدا له أنها ليست أعضاءه ، ولكنه لم يحاول أن يتحرك ، وظل ينظر الى الزهرة الصغيرة مصراً معانداً .

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستياء واضح :

— طيب ، فماذا وقع لذلك الدهّان ؟

تنهدت ناستاسيا وكفت عن الكلام . وتابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة :

— لقد أقحم هو أيضاً فى جريمة القتل .

— هل هناك قرائن ؟ وما هى تلك القرائن ؟

— قرائن ؟ ليست هناك أية قرائن ! غير أن القرينة التى يستشهدون بها ليست قرينة ، وذلك ما يجب البرهان عليه ! . . المسألة بسيطة : لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التى ارتكبوها حين اشتبهوا فى الرجلين الآخرين فاعتقلوهما . . . أقصد : كوخ وبستریاكوف ! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطةً نقطة . ما أغبى تصرفهم يا رب ! ان المرء ليشعر بالخزى والعار من هذا التصرف ، ولو لم يكن له به شأن ! قد يجىء الىَّ بستریاكوف اليوم ! . .

بالمناسبة يا روديا : عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك ، تماماً عشية اليوم الذى أغمى عليك فيه بقسم الشرطة . . . بينما كانوا يتحدثون فى هذا الأمر هناك . . .

نظر زوسيموف الى راسكولنيكوف مستطلعاً ، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكناً .

قال زوسيموف :

— تريد ان تعرف رأيى يا رازوميخين ؟ أنك تسرف فى الحركة حول هذه القضية حقاً !

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

— لا ضير ! سننقذه من تلك الورطة على أية حال ! ان الأمر الذى يغيظنى فى هذا كله أكثر مما يغيظنى أى شىء آخر ليس وقوعهم فى الخطأ ، فالوقوع فى الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً ، حتى ان الخطأ شىء رائع فعلاً لأنه يؤدى الى الحقيقة . ليس الخطأ اذن هو الذى يغيظنى منهم ، وانما يغيظنى منهم انهم يظلون ممتلئين احتراماً للاخطاء التى يقعون فيها . اننى أعتبر بورفيرى ، ولكن . . . اسمع ، هل تعرف مثلا ما هو الذى حيّرهم وأضلّهم فى أول الأمر ؟ أن الباب كان مغلقاً ، فلما عاد الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً ، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ وبستریاكوف هما القاتلان ! أرأيت الى هذا المنطق ما أعجبه !

— لا تتحمس هذا التحمس كله : لقد أوقفوهما فحسب . . . لم يكن فى وسعهم على كل حال أن . . .

بالمناسبة : لقد أتيح لى أن أقابل كوخ . يظهر أنه كان يشترى من العجوز الأشياء المرهونة التى تخلف أصحابها عن تجديد رهنها فى الموعد المحدَّد . أليس هذا صحيحاً ؟

— بلى ، بلى ، انه وغد حقير ! وهو يشترى سندات أيضاً . هو وغد حقير ، هو محتال خطير . . . شيطان يأخذه ! ولكن ليس هذا ما يثير غضبى وحنقى ، وانما يثير حنقى وغضبى أنهم يتبعون روتيناً عتيقاً بالياً تراكم عليه الغبار من تقادم العهد . ان هذا الروتين هو الذى يثير سخطى ! وما أسهل أن يكتشف المرء ، فى معالجة هذه القضية ، طرقاً جديدة كل الجدة ! ان فى وسعنا ، اذا نحن اعتمدنا على علم النفس وحده ، أن نجد السبيل الى معرفة الحقيقة . هم يقولون : «لدينا وقائع» . ولكن الوقائع ليست كل شىء ، ونصف القضية انما يكمن فى طريقة تأويل هذه الوقائع . . .

— وهل تستطيع تأويلها ، أنت ؟

— عجيب أمرك ! ان المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس ، حين يحس بغريزته أن فى وسعه تقديم خدمة اذا هو . . . آه ! هل تعرف القضية تفصيلاً ؟

— ما زلت أنتظر أن تقصّ علىّ حكاية الدهان .

— سأقص عليك حكايته . اسمع : فى اليوم الثالث بعد وقوع الجريمة ، فى الصباح ، حين كانوا يدققون فى استجواب كوخ وبستریاكوف — مع أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتهما ، ورغم أن كل شىء قد اتضح اتضاحاً صارخاً — حدث على حين فجأة حادثٌ لم يكن متوقعاً على الاطلاق : ان فلاحاً اسمه دوشكين ، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التى وقعت فيها الجريمة ، جاء الى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان من ذهب ، وأخذ يروى قصة عجيبة ، قال : «أمس الأول ، فى المساء ، بعد الساعة الثامنة بقليل ، (لاحظ الوقت :

اليوم والساعة) رأيت الدهان نيقولاى يهرع الى خمارتى ، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك ، حاملاً الىّ علبة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة ، راجياً أن أرهنهما لدىّ لقاء قرض قيمته روبلان . فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين ، قال انه عثر بهما على رصيف ، فلم أسأله غير ذلك (ان دوشكين هو الذى يتكلم) ، ونقدته ورقة صغيرة أى روبلاً واحداً ، لأننى قلت لنفسى : اذا لم يرهن هذين القرطين عندى فسيرهنهما عند غيرى ليشرب بالقرض خمرة ، فالأولى أن يبقيا بين يدىّ أنا : فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله ، فاذا راجت اشاعة تقول انهما مسروقان ، مضيت الى قسم الشرطة لأبلغ عنهما» . واضح أن هذه القصة التى رواها دوشكين سخيفة . وأنا أعرف دوشكين هذا : انه كذاب كبير . انه ، هو نفسه ، يقرض برهن ويخفى الأشياء المسروقة . فلئن أخذ من نيقولاى شيئاً تساوى قيمته ثلاثين روبلاً فانه لم يفعل ذلك من أجل أن «يبلغ عنه» . كل ما هنالك أنه خاف . ودعنا من دوشكين هذا على كل حال . واسمع التتمة . قال دوشكين : «أما ذلك الفلاح ، نيقولاى ديمانتيف ، فانى أعرفه منذ زمن بعيد ، منذ الطفولة ، فنحن كلانا من اقليم واحد هو اقليم ريازان (مقاطعة زارايسك) ؛ وهو يحب أن يشرب قليلاً ، وان لم يكن سكيراً مدمناً . وكنا نعلم أيضاً أنه كان يعمل ، أنه كان يدهن الجدران ، فى ذلك المنزل ، مع دمترى ، ابن بلده . فلما نقدته ورقة الروبل ، بدّلها فوراً ، وشرب كأسين ، واحدة بعد أخرى ، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف . ولم أر دمترى معه فى تلك اللحظة . وفى الغد ، سمعنا أن آليونا ايفانوفنا

وأختها اليزافيتا ايفانوفنا قد وُجدتا مقتولتين بضربات فأس ، ولما كنا نعرفهما كلتيهما ، فقد راودنى شك فى أمر القرطين الذهبيين ، لأننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نعرفهما ونعرف ان آليونا ايفانوفنا تقرض على رهون . عندئذ ذهبت الى العمارة ، وأخذت أتقصى الأمر قليلاً . سألت أولاً عن نيقولاى أهو موجود ، فقال لى دمترى انه غائب يقصف ويلهو ، وانه قد عاد ثملاً فى أول الصباح فلم يمكث الا عشر دقائق ، ثم خرج من جديد ؛ وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك ، وأنه طفق يتم عمله وحيداً . والشقة التى كانا يدهنانها انما تقع فى الطابق الثانى ، وتطل على نفس السلّم الذى تطل عليه شقة المرأتين الشقيتين . عرفنا هذا كله ، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد . (ان دوشكين هو الذى ما يزال يتكلم) . غير أننا أسرعنا نجمع كافة المعلومات التى يمكن جمعها عن جريمة القتل ، ورجعنا الى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهاً . وفى هذا الصباح ، فى الساعة الثامنة من هذا الصباح (أى غداة غد وقوع الجريمة) ، رأيت نيقولاى داخلاً على الخمارة . لا أستطيع أن أقول انه لم يكن قد شرب خمراً بعد ، ولكننى لا أستطيع أن أقول أيضاً انه كان ثملاً جداً ، وانما كان قادراً على متابعة حديث . وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة . ولم يكن يوجد فى الخمارة عندئذ الا هو وشخص آخر عابر ، وشخص ثالث من رواد الخمارة كان نائماً على دكة ؛ هذا عدا الصبيين اللذين يعملان فى الخمارة طبعاً . سألت نيقولاى :

— هل رأيت ميتكا ؟

فأجابنى :

— لا ، لم أره .

— وهل كنت هنا ؟

— لم أكن هنا منذ أمس الأول .

— وأين نمت فى هذه الليلة ؟

— فى حىّ «الرمال» ، عند أهل كولومنا .

— ومن أين جئت بالقرطين فى ذلك اليوم ؟

— عثرت بهما على الرصيف .

وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عنى . سألته :

— هل سمعت عن حدوث كذا وكذا ، فى ذلك المساء نفسه ، فى تلك الساعة نفسها وعلى نفس السلم ؟

فأجابنى :

— لا ، لم أسمع عن شىء من هذا !

سمع ما أقوله فحملق ، وابيضّ لونه حتى صار كالطباشير . وفيما أنا أروى له ما حدث ، رأيته يتناول طاقيته فجأة ، وينهض . حاولت أن أحبسه عن الخروج ، فقلت له :

— انتظر يا نيقولاى ! ألا تريد أن تشرب كأسا ؟

وأومأت الى أحد الصبيين أن يسدّ عليه الطريق ، وتركت البسطة . لكن صاحبنا نيقولاى ولّى هارباً ، فهو ينعطف عند ناصية الشارع ، حتى اننى لم أره بعد . لم يبق اذن شك : انه هو الذى ارتكب تلك الجريمة !»

قال زوسيموف :

— واضح !

قال رازوميخين :

— انتظر ! اسمع التتمة ! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيقولاى طبعاً : فتشوا خمارة دوشكين ، ثم أوقفوا دوشكين ،

وأوقفوا دمترى أيضاً ، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا ، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على نيقولاى الا بعد ثلاثة أيام ، أى أمس الأول . قبضوا عليه فى خان قرب حاجز «س . . .» . يظهر أنه حين وصل الى هناك استل صليبه الفضى ، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة ، فأجيب طلبه . وبعد بضع دقائق دخلت امرأة الى الاسطبل ، فاليك ما رأته من شق الباب : رأت نيقولاى فى الزريبة المجاورة ، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة ، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً . خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن تصرخ ، فصرخت ، فهرع الناس الى المكان ، وقالوا له :

— آ . . . أهكذا أنت اذن ؟

فقال لهم :

— نعم . . . خذونى الى قسم الشرطة فى حىّ كذا ، وسأعترف هنالك بكل شيء !

فاقتادوه محاطاً بكل ما يجب لشخصه الكريم من احترام ، اقتادوه الى قسم الشرطة الذى حدّده ، أى الى قسم الشرطة فى حينا ، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر : كيف ، وماذا ، ولماذا ، وأين ، ومن أنت ، وما سنُّك — «عمرى اثنتان وعشرون سنة» — وهلمَّ جرا ! . . سؤال :

— بينما كنت تعمل مع دمترى ، ألم ترَ أحداً على السلَّم فى ساعة كذا ؟

— مرَّ أناس كثيرون طبعاً ، ولكن ليست مهمتى أن ألاحظهم . . .

— أفلم تسمع شيئاً ما ، أفلم تسمع ضجةً ما ؟

— لا ، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه !

— وأنت يا نيقولاى ، هل كنت تعلم فى ذلك اليوم أن الأرملة فلانة قد قُتلت وسُرقت هى وأختها ، يوم كذا ، ساعة كذا ؟

— لا علمت شيئاً ، ولا رأيت شيئاً . علمت بالأمر أول مرة من أفاناسى بافلوفتش منذ يومين ، فى الخمارة .

— ومن أين جئت بالقرطين ؟

— عثرت بهما على الرصيف .

— لماذا لم تجئ الى العمل مع دمترى غداة ذلك اليوم ؟

— لأننى قصفت ولهوت فى ذلك اليوم .

— أين قصفت ولهوت ؟

— فى مكان كذا .

— لماذا هربت من عند دوشكين ؟

— لأننى خفت خوفاً شديداً .

— من أى شيء خفت ؟

— خفت أن أحال الى المحاكمة .

— ولكن كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا ، ما دمت تعرف أنك لم تقارف جرماً ؟

وعقَّب رازوميخين على ذلك بقوله :

— نعم يا زوسيموف ، بهذه الكلمات انما أُلقى عليه هذا السؤال ، بهذه الكلمات نفسها ، صدّقت أم لم تصدّق ! نعم ، بهذه الكلمات نفسها . . . أنا أعلم ذلك علم اليقين ؛

لقد نُقل الىَّ السؤال بنصه ، كلمةً كلمة . ما رأيك ؟ ما رأيك ؟

— نعم ، نعم ، ولكن هناك قرائن على كل حال . . .

— لا أتكلم الآن عن القرائن ، وانما أتكلم عن السؤال الذى ألقوه عليه ، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس فى فهم مهنتهم . ولكن دعنا من هذا الآن ، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين نيقولاى . ضيقوا عليه الخناق ، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيداً من التضييق ، فاعترف . قال :

— لم أعثر بالقرطين على الرصيف ، وانما عثرت بهما فى الشقة التى كنا ندهنها أنا ودمترى .

— كيف عثرت بهما ؟

— كيف ؟ هكذا : كنا قد عملنا أنا ودمترى طول النهار حتى الساعة الثامنة ، وكنا نستعد للانصراف ؛ ولكن ها هو ذا دمترى يتناول فرشاة ويأخذ يلطخ لى وجهى . فلما لطخ لى وجهى ، ولَّى هارباً ، فركضت وراءه أطارده . كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت من السلَّم ووصلت الى فناء المنزل ، رأيتنى أسقط على البواب الذى كان معه عندئذ بعض السادة . أما عدد أولئك السادة فانى لا أذكره الآن . أخذ البواب يشتمنى ، ثم جاء البواب الثانى فأخذ يشتمنى أيضاً ؛ وخرجت امرأة البواب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا ؛ وفى تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة ، فأخذ يشتمنا هو أيضاً ، لأننا كنا ، أنا ودمترى ، قد انبطحنا فسددنا عليه الطريق . كنت قد أمسكت دمترى من شعره ، ورميته على الأرض ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات ؛ وكان دمترى تحتى ، قد

أمسك شعرى وأخذت لكماته تنهمر علىَّ أيضاً — ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الخبث والشر ، وانما كان دافعه المودة والمحبة ، فهو نوع من التسلية . ثم تخلص دمترى ، وولَّى هارباً الى الشارع ، فركضت وراءه ولكنى لم أستطع أن أدركه . عندئذ عدت الى الشقة وحدى لأرتِّب أشيائى . وفيما أنا أرتِّبها ، منتظراً دمترى ، اذا بى أدوس على علبة صغيرة ، قرب الباب ، فى ركن الدهليز ، فنظرت ، فرأيتها ملفوفة بورق ، فنزعت الورق فرأيت كلاَّبتين ، كلابتين صغيرتين ، صغيرتين جداً ، فشددتهما فخرج القرطان . . .»

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة ، وهو يحدِّق الى رازوميخين بنظرة مضطربة مروَّعة ، بينما هو يُنهض جسمه ببطء ، ويسند يده الى السرير :

— وراء الباب ؟ كانت العلبة وراء الباب ؟

— نعم ، ولكن ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضا عن مقعده .

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع ، وهو يتهالك على وسادته من جديد ، ويعود يلتفت نحو الحائط :

— لا شىء .

ولبث الجميع صامتين برهة وجيزة .

قال رازوميخين أخيراً وهو يلقى على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة :

— لا شك أنه كان قد غفا ، وأنه ما يزال يحلم ، أليس كذلك ؟

فحرك زوسيموف رأسه بايماءة خفيفة تعنى النفى . وقال :

— أكمل قصتك . ماذا حدث بعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، بعد ذلك ! نعم . . . ما ان رأى القرطين ، حتى نسى عمله ونسى دمترى ، وتناول قبعته وركض يسعى الى خمارة دوشكين ، فأخذ منه روبلاً ، كما أسلفنا ، وكذب عليه حين زعم له أنه عثر بالعلبة على الرصيف ؛ ثم طفق يقصف ويلهو ، كما أسلفنا أيضاً . أما عن جريمة القتل ، فانه ما يزال يصر على أقواله :

— لا علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً . علمت بالأمر منذ يومين .

— فلماذا اختفيت اذن حتى الآن ؟

— خفت .

— ولماذا أردت أن تنتحر شنقاً ؟

— لأننى قدَّرت أن أمراً سيحدث لى .

— ما هو الأمر الذى قدَّرت أنه سيحدث لك ؟

— قدَّرت أننى سأحال الى المحاكمة .

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف :

— هذه هى القصة كاملة . فما الذى تظن أنهم استنتجوه من ذلك كله ؟

— ما عسى أظن ؟ هناك قرائن . ومهما تكن هذه القرائن ، فانها تبقى قرائن . الواقعة قائمة . ليس فى وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان ، رغم كل شىء .

— ولكنهم حشروه فى سلك القتلة وانتهى الأمر . لم يبق عندهم ظل من شك . . .

— أنت تخطئ . . . أنت تتحمس وتندفع . . . يجب أن تنظر فى واقعة وجود القرطين مع نيقولاى . لا بد لك

من التسليم بأن هذين القرطين اذا كانا انتقلا رأساً فى ذلك اليوم نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ، من صندوق المرأة العجوز الى يدى نيقولاى ، فقد انتقلا بطريقة من الطرق . هذا أمر له خطورته فى التحقيق . . .

هتف رازوميخين :

— أتقصد طريقة انتقالهما الى يدى نيقولاى ؟ ألا ان أمرك لعجيب ! هل يمكنك حقاً ، وأنت طبيب يُفرض فيه أن يعرف الانسان ، وأُتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الانسانية ، هل يمكنك ان لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات ، طبيعةَ نيقولاى هذا ؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرَّح به نيقولاى أثناء تلك الاستجوابات جميعاً انما كان الحقيقة خالصةً صافيةً ؟ لقد وصل القرطان الى يديه على النحو الذى ذكره تماماً . داس على العلبة فتناولها .

— الحقيقة خالصةً ! ! . . ولكنه اعترف هو نفسه بأنه كذب فى المرة الأولى . أليس كذلك ؟

— أصغ الىَّ بانتباه ! ان البواب ، وكوخ ، وبستریاكوف ، والبواب الثانى ، وامرأة البواب الأول ، والبائعة التى كانت فى مسكنها حينذاك ، والمستشار القضائى كريوكوف الذى نزل من مركبة فى تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة ، ان هؤلاء جميعاً ، أى ثمانية شهود أو عشرة ، قد أجمعوا فى أقوالهم على أن نيقولاى كان قد بطح دمترى أرضاً ، وجثم عليه ، وراح يمطره بوابل من اللكمات ، وأن دمترى كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً ؛ وأنهما تدحرجا كليهما بالعرض فسدَّا

الطريق ، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب ، وأنهما كانا «أشبه بالصبية الصغار» ، على حد تعبير الشهود نصاً ، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان فى القهقهة ويطارد كل منهما الآخر فى الشارع كالصبيان وقد ظهر فى وجهيهما من هزل الأطفال أشدُّه ! هل سمعت هذا كله ؟ فاسمع الآن البقية : كانت الجثتان ، فوق ، فى ذلك الوقت نفسه ، ما تزالان ساخنتين . . . ساخنتين . . . نعم ، نعم ، لقد كانتا ساخنتين حين اكتُشفتا . فلو كان نيقولاى ودمترى هما القاتلين ، أو كان نيقولاى وحده هو القاتل ، وكانا فى الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا فى السرقة مشاركة فحسب ، لكان من حقى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل تلك الحالة النفسية (أعنى الولولة ، والضحك ، والتشاجر الصبيانى تحت باب الدخول) تتفق والفأس ، والدم والمكر الوحشى والحذر والسلب والنهب ؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة ، منذ خمس دقائق أو عشر فى أكثر تقدير — وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين — ثم هما يمضيان فجأةً ، تاركين الجثتين والباب مفتوح ، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة الى أخرى ؟ أيقتلان منذ برهة وجيزة ، ثم يتركان غنيمتهما ، ويمضيان يتدحرجان فى الشارع «كالصبية الصغار» ، ويضحكان ضحكاً صاخباً ، ويلفتان اليهما انتباه الناس جميعاً ، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد ؟

— هذا غريب فعلاً . ذلك مستحيل طبعاً ، ولكن . . .

— يا أخى ، لا داعى الى **ولكن** هذه . اذا كان وجود القرطين بين يدى نيقولاى ، فى ذلك اليوم نفسه ،

فى تلك الساعة نفسها ، واقعةً مادية هامة تشهد عليه — وهى مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً ، **فيمكن اذن دحضها** — أقول اذا كان ذلك كذلك فيجب أن ندخل فى الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه ، وتؤكد براءته ، لا سيما وأنها **وقائع ثابتة لا سبيل الى دحضها** . ولكن ماذا تظن ؟ هل تعتقد أن قضاءنا ، وهو على ما هو عليه ، يمكن أن يسلِّم بأن واقعة قائمة على الاستحالة السيكولوجية وحدها ، واقعة مبنيةً على الحالة النفسية فحسب ، يمكن أن تُعدَّ واقعةً ثابتة لا سبيل الى دحضها ، واقعةً قادرة بمفردها على أن تهدِّم جميع وقائع الاتهام المادية أية كانت ؟ لا ، ان قضاءنا لن يسلم بهذا ، لن يسلِّم به فى حال من الأحوال ، وذلك بحجة أن العلبة قد وُجدت ، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه ، وأنه «ما كان ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه !» تلك هى المسألة الرئيسية ، ذلك هو السبب الذى يحضنى على الاندفاع والحماسة ، هل فهمت ؟

— أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً . انتظر ! نسيت أن ألقى عليك سؤالاً : ما هو الدليل الذى نملكه على أن العلبة التى تحوى القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً ؟

أجاب رازوميخين على مضض ، وقد عبس وجهه :

— ذلك ثابت . لقد عرف كوخ العلبة ، وحدَّد الشخصَ الذى رهنها عند العجوز ، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبته .

— هذا مؤسف . والآن ألقى عليك سؤالاً آخر : ألم يلمح أحد نيقولاى لحظةَ كان كوخ وبستریاكوف يصعدان السلَّم ؟ أفلا يمكن اثبات ذلك بطريقة من الطرق ؟

أجاب رازوميخين متحسراً :

— لا ، لم يلمحه أحد ، وذلك هو الأمر المحزن . ان كوخ وبستریاكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما . صحيح أن شهادتهما الآن لا تتسم بأهمية كبيرة . . . هما يقولان : «رأينا باب الشقة مفتوحاً ، وقدَّرنا أنه ربما كانت تجرى فيها اصلاحات ، ولكننا لم ننتبه أثناء مرورنا ، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا» .

— فالتفسير الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه اذن ، للتدليل على براءتهما ، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقهين . طيب ! هذا دليل قوى ولكن . . . اسمح لى : كيف تفسر انت الواقعة ؟ كيف تفسر العثور على القرطين اذا كان قد وجدهما على نحو ما صرَّح ؟

— كيف أفسرها ؟ ليس هناك شىء يحتاج الى تفسير : الأمر واضح وضوح النهار ، أو قل فى أقل تقدير ان الطريق الذى يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم . والعلبة هى التى ترسم هذا الطريق . ان القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقى . كان هو فى أعلى ، موصداً عليه الباب بالمزلاج ، حين رابط كوخ وبستریاكوف على الباب . وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة ، حين نزل فى اثر صاحبه ، فانتهز القاتل الفرصة ، فهرب من الشقة ، ونزل هو أيضاً ، اذ لم يكن له مخرج آخر . وفيما كان على السلم ، اختبأ عن أعين كوخ وبستریاكوف والبواب بدخوله الى المسكن الخالى الذى تركه دمترى ونيقولاى منذ لحظة قصيرة ، فظل لاطياً وراء الباب بينما كان البواب والرجلان الآخران يصعدون . حتى اذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء ، وذلك فى اللحظة التى كان

فيها دمترى ونيقولاى يطارد كل منهما صاحبه فى الشارع أى فى اللحظة التى كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد فى مدخل العمارة . بل ان من الجائز أن يكون أحدهم قد رآه ، لكنه لم يلاحظه : ان ناساً كثيرين يمرُّون . أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب ، فلم ينتبه الى ذلك ، لأن ذهنه كان مشغولاً عندئذ بهموم أخرى كثيرة . نعم ، أن العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك . تلك هى القصة كلها .

قال زوسيموف :

— هذا تفسير بارع ! نعم . . . حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبى . . . بارع جداً جداً . . .

— ولكن لماذا ؟ لماذا تقول ؟ . .

— لأن كل شىء فيه مرتب بحذق ومركَّب باحكام . . . لكأننا فى مسرح ! . .

همَّ رازوميخين أن يتكلم فقال :

— هيه . . .

ولكن الباب فُتح فى تلك اللحظة نفسها ، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور .

الفصل الخامس

هو سيد ليس الآن فى ريِّق الشباب ، سيد متكلف متصنع ، ذو أبهة وجلال ، تعبر هيئته عن التحفظ والتعالى ، وقف على العتبة يلقى على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة

لا تخفى حتى الأسف وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال : «أترانى ضللت الطريق ؟» انه يتفحص «حجرة» راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدى نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضض . وبمثل هذه الدهشة نفسها وجَّه بصره الى راسكولنيكوف ، ثم ثبَّته عليه ، فرأى راسكولنيكوف الذى لم يكن مرتدياً ثيابه ولا حلق ذقنه ، والذى كان مشعث الشعر راقداً على أريكته الوسخة الحقيرة ، رآه يتفحصه من جهته دون أن يتحرك . وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميخين الذى لم يكن ممشَّط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقح دون أن يتحرك . خيَّم صمت متوتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغى أن نتوقع . ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات ، وهى علامات واضحة جداً على كل حال ، أن هيئته المسرفة فى الصرامة لن تنفعه كثيراً فى هذه الحجرة ، فلطَّف هيئته بعض التلطيف ، واتجه الى زوسيموف يسأله بأدب وكياسة ، مع احتفاظه بشيء من الجمود والصلابة ، قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً واضحاً :

— رروديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب أو طالب سابق ؟

تحرك زوسيموف ببطء ، ولعله كان سيجيب لولا أن رازوميخين الذى لم يسأله أحد شيئاً أسرع يسبقه الى الجواب فقال :

— هو ذا . . . راقد على السرير . . . ماذا تريد أنت ؟ ان هذا السؤال الذى ليس فيه شيء من تحرج :

«ماذا تريد أنت ؟» قد بلبل السيد المتصنع فأوشك أن يلتفت نحو رازوميخين ، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه ، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة الى زوسيموف .

— نعم ، هذا راسكولنيكوف !

كذلك قال زوسيموف باهمال وتثاقل ، وهو يشير الى المريض بايماءة من رأسه ، ثم تثاءب ففتح فماً واسعاً سعةً غير مألوفة أيضاً وظل فمه مفتوحاً مدة طويلة . ثم أغطس يده فى جيب صُديرته ببطء فاستلَّ منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل ، ففتحها ونظر فيها ، ثم أعادها الى جيبه بذلك البطء نفسه وبذلك التوانى نفسه .

وفى أثناء هذا الوقت ، ظل راسكولنيكوف راقداً على ظهره ، وظل صامتاً لا يقول كلمة ؛ وكان يلقى على الزائر نظرةً ثابتة عنيدة ، وان تكن هذه النظرة لا تعبر عن أية فكرة . انه وقد تحوَّل وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار ، يبدو الآن شاحباً شحوباً شديداً ، وتدل ملامحه على أنه يعاني ألماً هائلاً ، حتى لكأنه خارج من عملية موجعة أو كأنه أُطلق سراحه بعد التعذيب . ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً ، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية . فلما قال زوسيموف وهو يومئ اليه : «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخزته ابرة ، وجلس على السرير ، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً :

— نعم ، أنا راسكولنيكوف ! ماذا تريد ؟

نظر اليه الزائر بانتباه وقال يعرِّف بنفسه بلهجة رصينة وقور :

— بيوتر بتروفتش لوجين . أحب أن أظن أن اسمى ليس مجهولاً عندك تماماً .

ولكن راسكولنيكوف الذى توقع شيئاً غير هذا ، نظر اليه دون أن يجيب ، وكان زائغ البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بيوتر بتروفتش أول مرة حقاً .

سأله بيوتر بتروفتش مرتبكاً بعض الارتباك :

— كيف ؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أىَّ نبأ حتى الآن ؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على

الوسادة ببطء ، ثم صالب يديه وراء رأسه ، وأخذ ينظر الى السقف . طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن ، وأخذ زوسيموف ورازوميخين ينظران اليه بمزيد من الاستطلاع والفضول ، حتى بدا عليه الاضطراب فى آخر الأمر . ودمدم يقول :

— كنت افترض وأقدِّر أن الرسالة ، وقد أودعت فى البريد منذ أكثر من عشرة أيام ان لم يكن منذ خمسة عشر يوماً ، لا بد أن . . .

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله :

— اسمع ! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب ؟ هلمَّ فاجلس اذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه . . . ان العتبة لا تتسع لكما كليكما أنت وناستاسيا ! يا ناستاسيوشكا ، تنحى قليلاً ، ودعيه يمرّ ! تقدم ! هذا كرسى ! ادخل !

قال رازوميخين ذلك ، وأبعد كرسيه عن المائدة ، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً ، ولبث على هذا الوضع ، المزعج بعض الازعاج ، برهةً من الوقت ، ينتظر أن «يتسلل» الزائر من هذه الفرجة . لقد اختار رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً الى الرفض ، لذلك أسرع الزائر ينسل فى الفراغ الضيق متعثراً ، حتى اذا وصل الى الكرسى جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريب وشك .

قال رازوميخين بغير اكتراث :

— لا تتحرج ! ان روديا مريض منذ خمسة أيام ، وقد ظل يهذى ثلاثة أيام ، لكنه ثاب الآن الى رشده تماماً ، حتى انه أصبح يُقبل على الطعام نهماً . والجالس هناك هو طبيبه . وقد فحصه منذ برهة قصيرة . أما أنا فاننى أحد رفاق روديا ، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن ممرضاً له . فلا تنتبه

الينا ، ولا تحفل بنا ، ولا تتحرج منا . أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله !

قال بيوتر بتروفتش :

— شكراً .

ثم التفت يسأل زوسيموف :

— ولكن ألا يزعج المريضَ حضورى وحديثى ؟

فأجابه زوسيموف مجمجماً :

— لـ . . . لا ! حتى لقد يسلّيه هذا قليلاً !

قال ذلك وتثاءب من جديد .

قال رازوميخين :

— نعم ، نعم ! لقد أفاق من غيبوبته منذ مدة طويلة ، منذ هذا الصباح !

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة والبساطة الساذجة ما جعل بيوتر بتروفتش يغير موقفه فأخذ يشعر بشىء من الارتياح والانطلاق ، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً الى أن هذا الفقير الوقح قد أفلح رغم كل شىء فى أن يعرِّف بنفسه على أنه طالب .

بدأ لوجين يتكلم فقال :

— ان والدتك . . .

فاذا برازوميخين يهتف بصوت عال :

— هِـمْ !

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة . فقال له رازوميخين :

— ليس هذا شيئاً ! لا تلق الى هذا بالاً . هلمَّ أكمل كلامك .

رفع لوجين كتفيه متعجباً ، وواصل حديثه فقال :

— ان والدتك قد شرعت فى كتابة رسالة اليك حين كنتُ عندها . فلما وصلتُ الى هنا تعمدت أن لا أجىء لزيارتك قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن أكون على يقين كامل من انك اطلعت على كل شىء . ولكننى أرى ، مدهوشاً كل الدهشة . . .

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة ، وظهرت فى هيئته علامات نفاد الصبر والزعل ، قاطعه قائلاً :

— أعرف ! أعرف ! أنت الخطيب ، أليس كذلك ؟ أعرف أعرف . ويكفينى هذا .

أحسَّ بيوتر بتروفتش بأنه أهين فعلاً ، ولكنه صمت . كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف . ودام الصمت ما يقرب من دقيقة .

وفى اثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذى التفت نحوه قليلاً ليجيبه ، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوى كأن وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً ، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه ؛ حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً . وكان ذلك الشىء فى مظهر بيوتر بتروفتش لا يخفى عن عين الناظر اليه فعلاً ، انه شىء خاص ، شىء لا أدرى ما هو ، شىء يسوِّغ الصفة التى أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تحرج حين سماه «الخطيب» . ان المرء يلاحظ قبل كل شىء — يلاحظ بوضوح شديد — أن بيوتر بتروفتش قد أسرع يستفيد من الأيام القليلة التى يعتزم قضاءها فى العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته ؛ وذلك ، على كل حال ، أمر مشروع تماماً ، برىء

كل البراءة . حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل ، بسبب لقب «الخطيب» الذى أصبح يحمله ، ما كان يراه فى نفسه من رأى لعله مسرف فى التعظيم ، بعد التبدل الموفق السعيد الذى طرأ عليه . كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة ، لولا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة . حتى قبعته المستديرة الأنيقة الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتنبئ بتلك الغاية : ان بيوتر بتروفتش يداريها مداراة فيها شىء من الغلو ويمسكها بيديه امساكاً مفرطاً فى الاحتياط والحذر . وحتى القفازان الأخاذان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران الى تلك الغاية ، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما ، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر فى أعين الناظرين . ان ثياب بيوتر بتروفتش تغلب عليها ، فى العادة ، الألوان الزاهية التى يحبها المراهقون . ولقد كان يرتدى فى ذلك اليوم سترةً صيفية جميلة بلون الكستناء ، وسروالاً صيفياً زاهياً ، وصديرة مناسبة من نفس القماش ، وقميصاً من قماش رقيق جداً ، قد اشتراه منذ قليل أيضاً ، ورباطا للعنق رقيق النسيج تخدِّده خطوط بلون الورد ؛ وأجمل ما فى ذلك كله أن هذه الملابس جميعها كانت تتسق وشخص بيوتر بتروفتش كل الاتساق . انك لو نظرت الى وجهه النضر الذى لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدِّر أنه فى الخامسة والأربعين من عمره . وسالفان بلون الكستناء ، يحيطان بوجهه اطاراً لطيفاً . انهما مقدودان على شكل ضلعين ، فهما يتكاثفان حول الذقن تكاثفاً حلواً ، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهى ملتمعة

براقة . وشعره نفسه ، الذى لم يكد يشيب ، والـــذى تولى الحلاق تصفيفه وتجعيده ، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبى الذى نراه عادةً فى الشعر المجعَّد لأنه يضفى على وجه المرء ذلك التعبير الأبله الذى يلاحظ فى وجه ألمانى يرتدى ثياب الزفاف . ولئن كان فى هذا الوجه الرصين اللطيف شىء مزعج بل ومنفِّر مع ذلك ، فان مردَّ هذا الى أسباب أخرى . نظر راسكولنيكوف الى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة ، ثم ابتسم ابتسامة مسمومة ، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى ، وعاد ينظر الى السقف من جديد .

ولكن السيد لوجين صمد ، وبدا عليه أنه قرر مذعناً أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة .

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة :

— يؤسفنى أشد الأسف أن أجدك على هذه الحال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت ازورك قبل الآن . ولكن الأعباء الكثيرة المتعبة قد حالت بينى وبين ذلك . هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب علىَّ وظائفى ، كمحامٍ ، أن أرفعها الى السينات . ناهيك عن المشاغل التى لا بد أنك تدركها . . . اننى انتظر وصول والدتك وأختك ، أنتظر وصولهما بين لحظة وأخرى . . .

تحرك راسكولنيكوف ، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً ، وعبَّر وجهه عن شىء من الانفعال ؛ فأمسك بيوتر بتروفتش عن الكلام ، وانتظر برهة ، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم ، فقال :

— . . . بين لحظة وأخرى . وقد وجدت لهما مسكناً ينزلانه فى الآونة الأولى . . .

سأله راسكولنيكوف بصوت واهن :

— أين يقع هذا المسكن ؟

— غير بعيد عن هنا . فى عمارة باكالايف .

قال رازوميخين مقاطعاً :

— فى شارع «الصعود» . تضم العمارة طابقين مفروشين

يؤجرهما التاجر يوشين . لقد ذهبت الى هناك .

— نعم ، هى غرف مفروشة .

قال رازوميخين :

— منزل حقير ، فظيع ، قذر ، عفن ، وهو فوق ذلك مشبوه ، جرت فيه قصص بشعة . . . لا يعلم الا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه . . . لقد زرته بنفسى على أثر فضيحة شائنة . ولكنه يمتاز بأن الأجور فيه زهيدة .

ردَّ بيوتر بتروفتش يقول بلهجة فيها شىء من الحساسية :

— لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات ، لأننى لم أصل الا منذ مدة قصيرة . على أن الغرفتين نظيفتان كل النظافة ، ولما كانت الاقامة فيهما قصيرة جداً . . .

ثم تابع كلامه ملتفتاً الى راسكولنيكوف :

— وقد وجدت مسكناً لنا نحن منذ الآن ، أعنى البيت الذى سنسكنه فى المستقبل ، وقد بوشر فى اعداده ؛ وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسى على مسافة خطوتين من هنا ، فى غرفة مفروشة كيفما اتفق ، عند سيدة اسمها ليبفكسيل ، فى شقة صديق لى هو آندرى سيميونوفتش ليبزياتنيكوف ، وهو الذى دلَّنى على عمارة باكالايف . . .

— ليبزياتنيكوف ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف ببطء ، كأن هذا الاسم يذكِّره بشىء ما .

— نعم ، آندرى سيمونوفتش ليبزياتنيكوف ، موظف باحدى الوزارات . أتراك تعرفه ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

— نعم . . . لا . . .

— معذرة . لقد خيل الىَّ من سؤالك أنك . . . لقد كنتُ فى الماضى ولىَّ أمره . . . هو فتى لطيف جداً ، مطلع على كل ما هو جديد . . . اننى أحب معاشرة الشباب . من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة .

قال بيوتر بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظرة شاملة ، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم .

سأله رازوميخين :

— بأى معنى ؟

فقال بيوتر بتروفتش وقد أسعده أن يُسأل :

— بالمعنى الجدى ، بالمعنى الهام الأساسى . منذ عشر سنين كنت لا أزور بطرسبرج . صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة ، جميع هذه الاصلاحات وهذه الأفكار ، قد وصلت الى الأقاليم أيضاً . ولكن اذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح ، رؤية أشمل ، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج . وعندى أن خير وسيلة للتعلم انما هى ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية . وانى لأعترف بأننى قد ابتهجت كثيراً . . .

— ما الذى ابتهجت له على وجه التحديد ؟

— سؤالك واسع قليلاً . . . قد أكون مخطئاً ، ولكن يخيَّل الىَّ اننى أجد الآن نظرة أوضح ، وأجد قدراً من حس النقد أكبر ، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع . . .

قال زوسيموف بغير اهتمام :

— هذا صحيح .

فردَّ رازوميخين قائلاً :

— أكاذيب ! ليس هناك أى فكر وضعى ! ان الفكر الوضعى يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء ، وليس يهبط

من السماء . ونحن أناس فقدنا عادة العمل والفعل منذ مائتى سنة أو نحو ذلك .

ثم أضاف يقول متجهاً بكلامه الى بيوتر بتروفتش :

— صحيح أن الأفكار تختمر ، وأن الرغبة فى حسن العمل موجودة أيضاً مهما تكن صبيانية ؛ حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف والأمانة ، رغم أن عدد المحتالين والأوغاد لا يُحصى ولا نهاية لهم . وأقرر أن الفكر الوضعى لا وجود له . أما الذين يملكون الفكر الوضعى فهم التجار وأغنياء الحرفيين .

قال بيوتر بتروفتش يردُّ على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى :

— لا أشاطرك رأيك . صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة ، وأن هناك اختلافات شديدة ، ولكن يجب أن نكون عادلين : ان هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون ، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هى الظروف التى يجب توافرها . ولئن لم يتحقق حتى الآن الا القليل ، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن الا وقت قصير ، ناهيك عن قلة الوسائل . وفى رأيى شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شىء ما : انتشرت الأفكار الجديدة ، الأفكار المفيدة ؛ انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من المؤلفات الرومانسية الحالمة التى ذاعت فى القديم . نضج الأدب ، واستؤصلت أوهام كثيرة ضارة . بايجاز : قطعنا الصلة بالماضى قطعاً حاسماً ، وهذا وحده هو فى رأيى شىء هام . . .

دمدم راسكولنيكوف قائلاً :

— يردِّد أقوالاً محفوظة حباً بالظهور !

لم يسمع بيوتر بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف ، فسأله مستوضحاً :

— نعم ؟

ولكنه لم يحصل على جواب .

وأسرع زوسيموف يقول :

— هذا كله صحيح جداً .

قال بيوتر بتروفتش وهو ينظر الى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة :

— أليس كذلك ؟

ثم اتجه الى رازوميخين يقول له بلهجة تنم فى هذه المرة عن الانتصار وتعبر عن الشعور بالتفوق ، حتى ليكاد يخاطبه بقوله : «أيها الفتى» :

— عليك أن تسلّم بأن هناك سيراً الى أمام ، أو أن هناك تقدماً على حدّ التعبير الرائج الآن ، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية .

— كلام معاد مكرور !

— لا ، ليس كلاماً معاداً مكروراً .

كذلك قال بيوتر بتروفتش ، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه اسرافاً :

— مثلاً ، قالوا لنا حتى الآن : «أحبّ قريبك» . فلنفرض أننى أحببته ، فما الذى يترتب على ذلك ؟ يترتب عليه أن أشطر معطفى شطرين فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عرى ، وفقاً لما يقوله المثل الروسى : «من طارد أرنبين فى آن واحد لم يدرك أياً منهما» . أما العلم فانه يقول : أحبّ نفسك قبل سائر الناس ، لأن كل شىء فى العالم قائم على المنفعة الشخصية » . فاذا لم تحب

الا نفسك صرّفت شئونك على نحو ما يجب أن تصرّفها ودبرت أمورك كما ينبغى أن تدبّرها ، فبقى معطفك كاملاً سليماً لم يُمزّق . وتضيف الحقيقة الاقتصادية الى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية فى المجتمع ، أى كلما كبر عدد المعاطف الكاملة ، ازدادت الأسس التى يقوم عليها المجتمع متانةً وصلابةً ، وازدادت ثروة المجتمع . معنى هذا أننى حين أجنى خيراً لنفسى وحدى ، فانما أحصّل فى الوقت نفسه خيراً لجميع الناس ، فينشأ عن ذلك أن قريبى ينال عندئذ أكثر من نصف معطف ، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردى ، بل يتم نتيجةً لرخاء عام ورفاهية شاملة . الفكرة بسيطة ، ولكنها لم تفرض نفسها — وا أسفاه ! — الا بعد وقت طويل ، لأنها كانت محجوبةً عن الأنظار بحماسة ساذجة واحلام وهمية باطلة . ولم يكن المرء مع ذلك فى حاجة الى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن . . .

قاطعه رازوميخين يقول بخشونة :

— معذرة ، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء ، فلنقف اذن عند هذا الحد ، وحسبنا ما قلناه ! أنا انما تكلمت لأننى كنت أرمى الى هدف معيّن ، أما هذه الثرثرة كلها التى لا تفصح الا عن اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيذاً ، وأما هذا الكلام المعاد المكرور الذى لا ينضب له معين ، فذلك كله ما يزال يبعث فى نفسى التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت احمرُّ لا حين أقوله أنا فحسب ، بل حين أسمع غيرى يقوله أيضاً . لقد تسرعتَ كثيراً فى اظهار ثقافتك وابراز معارفك . وذلك أمر يمكن أن يُغفر لك ،

ولست ألومك عليه . ولكننى أردت أن أعرف من أنت ، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع ، وبلغوا من شدة افساد كل ما لمسوه ، فى سبيل مصلحتهم ، أنهم وسخوا كل شىء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه . وكفى هذا ! . .

قال السيد لوجين المهان بوقار شديد :

— أتراك تريد ، أيها السيد الكريم ، أن تشير بهذه الصراحة الصارخة الخالية من أى تحرج الى أننى ايضا . . .

— رحماك ، رحماك ! كيف يمكننى أن . . . والآن ، كفى ! . .

كذلك قطع رازوميخين كلامه ، والتفت الى زوسيموف التفاتاً جازماً ، ليستأنف ما كان بينهما من حديث .

وملك بيوتر بتروفتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً . وكان قد قرر ، على كل حال ، أن ينصرف بعد دقيقتين .

قال يخاطب راسكولنيكوف :

— أرجو للعلاقات التى بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك ، وبفضل الظروف التى تعرفها . . . اننى اتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شىء . . .

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه . وهمَّ بيوتر بتروفتش أن ينهض .

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة :

— لا شك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها .

فأجابه رازوميخين موافقاً :

— لا شك ! لا شك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها .

ان بورفيرى لا يطلع أحداً على خواطره ، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً . . .

سأل راسكولنيكوف بصوت عالٍ جداً :

— يستجوبهم ؟

— نعم ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— لا لشىء !

وسأل زوسيموف :

— أين يمكنه أن يجدهم ؟

— سمَّى له كوخ بعضهم . وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التى لُفت به الأشياء . وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم منذ علموا بالنبأ . . .

— يميناً ان الذى ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً ، وغداً محنكاً ، ذا خبرة ! يا لها من جرأة ! يا لها من عزيمة !

قال رازوميخين مقاطعاً :

— لا ، بالعكس ! وذلك بعينه هو ما يتوَّهكم جميعاً . أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس بذى تجربة ولا خبرة ، وأن هذه الجريمة هى خطوته الأولى على هذا الطريق . لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها . أما اذا افترضناه غير ذى تجربة ولا خبرة ، فان المصادفة وحدها تكون هى التى أخرجته من الورطة وما أكثر ما تفعله المصادفات ! لعله لم يتنبأ بالعقبات التى ستعترض سبيله ، ولم يتصور الحواجز التى سيصطدم بها ! انظر كيف تصرف : لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلاً ، فملأ بها جيوبه ، لقد

نبش بين الخرق فى صندوق العجوز ، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحوى ألفاً وخمسمائة روبل عدا السندات . حتى السرقة لم يحسنها . انه لم يحسن الا القتل ! . . هذه خطوته الأولى على طريق الاجرام ، اقول لك هذه خطوته الأولى ! نعم ، لقد طاش عقله وذهب صوابه . . . أؤكد لك أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل هو المصادفة .

تدخل بيوتر بتروفتش فى الحديث ، فقال يسأل زوسيموف :

— أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التى وقعت مؤخراً وكانت ضحيتها تلك المرأة العجوز ، أرملة الموظف ، أليس كذلك ؟

وكان بيوتر بتروفتش واقفاً يحمل بيده قبعته وقفازيه . غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة الذكية قبل أن ينصرف . كان واضحاً أنه يهمُّه أن يخلف فى نفوس سامعيه أثراً حسناً ، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل .

— هل سمعتَ عن هذه الحادثة ؟

— طبعاً ! ان جميع الجيران . . .

— هل تعرف التفاصيل ؟

— لا أستطيع أن أزعم أننى أعرف التفاصيل ، غير أن ما يعنينى فى هذه القضية انما هو بعض ظروفها ، أو بعض المشكلات التى تطرحها . لست أتكلم عن أن عدد الجرائم التى تُرتكب فى الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً فى السنوات الخمس الأخيرة ؛ لا ولا أتكلم عن حوادث السطو وحوادث الحريق التى تتعاقب فى كل مكان بغير انقطاع .

لا ، لا أتكلم عن هذا ؛ وانما الشىء الذى يبدو لى غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد فى الطبقات العليا أيضاً ، على موازاة تزايده فى تلك الطبقات الدنيا ان صح التعبير . هنا ، طالبٌ سابق يهاجم عربة بريد ، فى الطريق الكبير ؛ وهناك ، أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً ، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة ؛ وهنالك أيضاً ، فى موسكو ، تُعتقل جماعة بكاملها من الأفراد تزيِّف أوراق اليانصيب ، ومن بين الجناة الرئيسيين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام . وهنالك أخيراً ، يُقتل موظف من موظفى سفاراتنا فى سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخفى من ذلك ! . . فاذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا — ولا بد أن يكون كذلك ، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون ، فيما أعلم ، أشياء ذهبية — فكيف نفسر اذن هذا التحلل الذى يعيث فساداً فى الجزء المتمدن المتحضر من مجتمعنا ؟

قال زوسيموف :

— ان للتبدلات الاقتصادية دخلاً كبيراً فى حدوث هذه الظاهرة . . .

وقال رازوميخين مجيباً عن سؤال بيوتر بتروفتش :

— كيف نفسر هذا التحلل ؟ الأمر بسيط : نفسره بفقدان الفكر الوضعى والروح العملية . . .

— أى ؟

— قل لى : بماذا أجاب ، فى موسكو ، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيِّف أوراق اليانصيب ؟ لقد أجاب بقوله : «ان جميع الناس يغتنون ويثرون بأية وسيلة من الوسائل ، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتنى وأن أثرى

بأقصى سرعة» . لا أتذكر الآن أقواله بنصها ، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة ، دون ان يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً . نعم ، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالةً على الآخرين ، دون أن يحفلوا بشيء أو أن يكترثوا لشيء ، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة ، فمتى آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته . . .

— ولكن هناك أخلاق . . . هناك مبادئ رغم كل شيء . . .

تدخل راسكولنيكوف على حين فجأة قائلاً :

— ما الذى يقلقك ؟ ان هذا هو النتيجة التى تترتب على نظريتك نفسها !

— نظريتى أنا ؟

— استخرج النتائج التى تترتب على المبدأ الذى وضعته منذ قليل ، تجد أنه يجيز للانسان أن يقتل الآخرين . . .

صاح لوجين يقول :

— أرجوك ! . .

قال زوسيموف :

— لا ، ليس هذا صحيحاً .

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً ، وكان شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت شفته العليا ترتجف ، وكان يتنفس بمشقة وعسر . وتابع لوجين كلامه فقال متعالياً :

— هنالك حدود معتدلة معقولة . ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على القتل ؛ واذا فرضنا أن . . .

فقاطعه راسكولنيكوف على حين فجأة من جديد يسأله بصوت مرتجف من شدة الغضب ، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث ، يشوبه نوع من التلذذ بالاهانة :

— هل صحيح أنك قلت لخطيبتك ، ساعةَ وافقت على زواجها منك ، ان ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة . . . لأن من المفيد جداً أن ينتشل الرجل امرأة من وهدة الشقاء ، ليسيطر عليها بعد ذلك وليمنّ عليها ؟

صاح لوجين يقول بصوت شرير حانق ، وقد خرج عن طوره واحمرَّ :

— أيها السيد الكريم ، انك تشوه فكرتى . معذرةً . غير أن من واجبى أن أعلن لك أن الشائعات التى بلغتك ، أو قل الشائعات التى نُقلت اليك عمداً ، لا تقوم على أى أساس من الصحة . . . وأننى . . . أشتبه مَنْ الـــذى . . . الخلاصة . . . أشتبه فى أن هذا السهم . . . الخلاصة . . . انما أرسلته أمك ! . . على كل حال . . . أننى بغض النظر عن هذا . . . قد لاحظت . . . رغم ما لأمك من مزايا عظيمة . . . أنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً . . . لكننى ما كان لى أن أتخيل أنها يمكن أن تنظر الى الأمور هذه النظرة المشوهة التى صورها خيالها . . . وعلى كل حال ، على كل حال . . .

صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدّق اليه بعينين تقدحان شرراً :

— هل تريد أن أقول لك ؟

— ماذا تقول لى ؟

قال لوجين ذلك ، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً بمظهر مَنْ أُهين منذ قليل ، وخيَّم الصمت بضع ثوان .

قال راسكولنيكوف :

— اعلم أنك . . . اذا تجرأت مرة أخرى ، فقلت

فى حق أمى كلمةً واحدةً ، فلأنزلنَّك تدحرجاً على السلم . . .

صاح رازوميخين يقول لراسكولنيكوف :

— ماذا دهاك ؟

اصفر لوجين ، وعضَّ على شفته ، ثم قال متمهِّلا محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتى من قوة ، لأن الغضب كان يخنقه خنقاً ، قال :

— هكذا الأمر اذن ! اسمع يا سيد . لم يفتنى أن ألاحظ منذ قليل ، حين دخلتُ ، الاستقبالَ الخشن الذى خصصتنى به ، ولكننى تعمدت أن أبقى لأرى الى أى حد سوف تمضى . . . ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لانسان مريض تربطنى به قرابة . . . أما لك أنت ، فلن أغفر . . . لن أغفر فى يوم من الأيام . . .

صاح راسكولنيكوف يقول :

— لست مريضاً !

— ذنبك اذن أعظم !

— اذهب الى جهنم !

ولكن لوجين كان قد خرج دون أن يكمل كلامه . تسلل بين المائدة والكرسى من جديد ، ونهض له رازوميخين فى هذه المرة عن كرسيه ، ليفسح له مجال المرور . خرج لوجين حتى دون أن ينظر الى أحد ودون ان يحيى برأسه زوسيموف الذى كان منذ برهة طويلة يومئ اليه برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه ، وقد خرج وهو يرفع قبعته الى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط ، لحظةَ انحنى ليجتاز عتبة الباب . كان واضحاً من طريقة حنيه ظهره أنه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنه أهين اهانة فظيعة .

قال رازوميخين لراسكولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتبكاً :

— هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف ؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره :

— دعونى ، دعونى جميعاً ! ألا تريدون أن تتركونى وشأنى أيها الجلَّادون ؟ أنا لست خائفاً منكم . . . لست الآن خائفاً من أحد . اخرجوا من هنا ! أريد أن أكون وحيداً ، وحيداً ، وحيداً . . .

قال زوسيموف وهو يومئ لرازوميخين :

— فلننصرف !

— كيف ؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال ؟

فكرر زوسيموف قوله جازماً :

— فلننصرف .

وخرج .

فكَّر رازوميخين لحظة ، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف .

قال زوسيموف وقد صارا على السلَّم :

— لو لم نطعه لساءت حاله مزيداً من السوء . ما ينبغى أن نحنقه .

— ماذا أصابه ؟

— ليت هزَّة سارة تصيبه . نعم ، ذلك ما هو فى حاجة اليه . لقد استرد قواه منذ قليل . . . أظن أن هناك أمراً يشغل باله ، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره ، وتحاصر فكره . . . وذلك ما أخشاه ! لا شك أن الأمر كذلك . . .

— لعل للسيد بيوتر بتروفتش دخلاً فيما هو فيه . ان

الحديث الذى جرى بينهما يدل على أن بيوتر بتروفتش سيتزوج أخت روديا ، وأن روديا قد أُبلغ هذا النبأ برسالة وصلت اليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة . . .

— نعم ، ان الشيطان هو الذى قاد هذا الرجل اليه ، فى هذا اليوم عينه ! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شىء . ولكن قل لى : هل لاحظت أن روديا كان لا يكترث بشىء ، ولا يخرج عن صمته الا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك ؟

أجاب رازوميخين موافقاً :

— نعم ، نعم ، لاحظت ذلك واضحاً كل الوضوح . ان هذه الجريمة تهمه ، بل وترعبه . . . ولكن مردَّ ذلك الى أنه فى ذلك اليوم نفسه الذى مرض فيه قد ارتاع فى مكتب رئيس الشرطة ، حتى لقد أغمى عليه .

— ستقص علىَّ ذلك تفصيلاً فى هذا المساء ، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك . ان حالته تعنينى كثيراً . سأجىء أستطلع أخباره بعد نصف ساعة . مهما يكن من أمر ، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان . . .

— شكراً لك . وفى أثناء هذا الوقت ، سأنتظر أنا عند باشنكا ، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته . . .

نظر راسكولنيكوف الى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر . ان ناستاسيا لم تشأ أن تنصرف .

قالت له : — هل لك بقليل من الشاى الآن ؟

— بل فيما بعد . الآن أريد أن أنام . اتركينى !

قال راسكولنيكوف ذلك ، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية . وخرجت ناستاسيا .

الفصل السادس

ولكن ما ان خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالكلابة وفضَّ صرة الملابس التى أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها ، ثم أخذ يلبس . شىء غريب : لكأن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة هادئاً كل الهدوء . لم يبق فيه أثر من ذلك الهذيان الذى يشبه أن يكون جنوناً والذى كان يسكن فيه منذ قليل ، ولا بقى فيه شىء من ذلك الرعب الشديد الذى استولى عليه فى الآونة الأخيرة . كانت تلك الدقيقة الأولى من الهدوء الغريب الذى استولى عليه فجأة . ان حركاته الدقيقة الواضحة تدل على عزم قوى . وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه : «فى هذا اليوم ، فى هذا اليوم نفسه» . كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً ، غير أن توتراً نفسياً شديداً يقارب الجأش الرابط والفكرة الثابتة كان يهب له قوة وثقة . وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى فى الشارع . فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة ، نظر الى المال الموضوع على المائدة ، ففكر ثم وضعه فى جيبه . كان هناك خمسة وعشرون روبلاً . وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التى وقفها رازوميخين على شراء الملابس . ثم سحب الكلابة برفق ، وخرج من الغرفة ، وهبط السلَّم وهو يلقى نظرة على المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً تماماً : كانت ناستاسيا مديرة له ظهرها مائلةً تنفخ على سماور مولاتها ، فلم تسمع شيئاً . ومن ذا الذى كان يمكن أن يفترض ، على كل حال ، أن راسكولنيكوف قد يخرج ؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف فى الشارع .

الساعة تقارب الثامنة ، والشمس تغرب ، والجو خانق كما كان بالأمس ، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق ، بنهم شديد ، هذا الهواء المعفَّر العفن الموبوء الذى تنشره المدينة الكبيرة . أخذ يشعر بدوار خفيف . وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة فى عينيه الملتهبتين ، وينعكس على وجهه المهزول المزرق . كان لا يعرف الى أين يجب أن يذهب ، لا ولا يخطر بباله أن يلقى على نفسه هذا السؤال . كان لا يعرف الا شيئاً واحداً هو أن **كل شىء** يجب أن ينتهى فى هذا اليوم نفسه ، دفعة واحدة ، وفوراً ؛ وأنه بدون ذلك لن يعود الى بيته ، لأنه **لا يريد أن يعيش هكذا** . أما كيف ينتهى من ذلك كله ، وأما بأية وسيلة ينتهى من ذلك كله ، فانه لم يعرف سبيلاً الى هذا ولم يكن يريد أن يفكر فى هذا ! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة الأليمة ، غير أنه يحس ويعلم أن كل شىء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى «مهما يكن من أمر ، ومهما يحدث من حادث» . هذا ما كان يكرره لنفسه بيأس وثقة وعناد .

وقادت خطاه عادةً قديمة من عاداته ، فسار فى الطريق التى يسلكها فى نزهاته المألوفة ، واتجه رأساً نحو «سوق العلف» . حتى اذا أوشك أن يصل اليه رأى على أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن يدوى لحناً عاطفياً جداً وهو واقف أمام أحد الدكاكين . وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، قد وقفت أمامه على الرصيف مرتديةً ثياب فتاة من أسرة أسياد : تنورةً منتفخةً وخماراً وقفازين وقبعةً من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار ؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً بالياً . كانت الصبية تغنى بصوت

مغنية من مغنيات الشوارع ، وهو صوت مصدَّع لكنه ممتع قوى ، وما تزال تمعن فى الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين . وقف راسكولنيكوف الى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون الى الغناء ، فأصغى هو أيضاً ، ثم أخرج قطعةً نقديةً قيمتها خمسة كوبكات فدسَّها فى يد الصبية . فما كان من الصبية الا أن توقفت عن الغناء عند النغمة التى كانت قد بلغتها ، وهى النغمة الأقوى علواً والأبلغ تأثيراً ، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف : «كفى !» ؛ واستأنف الاثنان سيرهما الى الدكان التالى .

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأةً الى رجل كهلٍ كان قد سمع لعزف الأرغن اليدوى الى جانبه ، وكان يبدو أنه متنزه هائم على وجهه ، فقال له :

— هل تحب أغانى الشوارع ؟

فنظر اليه الرجل مبهوتاً .

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة :

— أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن يدوى ، فى ليلة حالكة من ليالى الخريف ، ليلة رطبة باردة ، رطبة على وجه الخصوص ، بينما المارَّة ، قد أزرقَّت وجوههم جميعاً حتى لكأنهم مرضى ، ولا سيما حين ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائماً لا تهب عليه نسمة من ريح ، — أ رأيت هذا ؟ — فتسطع رؤوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر . . .

قال السيد مدمدماً وقد روَّعه السؤال مثلما روَّعه هذا المظهر الغريب فى راسكولنيكوف :

— لا أدرى ! . . . معذرةً . . .

ومضى ينتقل الى الجهة الأخرى من الشارع .

سار راسكولنيكوف قدماً ، فوصل الى ناصية «سوق العلف» ، الى ذلك المكان نفسه الذى كان قد سمع فيه البائع وزوجته يحدثان اليزافيتا . ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك فى ذلك الوقت . تعرف راسكولنيكوف المكان ، فوقف ، ونظر حوله ، ثم اتجه الى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يتثاءب عند مدخل دكان لبيع الدقيق فقال له :

— هنا ، عند هذه الناصية ، يعمل بائع وامرأته ، هه ؟

فأجابه الفتى وهو يروزه بنظره :

— يجيء الى هنا باعةٌ كثيرون لا يُحصى لهم عدد !

— ماذا يسمونه ؟

— يسمونه باسمه .

— وأنت ، ألست من زارايسك ؟ من أى اقليم أنت ؟

ألقى الفتى نظرة أخرى الى راسكولنيكوف ثم قال :

— منطقتنا يا صاحب السعادة ليست اقليماً بل مقاطعة ، واذ أن أخى هو الذى يسافر ، وأبقى أنا فى الدار ، فاننى لا أعرف شيئاً . أرجو أن تعذرنى يا صاحب السعادة !

— هل المحل الذى أراه فى الطابق الأعلى مطعم ؟

— بل هو خمارة . . . وفيها بلياردو . . . وتجد فيه حتى أميرات . . . هو محل عظيم !

مضى راسكولنيكوف ينتقل الى الجهة الأخرى من الميدان . وهناك ، عند الزاوية ، كان يرابط جمهور كثيف ليس فيه الا فلاحون . تسلّل راسكولنيكوف الى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف ، وأخذ يتفحص الوجوه . كان يتمنى

أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس ، لا يدرى لماذا ! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا اليه . كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحادث متصارخة . وقف راسكولنيكوف لحظةً يفكر ، ثم مضى يمنةً فى اتجاه شارع «ف . . .» . حتى اذا غادر «سوق العلف» دخل فى زقاق ضيق . . .

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق القصير المنحنى الذى يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا . لقد كان يحب فى الآونة الأخيرة ، حين كان كل شىء يثير فيه الاشمئزاز والتقزز ، أن يتجول فى هذه النواحى ، «نشدانا لمزيد من الاشمئزاز والتقزز» . ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر فى أى شىء . ان فى هذا المكان عمارةً كبيرة ليس فيها الا خمارات ومطاعم ومقاه ، تخرج منها فى كل لحظة نساء حاسرات الرؤوس يرتدين ثياباً خفيفة كأنهن يخرجن «لزيارة جيرانهن زيارة قصيرة» ، ويحتشدن جماعات فى مكانين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب مداخل الأقبية حيث يكفى المرء أن يهبط درجتين حتى يصل الى بيت من بيوت اللذة . ان فى أحد هذه البيوت الآن جلبةً كبيرة تجتاح الشارع كله : فهناك عزف على القيثارة ، وغناء ، ومرح بلغ ذروته ؛ وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات ، فبعضهن جالسات على الدرجات ، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف ، وبعضهن واقفات يثرثرن . وغيرَ بعيد من ذلك المكان ، يسير على أرض الشارع جندى سكران مترنح ، قد وضع فى فمه سيجارة ، وراح يشتم بصوت عال . كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما ، ولكنه أصبح لا يعرف أين . وهذا رجل يرتدى أسمالاً رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدى أسمالاً رثة أيضاً .

وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً . وقف راسكولنيكوف قرب جماعة كبيرة من النساء . كنَّ يثرثرن بصوت أبحَّ . انهن جميعاً حاسرات الرؤوس ، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجَّر ، وينتعلن أحذية من جلد الماعز . منهن من تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا فى السابعة عشرة . وجميعهن تقريباً يحملن آثار كدمات .

اجتذبته الأغانى والجلبة الصادرة عن القبو ، دون أن يعرف لماذا . فى وسط الضحكات والصرخات ، كان يُسمع صوت رجل يغنى بصوت نحيل حاد ويصاحب غناءه المرح عزف على قيثارة ، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لاظهار الايقاع . مال راسكولنيكوف نحو الباب ، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة ، وراح يصغى مظلم النفس شارد الفكر . كانت الأغنية التى يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول :

يا حارسى الجميل
لا تضربنى ظلما بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة فى سماع هذه الأغنية ، كأن المسألة كلها فى نظره هى هذه !

قال يسأل نفسه : «ماذا لو دخلت ؟ انهم يضحكون مقهقهين . انهم سكارى . ماذا لو سكرت أنا أيضاً ؟»

سألته احدى النساء بصوت واضح لكنه أبح بعض الشىء :

ـ ألا تدخل يا سيدى العزيز ؟

كانت المرأة شابة ، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة الوحيدة التى لا يبعث منظرها على النفور البتة .

قال وهو ينتصب وينظر اليها :

ـ ما أجملك !

ابتسمت المرأة . لقد سرَّها هذا المديح سروراً عظيماً . وقالت له :

ـ أنت أيضاً شاب جميل .

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أجش :

ـ لكنه نحيل جداً . خارج من المستشفى ، هه ؟

وكان يمر فلاح له وجه سكير مرح ماكر ، يرتدى سترة حُلَّت أزرارها ، فقال فجأة :

ـ يظهر أنهن بنات من أعلى طبقة . ولكن هذا لا ينفى أن أنوفهن فطساء !

وأضاف :

ـ أرأيت الى هذا المرح ما أعظمه !

قالت له احداهن :

ـ هيَّا أدخل ما دمت قد جئت !

ـ فوراً يا حلوة ، فوراً .

أجابها الفلاح بذلك ، وهرول يهبط الدرجات .

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره . فلما همَّ أن يستدير لينصرف ، صرخت البنت تقول له :

ـ اسمع يا سيد !

ـ ماذا ؟

فارتبكت ، وقالت له :

ـ سيسعدنى دائماً ، أيها السيد ، أن أقضى معك

بضع ساعات ، ولكننى . . . أشعر الآن بخجل شديد منك . هلاَّ أهديت الىَّ ستة كوبكات أشرب بها كأساً ، أيها الفارس الجميل !

فأخرج راسكولنيكوف من جيبه ما وقع تحت يده : ثلاث قطع نقدية من فئة الخمسة كوبكات .

— آ . . . يا للسيد السخى !

— ما اسمك ؟

— لن يكون عليك الا أن تسأل عن دوكليدا .

قالت امرأة من جماعة النساء ، وهى تومئ الى دوكليدا باشارة من رأسها :

— ما أعجب هذه الأساليب ! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطى هذا الاستعطاء ؟ لو كنت فى مكانها لآثرت أن أدفن نفسى فى التراب من شعورى بالخزى والعار !

نظر راسكولنيكوف الى المرأة التى قالت هذا الكلام ، نظرة مستطلعة مستغربة . هى مومس فى نحو الثلاثين من عمرها ، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليا ، تغطى بشرتها كدمات زرقاء . ولقد قالت عتابها بلهجة هادئة جادة .

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره : «ترى أين قرأت أن رجلا محكوماً عليه بالاعدام ، قد قال أو تخيَّل قبل اعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش فى مكان ما ، على قمة ، فوق صخرة ، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم ، وكان كل ما حوله هوة سحيقة ، خضماً كبيراً ، ظلمات أبدية ، عزلة خالدة ، زوابع لا تنقطع ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة ، بل ألف سنة ، بل أبد الدهر ، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه

العيشة على أن يموت فوراً ، أن يعيش فحسب ، أن يعيش ! أن يعيش أية عيشة ، ولكن أن يعيش . . ما أصدق هذا الكلام ! رباه ، ما أصدق هذا الكلام ! . . .»

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أردف بعد لحظة :

— الانسان سافل ، ولكن سافل أيضاً ذلك الذى يصفه بالسفالة لهذا السبب !

ودخل فى شارع آخر . فما لبث أن قال لنفسه : «هه ! هذا «قصر الكريستال» ! لقد تكلم عنه رازوميخين منذ قليل . . . ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل ؟ نعم نعم ، كنت أريد أن أقرأ . . . لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ فى الجرائد . . . .»

— هل عندكم جرائد ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة ، نظيفة ، ذات عدة قاعات ، ولكنها مع ذلك خالية الا من عدد قليل من الناس . كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاى ؛ وفى قاعة أخرى ، فى آخر الحانة ، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا ، اعتقد راسكولنيكوف حين رآهم أن زاميوتوف أحدهم . ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته ، على مسافة بعيدة هذا البعد .

قال لنفسه : «وأى ضير فى هذا على كل حال ؟»

سأله الخادم :

— هل تريد فودكا ؟

فقال له راسكولنيكوف :

— بل هات لى شاياً ، وجئنى بجرائد ، جرائد قديمة ،

جرائد الأيام الخمسة الأخيرة . سوف أنفحك بقشيشاً سخياً .

— حاضر . اليك الآن جرائد اليوم . وهل تريد فودكا أيضاً ؟

ووصلت الجرائد والشاى . جلس راسكولنيكوف وانكب على الجرائد باحثاً منقباً : «ايسلر — ايسلر — الأزتيكيان — ايسلر . — بارتولا . — ماسيمو . — الأزتيكيان . — ايسلر » — الى الشيطان هذا كله . . . آ . . . أخيراً . . . هذه هى الأنباء المتفرقة . . . «سقوط فى سلم» ، «تاجر سكران يحترق حياً» ، «حريق فى حىٍّ الرمال» ، «حريق فى حىٍّ بطرسبرجسكايا» ، «حريق آخر فى حىٍّ بطرسبرجسكايا» «حريق اخر فى حى بطرسبرجسكايا» «ايسلر . . ايسلر . . ايسلر . . ماسيمو . . . آ . . . وصلنا . . .

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه ، وأخذ يقرأ . ان الأسطر تتراقص أمام عينيه ، ولكنه قرأ «النبأ» حتى نهايته ، وطفق يبحث ، فى شراهة ونهم ، عن تفاصيل جديدة فى الأعداد التالية ، فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتصفح الجرائد . وفجأة جاء أحد فجلس الى مائدته ، بقربه . رفع راسكولنيكوف عينيه . انه زاميوتوف ، زاميوتوف نفسه ، بلا تبدل ولا تغير ، زاميوتوف ، بخواتمه ، وسلاسله ، والفرق الذى يشطر شعره الأسود العكف المطيَّب ، والصديرة الأنيقة ، والبدلة الخلقة قليلاً ، والقميص الذى ذهب بعض رونقه . كان زاميوتوف مرحاً ، أو قل على الأقل انه كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة . وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا التى شربها .

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة طويلة :

— كيف ؟ أأنت هنا ؟ أمس قال لى رازوميخين انك لم تفق من غيبوبتك . شىء عجيب . هل تعرف أننى زرتك أثناء مرضك ؟

كان راسكولنيكوف يعرف ان زاميوتوف سيتعرض له . فوضع الجرائد جانباً ، والتفت اليه . ان ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه ، ويرى المرء فى هذه الابتسامة ، منذ الآن ، صبراً نافداً وغيظاً شديداً .

أجابه يقول :

— أعرف أنك زرتنى . حُكى لى هذا . حتى لقد بحثت عن جوربى . ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك ، قال لى انكما ذهبتما معاً الى عند لويزا ايفانوفنا . . . نعم ، تلك التى حاولتَ أن تدافع عنها فى ذلك اليوم ، غامزاً «الضابط بارود» الذى لم يفهم من غمزك شيئاً . ألا تتذكر ؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الاشارة كانت واضحة ، هه ؟

— يا له من رجل صخَّاب !

— من ؟ الضابط بارود ؟

— بل صديقك رازوميخين .

— انك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميوتوف . تستطيع أن تذهب الى الأماكن الممتعة اللذيذة دون أن تنفق قرشاً واحداً . قل لى : من ذلك الذى أقراك الشمبانيا منذ قليل ؟

— نعم ، شربنا شمبانيا . . . أمعقول انه أقرانى . . .

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً :

— أعرف . . . هذه أجورك . انك تجنى نفعاً من كل شىء .

ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميوتوف :

— لا ضير فى هذا ، يا صاحبى ، لا ضير . . . أنا لم أقل ما قلته عن نية سيئة خبيثة ، وانما قلته عن «محبة ومودة ، من باب التسلية» ، كما قال الدهّان حين كان يضرب ميتكا . أنت تعرف هذا فى قضية مقتل العجوز . . .

— ولكن كيف تعرفه أنت ؟

— أنا ؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف .

— أمرك عجيب . . . أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً . ما كان ينبغى لك أن تخرج !

— أيبدو لك أمرى عجيباً ؟

— نعم . ما هذا ؟ أكنت تقرأ الجرائد ؟

— نعم .

— تتحدث الجرائد كثيراً عن حرائق .

— نعم ، ولكن ليست الحرائق هى التى تهمنى أنا !

قال ذلك ونظر الى زاميوتوف نظرة ملغزة ، وعادت بسمة ساخرة تعقف شفتيه ، ثم أضاف وهو يغمز بعينه :

— لا ، ليست الحرائق هى التى تهمنى . اعترف أيها الشاب اللطيف أنك تحترق شوقاً الى أن تعرف ماذا كنت أقرأ !

— غير صحيح ! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقى عليك أى سؤال آخر . أليس من حق أحد أن يلقى سؤالاً ؟ ما بالك تبلغ دائماً هذا المبلغ من . . .

— اسمع ، أنت رجل متعلم ، مثقف ، هه ؟

أجاب زاميوتوف بوقار :

— قطعت فى المدرسة الثانوية ست سنين .

— ست سنين ؟ يا للفتى الظريف ! وله الى ذلك فى شعره فرق ، وله فى أصابعه خواتم . . . هو رجل غنى . يا للشاب اللطيف !

قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميوتوف ضحكةً عصبية . فتراجع زاميوتوف الى وراء ، لا لأنه انزعج بل لأنه دُهش .

كرر يقول بلهجة الجد :

— حقاً ان أمرك عجيب ! كأنك ما تزال تهذى !

— أنا ؟ أهذى ؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظريف ! أمرى عجيب ، هه ؟ أنا أثير فضولك ، أليس كذلك ؟ هه ؟ أأثير فضولك ؟

— نعم !

— الخلاصة . . . أنت تريد أن تعرف عمَّ كنت أبحث ، تريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ ، أليس كذلك ؟ أنظر كم عدداً من الجرائد طلبت ! هذا يبعث على اشتباه قوى ، هه ؟

— هلاَّ قلت اذن ! . . .

— أتتوقع مفاجأة ؟

— أى مفاجأة ؟

— سأقول لك فيما بعد . أما الآن ، يا صديقى العزيز ، فاننى أعلن لك . . . عفواً . . . بل «اعترف» لك . . . لا . . . ليس هذا هو التعبير الصحيح . . . فانما التعبير الصحيح هو : «أدلى بافادتى ، وتسجل أنت» . نعم هذا هو التعبير الصحيح . وهأناذا أدلى لك بافادتى فأقول اننى أردت أن

أقرأ ، أن أنقب ، وان أمعن فى التنقيب . . .

هنا زر راسكولنيكوف عينيه وتوقف عن الكلام برهةً ثم استأنف يقول همساً أو يكاد وهو يسرف فى تقريب وجهه من وجه زاميوتوف :

— أن أمعن فى التنقيب — وأنا ما جئت الى هنا الا لهذا الغرض — عن جميع الأخبار التى تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف .

كان زاميوتوف يحدّق الى عينى راسكولنيكوف ، دون أن يقوم بأية حركة ، دون أن يبعد وجهه عن وجهه . ان الشىء الذى أثار دهشة زاميوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه ، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة ، دون أن يكف أحدهما عن التحديق الى صاحبه والتفرس فيه .

صاح زاميوتوف فجأة وقد نفد صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن :

— طيب ! وهل يعنينى أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من الأنباء ؟

فهمس راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميوتوف :

— ان الأمر يتصل بتلك العجوز نفسها التى أغمى علىَّ فى قسم الشرطة منذ جرى الحديث عليها ، نعم ، لحظةَ جرى الحديث عليها . أفهمت الآن ؟

قال زاميوتوف وقد اوشك على ان يتولاه القلق :

— ماذا يجب أن أفهم ؟ ما الذى يجب أن أفهمه ؟

فما ان سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهادئ الساكن فى ثانية واحدة ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً

بعصبية كما انفجر ضاحكاً منذ قليل ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك . وفى مثل وميض البرق سرعةً ، طافت فى خياله بوضوح هائل ذكرى الاحساس الذى شعر به من قبل ، حين كان واقفاً وراء الباب ، ممسكاً فأسه ، يرى المزلاج يتهزز ، بينما كان الرجلان ، فى الجهة الأخرى من الباب ، يشتمان ويحاولان فتح الباب ، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما ، وأن يقىء لهم سيلاً من الشتائم ، وأن يمدَّ لهما لسانه ، وأن يصعِّر لهما وجهه ، وأن يضحك ، أن يضحك ، ان يضحك !

قال زاميوتوف :

— إما أنك مجنون ، واما أنك . . .

ولكنه أمسك عن اتمام كلامه ، كأن فكرةً قد ومضت فى فكره على حين بغتة .

— واما ماذا . . . اما ماذا ؟ ماذا ؟ هيَّا ، قل !

قال زاميوتوف غاضباً :

— لا شىء . كل هذا سخف !

وصمت الاثنان . ان راسكولنيكوف ، بعد انفجاره المفاجئ ، وضحكته العصبية ، قد أصبح حزيناً حالماً على حين فجأة . وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة ، ويسند رأسه بيده . لقد بدا عليه أنه نسى زاميوتوف نسياناً تاماً . ودام الصمت برهة طويلة .

قال زاميوتوف :

— لماذا لا تشرب الشاى ؟ سوف يبرد . . .

— ماذا ؟ الشاى ؟ نعم . . .

وحسا راسكولنيكوف الشاى ، وازدرد لقمة من خبز ،

حتى اذا ألقى بصره على زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة ، وأنه يطرد عنه خموده وخوره . وعلى الفور استرد وجهه ما كان يعبِّر عنه منذ قليل من سخرية . واستمر يشرب الشاى .

قال زاميوتوف :

— أمثال هذه السرقات تتكاثر فى هذه الأيام . اليك هذا المثال : لقد قرأت فى الآونة الأخيرة فى «أخبار موسكو» أنه قُبض هناك على عصابة كاملة من مزيفى النقد . انهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق المالية .

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً :

— قرأت هذا منذ شهر . هذه قصة قديمة .

ثم أضاف مبتسماً :

— فى رأيك اذن أنهم لصوص محتالون !

— لصوص محتالون طبعاً !

— لصوص محتالون ؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال ، أرى أنهم أغرار سذَّج ، لا لصوص محتالون . أهو أمر طبيعى أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية كهذه الغاية ؟ لو كانوا ثلاثة لكان عددهم هذا وحده كبيراً . وحتى فى هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه . اذ يكفى أن يزلَّ لسان أحد منهم أثناء سكر ، فيثرثر قليلاً ، حتى يفسد الأمر كله . نعم ، سذَّج أغرار ! ولولا أنهم سذَّج أغرار لما عهدوا الى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا الى البنوك يبدلون أوراقهم المالية . هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة الى أى انسان ؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً .

فماذا بعد ذلك ؟ هل يمكن أن يستمر هذا الى الأبد ؟ ان كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة ! ألا ان الانتحار شنقاً خير من هذا ! ثم ان هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية : ان الشخص الذى تقدم الى شباك الصرف فى البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل ؛ ثم لم يعدد الا أربعة آلاف منها ، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدَّها ، فأراد أن يدسَّها فى جيبه وأن يولِّى هارباً بأقصى سرعة . لذلك أيقظ الريب والشبهة . ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله . أهذا ممكن حقاً ؟

— أن تكون يداه قد ارتعشتا ؟ طبعاً . . . هذا أمر يُتصوَّر . أنا أرى أن ذلك طبيعى جداً . هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه ، اذ يكون الأمر فوق طاقته !

— أمعقول ان هذا الأمر فوق طاقة المرء ؟

— أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك فى حالة كتلك الحالة ؟ أنا على كل حال ما كان يمكننى أن أسيطر على نفسى ! كيف يرضى انسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة الرهيبة فى سبيل مائة روبل مكافأة ؟ كيف يمضى يبدِّل أوراقاً مالية مزيفة ؟ وأين ؟ فى بنك ، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أى تزوير ! لا ، لا ، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابى ! وأنت ؟ ألا تفقد صوابك فى حالة كتلك الحالة ؟

شعر راسكولنيكوف فجأة ، مرة أخرى ، برغبة رهيبة فى أن «يمدَّ لسانه» استهزاءً ! وكانت تسرى فى ظهره رعدات أحياناً .

بدأ يتكلم فقال :

— أنا لو كنت فى مكان ذلك الرجل لتصرَّفت غير ذلك التصرف . اليك كيف كان يمكن أن أفعل : لو كان علىَّ أن أبدل تلك الأوراق المالية ، لرحت أعدُّ الألف الأولى مرة تلو مرة ، ثلاث مرات أو أربعاً ، وأنا أقلِّب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر اليها من جميع الجهات ؛ فاذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل الى النصف ، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلاً فأخذت أفحصها فى الضوء الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأننى أخشى أن تكون مزيفة ، قائلاً للرجل : «اننى شكاك قليلاً . ان لى قريبة قبضت ورقة مزيفة فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلا» ، ثم أروح أقصُّ حكاية طويلة ؛ فاذا وصلت الى الألف الثالثة قلت له : «انتظر ! أظن أننى أخطأت فى عدّ المائة السابعة ، هناك ، فى الألف الثانية» ، ثم تركت الألف الثالثة ورجعت الى الثانية ، وهكذا دواليك . . . فاذا فرغت من العد ، عدت أسحب ورقةً كيفما اتفق ، من الألف الثانية مثلاً ، أو من الألف الخامسة ، ورحت أفحصها من جديد ، بالنظر اليها استشفافاً ، فاذا بشكوك تراودنى ، فأقول : «هل تستطيع ، من فضلك ، أن تعطينى ورقة غيرها بدلاً منها ؟» ، وهكذا دواليك الى أن ينضح الرجل دماً وماءً ، والى أن يضيق بى ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص منى ، ثم أتجه نحو الباب أخيراً . . . لا . . . عفواً . . . لا أتصرف هكذا ببساطة ، بل أعود اليه فأستوضحه أمراً من الأمور ، وأسأله عن شىء من الأشياء . نعم ، كذلك كان يمكن أن أتصرف .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

— حقاً انك تقول أشياء فظيعة ! على أن هذا كله كلام . أما فى الواقع ، فلا شك أنك كنت ستفضح نفسك . هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ اسمع اذن : فى رأيى أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه . وليس يصدق هذا عليك وعلىَّ فحسب ، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد . اليك هذا المثال القريب : لقد قُتلت فى حينا امرأة عجوز . يخيَّل الىَّ أن الذى قتلها سفَّاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته فى وضح النهار ، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة . ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل : انه لم يحسن السرقة ، انه لم يصمد . الوقائع تبرهن على ذلك .

بدا الاستياء فى وجه راسكولنيكوف .

— الوقائع تبرهن على ذلك ؟ حاولوا اذن أن تقبضوا عليه !

بهذا هتف راسكولنيكوف بلهجة تحدٍ فيها شىء من فرح خبيث .

قال زاميوتوف :

— سنقبض عليه حتماً !

— من ؟ أنتم ؟ ستقبضون عليه أنتم ؟ مستحيل ! أليس الأمر الرئيسى فى نظركم هو أن تعرفوا هل الشخص الذى تشتبهون فيه ينفق مالاً ام هو لا ينفق مالاً ؟ أنتم تقولون لأنفسكم : ان فلاناً لم يكن يملك فى السابق مالاً ، وها هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة ، فكيف لا يكون هو الجانى ؟ ألا ان طفلاً صغيراً ليستطع اذن أن يضللكم متى أراد !

أجاب زاميوتوف :

— كل ما فى الأمر أنهم جميعاً يسلكون هذا السلوك . ان الجانى يرتكب جريمته بكثير من البراعة والحذق ، ويعرّض حياته للخطر ، ثم يُتيح للذين يتعقبوه أن يقبضوا عليه فى حانة . انه اثناء انفاقه المال انما يُقبض عليه . . . ليس جميع الجناة ماكرين مثلك . أنت ، مثلاً ، لا يمكن أن تذهب الى حانة ، اذا كنت قد . . .

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق الى زاميوتوف بنظرة ثابتة . ثم قال متجهماً :

— يبدو أن لعابك يسيل شوقاً الى معرفة ما كان يمكن أن أفعله فى مثل هذه الحالة .

فأجابه زاميوتوف برصانة ورزانة :

— نعم ، أتمنى أن أعرف ذلك .

وكان فى صوت زاميوتوف وفى نظرته جدٌّ مفرط .

سأله راسكولنيكوف :

— هل تتمنى ذلك كثيراً ؟

— كثيراً .

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى ، ويحدّق اليه بنظرة ثابتة من جديد ، قال بصوت هامس ، حتى ان صاحبه أحس هذه المرة برعدةٍ تسرى فى جسمه :

— فاسمع اذن ! اليك ما كان يمكن أفعله ! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء فخرجت من البيت ومضيت فوراً دون أن أضيّع دقيقة واحدة ، ودون أن أدور فى الشوارع دورة واحدة ، الى مكان منعزل منزوٍ هو حديقة

محاطة بسياج مثلاً ، او هو شىء من هذا القبيل . وأكون قد حددت سلفاً ، فى تلك الحديقة أو فى ذلك الفناء ، فى الركن ، بالقرب من السياج ، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها بود[1] واحد أو أكثر ، صخرةً لعلها موجودة فى ذلك المكان منذ بناء المنزل ، فهأناذا الآن أزحزح تلك الصخرة التى لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرةً طبعاً ، وهأناذا أدفن المال والأشياء فى هذا القعر ، حتى اذا انتهيت من دفنها ، ورددت الصخرة الى مكانها ، وسويت التراب حولها ، انصرفت لا ألوى على شىء ، ثم لبثت بعد ذلك سنةً أو سنتين أو ثلاث سنين أمتنع عن زيارة المكان وأخذ الغنيمة . هلمَّ فابحث اذن ! ما رأيت ولا عرفت !

قال زاميوتوف الذى أخذ يهمس هو أيضاً ، دون أن يعرف لماذا ، قال وهو يتنحى بغتةً عن راسكولنيكوف :

— أنت مجنون !

سطعت عينا راسكولنيكوف ، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً ، وارتجفت شفته العليا ، ومال حتى اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن ، وحرّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة ، وانقضى على هذه الحال نصف دقيقة . كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه وأن يتحكم بسلوكه . ان كلمة رهيبة كانت تهمُّ أن تنبجس من فمه ، كما كان المزلاج ، فى ذلك اليوم ، يهمُّ أن يخرج من الرزة . كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى ؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها ، أن ينطقها .

---

[1] البود مقياس وزن روسى قديم يساوى ١٦,٣٨ كيلوغرام .

قال فجأة :

— ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز والبزافيتا ؟

لكنه ثاب الى رشده ، وكبح جماح نفسه .

نظر اليه زاميوتوف مرتاعاً ، وانكفأ لونه حتى صار كغطاء المائدة بياضاً ، وتجعدت شفتاه بابتسامة ، وسأله بصوت لا يكاد يُسمع :

— ولكن أهذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة ، وقال له :

— اعترف بأنك صدّقت ، أليس كذلك ؟ اعترف !

أسرع زاميوتوف يقول :

— لا لم أصدق قط . . . وأنا استبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

— وقعتَ في الفخ أخيراً ! اذن لقد صدّقتَ في يوم من الأيام ، ما دمتَ تقول انك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

صاح زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً :

— لا . . . أبداً ! . . أمن أجل أن تصل الى هذه النتيجة أخفتني ؟

— أأنت لا تصدّق اذن ؟ فعمَّ تكلمتم ، في ذلك اليوم ، حين خرجت أنا من القسم ؟ ولماذا أخذ الضابط «بارود» يستجوبني بعد صحوي من الاغماء ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادي خادم الحانة وهو ينهض ويتناول قبعته :

— هيه ! أنت ! الحساب !

هرع الخادم اليه قائلاً :

— ثلاثون كوبكا .

— خذ ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً !

ثم قال لزاميوتوف وهو يمد اليه يدا مرتعشة ملأى بأوراق مالية :

— أرأيت ؟ أوراق حمراء ، وأوراق زرقاء ! . المجموع : خمسة وعشرون روبلاً ! فمن أين جاءتني هذه الأوراق ؟ ومن أين جاءتني ثيابي الجديدة ؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبكاً واحداً . أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه ! ولكن كفى الآن ! [1] Assez causé الى اللقاء . لك خالص تمنياتي !

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من احساس غريب ، احساس هستري ، تخالطه مع ذلك لذة عظيمة . ولكنه ظل في الواقع متجهم النفس خائر القوة . كان وجهه متقلصاً ، كأنه خارج من نوبة . وازداد اعياؤه بسرعة . انه الآن ، عند كل احساس جديد ، وعند كل صدمة جديدة ، تستيقظ فيه قواه وتعود اليه ، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور بسرعة أيضاً ، مع زوال الصدمة وامحاء الاحساس .

وحين أصبح زاميوتوف وحيداً ، لبث جالساً الى تلك المائدة نفسها مدة طويلة ، غارقاً في تأمله . ان راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب ، دون أن يعرف ذلك ، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه ، ويثبت ثباتاً لا يتزحزح . قال لنفسه جازما : «ان ايليا بتروفتش غبي !»

---

[1] كفى حديثاً ! . (بالفرنسية في الأصل) .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضى الى الشارع ، حتى كان رازوميخين على درجات المدخل يهم أن يدخل . ولكنهما لم يرَ أحد منهما الآخر ، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة ، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما . ولبثا لحظة يشمل كل منهما صاحبه بنظره . لقد ذُهل رازوميخين ذهولاً ليس بعده ذهول . غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع فى عينيه ببريق رهيب .

زأر يقول بصوت عال :

— آه . . . أهنا أنتَ ؟ قام عن سريره ، هرب من بيته ! أتعرف أننى بحثت عنك حتى تحت السرير ؟ بل لقد صعدنا الى العلية نبحث عنك ! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا ! انظروا أين هو ! رودیا ، ما معنى هذا ؟ قل لى الحقيقة كلها ! اعترف ! هل تسمع ؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء :

— معناه أننى سئمتكم جميعاً الى حد الموت ، وأننى أريد أن أكون وحيداً .

— وحيداً ؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشى ، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات ، بينما أنت تختنق طول الوقت ؟ ألا انك لأبله ! ماذا جئت تعمل فى «قصر الكريستال» ؟ اعترف ، اعترف فوراً !

— اتركنى .

كذلك قال راسكولنيكوف ، وأراد أن يمشى متخطياً رازوميخين فغضب رازوميخين غضباً شديداً ، وخرج عن طوره ، فأمسك صاحبه من كتفه امساكاً قوياً ، وصاح يقول له :

— أتركك ؟ أتجرؤ أن تقول : «اتركنى» ! اسمع

اذن : هل تعرف ما أنا فاعل بك ؟ سوف اقبض عليك بذراعى ، فأربطك بحبل كما تُربط صرَّة ، ثم أنقلك الى البيت فأحبسك فيه مقفلاً عليك الباب بالمفتاح !

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فى رفق ، فقال بلهجة تبدو هادئة كل الهدوء :

— اسمع يا رازوميخين ! ألستَ ترى اذن أننى لا أريد نعمك وأياديك علىَّ ؟ ما حاجتكم دائماً الى أن تغمروا بالنعم أولئك الذين لا يعبأون بها ، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يحتملوها ؟ لماذا سعيت اليَّ فى بداية مرضى ؟ لعله كان يسعدنى جداً أن أموت . أفلم أُفهمك اليوم افهاماً كافياً أنك تعذبنى ، وأنك . . . تزعجنى وتضايقنى ؟ ما حاجتكم هذه دائماً الى تعذيب الناس ؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائى ، لأنه يجعلنى فى حالة اهتياج متصل . انظر الى زوسيموف : لقد انصرف حتى لا يهيجنى . فاتركنى بسلام أنت أيضاً ، ناشدتك اللّه ! ثم أى حق لك فى أن تحتجزنى بالقوة ؟ ألا ترى أننى أملك عقلى كاملاً وأنا أكلمك فى هذه اللحظة ؟ قل لى : بأية وسيلة أستطيع أن امنعك من التشبث بى بعد الآن ، وأن أحملك على ألا تغدق علىَّ نعمك وآلاءك هذه ؟ افرضْ اننى عقوق ، افرض اننى سافل ؛ ولكن دعونى ، دعونى جميعاً ، ناشدتكم اللّه ، دعونى ، دعونى !

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة ، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسمِّ الذى سينفثه ، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره محتبس الأنفاس مختنق الصدر ، كما حدث له ذلك منذ قليل مع لوجين .

فكّر رازوميخين لحظةً ثم ترك ذراع صاحبه ، وقال له بهدوء ، شاردَ الفكر تقريباً :

— اذهب الى الشيطان ! . . .

فلما همَّ راسكولنيكوف أن ينصرف ، زأر يقول له فجأة :

— انتظر ! أصغ الىَّ ! اننى أعلن لك أنكم جميعاً ، من أولكم الى آخركم ، لستم الا ثرثارين صغاراً ، ومتبجحين تافهين ! انكم ما ان يصبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها . وحتى فى هذا انما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب ! ليس فيكم ذرة من حياة ، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة ! ليس ما يجرى فى عروقكم دماً بل مصالة . وأجسامكم مصنوعة من مرهم ناعم . ما من أحد منكم يوحى الىَّ بالثقة . همُّكم الأول فى جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال . . .

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهمُّ أن ينصرف مرة أخرى ، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحنقه :

— ق . . . ـف ! أصغ الىَّ حتى النهاية ! أنت تعلم أننى احتفل الليلة بانتقالى الى المسكن الجديد . وربما كان ضيوفى قد وصلوا . . . على أننى تركت هنالك عمى لاستقبالهم (انا كنت هناك لتوى) . . . فاذا لم تكن أبله ، اذا لم تكن أبله كل البلاهة ، اذا لم تكن أبله مبتذلاً ، اذا لم تكن ترجمة عن أصل أجنبى . . . اسمع يا روديا ، أنا أعلم أنك فتى ذكى ، ولكن هذا لا ينفى أنك أبله . . . فاذا لم تكن أبله ، فان مجيئك الىَّ لقضاء السهرة عندى خير لك من أن تُبلى نعلى حذاءيك متسكعاً فى غير طائل ،

ما دمت قد خرجت . . . وسآتيك بمقعد مريح رخص . . . ان عند أصحاب البيت الذى أقيم فيه مقعداً من هذا النوع . . . وتشرب فنجاناً من الشاى ، وتجالس الناس . . . بل هناك ما هو خير من هذا : سأرقدك على مضجع ، ولكنك تكون بيننا على الأقل . . . وسيجىء زوسيموف أيضاً . . . سوف تأتى ، هه ؟

— لا .

هتف رازوميخين يقول نافد الصبر :

— كذاب ! من أين لك ان تعرف ؟ أنت لا تعرف نفسك . ثم انك لا تفهم من شئون الحياة شيئاً . لقد حدث لى ألف مرة أن بصقت على الناس ، ثم هرولت أسعى وراءهم . سوف تخجل من هذه العواطف ، وسوف ترجع الى البشر . تذكر عنوانى اذن : عمارة بوتشنكوف ، الـطـابـق الثالث .

— يخيَّل الىَّ حقاً يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تُضرب فى سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة .

— أنا ؟ لا بل اننى مستعد لأن أجدع أنف من توسوس له نفسه بذلك ! تذكر اذن عمارة بوتشنكوف ، رقم ٤٧ ، مسكن الموظف بابوشكين .

— لن أجىء يا رازوميخين .

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف .

صرخ رازوميخين يقول وراءه :

— أراهن على أنك ستجىء . . . والا أنت . . . والا فلن أريد أن أراك الى الأبد ! اسمع : هل زاميوتوف فى الحانة ؟

— نعم .
— رأيته ؟
— رأيتُه .
— وكلمته ؟
— كلمتُه .
— عمَّ كلمته ؟ هيَّا ، لا تقل اذا كنت لا تريد أن تقول . شيطان يأخذك ! العنوان : عمارة بوتشنكوف ، رقم ٤٧ ، شقة بابوشكين . تذكر العنوان !

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب . وقد تابعه رازوميخين بنظره شارد الفكر حالماً ، ثم اشاح بيده تعبيراً عن عدم الاكتراث ، ودخل ، لكنه لم يلبث أن توقف على وسط السلَّم ، وقال يحدث نفسه بصوت عال : «شيطان يأخذه ! انه يتكلم كما يتكلم انسان سليم العقل ، ومع ذلك يشبه أن يكون . . . ولكن ما أغبانى ! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً ؟ ثم ان ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخيَّل الىَّ . . . — وهنا لطم رازوميخين جبينه بيده متسائلاً : — ما عسى يحدث لو . . . كيف أتركه وحيداً فى هذه اللحظة ؟ ان من الجائز جداً أن يلقى بنفسه فى الماء . آه . . . لقد ارتكبت حماقة كبيرة ! ما كان ينبغى أن أتركه ينصرف !» . وأسرع رازوميخين يلاحق راسكولنيكوف ، ولكن لم يكن قد بقى لراسكولنيكوف أثر . بصق رازوميخين على الأرض ، وقفل راجعاً الى «قصر الكريستال» بخطى واسعة ليسأل زاميوتوف بأقصى سرعة .

مضى راسكولنيكوف قُدماً الى جسر «ص . . .» ،

فتوقف فى وسط الجسر ، ووضع كوعيه على افريزه ، وأخذ ينظر الى بعيد . انه بعد أن ودَّع رازوميخين قد بلغ من الضعف والاعياء والوهن أنه لم يجرَّ ساقيه الى هذا الموضع الا فى كثير من المشقة والعناء . تمنى لو يجلس فى أى مكان ، تمنى لو يرقد فى عرض الشارع ! مال راسكولنيكوف على الماء ، وأخذ ينظر ، على غير شعور ولا ارادة ، الى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة ، والى صف المنازل التى يغشاها الغسق رويداً رويداً . هذه غرفة بعيدة من الغرف التى تقع تحت السقوف على الكورنيش الى اليسار منه تلتمع نافذتها وتتوهج كأن حريقاً يشتعل هناك ، تحت شعاع الشمس الساقط عليها للحظة . وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الاظلام شيئاً بعد شىء . كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر الى الماء بانتباه . ثم اذا بدوائر حمراء تأخذ تدور أمام عينيه ، واذا بكل شىء بعد ذلك ، اذا بالمنازل والمارَّة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتتراقص . وها هو ذا يرى مشهداً رهيباً فظيعاً فاذا هو يرتجف فينجو من الاغماء . كان قد أحسَّ أن أحداً وقف بقربه الى اليمين ، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول ، على رأسها خمار ، ذات وجه شاحب مستطيل هزيل ، عيناها حمراوان غائرتان فى حجاجيهما . كانت المرأة تنظر اليه فى عناد ، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً . وها هى ذى تضع ساعدها الأيمن قائماً على الافريز ، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتتبعها بالقدم اليسرى فتلقى بنفسها فى الماء . انشق الماء الموحل فابتلع فريسته ، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة ، ثم جرت مع التيار

ببطء غاطسة الرأس والقدمين ، طافية الظهر ، قد انتفخت تنورتها فكأنها وسادة .

صرخت عشرات من الأصوات :

— انها تغرق ، انها تغرق !

فهرع الناس ، فسرعان ما امتلأ بهم الرصيفان ، واحتشد الجمهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً من الخلف .

وهتفت امرأة تقول ، من مكان غير بعيد ، بصوت نادب شاكٍ :

— رباه ! هذه صاحبتنا أفروسينوشكا . أنقذوها أيها الأخيار الطيبون ! اخرجوها يا ايها المحترمون !

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون :

— علينا بقارب ، علينا بقارب !

ولكن لم يبق ثمة داعٍ الى قارب : فان شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضى الى القناة ، ثم خلع معطفه وحذاءيه ، والقى بنفسه فى الماء ، ولم يلق عناءً كبيراً فى اللحاق بالمرأة الغريق ، فان تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة ، فما هى الا أن قبض على ثوبها بيده اليمنى ، وأمسك باليد اليسرى عصا مدَّها اليه زميل له ، حتى أُخرجت المرأة من المـــاء ، وأُضجعت على الدرجات الصخرية . ولم تلبث أن ثاب اليها وعيها ، فنهضت ، وجلست ، وأخذت تعطس وتشخر وتمسح بيديها ثيابها المبتلة بحركة لاارادية . ولم تنطق بكلمة واحدة .

أعولت تلك المرأة نفسها قائلةً ، قرب أفروسينوشكا فى هذه المرة :

— لقد ركبها ألف عفريت أيها الاخوة والشرب هو السبب . حاولتْ منذ مدة أن تشنق نفسها ، فأخرجنا عنقها من الحبل . ومضيتُ اليوم الى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها ، فاذا بالمصيبة تقع . . هى جارتنا يا أخى ، جارتنا . نحن نسكن فى مكان قريب ، فى العمارة الثانية ، هناك ، آخر الشارع . . .

تفرق الحشد ، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق . وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شىء يتصل بقسم شرطة . . . ان راسكولنيكوف ينظر الى هذا كله وهو يحس احساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث . وها هو ذا يشعر بنفور وتقزز ، ثم يقول مجمجماً بينه وبين نفسه : «لا ، لا ، هذا شىء يدعو الى الاشمئزاز . . . الماء . . . لا فائدة منه . . لن يحدث شىء . . . ما فائدة الانتظار اذن ؟ أما قسم الشرطة . . . ولكن لماذا غاب زاميوتوف عن القسم ؟ ان مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة بعد الساعة التاسعة» .

وأدار راسكولنيكوف ظهره للافريز ، ونظر حواليه .

ثم قال بلهجة جازمة : «لِـمَ لا ؟ ليكن !» . وغادر الجسر وسار متجهاً الى قسم الشرطة . كان قلبه خالياً مغلقاً . كان لا يريد أن يفكر . حتى القلق تبدد . لم يبق فى نفسه أثرٌ من انتفاضة القوة تلك التى أخرجته من غرفته «لينتهى من الأمر» . وحلَّ محلَّ تلك القوة خمولٌ وخمود وتبلد .

قال لنفسه وهو يسير على رصيف القناة بملل وكسل وتوانٍ : «نعم ، هذا أيضاً حل . سأنتهى من الأمر مع ذلك ، لأننى أريد ان انتهى منه . ولكن هل هذا هو الحل حقاً ؟ آه . . . لا ضير . . . سيبقى لى موطئ قدم من الأرض

أقف عليه . ولكن يا لها من نهاية ! هل يمكن ان يكون هذا نهاية ؟ أأقول لهم الأمر أم لا أقوله ؟ ولكن دعنا من هذا ! انني متعب مكدود مرهق . يجب أن أضطجع حالاً ، يجب أن أقعد في مكان ما . أعيب ما في الأمر أن هذا كله غباء ! هيا ، ابصق على هذا أيضاً ! آه . . . ما أكثر الحماقات التي يمكن أن تساور فكرنا أحيانا . . .»

كان على راسكولنيكوف ، من أجل الوصول الى قسم الشرطة ، أن يمضي في أول الأمر قُدُماً ، ثم أن يلتفت يسرةً عند الشارع الثاني . وكان قسم الشرطة يقع على بعد خطوتين من هنا . ولكنه توقف قبل أن يصل الى العطفة الأولى ، وفكّر ، ودخل في زقاق ضيق ، ثم قام بدورة سائراً في شارعين ، ربما بدون نية محددة تماماً ، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً ، ليكسب فسحةً من وقت . كان يسير مطرقاً الى الأرض . وفجأةً احسَّ كأن احداً يهمس في اذنه ، فرفع رأسه ، فوجد نفسه أمام **تلك** العمارة ، أمام مدخلها تماماً . انه منذ **ذلك** المساء لم يكن قد عاد الى المكان .

وهذه رغبةً لا سبيل الى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها ، تسيطر عليه وتستبد به . دخل العمارة ، ونفذ الى الباب الأول ، الباب الأيمن ، وأخذ يصعد السلّم الذي يعرفه جيداً ، حتى وصل الى الطابق الرابع . كان ظلام حالك يلف السلّم الضيق شديد الانحدار . وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلّم عند كل طابق ، فكان ينظر حواليه مستطلعاً مشوقاً . هذا زجاج النافذة في الطابق الأول قد خُلع . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه :

«انه لم يكن هكذا في ذلك اليوم» . ثم وصل الى الشقة التي تقع في الطابق الثاني حيث كان يعمل نيقولاي ودمتري . «البيت مغلق ، وقد أعيد دهن الباب . معنى ذلك ان البيت مُعد للايجار» . وهذا هو الطابق الثالث ، ثم هذا هو الطابق الرابع . «هنا» . توقف راسكولنيكوف مسمَّرا : كان باب البيت مفتوحاً تماماً ، وكان في البيت ناس ، ان كلامهم مسموع . لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا . وبعد تردد قصير ، صعد الدرجات الأخيرة ، ودخل البيت .

انه يُجدَّد أيضاً . ان فيه عمالاً . بدا راسكولنيكوف كالمذهول . لقد كان يتصور ، دون أن يدري لماذا ، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً ، حتى الجثتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة في ذلك الموضع نفسه . فماذا يرى الآن : جدراناً عارية ، وما من أثاث ! ما أغرب هذا ! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها .

لم يكن هنالك الا عاملان اثنان . انهما شابان ولكن أحدهما أكبر سناً من الثاني بكثير . كانا يغطيان الجدران بورق أبيض ذي أزهار صغيرة بنفسجية ، بدلاً من الورق القديم

الأصفر الحائل الممزَّق . شعر راسكولنيكوف من ذلك بأسف شديد . وأخذ ينظر الى الورق الجديد مغتاظاً ، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث .

يبدو أن العاملين قد أطالا يوم عملهم وتأخرا . وهما الآن يرتبان لفافات الورق ، ويستعدان للعودة الى المنزل . لم يلفت ظهور راسكولنيكوف انتباههما . كان يجرى بينهما حديث نشيط . صالب راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغى الى حديثهما .

قال الأكبر للأصغر :

— جاءتنى منذ الفجر ، لابسةً أجمل الثياب . قلت لها : «مالك تغنجين هذا الغنج» ، فقالت لى : «أريد بعد الآن يا تيت فاسيلتش أن أكون لك جسماً وروحاً !» . أسمعت ؟ وليتك رأيت الثياب التى كانت تلبسها . لكأنها مجلة ، مجلة حقيقية .

سأله الأصغر :

— وما هى هذه المجلة يا عمى ؟

كان واضحاً أن الأصغر يتلمذ على الأكبر .

— المجلة يا أخى واحدة من تلك الصور الملونة التى تصل الى الخياطين المحليين بالبريد من الخارج كلَّ سبت . والغاية منها أن تُرى الناس كيف يجب أن يلبسوا ، رجالاً ونساءً . هى رسم . فأما الرجال فثيابهم هى المعاطف أساساً ، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء . . هناك حدِّث ولا حرج . . . مهما تقل عنها فلن توفيها حقها !

هتف الأصغر يقول متحمساً :

— ما أكثر ما يراه المرء فى «بيترو» هذه ! ان المرء

يرى فيها كل شىء حقاً ، عدا أمه وأبيه !

قال الأكبر فى رصانة :

— نعم ، يرى كل شىء عدا أمه وأبيه !

نهض راسكولنيكوف ومضى الى الغرفة الثانية التى كانت فى الماضى تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج . فلما رآها خاليةً من الأثاث بدت له صغيرة صغراً رهيباً . لم يُبدل ورق جدرانها . وفى الركن ، يُرى على ورق الجدران بوضوح ذلك المكان الذى كانت فيه الأيقونات . نظر راسكولنيكوف حواليه ، ثم عاد الى النافذة يجلس على حافتها . نظر اليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله على حين فجأة :

— ماذا تريد هنا ؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجبه ، بل نهض وخرج الى فسحة السلَّم ، فأمسك بحبل الجرس وشدَّه . هو ذلك الجرس نفسه ، وهو ذلك الرنين نفسه . شدَّ الجرس مرةً ثانية فمرةً ثالثة . فكان يصغى ويتذكر . عاوده الاحساس الذى شعر به فى ذلك اليوم ، ذلك الاحساس الرهيب الكاوى ، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شىء . فكان يرتعش كلما رنَّ الجرس مرةً جديدة ، وكانت لذته تزداد .

صرخ العامل يقول وهو يخرج الى فسحة السلم :

— ماذا تريد ؟ مَنْ أنت ؟

فعاد راسكولنيكوف الى الغرفة . وقال :

— أنا أبحث عن شقة أستأجرها ، وقد جئت أرى هذا البيت !

قال العامل :

— ما من أحد يزور مسكناً فى الليل . ثم ان عليك أن تصطحب البواب . . .

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

— أرى أن الأرض قد غُسلت . هل سيُعاد دهنها ؟ لم يبق دم ، هه ؟

— دم ؟

— لقد قُتلت العجوز واختها . كان ههنا بركة دم . . .

صاح العامل يقول قلقاً :

— ولكن مَنْ أنت ؟

— أنا ؟

— نعم أنت .

— تريد أن تعرف ؟ تعال معى اذن الى قسم الشرطة . هناك سأقول لك من أنا .

نظر العاملان الى راسكولنيكوف مبهوتين . وقال الأكبر للأصغر :

— هلمَّ . . . لقد آن لنا أن ننصرف ، حتى لقد تأخرنا . هيَّا يا أليوشا ! يجب أن نغلق . . .

قال راسكولنيكوف بلهجة هادئة :

— هلموا ننصرف !

وخرج أول الخارجين ، وهبط السلَّم ببطء ، حتى اذا وصل الى الباب المطل على الشارع ، صرخ ينادى البواب :

— هيه ! يا بواب !

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون الى المارَّة هم البوابان وامرأة وتاجر يرتدى ثوباً من ثياب المنزل ، وأناس آخرون . مضى راسكولنيكوف اليهم قُدماً .

سأله أحد البوابين :

— ماذا تريد ؟

— هل ذهبتَ الى قسم الشرطة ؟

— عدت منه منذ برهة . ماذا تريد ؟

— أما يزالون هناك ؟

— ما يزالون هناك .

— وهل كان مساعد مفوَّض الشرطة هناك أيضاً ؟

— وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً . ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمَّر بين الواقفين حالماً .

اقترب العامل الكبير وقال :

— جاء يرى الشقة .

— أى شقة ؟

— الشقة التى نعمل فيها . سألنا : «لماذا غُسل الدم ؟» ثم قال : «ارتكبت هنا جريمة قتل ، وأنا أريد أن أستأجر البيت» . وقد أخذ يشد حبل الجرس ، حتى كاد ينتزعه . ثم قال : «هلموا بنا الى قسم الشرطة ، فسأقول لكم هناك كل شىء» ، تشبث بنا تشبثاً .

نظر البواب الى راسكولنيكوف متحيراً عابساً .

ثم صرخ يسأله مهدداً :

— ولكن من أنت ؟

— رودیون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب سابق . وأسكن قريباً من هنا ، فى زقاق مجاور ، عمارة شيل ، شقة ١٤ ؛ اسأل عنى بواب العمارة . انه يعرفنى .

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة وانية ، شاردَ الفكر ،

حتى دون أن يلتفت ، فقد كان يحدّق الى الشارع الذى اجتاحه الظلام منذ الآن .

— ولماذا جئت الى هذه الشقة ؟

— لأراها .

— ماذا تريد أن ترى هناك ؟

— ما رأيك فى أن نقتادك الى قسم الشرطة ، هه ؟

كذلك قال التاجر فجأة ، ثم أسرع يصمت .

نظر اليه راسكولنيكوف من فوق كتفه ، وتفرس فيه بانتباه ، ثم قال له بلهجة ما تزال وانية هادئة :

— موافق ، هلمّوا بنا الى قسم الشرطة !

استأنف التاجر كلامه فقال بثقة أكبر :

— نعم ، يجب اقتياده الى قسم الشرطة . لماذا جاء الى هناك ، فان ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله ، أليس كذلك ؟

جمجم العامل يقول :

— أهو سكران أم لا ؟ الله وحده يعلم !

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً :

— ولكن ماذا تريد ؟ ما مجيئك الينا لتزعجنا هذا الازعاج ؟

قال راسكولنيكوف ساخراً :

— ها . . . انك تخاف الذهاب الى قسم الشرطة !

— ممَّ عسانى أخاف ؟ ولكن لماذا تأتى الينا فتزعجنا هذا الازعاج ؟

صرخت المرأة :

— هذا لص !

فقال البواب الآخر ، وهو رجل ضخم يرتدى معطفاً مفتوحاً ، ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه :

— علام نناقشه ؟ اخرج من هنا ! حقاً أنت محتال . . . هيَّا انصرف . أقول لك انصرف !

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه ، ورماه الى الخارج ، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوى على الأرض ولكنه لم يسقط ، ثم انتصب ونظر الى جميع المشاهدين صامتاً ثم مضى .

قال العامل :

— انسان عجيب !

فعقبت المرأة قائلة :

— جميع الناس عجيبون فى هذه الأيام !

وأضاف التاجر يقول :

— كان ينبغى أن نقتاده الى الشرطة مع ذلك .

فقال البواب الكبير يحسم المناقشة :

— لا داعى لاقتياده الى الشرطة . هو محتال مشاكس ما فى ذلك ريب ، ولو اقتدناه الى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس ! . . .

تساءل راسكولنيكوف وهو يقف فى عرض الطريق عند أحد المفارق وينظر الى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد الى الحل الحاسم والقول الفصل : «أأذهب الى الشرطة أم لا أذهب ؟» ولكن ما من جواب جاءه من أى مكان . كان كل شىء أصمَّ ميتاً كالحجارة التى كان يسير عليها . . ميتاً بالنسبة اليه وحده . وها هو ذا يلمح فجأة ، فى بعيد ، على مسافة مائتى خطوة ، فى آخر الشارع ، فى الظلام المتزايد ، ها هو ذا يلمح احتشاداً ، ويسمع جلبةً وصراخاً . وكانت

تقف عربة فى وسط الجمهور المحتشد . وومض فى الشارع ضوء مصباح . فكر راسكولنيكوف «ماذا حدث ؟» دار بمنة واتجه نحو الحشد . كان يبدو حقاً أنه يريد أن يتشبث بأى شىء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك فى فتور ، لأنه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد أتخذ وانتهى الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شىء سيكون قد انتهى بعد قليل .

الفصل السابع

كانت تقف فى وسط الشارع عربة أنيقة من عربات السادة ، قد قُرن بها حصانان اشهبان قويان ثائران . وكانت خالية قد نزل حوذيها عن مقعده ووقف الى جانبها يشد الحصانين باللجام ؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس ، وراء حاجز من رجال الشرطة . وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلاً قد مال به الى تحت يضىء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات . وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويتأوهون ، وكان الحوذى مضطرباً يردد بين الفينة والفينة قوله :

— يا للمصيبة ! رباه ! يا للمصيبة !

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً ، فأفلح أخيراً فى أن يرى ذلك الشىء الذى يثير هذا الاضطراب القوى وهذا الفضول الشديد . انه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدى ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب «السادة» ، قد داسه الحصانان ، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المتخن المهشم . كان واضحاً أن الاصابة خطيرة .

صاح الحوذى نادباً شاكياً :

— يا رب السماء ! كيف كان يمكن أن أتفاداه ! لا العربة كانت مسرعة ، ولا أنا سكت فلم أصرخ منبهاً ! كانت العربة تسير فى رفق ، كانت تسير على مهل . جميع الناس رأوا ذلك . ان كنت أكذب فقد كذب اذن جميع الناس . ولكن السكران لا يرى حتى فى وضح النهار . . . هذا معروف . أبصرته يجتاز الشارع مترنحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر . صرخت أنبهه ، مرة ، مرتين ، ثلاث مرات . . . ولجمت الحصانين ، ولكن ها هو ذا يمشى اليهما قُدُماً فيسقط بين حوافرهما . . . فإما أنه فعل ذلك عامداً ، واما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ . . . وحصانان مهران صغيران عصبيان ، فها هما يجمحان ، وها هو ذا يصرخ فيزداد جموحهما فتقع المصيبة . . .

قال أحد شهود الحادث :

— نعم ، ذلك ما حدث .

وقال صوت آخر :

— نعم ، لقد صرخ الحوذى ، صرخ ثلاث مرات .

وقال ثالث مؤيداً :

— نعم ، ثلاث مرات ، جميع الناس سمعوا . . .

على أن الحوذى لم يكن منهار العزيمة ولا شديد الخوف . وكان واضحاً أن المركبة يملكها شخص ثرى لا بد أنه كان ينتظر وصولها فى مكان ما . وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً ، ولا أسقطوها من الحساب . لم يبق اذن الا أن يُنقل المصاب الى قسم الشرطة والى المستشفى . ولم يكن أحد يعرف اسمه .

فى أثناء ذلك ، كان راسكولنيكوف قد تسلل الى وسط الجمهور ، ومال على الأرض ، فاذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقى على حين فجأة ، واذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً .

صرخ يقول وهو يندفع الى الصف الأول :

— أنا أعرفه ! أنا أعرفه ! هو موظف محال على التقاعد ، هو المستشار الاعتبارى مارميلادوف . انه يسكن قريباً من هنا ، فى عمارة كوسل . . . اسرعوا ، نادوا طبيباً ! سأدفع ! خذ . . .

قال ذلك وأخرج من جيبه مالاً فعرضه على أحد رجال الشرطة . كان راسكولنيكوف فى حالة اضطراب تبعث على الدهشة .

سُرَّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب . وأسرع راسكولنيكوف يعرِّف بنفسه أيضاً ، فذكر اسمه ، وذكر عنوانه ، وألحَّ ألحاحاً شديداً ، كما لو كان المصاب أباه ، على أن يُنقل مارميلادوف الى مسكنه بأسرع ما يمكن . وكان مارميلادوف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه . قال راسكولنيكوف متعجلاً :

— بيته هناك : بعد ثلاث عمارات . انه يسكن فى عمارة كوسل ، الألمانى الغنى . . . لا شك أنه كان سكران عائداً الى بيته . أنا أعرفه . انه سكير . . . له أسرة ، وزوجة ، وأولاد ، وبنت . لماذا المستشفى ؟ ان نقله الى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً . ولا بد أن يوجد فى عمارته طبيب . سوف أدفع ، سوف أدفع . فبذلك يعتنى به ذووه ، ويفعلون ما يجب فعله فوراً . والا كان يتعرض للموت حتى قبل أن يصل الى المستشفى .

وأفلح راسكولنيكوف فى أن يدسَّ قطعة نقدية فى يد أحد رجال الشرطة . وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية . وبدا على كل حال أن نقل الجريح الى بيته أبسط وأيسر . فرفع المصاب وحُمل ، ووُجد من يساعد فى ذلك . كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثين خطوة . فكان راسكولنيكوف يمشى وراء الجريح سانداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط ، وكان يدل الآخرين على الطريق .

— من هنا ! من هنا ! وحين نصعد السلم يجب ان نجعل رأسه فى المقدمة . . . دوروا . . . نعم هنا . . . سوف أدفع . . . أشكر لكم صنيعكم . . .

كذلك كان يدمدم راسكولنيكوف .

كانت كاترينا ايفانوفنا ، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ ، تسير فى غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً ، فتمضى من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة ، مصالبةً ذراعيها على صدرها ، مكلمةً نفسها ، ساعلةً من حين الى حين . ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث مزيداً من التحدث الى ابنتها الكبرى بولينكا التى يبلغ عمرها

عشر سنين والتى كانت ، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد ، تدرك حقّ الادراك أن أمها فى حاجة اليها ، فكانت لذلك تتابعها بنظراتها الذكية محملقة ، وتبذل كل ما تملك من مكر فى سبيل أن تتظاهر بأنها تفهم كل ما كانت تقوله لها . وفى تلك اللحظة ، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه فى السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار ، فكان الصبى الصغير ، بانتظار ابدال قميصه الذى يجب أن يُغسل فى تلك الليلة نفسها ، جالساً على كرسى ، رزيناً صامتاً . كان منتصب الجسم ، ساكناً ، ملصقاً ساقيه احداهما بالأخرى وهو يرفعهما الى الأمام ، موجهاً ابهاميه الى الخارج ، نافخاً خدَّيه ، محملقاً بعينيه ، يصغى الى ما كانت تقوله أمه لأخته دون أن يتحرك ، كما ينبغى للصغار العقلاء حين تُخلع عنهم ثيابهم للنوم . وكانت البنت الثانية ، وهى أصغر سناً منه ، وثيابها أطمار بالية تماماً ، تنتظر دورها واقفةً قرب الحاجز . وكان الباب المطل على فسحة السلّم مفتوحاً على سعته كلها ، من أجل أن يهرب منه ولو جزء من دخان التبغ الذى يأتى من الغرف الأخرى ، ويسبب للمصدورة المسكينة نوبات سعال طويلة أليمة قاسية . لقد نحلت كاترينا ايفانوفنا مزيداً من النحول منذ أسبوع ، وأصبحت البقع الحمراء على خدَّيها مضطرمةً مزيداً من الاضطرام .

كانت تقول لابنتها وهى تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— لا تستطيعين أن تعرفى ، لا تستطيعين أن تتخيلى ، يا بولينكا ، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذخة التى كنا نحياها فى دار بابا ، ولا نوع الشقاء الذى نزل علىَّ بسبب هذا السكّير ، والذى سينزل عليكم أنتم جميعاً كذلك . كان بابا فى رتبة

تعدل رتبة كولونيل . كان يوشك أن يصبح حاكماً ، لم يكن عليه الا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً ؛ لذلك كان جميع الناس يجيئون اليه ويقولون له : «نحن نعدُّك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش» . وحين . . . كح كح كح . . . حين . . . كح كح كح . . . لعن الله هذه الحياة . . . (صاحت هكذا وهى تبصق النخامة وتضغط صدرها) — نعم ، حين . . . آه . . . حين رأتنى الأميرة بيزيملنايا ، فى آخر حفلة رقص ، عند رئيس مجلس النبلاء — وهذه الأميرة هى التى باركتنى حين تزوجت أباك يا بوليا — نعم . . . حين رأتنى أسرعت تسأل على الفور : «أليست هذه الفتاة الفتانة هى التى رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية ؟» — يجب ترقيع هذا الثقب ، عليك أن تأخذى ابرة وخيطاً فترقعيه ، كما علمتك ، والا فانه . . . كح . . . غداً . . . كح كح كح . . . سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدَّها السعال) . وفى ذلك الأوان انما وفد الينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستشيجولسكى . . . ورقص معى رقصة مازوركا ، وقال لى انه سيجىء فى الغداة ليخطبنى . . . فشكرته بألطف العبارات ، ولكننى صرفته قائلة له ان قلبى يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة ، وهذا الآخر هو أبوك يا بوليا . وغضب أبى غضباً شديداً . — هل أُعدَّ الماء ؟ هيَّا اثننى بالقميص . والجوارب ، أين هى ؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستنامين هذه الليلة بدون قميص . . . دبِّرى أمرك . . . ودعى الجوربين جانباً كذلك . . . سأغسلهما فى الوقت نفسه . . . ألن يعود هذا الرث السكران ؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً

كممسحة . ومزقه أيضاً . أتمنى لو أغسل كل شيء دفعةً واحدة . فبذلك لا أتعذب ليلتين متواليتين . يا رب ! كح كح كح . . . ما هذا أيضاً ؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهى ترى جمهوراً على فسحة السلّم ، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِمْلاً ويحاولون ان يشقوا طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى ؟ ماذا يحملون ؟ رباه !

سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يُحمل مارميلادوف الى الغرفة دامياً مغشياً عليه :

— أين نضعه ؟

قال راسكولنيكوف :

— على الديوان ! أضجعوه على الديوان ، واجعلوا رأسه فى هذه الجهة .

صاح يقول واحد وهو على فسحة السلم :

— داسته عربة فى الشارع وهو سكران !

وقفت كاترينا ايفانوفنا جامدة ، شاحبة الوجه ، تتنفس بصعوبة ومشقة . وارتعب الأولاد . وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت الى بولينكا ، فعانقتها وهى ترتجف بجميع أعضاء جسمها .

حتى اذا أُضجع مارميلادوف على الديوان ، هرع راسكولنيكوف الى كاترينا ايفانوفنا ، وقال لها مسرعاً :

— اهدئى ناشدتك الله ، لا تضطربى ! . . كان يجتاز الشارع ، فمرت عربة فوقه . لا تقلقى . سيصحو من اغمائه . أنا أمرت بحمله الى هنا . لقد جئت اليكم مرة قبل الآن ، هل تذكرين ؟ سيفيق من غيبوبته . سوف أدفع !

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول يائسةً وهى تندفع نحو زوجها : — نال ما كان يسعى اليه !

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء اللواتى يغمى عليهن لأيسر الأسباب . وبمثل لمح البصر سرعةً وضعت وسادة تحت رأس المسكين : ما من أحد قد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل . ثم أخذت كاترينا ايفانوفنا تخلع ثيابه ، وتفحصه ، وكانت منهمكة فى العناية بالجريح مسيطرةً على نفسها ، عاضةً على شفتيها المرتعشتين ، تكظم الصرخات التى تهم ان تنطلق من صدرها .

وفى أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضى يستدعى طبيباً . وكان يوجد طبيب فى عمارة مجاورة .

وكرر يقول لكاترينا ايفانوفنا :

— أرسلت فى طلب طبيب . لا تقلقى . سوف أدفع . أليس عندكم ماء ؟ وأعطنى أيضاً فوطة ، منشفة ، أى شيء ، بسرعة ! لا نعلم بعد هل جرحه بليغ . . . على كل حال ، هو جريح وليس قتيلاً . . . ثقى بذلك . . . لننتظر ما سيقوله الطبيب .

هرعت كاترينا ايفانوفنا الى النافذة . كان يوجد هناك ، فى ركن ، على كرسى خاسف ، طستٌ كبير من فخار ، مملوء ماء ، قد هيأته من أجل أن تغسل فى الليل ملابس أولادها وزوجها . ان كاترينا ايفانوفنا هى التى تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً ، وهى تفعل ذلك مرتين فى الأسبوع على الأقل ، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً ، ذلك انهم قد وصلوا الى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملبس من

الملابس الا قطعةً واحدة لكل فرد . وكاترينا ايفانوفنا لا تحتمل الوساخة ، أو قل لا تطيق أن ترى الأدران تسود بيتها ، وتؤثر على هذا ان تقوم فى الليل ، بينما الجميع نائمون ، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها : تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف ، بغية ان تجد الأسرة أشياءها نظيفة فى الصباح . حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف ، وكادت تسقط معه على الأرض . وكان راسكولنيكوف قد استطاع فى أثناء ذلك ان يعثر على منشفة . فبلَّها بالماء وأخذ يغسل وجه مارميلادوف الدامى . وكانت كاترينا ايفانوفنا تقف الى جانبه ، متنفسةً بمشقة وصعوبة ، ضاغطةً صدرها بيديها . لقد كانت هى نفسها فى حاجة الى اسعاف . وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه انه لعله قد اخطأه سداد الرأى حين الحَّ على ضرورة نقل المريض الى هنا . وكان الشرطى مرتبكاً حائراً .

وصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول لابنتها :

— بوليا ، اذهبى الى أختك صونيا ، وأحضريها بسرعة . فاذا لم تجديها فى مسكنها ، فلا بأس . . قولى ان أباها قد داسته خيول ، وان عليها أن تجىء حالاً متى عادت . أسرعى يا بوليا ! خذى ، ضعى هذا المنديل على رأسك .

وصرخ الصبى الصغير من على كرسيه على حين فجأة يهيب بها أن تسرع قائلاً :

— أثلعى[1] . . .

---

[1] اسرعى .

قال ذلك وعاد يغرق فى صمته ، واسترد وضعه : محملق العينين ، متصلب الجذع ، متجمد الجسم ، مشدود الساقين .

وامتلأت الغرفة بالناس فى أثناء ذلك ، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم . وانصرف رجال الشرطة ، الا واحداً بقى الى حين ، بغية أن يصد الجمهور الذى كان يصل من السلَّم ويتدفق نحوه من جديد . ان المستأجرين الذين يسكنون عند مدام ليبفكسيل قد هرعوا جميعهم تقريباً من غرفهم التى تقع فى آخر الشقة : تجمعوا فى أول الأمر على الباب ، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها . غضبت كاترينا ايفانوفنا ، فصرخت تخاطب الناس :

— دعوه يموت بسلام على الأقل . آه . . . أهذه مسرحية ؟ تدخلون ولا تزالون تدخنون السجائر ! كح كح كح ! لم يبق الا ان تحتفظوا بقبعاتكم على رؤوسكم أثناء رؤية المشهد . هه . . . هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً ! هيَّا اخرجوا من هنا . . . احترموا الأموات على الأقل !

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة . ولكن تقريعها كان له أثره . واضح أنهم يخشون كاترينا ايفانوفنا بعض الخشية . فهاهم اولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر ، وهم يشعرون بذلك الاحساس الغريب ، احساس اللذة الذى يُلاحَظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاءً يحل بقريبهم ؛ وهو احساس لا يخلو منه أى انسان ، مهما يكن احساسه بالأسف والشفقة صادقا .

وكانت تُسمع وراء الباب شزرات أحاديث يدور فيها

الكلام على المستشفى ، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة فى غير طائل .

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول :

ـــ ماذا ؟ ليس من اللائق أن يموت الانسان ؟

وهمّت أن تفتح الباب وأن تصبَّ على هؤلاء الناس سيلاً من الشتائم ، ولكنها حين وصلت الى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليبفكسل نفسها التى علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام الى نصابه . ان مدام ليبفكسل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة .

قالت وهى تصفق يديها احداهما بالأخرى :

ـــ آه . . . يا رب ! زوجك داسه حصان وهو سكران . الى المستشفى ، الى المستشفى انما كان يجب . . . أنا صاحبة البيت . . .

فقالت كاترينا ايفانوفنا فى تعالٍ وكبرياء :

ـــ أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكرى فيما تقولين . . . يا آماليا لودفيجوفنا . . .

كانت كاترينا ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائماً فى تعال وكبرياء ، كيما «تلزم هذه حدودها» ؛ ولم تستطع حتى فى هذا الظرف ان تحرم نفسها من هذه اللذة .

قالت مدام ليبفكسل :

ـــ قلت لك مرةً واحدة الى الأبد أن لا تسمينى آماليا لودفيجوفنا قط . أنا آماليا ايفانوفنا .

ـــ أنت لست آماليا ايفانوفنا ، بل آماليا لودفيجوفنا ؛ وأنا لست واحدةً من أولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً ، ومنهم السيد ليبزياتنيكوف الذى تدوّى قهقهاته فى هذه اللحظة

نفسها وراء الباب (وكان يدوى وراء الباب ضحكٌ فعلاً ، وكانت تُسمع هذه الجملة : «قد بدأت مشاكسة !») فاننى سأسميك دائماً آماليا لودفيجوفنا . ولست افهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم الى هذه الدرجة . لقد رأيتِ ما حدث لسيميون زاخاروفتش : انه يموت . فأرجوك ان تغلقى هذا الباب فوراً ، وأن لا تدعى لأحد أن يدخل الى هنا . فليمت بسلام على الأقل ! والا فاننى أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد . ان الأمير قد عرفنى قبل أن أتزوج ، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش جيداً ، وقد احسن اليه مراراً . وجميع الناس يعلمون ان سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحُماة كثُر أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبريائه ، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن . ولكن شاباً سمحاً (وأومأت الى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات ، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته ، يتولى مساعدتنا الآن ، ففى وسعك أن تكونى على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من ان . . . .

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة الى دقيقة . ولكن السعال قطع بلاغة كاترينا ايفانوفنا فجأة ، واستعاد المحتضر وعيه فى تلك اللحظة وأطلق أنيناً فهرعت اليه . وفتح عينيه ، وأخذ ينظر الى راسكولنيكوف الواقف بقربه ، أخذ ينظر اليه دون أن يتعرف أحداً ودون ان يفهم شيئاً . وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً . وظهر دم على طرفى شفتيه . وكان العرق يتكاثف على جبينه . واذ لم يستطع أن يحدد شخصية راسكولنيكوف ، أجال بصره على ما حوله قلقاً . وكانت كاترينا ايفانوفنا تلقى عليه نظرة حزينة لكنها

قاسية ، وكانت تسيل من عينيها دموع .

قالت يائسة :

— رباه ! ان صدره معجون عجناً ! ما أكثر الدم ! ما أكثر الدم ! يجب أن تُنزع عنه ملابسه . استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش ، اذا كنت تقوى على ذلك .

تعرفها مارميلادوف . فنطق بصوت أبح :

— كاهن !

فتراجعت كاترينا ايفانوفنا نحو النافذة ، وأسندت جبينها الى الزجاج ، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب :

— قاتل الله هذه الحياة !

وعاد المحتضر يقول من جديد ، بعد لحظة صمت :

— كاهن !

فصرخت كاترينا ايفانوفنا :

— أر . . . سلنا . . . نستد . . . عيه !

ففهم وصمت . وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقاً . فعادت اليه ووقفت بقربه . فهدأ قليلاً ولكن هدوءه لم يطل . فان عينيه لم تلبثا ان توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا ، (أثيرته) التى كانت فى ركنٍ من الأركان ترتجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية ، وتحدق اليه بعينيها المدهوشتين ، عينى الطفلة ، تحديقاً ثابتاً .

غمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومئ اليها قلقاً :

— أ . . . أ . . .

فصرخت كاترينا ايفانوفنا :

— ماذا أيضاً ؟

فقال وقد تلبثت نظراته القلقة على قدمى البنت الصغيرة الحافيتين :

— حافية ! حافية !

فزأرت كاترينا ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشده :

— اسكت ! أنت تعلم حق العلم لماذا هى حافية !

صاح راسكولنيكوف يقول متخفقاً من قلقه :

— الحمد لله ! وصل الطبيب !

دخل الطبيب . انه شيخ مهندم (وهو ألمانى) أخذ يلقى على ما حوله نظرات زاخرة بالريبة والشك . اقترب من المريض ، وجسَّ نبضه ، وتفحص رأسه بانتباه ، ثم تعاون مع كاترينا ايفانوفنا على حلِّ أزرار القميص المبتل بالدم ، وعرَّى الصدر . كان الصدر خاسفاً خسوفاً مروِّعاً ، وكان مهروساً ممزَّقاً . ان عدة اضلاعٍ فى الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة . وفى الجهة اليسرى ، عند القلب ، كانت تُرى بقعة سوداء ضاربة الى صفرة ، بقعة كبيرة رهيبة : انها آثار حافر حصان . قطَّب الطبيب حاجبيه . وروى له الشرطى أن الجريح قد تشبثت به احدى عجلات العربة ، فجرَّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع .

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً :

— أغرب ما فى الأمر أنه عاد اليه شعوره !

فسأله راسكولنيكوف :

— ما رأيك ؟

— سيموت حالاً .

— أليس هناك أى أمل ؟

— لا أمل البتة . انه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه .

انه فى النزع الأخير . ثم ان رأسه مصاب بجرح خطير جداً . هِمْ . . . . يمكننا طبعاً أن نجرى له فصداً . . . ولكن ما فائدة ذلك ؟ سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو عشر .

ـــ لنجرِّب الفصد مع ذلك !

ـــ طيب . ولكننى أنبهك مرةً أخرى الى أننا لن نجنى من ذلك أية فائدة .

وفى هذه اللحظة نفسها سُمع وقع أقدام مرةً أخرى . فتنحى الجمهور على فسحة السلَّم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل الأعراض السرية ، وقد أرسل الشرطى ليجىء بالطبيب الى البيت حين كان الجريح بعد فى الشارع . فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان ، بعد أن تبادل معه نظرة ذات دلالة ، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظةً قصيرة . فرفع الطبيب كتفيه ، ولكنه بقى .

تنحى الجميع . ولم يدم الاعتراف الا وقتاً قصيراً جداً : فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً ادراكه وكان عاجزاً عن الكلام ، وكان لا يستطيع ، فى أكثر تقدير ، أن ينطق الا بأصوات متقطعة غير متميزة . أمسكت كاترينا ايفانوفنا يد ليدوتشكا ، فأنهضت الصبى الصغير عن كرسيه ثم مضت الى الركن قرب المدفأة ، فجثت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها . استمرت البنت الصغيرة ترتجف . أما الصبى الصغير الذى كان جاثياً بركبتيه العاريتين على بلاط الأرض ، فكان يرفع يده اليمنى فى فواصل مطرَّدة ، فيرسم اشارات الصليب واسعةً كبيرة ، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض ، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى . وكانت كاترينا ايفانوفنا تعض على شفتيها وتحبس دموعها .

كانت تصلى هى أيضاً ، وتعدل قميص الصغير من حين الى حين فى الوقت نفسه . حتى لقد استطاعت ، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها ، ان تسلَّ من الخزانة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفى الصبية العاريتين . ولكن الباب المطل على الغرف الأخرى قد فتحه المستطلعون اثناء ذلك مرةً أخرى . كان جمهور المشاهدين على فسحة السلَّم ـــ وهم السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة ـــ تزداد كثافته شيئاً بعد شىء ، الا أن أحداً منهم لم يتخط عتبة الغرفة . وكان لا يضىء هذا المشهد كله الا بقية شمعة .

وفى تلك اللحظة وصلت بوليا التى ذهبت تُحضر اختها ، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمهور . دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً ، لأنها قد ركضت بسرعة مفرطة ، فنزعت المنديل الذى كان يغطى كتفيها ، وبحثت عن أمها بعينيها ، ثم اقتربت منها وقالت لها : «ستجىء ، فقد لقيتها فى الشارع !» أركعت الأم ابنتها الى جانبها . ثم وصلت فتاة ، فتقدمت وسط الجمهور خجلةً بلا ضجة ، فكان ظهورها المفاجىء فى هذه الغرفة التى يسودها الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشد الدهشة . كانت ترتدى أسمالاً أيضاً وكانت ثيابها رخيصة ، ولكنها صارخة صخابة تناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذى تعيش فيه هذه الفتاة ، وتلائم الغايات الدنيئة التى تسيطر على ذلك العالم . وقفت صونيا على العتبة لا تجرؤ أن تجتازها . وكانت تنظر حواليها زائغة الهيئة تائهة الفكر . كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً ولا تعى شيئاً ، وكان يبدو عليها أيضاً أنها ذُهلت عن ثوبها الحريرى الذى اشترته مستعملاً ـــ والذى

كانت ألوانه الزاهية وذيوله الطويلة المضحكة لا تناسب هذا المكان — وذُهلت عن تنورتها المسلّكة الفضفاضة التى تملأ عرض الباب كله ، وعن حذاءيها اللامعين وشمسيتها التى لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل ، وعن قبعتها المدورة المضحكة المصنوعة من قش ، المزدانة بريشة حمراء . وكان يلوح تحت هذه القبعة ، الموضوعة مائلةً ، وجه صغير نحيل أصفر

مرتاع ، فاغر الفم شارد العينين من الرعب . ان صونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهى قصيرة القامة هزيلة الجسم ، لكنها لطيفة ، شقراء ، لها عينان زرقاوان رائعتان . وقد راحت تحدّق الى الديوان والى الكاهن بنظرات ثابتة . وكانت مقطعة الأنفاس هى أيضاً ، لأنها ركضت ركضاً سريعاً . ولا شك أن كلمات تبادلها بعضهم فى الجمهور همساً قد تناهت الى مسامعها فها هى ذى تخفض رأسها وتتقدم خطوةً الى أمام . ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب .

انتهى الاعتراف والتناول . وعادت كاترينا ايفانوفنا الى قرب الديوان . وتنحى الكاهن . ولكنه اعتقد أن من واجبه أن يوجّه الى كاترينا ايفانوفنا بضع كلمات تواسيها وتقوى عزيمتها . فقاطعته كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهى تشير الى الأولاد :

— وهؤلاء ، أين أضعهم الآن ؟

فقال الكاهن :

— اللّه رحيم . أمِّلى فى عون الرب !

— هو رحيم ولا شك ، لكنه ليس رحيماً بنا نحن .

قال الكاهن وهو يهز رأسه :

— هذا اثم يا سيدتى ، هذا اثم !

فصرخت كاترينا ايفانوفنا مشيرة الى المحتضر :

— وهذا ، أليس اثماً ؟

— لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير ارادة منهم ، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل . . .

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول بشراسة وهى تلوّح بيدها :

— أنت لا تفهم ! لماذا عساهم يدفعون لى تعويضاً ؟ ان هذا السكّير هو الذى ألقى بنفسه بين حوافر الخيل ! ثم ما كلامك هذا عن مواردى ! انه لم يمدنى بأية موارد فى يوم من الأيام ! انه لم يهيئ لى الا أنواع العذاب ! هذا كل ما أمدنى به ! لقد كان سكيراً ، سكيراً ، ما وصل الى يده شىء الا سارع يشرب به خمراً ؛ كان ينهبنا نهباً ، كان يذهب الى الحانات يتلف فيها حياتهم وحياتى ! سيموت الآن ، الحمد لله ، وسيحمل موته توفيراً واقتصاداً !

— على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر ، فى ساعة الموت ! ان الشعور بمثل هذه العواطف اثم يا سيدتى ، اثم كبير !

كانت كاترينا ايفانوفنا ما تزال منهمكةً حول المحتضر ، تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم وتعدّل وضع الوسادة تحت رأسه ؛ فهى تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها ملتفتة اليه احياناً . ولكنها الآن أخذت تقول له على حين فجأة حانقة غاضبة ، وقد خرجت عن طورها :

— آه يا أبى ! ما هذا كله الا كلام ، كلام لا أكثر ! العفو والصفح والمغفرة ! هه ! لو لم يقع له هذا الحادث ، لرجع الى البيت فى هذا المساء سكران ؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذى يلبسه ، لكان علىّ أنا أثناء غطيطه فى النوم أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد ؛ ولكان علىّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة ، حتى اذا طلع الفجر أخذت أعمل فى الترقيع ! على هذا النحو كنت سأقضى الليل ! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة

اذن ؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان !

واعترتها نوبة سعال شديدة فاضطرت أن تنقطع عن الكلام . وبصقت فى منديلها ومدته تحت عينى الكاهن ضاغطةً صدرها بيدها الأخرى . كان المنديل مبللاً بالدم .

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً .

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحوّل عينيه عن وجه كاترينا ايفانوفنا التى مالت عليه من جديد . كان يريد أن يقول لها شيئاً ما . حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة ، متمتماً ببضع كلمات مبهمة غير متميزة ، ولكن كاترينا ايفانوفنا ، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة آمرة :

— اسكت ! اسكت ! لا داعى ! أعرف ما تريد أن تقول !

فصمت الجريح . ولكن بصره التائه سقط فى تلك اللحظة على الباب ، فلمح صونيا . لم يكن قد لاحظها قبل ذلك : كانت صونيا قد لبثت فى الجزء المظلم من الغرفة .

— من هذه ؟ من هذه ؟

كذلك ثائثاً يسأل فجأةً بصوت أبحّ لاهث ، وهو يحاول أن ينهض ، ويومئ بعينيه مرتاعاً الى الباب الذى كانت ابنته ما تزال واقفةً عنده .

فصرخت كاترينا ايفانوفنا تقول له :

— ابق راقداً ! ابق راقداً !

ولكنه استطاع بجهد خارق أن يُنهض جسمه مستنداً بيده الى الديوان . فحدّق الى ابنته برهةً من الوقت بنظرة

غريبة ، كأنه لم يتعرفها . ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزى الغريب . ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأة . كانت مُذلةً منهارةً فى ملابسها المبهرجة تحس بالخزى والعار ، وهى تنتظر فى رفق ووداعة ، وفى اذعان وتسليم ، أن يجىء دورها لتوديع أبيها المحتضر . ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له ، وعذاب ليس له حدود . وصرخ يقول :

— صونيا ، ابنتى ، اغفرى لى !

وأراد أن يمد اليها يده ، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتكئ على شىء ، فتدحرج عن الديوان منكبّ الوجه على الأرض . أسرعوا ينهضونه ، وعادوا يُرقدونه على السرير . ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه . أطلقت صونيا صرخة ضعيفة ، وهرعت اليه ، وعانقته طويلاً ، فمات بين ذراعيها .

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول وهى ترى جثة زوجها :

— نال ما كان يسعى اليه . ولكن ما العمل الآن ؟ أين لى بالمال أنفقه على دفنه ؟ وهؤلاء ، هؤلاء ، من أين أطعمهم غداً ؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترينا ايفانوفنا . وبدأ يتكلم فقال :

— كاترينا ايفانوفنا ! فى الأسبوع الماضى روى لى زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً . . . ثقى أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام عظيم . وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذى عرفت فيه مدى اخلاصه لكم جميعاً ، ومدى ما يحمله لك خاصةً يا كاترينا ايفانوفنا من حب وتقدير ، رغم آفته الشقية ، آفة الادمان على الشراب . . . فاسمحى الآن اذن . . . اسمحى لى أن أساهم . . . أن أقوم بآخر واجباتى

نحو صديقى المتوفى . خذى هذا المبلغ . . . أظن أنه عشرون روبلاً . . . فاذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً ، فاننى . . . لكننى سأعود اليكم ، سأعود اليكم حتماً ، وقد أعود من الغد . . . استودعكم الله !

قال ذلك وغادر الغرفة متعجلاً ، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذى علم بنبأ الحادث ، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الاجراءات الضرورية . لم يكونا قد التقيا منذ وقع ذلك المشهد فى قسم الشرطة ، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة . قال :

— هه ! هذا أنت ؟

قال راسكولنيكوف :

— مات ! ولقد جاء الطبيب ، وجاء الكاهن ، وتمّ كل شىء كما يجب أن يتم . لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية . حسبها انها مصدورة . واسها واشدد أزرها ان أمكن . . .

ثم أضاف يقول ساخراً ، وهو يرمقه بنظرة ثابتة :

— أنا أعرف أنك رجل طيب القلب .

لاحظ نيكوديم فومتش ، فى ضوء المصباح ، لاحظ بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف ، فقال ينبهه :

— ولكنك . . . ملطخ بالدم !

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة ذات دلالة :

— نعم ، تلطخت . . . انا كلى ملطخ بالدم .

ثم ابتسم ، وحيّاه بحركة من رأسه ، وأخذ يهبط السلّم .

كان ينزل ببطء ، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى . ان موجةً كبيرة من الاحساس الجديد الشديد بالحياة الفياضة تغمر نفسه الآن ، على غير شعور منه . يمكن أن يشبَّه هذا الاحساس بالاحساس الذى يشعر به رجل محكوم عليه بالاعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار بالعفو عنه . فلما وصل الى منتصف السلَّم أدركه الكاهن الذى ذهب الى بيته . تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور ، وبادله تحيةً صامتة . ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة . كان واضحاً أن هناك من يحاول أن يلحق به . انها بولينكا . كانت تركض وراءه وهى تناديه صائحة : «اسمع ! اسمع !»

التفت راسكولنيكوف . كانت الصبية قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة ، وها هى ذى الآن تقف أمامه على الدرجة التى تعلو درجته . ان نوراً ضئيلاً كان يتسلل من الفناء الى ذلك المكان . ميَّز راسكولنيكوف الوجه الذى كان ينظر اليه ويبتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال . انه وجه صغير هزيل ، ولكنه لطيف . لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحاً أنها تسرها كثيراً .

سألته متعجلةً بصوت لاهث :

— اسمع ! ما اسمك ؟ وأين تسكن ؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفى الطفلة ، ونظر اليها بنوع من الفرح . لقد وجد فى النظر اليها متعةً كبيرة دون أن يعرف لماذا .

سألها :

— من أرسلك ؟

فأجابته وهى تبتسم بمزيد من الفرح :

— اختى صونيا هى التى أرسلتنى .

— قدَّرت ذلك .

— وأمى أيضاً . فحين سألتنى صونيا أن أجرى وراءك ، اقتربت أمى فقالت لى هى أيضاً : «نعم ، اركضى وراءه بسرعة يا بولينكا» .

— هل تحبين أختك صونيا ؟

— أكثر مما أحب أى أحد فى العالم !

قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح فى ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة .

سألها :

— وأنا ، هل ستحبيننى ؟

فلم تزد الصبية ، فى الجواب عن هذا السؤال ، على أن قرَّبت وجهها من وجهه ، ومدَّت اليه شفتيها الممتلئتين البريئتين ، بسذاجة ، لتقبِّله ، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين ، النحيلتين كعودى ثقاب ، عناقاً قوياً ، ومالت برأسها على كتفه ، وأخذت تبكى بكاءً رفيقاً ، وألصقت وجهها على كتفه مزيداً من الالطاء شيئاً بعد شىء . وقالت بعد دقيقة وهى ترفع وجهها الذى احتفظ بآثار الدموع والذى أخذت تمسحه بظهر يدها :

— مسكين بابا !

ثم أضافت تقول فجأة ، وهى تصطنع هيئة الجد التى يصطنعها الأطفال حين يريدون بغتةً أن يتكلموا «كما يتكلم الكبار» :

— ما أكثر المصائب التى تحل بنا !

— وأبوك ، هل كان يحبك ؟

فتابعت كلامها تقول جادةً دون ابتسام ، كشخص كبير تماماً فى هذه المرة :

— من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً . كان يحبها لأنها صغيرة جداً ، ولأنها مريضة أيضاً . وكان يجيئها دائماً بهدايا صغيرة . ونحن ، كان يعلمنا القراءة .

وأضافت تقول بوقار :

— أنا ، كان يعلمنى قواعد اللغة ، والدين . وكانت أمى لا تقول شيئاً ، ولكننا كنا نعرف أنها تسرُّ بذلك ، وكان بابا يعرف هذا أيضاً . وماما تريد الآن أن تعلمنى اللغة الفرنسية ، لأنه آن الأوان لأن أتعلم . . .

— وهل تجيدين الصلاة ؟

— طبعاً نجيد الصلاة . أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة ! أنا أصلى ، فى سرى ، لأننى كبيرة . أما كوليا وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عال ، مع ماما . يرتلان أولاً : «سلام عليك يا مريم . . .» ، ثم يتلوان دعاءً آخر : «اغفر لاختنا صونيا يا رب ، وباركها !» . ويتلون بعد ذلك دعاءً آخر : «اغفر لأبينا الآخر يا رب ، وباركه !» . ذلك أن أبانا الأول مات . أما هذا فهو أبونا الثانى . لذلك ندعو للأول أيضاً .

— بولينكا ! اسمى أنا رودیون . فادعوا لى أنا أيضاً فى بعض الأحيان . أضيفوا فى صلاتكم : «ولرودیون عبد الربّ» ، لا أكثر من ذلك .

قالت الصبية بحماسة وحرارة :

— طول حياتى ، سأدعو لك !

ثم أخذت تضحك فجأة ، واندفعت اليه فعانقته بذراعيها عناقاً قويا .

ذكر لها راسكولنيكوف اسمه ، وذكر لها عنوانه ، ووعد بأن يجىء اليهم من الغد . فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها بالاعجاب به . كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين أصبح راسكولنيكوف فى الشارع . وبعد خمس دقائق وصل الى الجسر ، الى ذلك الموضع نفسه الذى ألقت فيه المرأة بنفسها فى الماء .

قال لنفسه بلهجة جازمة احتفالية : «كفى ! تراجعى يا أنواع السراب ! الى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية ! تقهقرى ايتها الأطياف ! الحياة موجودة ! ألست حياً فى الساعة التى أنا فيها ؟ ان حياتى لم تمت بموت المرأة العجوز ! لا ! ان ملكوتها الآن هو ملكوت السموات ! كفاك ايتها المرأة العجوز ! آن لك أن تدعى العالم هادئاً ! أما ملكوتى أنا فهو ملكوت العقل والضياء . . . و . . . القوة . . . والارادة . . . وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن !» . كذلك أضاف متغطرساً ، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوة غامضةً ما .

وتابع يكلم نفسه فقال : «كيف رضيت أن أحيا على حيزٍّ ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطئ قدم ؟ . . . أنا الآن ضعيف جداً ، ولكن . . . أعتقد أن مرضى قد انتهى . . . وحين خرجت منذ برهة ، كنت أعلم حق العلم أنه سينتهى . بالمناسبة : ان عمارة بوتشنكوف على مسافة خطوتين من هنا . سأذهب حتماً الى بيت رازوميخين . . . نعم ، سأذهب اليه حتى ولو كان لا يقيم فى منزل قريب هذا القرب كله . ألا فليكسب الرهان !

ألا فليسخر منى ! أى ضير فى هذا ؟ ان ما أنا فى حاجة اليه هو القوة ، القوة . بغير القوة لا يصل المرء الى شىء . والقوة لا تُنال الا بالقوة . هذا ما لا يعرفونه !» كذلك أضاف يقول بزهو وكبرياء وثقة . وغادر الجسر بخطى بطيئة . فكانت الكبرياء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقيقة جديدة ، وكلما انقضت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر . فما الذى حدث اذن حتى تحقق فى نفسه هذا التحول ؟ كان هو نفسه يجهل ذلك . انه ، كالغريق الذى يتعلق بقشة ، يتصور أنه «يستطيع أن يحيا ، وأن الحياة ما تزال موجودة ، وأن حياته هو لم تمت بموت المرأة العجوز» . ولعله أسرف فى التعجل حين انتهى الى هذه النتيجة ، ولكن ذلك لم يخطر له ببال .

قال لنفسه فجأة : «ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات لرودیون عبد الرب !» ولكنه لم يلبث أن أضاف : «كان هذا من باب الاحتياط على كل حال !» وأسرع يضحك من فعلته الصبيانية . لقد كان مزاجه مشرقاً اشراقاً رائعاً !

اهتدى الى مسكن رازوميخين بسهولة : كان المستأجر الجديد معروفاً فى عمارة بوتشنكوف ، ودلَّه البواب على الطريق فوراً . فما ان وصل الى منتصف السلَّم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير . كان الباب المطل على السلَّم مفتوحاً على كل سعته . فكان يُسمع صراخ ونقاش . ان غرفة رازوميخين واسعة سعةً كافية ، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً . توقف راسكولنيكوف فى ردهة المدخل ، ووراء الحاجز ، كانت خادمتان ، مستعارتان من صاحبة البيت ، منهمكتين حول سماورين كبيرين ، وكانتا تهتمان

كذلك بزجاجات وصحون وأطباق مثقلة بفطائر ومشهيّات . والصحون والأطباق مستعارة من صاحبة البيت أيضاً . سأل راسكولنيكوف عن رازوميخين ، فهرع اليه رازوميخين مسروراً مفتوناً . ان المرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف فى الشراب ؛ ورغم أنه فى العادة لا يمعن فى الشراب الى حدّ السكر ، فان مظهره الآن لا يخطئه الظن .

قال راسكولنيكوف بسرعة :

— اسمع ! أنا لم أجئ الا لأقول لك انك كسبت الرهان ، وانه ما من انسان يستطيع فى الواقع أن يحزر ما قد يقع له . . . ولكننى لا أستطيع أن أدخل . . . انا ضعيف الى حد اننى قد أقع أرضاً . . . لذلك أقول لك : السلام عليكم والى اللقاء . تعال الىَّ غداً .

— اسمع ، سأصحبك ، ما دمت تقول أنت نفسك انك تبلغ من الضعف أنك . . .

— وضيوفك ؟ قل لى : مَنْ ذلك الرجل المجعَّد شعره الذى ألقى الآن نظره علينا ؟

— ذاك ؟ الشيطان وحده يعلم من هو ! لا شك أنه رجل له بعمى علاقة ، أو أنه دعا نفسه بنفسه ! . . سأترك الضيوف مع عمى ! ان عمى رجل رائع ! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تتعرف الى عمى ! شيطان يأخذهم جميعاً ! ثم انهم فى هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن يفطنوا الىَّ ! وما أحوجنى الى استنشاق الهواء ! يا عزيزى ، لقد جئت فى الأوان المناسب . فلو تأخرتَ دقيقتين لأخذت أتضارب معهم ! قسما بالرب ! ليتك سمعت ما كانوا يقولون من حماقات ! ليس فى وسعك

أن تتصور مدى الأكاذيب التى يستطيع فرد أن يقولها ! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك . لم لا ؟ هل نحن أنفسنا لا نكذب ؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال ! . . ولكن لا بد أن يأتى يوم سينقطعون فيه عن الأكاذيب ! . . اجلس لحظةً ، سأنادى زوسيموف .

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة ، وظهر عليه استطلاع قوى وفضول غريب ، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء .

قال جازما بعد أن فحص المريض كيفما اتفق :

— عليك أن تنام حالاً . وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً قبل أن تنام . ابلع هذه الحبة ، هه ؟ لقد حضَّرتها منذ قليل .

أجابه راسكولنيكوف :

— لأبلعنَّ حبتين اذا لزم الأمر !

وبلع الدواء حالاً .

وقال زوسيموف لرازوميخين :

— انك لعلى صواب حقاً اذ تريد أن تصحبه . ما سيحدث غداً ، سنراه فى حينه ؛ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً . لقد تبدل تبدلاً واضحاً عما كان عليه قبل قليل . ان الانسان يتعلم فى كل يوم أموراً جديدة .

قال رازوميخين لراسكولنيكوف منذ صارا فى الشارع :

— هل تعلم بماذا همس زوسيموف فى أذنى لحظة خرجنا ؟ يا صاحبى ، سأكلمك بصراحة ، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء . لقد طلب منى زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق ، حتى تثرثر أنت أيضاً ، ثم أمضى أقصُّ عليه

فوراً كل ما تكون قد قلته . . . ذلك انه قد قام فى ذهنه أنك . . . أنك مجنون . . . أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً . هل تتخيل هذا ؟ أنا أرى أولاً أنك أذكى منه ثلاثة أضعاف ؛ وأرى ثانياً أنك اذا لم تكن مجنوناً فلن تكترث بما قد يقوم فى ذهنه ؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التى هى طبيب جراح ، قد أصبحت لا تُعنى الا بالأمراض العقلية ، فاقتنعت بعد حديثك مع زاميوتوف بأنك . . .

— هل روى لك زاميوتوف كل شىء ؟

— كل شىء . ولقد أحسن صنعاً . ان هذا أفهمنى القضية كلها ، وقد فهمها زاميوتوف هو أيضاً . الخلاصة يا روديا . . . الواقع أن . . . حقاً انا الآن سكران قليلاً ، ولكن لا ضير . . . الواقع أن هذه الفكرة . . . هل تفهم ؟ . . قد ترسخت فى أذهانهم ، هل تفهم ؟ لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحةً ، لأن الأمر سخيف حقاً ، ولا سيما بعد أن اعتقلوا الدهَّان . نعم لقد تبدد كل شىء الى الأبد كفقاعة صابون . ولكن لماذا هم أغبياء الى هذه الدرجة من الغباء ؟ لقد ضربت زاميوتوف قليلاً . ولكن هذا سر بيننا . أنت لا تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ ذلك أننى لاحظت أنه أنوف . . . حدث هذا كله عند لويزا . أما الآن فقد اتضح كل شىء . والحق أن المذنب الرئيسى انما كان ايليا بتروفتش . لقد استغل حادثة اغمائك فى قسم الشرطة ، ثم خجل هو نفسه مما ذهب اليه ظنه . أنا أعلم كل شىء .

كان راسكولنيكوف يصغى بشراهة . وقد أفاض رازوميخين فى الكلام بتأثير السكر .

قال راسكولنيكوف :

— انما أغمى علىَّ لأن الجو كان خانقاً ومليئاً برائحة الدهان .

— عجيب أمرك ! ما بالك تشعر أنك فى حاجة الى تبرير ! لم تكن رائحة الدهان وحدها هى السبب ، فانما أنت تحضن المرض منذ شهر . ان زوسيموف يشهد بهذا . لا تستطيع أن تتخيل مدى ما يشعر به هذا الغر ، زاميوتوف ، من خجل واضطراب . لقد قال : «اننى لا أساوى اصبع هذا الرجل» ، يعنى اصبعك أنت . أنه يبرهن أحيانا يا أخى على أن له عواطف طيبة كريمة . ولكن الدرس الذى تلقاه اليوم فى «قصر الكريستال» قد بلغ منتهى الكمال . ذلك أنك أخذت فى أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد ! ثم كدت تجبره اجباراً على أن يصدِّق ذلك الأمر السخيف المستحيل . . . ثم اذا بك تمدُّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة ! . . يا سلام ! نعم ، بلغ ذلك منتهى الكمال ! ظل الرجل محطماً مسحوقاً . يميناً انك لأستاذ ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به . آه . . خسارة أننى لم أكن هناك ! هل تعلم ؟ لقد كان زاميوتوف ينتظرك عندى محترقاً من نفاد الصبر . وكان بورفيرى أيضاً يود لو يتعرف اليك . . .

— آ . . أذلك الرجل أيضاً ؟ . . ولماذا يعدوننى مجنوناً ؟

— أقصد . . لا مجنوناً تماماً ! أظن يا صاحبى أننى أسرفت فى الثرثرة بعض الاسراف . . . ان ما خطف انتباهه هو أنك لا تهتم الا بهذا الأمر . هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به . هم الآن يعرفون الظروف ، يعرفون أن ذلك

كله قد اختلط بمرضك فأثارك . أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبى . ولكن له فكرة ما لا يعلمها الا الشيطان . أعود فأقول لك : ان الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله . أما أنت فما عليك الا أن تبصق على هذا كله . . .

وصمت الاثنان نصف دقيقة .

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال :

— اسمع يا رازوميخين ، أريد أن أكلمك بصراحة . أنا آت الآن من بيت رجل مات . ان موظفاً قد مات . . . وقد تركت هناك كل ما بقى لى من مال . . . هذا الى أننى قد قبَّلتني منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان فى وسعها مع ذلك أن . . . الخلاصة . . . رأيت هنالك مخلوقة أخرى . . . على قبعتها ريشة حمراء . . . ولكننى أرى أننى أهذر وأهذى . . . اننى ضعيف جداً . . . اسندنى . . . هناك السلَّم . . . .

سأله رازوميخين قلقاً :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

— رأسى يدور قليلاً ، ولكن ليس هذا هو الأمر . . . وانما الأمر أننى حزين جداً ، حزين جداً ! كامرأة . . . حقاً . . . انظر ! ما هذا ؟ انظر ! انظر ! . .

— ماذا ؟

— ألا ترى ؟ ان فى غرفتى ضوءاً . نعم ، اننى أرى الضوء من خلال الشق . . .

كانا قد وصلا من السلَّم الى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة ، أمام باب صاحبة البيت ؛ ومن هناك كان يُرى ضوء فى غرفة راسكولنيكوف فعلاً .

قال رازوميخين :

— غريب ! لعلها ناستاسيا .

— ناستاسيا لا تجيء الىَّ أبداً فى مثل هذه الساعة ، ثم انها نائمة منذ مدة طويلة . . . على أن هذا كله يستوى عندى . . . استودعك الله !

— ما هذا الذى تقوله ؟ لا بد لى أن أصحبك طبعاً ! سندخل معاً !

— أعرف أننا سندخل معاً ، ولكننى أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا . هلمَّ هات يدك وودعنى !

— ماذا دهاك يا روديا ؟

— لا شيء . هيَّا ، ستكون شاهداً .

واستمرا يصعدان السلَّم ، وخطر ببال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق ، فدمدم يقول بينه وبين نفسه : «يا للأسف ! أثرت فى نفسه الاضطراب بثرثرتى» وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام فى الغرفة . هتف رازوميخين يسأل :

— ولكن ماذا يجرى هنا ؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سعته كلها . فتحه ووقف مسمَّراً على العتبة .

كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة ، جالستين على الديوان . تُرى لماذا كان يتوقع هذا اقلَّ مما كان يتوقع أى شيء آخر ؟ لماذا خطرتا بباله أقلَّ مما خطر بباله أى انسان آخر ، مع أنه فى ذلك اليوم نفسه تلقى رسالةً تؤكد أن وصولهما قريب ، وشيك ؟ لقد لبثا طوال مدة الانتظار لا يكفان عن مساءلة ناستاسيا التى كانت ما

تزال فى الغرفة أمامهما ، فاتسع وقتها لأن تروى لهما كل شيء عن راسكولنيكوف . ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا «أنه هرب اليوم من البيت» مريضاً ، وأنه كان يهذى ، على ما يخرج من القصة التى روتها ناستاسيا . «ماذا جرى له يا رب ؟» . ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التى دامت ساعةً ونصف ساعة .

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلتاه بصيحات فرح وحماسة ، واندفعتا كلتاهما نحوه ، ولكن راسكولنيكوف لبث جامداً كجثة . ان فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذ نزول الصاعقة ؛ حتى ان ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما ، فانه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك . شدَّته الأم والأخت الى صدريهما ، وأغرقتاه بالقبل ، وكانتا تضحكان وتبكيان فى آن واحد . فتقدم خطوة ، وترنح ، ثم هوى على الأرض مغشياً عليه .

انطلقت صيحات الرعب ، وأنات الخوف . . . وكان رازوميخين قد لبث على عتبة الباب ، فهرع الى الغرفة ، وامسك المريض بذراعيه القويتين ، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعةً .

وصاح رازوميخين يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً :

— ما هذا بشيء ، ما هذا بشيء ! ليس هذا الا اغماءً تافهاً لا قيمة له . لقد قال الطبيب منذ هنيهة ان صحته قد تحسنت كثيراً ، وانه شفى شفاءً تاماً . . . اليه بقليل من الماء ! ها . . . ها هو ذا يسترد وعيه ، ها هو ذا يستعيد شعوره !

ثم أمسك يد دونيا امساكاً قوياً كاد يهشمها ، ليجبرها

على أن تميل على أخيها فترى أنه «استعاد شعوره» . كانت الأم والأخت تنظران الى رازوميخين نظرتهما الى اله ، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد . كانتا قد عرفتا من ناستاسيا ما فعله هذا «الشاب الهمام» فى سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه ، كما نعتته بهذه الصفة بولخيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا ، فى ذلك المساء نفسه ، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا .

الجزء الثالث

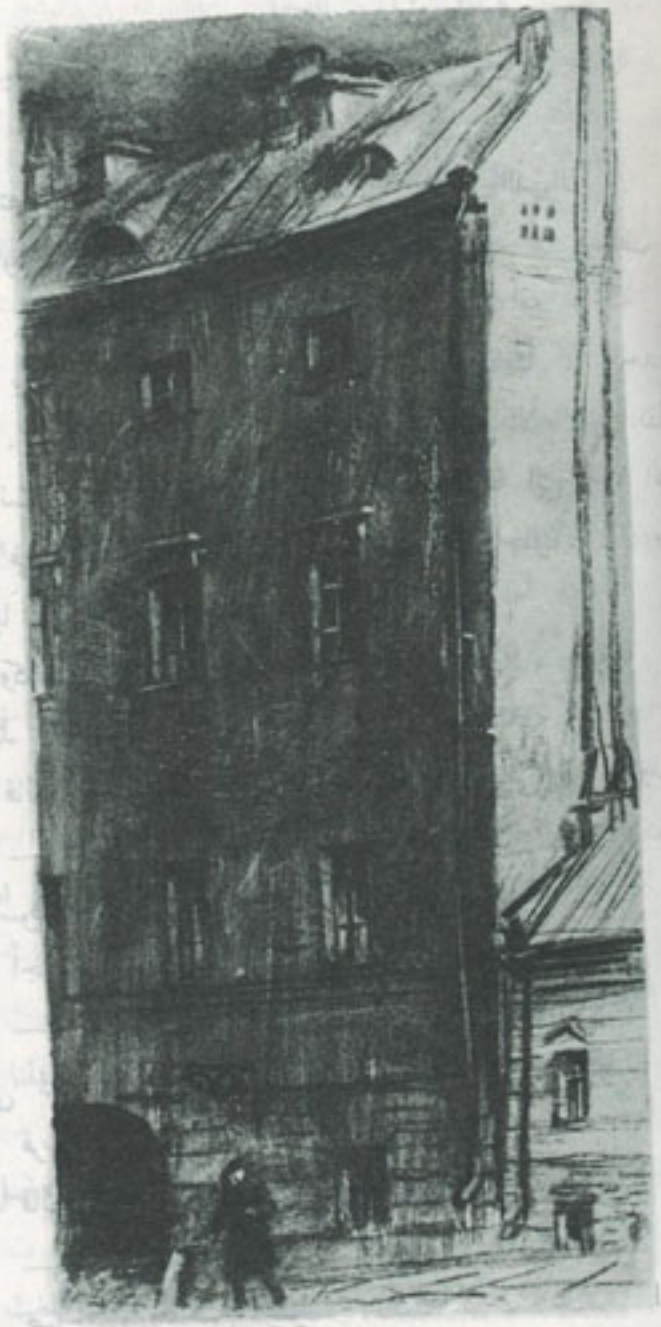

الفصل الأول

انتصب راسكولنيكوف وجلس على الديوان .

وأوماً ايماءةً خفيفة يهيب برازوميخين أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذى كان يغمر به أمه وأخته ، ثم أمسك بيديهما كلتيهما ، وراح يتأملهما صامتاً ، واحدة بعد أخرى ، خلال دقيقة أو دقيقتين . خافت الأم من نظرته ، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة الى حد الألم ، وكانت فى الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون . . . وأخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكى .

وكانت آفدوتيا رومانوفنا شاحبة الوجه ، يدها ترتجف فى يد أخيها .

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومئ الى رازوميخين :

— عودا الى بيتكما . . . معه ! الى الغد . كل شىء غدا سوف . . . هل وصلتما منذ مدة طويلة ؟

أجابت بولخيريا الكسندروفنا :

— هذا المساء يا روديا . لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً ! ولكننى لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا . سأقضى الليل قرب . . .

قال وهو يحرك يده باشارة اهتياج وغيظ :

— لا تعذبونى هذا التعذيب !

صاح رازوميخين يقول :

— سأبقى بقربه ! لن أتركه دقيقةً واحدة . ليذهب ضيوفى الى الشيطان ! ألا فليغضبوا اذا حلا لهم أن يغضبوا ! ثم ان عمى هناك يترأس الحفل . . .

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهى تصافح رازوميخين من جديد :

— أنّى لى أن أوفيك حقك من الشكر !

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرةً أخرى ، وقال مردداً فى غضب :

— لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا تعذبونى ! كفى هذا ! اذهبوا . . . لا أستطيع ! . .

دمدمت دونيا تقول مرتاعةً :

— لنذهب يا ماما ، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظةً قصيرة . ان لم نخرج فسنقتله . . . هذا أكيد . . .

فهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول باكيةً :

— ألا يجوز لى اذن أن أنظر اليه قليلاً بعد فراق دام ثلاث سنين ؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— انتظروا . . . أنتم تقاطعوننى دائماً . . . وقد اضطربت أفكارى واختلطت . . . هل رأيتما لوجين ؟

قالت الأم :

— لا ، يا روديا ، ولكنه يعرف أننا وصلنا .

ثم أضافت تقول بوجل :

— وقد عرفنا يا روديا أن بيوتر بتروفتش قد تفضل فزارك فى هذا اليوم .

— نعم . . . تفضّل ! . . يا دونيا لقد أبلغت لوجين

أننى سأدحرجه الى أسفل السلّم اذا هو جاء اليّ مرة أخرى . وأرسلته الى الشيطان .

— رودِيا ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ لا شك انك لا تريد . . . مع ذلك . . . أن تقول ان . . .

كذلك بدأت تقول بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة ، ولكنها نظرت الى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت .

كانت آفدوتيا رومانوفنا تحدّق الى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة . وكانت المرأتان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا ، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تدركها وعلى أن تصوِّرها ، فكانتا لذلك فى حيرة شديدة واضطراب قوى .

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة :

— دونيا ، أنا لا أريد هذا الزواج . لذلك يجب عليك أن تعلنى له رفضك من الغد . لا أحب أن أراه بعد الآن !

صاحت بولخيريا الكسندروفنا :

— رباه !

وبدأت آفدوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع :

— هلّا فكرت قليلاً فيما تطلبه منى يا أخى ! . .

ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها ، فأضافت تقول برفق وهدوء ولين :

— قد لا تكون صحتك الآن حسنة . . . أنت متعب !

— أأنا أهذى اذن ؟ لا ، أنا لا أهذى ! انك تريدين أن تتزوجى لوجين فى سبيلى أنا ! ولكننى أنا أرفض هذه التضحيات . لذلك ستكتبين له اليوم رسالة قطيعة . وسأقرأ الرسالة فى الصباح ، وينتهى كل شيء .

هتفت الفتاة تقول مستنكرة :

— لا أستطيع أن أفعل هذا . وبأى حق . . .

فقاطعتها الأم مرتاعة وهى تندفع اليها :

— أنتِ أيضاً سريعة الغضب يا دونيتشكا . . كفى الآن . . . غداً . . . ألست ترين اذن أنه . . . آه . . . والأفضل أن ننصرف أيضاً !

وصاح رازوميخين الثمل يقول :

— انه يهذى ! والا فهل كان يجرؤ أن . . . لسوف تخرج من رأسه هذه الحماقات كلها غداً . لقد طرده اليوم فعلاً . هذا صحيح . وغضب الآخر طبعاً . كان يفيض فى الكلام هنا ، ويعرض علمه ومعرفته . لكنه خرج مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه . . .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول :

— أصحيح اذن ؟

وقالت دونيا وقد امتلأ قلبها شفقة ورحمة :

— الى الغد يا أخى . هلمى يا أمى ! أستودعك الله يا روديا !

كرر راسكولنيكوف يقول مستجمعاً آخر قواه :

— اسمعى يا أختى ! أنا لا أهذى . ليس هذا صحيحاً . ان هذا الزواج دناءة ! لنفرض أننى أحط انسان . ولكن يجب عليك أنت أن لا . . . انه يكفى أن يكون واحد منا . . . ثم اننى على كونى أحطّ انسان ، لن أعدَّك أختى اذا أنت . . . فاما لوجين واما أنا ! وانصرفوا الآن !

زأر رازوميخين يقول :

— ولكنك جُننت ! يا لك من طاغية مستبد !

لم يجب راسكولنيكوف ، ربما لأنه كان لا يملك من القوة ما يمكنه من الكلام . وعاد يرقد على الديوان ، واستدار الى جهة الحائط ، مهدود القوى تماماً . نظرت آفدوتيا رومانوفنا مستطلعة الى رازوميخين . كانت عيناها السوداوان تسطعان . حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه النظرة . ولبثت بولخيريا الكسندروفنا جامدةً مذهولة . وهمست تقول لرازوميخين يائسة :

— لكننى لن أستطيع أن انصرف بحال من الأحوال . سأبقى هنا ، فى مكان ما . اصحبْ انت دونيا .

فأجابها رازوميخين همساً كذلك ، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره :

— بهذا تفسدين كل شىء . لنخرج الى فسحة السلّم على الأقل . يا ناستاسيا ، هاتى لنا ضوءاً .

حتى اذا صاروا فى السلّم ، تابع كلامه يقول بصوت خافت :

— أحلف لكما أنه كاد يضربنا أنا والطبيب منذ قليل . هل تفهمان ؟ نعم ، كاد يضرب الطبيب نفسه . واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج ، فانصرف ؛ ورغم أننى بقيت أنا تحت ، من أجل أن أحرسه ، فقد استطاع أن يلبس ثيابه . . . وأن يهرب ! فاذا أهجناه الآن وأغضبناه ، فسيهرب ، أو هو سيحاول ، فى وسط الليل ، أن يرتكب عملاً ضدَّ نفسه . . .

— ما هذا الذى تقوله ؟

— ثم ان آفدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضى الليل وحيدةً فى تلك الغرفة المفروشة . هلّا فكرت قليلاً فى المنزل

الذى تنزلونه ! ألم يكن فى وسع ذلك الوغد بيوتر بتروفتش أن يجد لكما مسكناً أليق ؟ على أننى سكران قليلاً ، لذلك شتمت . . . لا تولوا هذا انتباهاً !

قالت بولخيريا الكسندروفنا مصرَّةً :

— اذن سأمضى أتوسل الى صاحبة البيت أن تهب لنا ، أنا ودونيا ، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة . لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال ، لا أستطيع .

كانوا قد هبطوا طابقاً وهم يتكلمون ، فأصبحوا الآن أمام باب صاحبة البيت . وكانت ناستاسيا تتقدمهم درجة فتنير لهم المكان . كان رازوميخين يعانى اندفاعاً خارقاً . انه قبل نصف ساعة ، على افراطه فى الثرثرة أثناء مرافقته راسكولنيكوف الى بيته — كما اعترف هو نفسه بذلك — كان يشعر بأنه صاحٍ تقريباً ، وبأنه ممتلئ نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التى شربها فى السهرة . اما الآن فهو فى حالة نشوة شديدة ، والخمرة تصعد الى رأسه بقوة متزايدة . هو الآن واقف بين السيدتين ، ممسك يديهما ، يحاول بصراحة قوية أن يقنعهما بالحجج التى يعرضها . وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة انما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة ، عند كل كلمة يقولها ، فاذا هو يوجعهما ، بينما عيناه تلتهمان آفدوتيا رومانوفنا التهاماً ، دون أى تحرج . فكانتا من شدة الألم تخلّصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده الضخمة المعروقة ، ولكنه لا ينتبه هو الى هذا ، حتى ليشدهما اليه شداً أقوى . ولو قد طلبتا منه فى تلك اللحظة أن يرمى نفسه من أجلهما الى أسفل السلّم منكّس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد . كانت

بولخيريا الكسندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوى ، وأن يكون تصرفه شاذاً هذا الشذوذ ، ولكنها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها روديا ، ومن انها ترى فى رازوميخين عوناً أرسلته العناية الالهية ، كانت لا تريد ان تعترف لنفسها بهذه التفاصيل . أما آفدوتيا رومانوفنا المتأثرة أيضاً ، فقد كانت ، رغم أنها ليست بالفتاة الوجلة ، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن احساس بالخوف والرعب ، حين يلتقى بصرها بتلك النظرة الملتمعة التى يلقيها عليها صديق أخيها ، غير أن الثقة العظيمة التى اوحى اليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الغريب هى التى كانت تنتزعها من الرغبة فى الهروب منه جارَّةً معها أمها . ثم انها كانت تدرك حق الادراك انهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن . يضاف الى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق : فان رازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة ، أيةً كانت الحالة التى هو فيها ، فاذا بمن يراه يعرف من ذا يعامل .

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولخيريا الكسندروفنا :

ـــ لا مجال للتفكير فى الالتجاء الى صاحبة البيت ! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها . لو بقيت لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه ، ولا يدرى الا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث ! اسمعينى ، اليك ما سأفعله : تبقى ناستاسيا الآن الى جانبه ، وأصحبكما أنا كلتيكما الى بيتكما ، لأنكما لا تستطيعان أن تسيرا وحيدتين هكذا فى الشوارع . عندنا ، فى بطرسبرج ، من هذه الناحية . . . لا بأس . . . فمتى أوصلتكما رجعت الى هنا راكضاً ، فما ان ينقضى على ذلك

ربع ساعة حتى أعود اليكما من جديد لأخبركما بكل شىء : أقول لكما كيف حالته ، وهل نام أم هو لم ينم ، الخ الخ . لكما علىَّ عهد الشرف لأعودنَّ اليكما بعد ربع ساعة . ثم أثب الى بيتى حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى ، فآخذ زوسيموف ـــ ان زوسيموف هو طبيبه ، وهو الآن فى بيتى ولكنه ليس بسكران ، هو لا يسكر أبداً ـــ آخذه وأمضى به الى روديا ، ومن هناك نجىء اليكما فوراً نحن الاثنين ؛ فبذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين فى غضون ساعة ؛ وفى احدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب ، نعم من فم طبيب ، فيكون فيها من الجد ما لا يكون فى الأخبار التى قد أنقلها أنا وحدى بطبيعة الحال . . . فاذا لم يكن روديا بخير اصطحبتكما اليه حتماً ، يميناً لاصطحبنَّكما اليه ان لم يكن بخير . . . أما اذا كانت حالته حسنة ، فلن يكون عليكما عندئذ الا أن ترقدا وتناما . وأنا سأقضى الليلة هنا ، على فسحة السلَّم ؛ ولن يلاحظ هو ذلك . وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت ، فيكون بذلك تحت تصرفى ورهن اشارتى . من ينفعه فى هذا الوقت أكثر ، أأنتما أم الطبيب ؟ الطبيب طبعاً ! فعودا اذن الى بيتكما ! ولا مجال للتفكير فى الالتجاء الى صاحبة البيت . أنا يمكن أن أبيت عندها ، أما أنتما فلا . لن تحب أن تبيتا عندها . . . لأنها امرأة حمقاء . سوف تغار . . . سوف تغار بسبب آفدوتيا رومانوفنا . وبسببك أنتِ أيضاً . . . هذه امرأة غريبة الأطوار جداً . على أننى أنا أيضا غبى ! لا بأس . . . هيا بنا . . . أتثقان بى ؟ أتثقان بى ام لا ؟

قالت آفدوتيا رومانوفنا :

— فلننصرف يا ماما . لا شك فى انه فاعل ما يقول . لقد ردَّ أخى الى الحياة . واذا صحَّ أن الطبيب يقبل أن يقضى الليلة هنا ، فهل نتمنى خيراً من هذا ؟

هتف رازوميخين يقول مفتتناً غاية الافتتان :

— حقا . . . انك لتفهمينى لأنك ملاك ! هيَّا بنا . يا ناستاسيا ، اصعدى أنت الى فوق ، فوراً ، مع النور ، وابقى هناك بالقرب منه ، وسأعود أنا بعد ربع ساعة .

لم تعارضه بولخيريا الكسندروفنا أية معارضة ، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً . وتأبط رازوميخين ذراع السيدتين وجرَّهما على السلَّم . ولكن الأم ظلت قلقة ، فكانت تقول لنفسها : «قد يكون هماماً ونشطاً ، ولكن أهو قادر على أن يفى بوعده ، وهو على هذه الحال ؟»

قال رازوميخين وكأنه حزر مجرى خواطر بولخيريا الكسندروفنا ، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان أن تجارياه الا بمشقة كبيرة ، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال ، قال :

— آ . . . أنا أفهم ! انك تقدِّرين أننى فى الحالة التى أنا فيها ، لا . . . يعنى . . . أنا سكران ، سكران تماماً ، ولكن ليست هذه هى المسألة . ليست الخمرة هى التى أسكرتنى . . . فالضربة التى سقطت على رأسى انما سقطت على رأسى حين رأيتكما ! على كل حال ، لا تكترثا لهذا ! أنا لا شىء ! أنا أهذى ، أنا لست جديراً بكما ، لست جديراً بكما البتة . . . وما ان أوصلكما ، حتى أذهب الى القناة ، فأصب على رأسى جردلين من الماء فأفيق فوراً . ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما ! لا تضحكا ! لا تزعلا !

ازعلا من جميع الناس ، ولكن لا تزعلا منى أنا ! أنا صديقه ، فأنا اذن صديقكما . ذلك ما أريد أن يكون ! ولقد أوجست هذا منذ السنة الماضية . . . نعم ، فى لحظة ما ، هكذا . . . على اننى لم أوجس شيئاً البتة ، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما علىَّ من السماء . من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل . كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجنَّ روديا . لذلك يجب تحاشى اهاجته .

هتفت الأم تسأله :

— ما هذا الذى تقوله ؟

وسألته آفدوتيا رومانوفنا مروَّعةً :

— حقاً ؟ الطبيب نفسه قال لك ؟

— قال لى ! ولكن كلامه ليس صحيحاً ، ليس صحيحاً على الاطلاق . لقد أعطى له دواء ، رأيت هذا المسحوق ولكنكما وصلتما . . . آه . . . كان من الأفضل أن لا تصلا الا غداً ! على كل حال ، لقد احسنا صنعاً اذ انصرفنا . وبعد ساعة سيأتيكم زوسيموف بتقرير كامل . ليس زوسيموف سكران مثلى ، ليس هو سكران . وأنا لن أكون سكران أيضاً ! . . . لماذا شربت حتى ثملت ؟ لماذا ؟ لأنهم جرُّونى الى مناقشتهم ، أولئك الملاعين ! وكنت مع ذلك قد آليت على نفسى أن لا أناقش . وما أسخف ما كانوا يقولونه ! كدت أن أقتتل معهم ! وتركت عمى يترأس بدلاً منى . هل تصدقان ؟ انهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل شىء . . . يقولون ان على المرء أن لا يكون عين نفسه . ويسمُّون هذا ذروة التقدم . ويا ليت السخافات التى قالوها كان فيها شىء من أصالة وطرافة . أبداً . . .

قالت بولخيريا الكسندروفنا خجلةً وجلة :

— اسمع . . .

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده الا اندفاعاً وحماسة . فصاح يقول بصوت أعلى :

— أية خواطر جاءت فى بالك ؟ . . . أنت تقدرين أننى بسبب هذرهم وهذيانهم وأكاذيبهم . . . أبداً ! أنا أحب الهذر والهذيان والأكاذيب . ان الكذب هو الميزة الوحيدة التى يمتاز بها الكائن الانسانى على سائر الكائنات الحية . من يكذب يصل الى الحقيقة . أنا انسان لأننى أكذب . ما وصل امرؤ الى حقيقة واحدة الا بعد أن كذب أربع عشرة مرة ولربما مائة وأربع عشرة مرة ! وهذا فى ذاته ليس فيه ما يعيب . ولكننا نحن لا نعرف كيف نكذب بطريقتنا الخاصة . لك أن تقول آراء جنونية ، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت ، فأغمرك بالقبل . لأن يكذب المرء بطريقته الشخصية ، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لقّنه اياها غيره . أنت فى الحالة الأولى انسان ، أما فى الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر . الحقيقة لا تطير ، أما الحياة فيمكن خنقها . لقد رئى هذا . الى أين وصلنا من هذا الآن ؟ نحن جميعاً ، بغير استثناء ، سواء فى ميدان العلم ، أو الثقافة ، أو الفكر ، أو العبقرية الخالقة ، أو المثل الأعلى ، أو الرغبات ، أو اللبرالية ، أو العقل ، أو التجربة ، نحن فى كل شىء ، فى كل شىء ، فى كل شىء ، نعم ، فى كل شىء ، ما زلنا فى الصفوف الاعدادية لدخول المدرسة الثانوية ! نحب أن نعيش على حساب عقل وأفكار الآخرين ، وتعودنا على ذلك ! أليس هذا صحيحاً ؟ أليس الأمر كما أقول ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟

كذلك قال رازوميخين وهو يهزُّ يدى السيدتين ويضغطهما . فأجابت المسكينة بولخيريا الكسندروفنا تقول :

— والله . . . لا أعلم !

وأضافت آفدوتيا رومانوفنا قائلة بلهجة الجد :

— نعم ، هو هذا ، هو هذا ، رغم أننى لا أوافقك على جميع النقاط .

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم ، لأن رازوميخين قد ضغط يدها فى هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك الا أن تطلق تلك الصرخة .

وهتف رازوميخين يقول مفتتناً :

— نعم ؟ تقولين نعم ؟ ألا انك اذن . . . ألا انك اذن لينبوع خير ، وطهارة ، وعقل ، وكمال . ناوليني يدك ،

ناوليني يدك ، وأنت أيضاً ، ناوليني يدك . أريد أن أقبّل يديكما فى هذا المكان نفسه ، فى هذه اللحظة نفسها ، جاثياً على ركبتى ، راكعاً !

وركع فى منتصف الطريق ، الذى كان خالياً فى تلك اللحظة من حسن الحظ .

صرخت بولخيريا الكسندروفنا تقول قلقة أشد القلق :

— كفى ، من فضلك ! ما هذا الذى تفعله ؟

وقالت دونيا ضاحكةً ، رغم قلقها هى أيضاً :

— انهض ، انهض ! . .

— لن أنهض بحال من الأحوال ، لن أنهض الا بعد أن تناولانى يديكما ! نعم ، هكذا . وكفى الآن ! أنهض ونمضى . أنا امرؤ غبى مسكين . أنا لست جديراً بكما . أنا سكران . واننى لأشعر من هذا بخزى وعار . . . أنا لا أستحق أن أحبكما . أما السجود أمامكما فهو واجب يقع على كل انسان ليس أحمق كل الحمق . لذلك سجدت . . . ولكن هذا هو مسكنكما . يكفى هذا وحده سبباً أجاز لرودیون أن يطرد صاحبكما بيوتر بتروفتش شر طردة ! كيف أباح لنفسه أن يُسكنكما فى غرفة مفروشة كهذه الغرفة ؟ هذه فضيحة ! هل تعلمان نوع الناس الذين يؤوونهم هنا ؟ ثم يقول انك خطيبته ! . . أنت خطيبته أليس كذلك ؟ فاسمحى لى أن أقول لك اذن ان خطيبك رجل قذر !

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم فقالت :

— اسمع يا سيد رازوميخين ، انك تنسى أن . . .

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً :

— نعم ، نعم ، أنتِ على حق ! أنا أقول سخافات !

اننى لأشعر بخجل وعار . ولكن . . . ولكن لا يمكنك أن تغضبى لأننى كلمتك بهذه الطريقة . ذلك أننى تكلمت مخلصاً صادقاً ، ولم أقل ذلك الكلام لأننى . . . هِمْ . . . لا . . . لن أقول . . . لو قلت لكان كلامى دنـــاءة . . . الخلاصة . . . أنا لم أقل ذلك لأننى . . . بك . . . هِمْ . . . لا ، ما ينبغى أن أقول لماذا . . . لا أجرؤ . . . ولكن ، حين دخل علينا فى هذا اليوم ، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا . لا لأننا رأيناه يصل مجعَّد الشعر قد خرج من عند الحلَّاق رأساً ، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته ومعلوماته ، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخيـــل كيهودى ، لأنه دجال ، ولأن هذا كله واضح لا يخفى ! أتظنانه ذكياً ؟ لا بل هو غبـى ، غبـى ! أهذا زوج لك ؟ يارب !

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة بدأوا يصعدون السلم :

— اسمعا يا سيدتىَّ : ان الضيوف الذين هم فى بيتى الآن أناس شرفاء مهما يكونوا سكارى ، ورغم أننا جميعاً نهذر ونهذى — وأنا أيضاً أهذر وأهذى — فان هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً الى الحقيقة ، لأننا نحن نسير فى طريق الاخلاص والتجرد عن المنفعة ، وليس هذا طريق بيوتـــر بتروفتش ، فان بيوتر بتروفتش لا يسلك طريق التجرد عـن المنفعة . . . نعم ، فرغم أننى وصفتهم فى هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم بجميع الشتائم ، فاننى اقدرهم جميعاً حق قدرهم . وأنا أحب زاميوتوف رغم أننى لا أحترمه . أنا أحبه فعلاً ، لأنه غر على كل حال . أحب حتى ذلك

الحيوان زوسيموف ، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته . ولكن كفى الآن هذا . لقد قلت كل شيء . . . وسامحانى ، أليس كذلك ؟ هيًا بنا ! اننى أعرف هذا الدهليز . لقد سبق أن جئت الى هذا المكان ، وهنا ، فى رقم ٣ ، وقعت فضيحة . أين تسكنان ؟ فى أى رقم ؟ ثمانية ؟ طيب . . . أغلقا عليكما الباب طول الليل ، ولا تدعا لأحد أن يدخل . سأعود اليكما بأنباء بعد ربع ساعة ، وبعد نصف ساعة من عودتى الأولى ، سأعود ثانية مع زوسيموف . ستريان . استودعكما الله . أنا ذاهب !

قالت بولخيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة مضطربة :

— رباه ! ماذا سيحدث يا دونيتشكا !

فأجابت دونيا أمها وهى تخلع قبعتها وطرحتها :

— هدئى روعك يا ماما . ان الله نفسه هو الذى أرسل الينا هذا السيد ، رغم أنه مسرف فى السكر . فى وسعنا أن نعتمد عليه ، أؤكد لك . انظرى الى كل ما فعله فى سبيل أخي من قبل أن نصل . . .

— آه يا دونيتشكا . الله يعلم هل يعود ! وكيف أمكننى أن أوافق على ترك روديا ؟ . . ثم اننى لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة ! ما أقساه ! لكأنه لم يُسرَّ برؤيتنا !

وتلألأت فى عينى الأم دموع .

— لا يا أماه . ليس هذا هو الأمر . أنت ما رأيته رؤية جيدة ، لأنك كنت تبكين طول الوقت . انه مريض مرضاً شديداً . فهذا المرض هو سبب كل شيء .

— آ . . . المرض ! ماذا سيحدث ؟ وهل رأيت بأية لهجة خاطبك ؟

أضافت الأم هذا السؤال الأخير ، وهى تختلس نظرة وجلة الى عينى ابنتها لتقرأ ما يدور فى ذهنها ، متعزيةً بعض التعزى منذ الآن ، لأن دونيا دافعت عن أخيها ، فهذا دليل على أنها غفرت له .

ثم أردفت تقول وهى تريد ان تعرف رأى ابنتها دون أى تكتم :

— أنا واثقة بأنه سيرجع غداً الى عواطف أخرى .

فردَّت آفدوتيا رومانوفنا تقول بلهجة قاطعة :

— أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم . . . فى هذا الموضوع .

وبالطبع كانت المسألة صعبة لأنها تتناول نقطة كانت بولخيريا الكسندروفنا ، فى هذه اللحظة على الأقل ، تخشى المجازفة فى الكلام عليها . واقتربت دونيا من أمها فقبَّلتها . فعانقتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة . ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقةً ، وتنظر وجلةً الى ابنتها التى غرقت فى خواطرها وأفكارها مضطربةً هى أيضاً ، وأخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، مصالبةً ذراعيها على صدرها . ان هذا المشى فى الغرفة طولاً وعرضاً هو عادة من عاداتها ؛ وأمها تخشى دائماً فى مثل هذه الظروف أن تعكر تأملاتها .

لا شك أن رازوميخين السكران كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بآفدوتيا رومانوفنا . ولكن ما أكثر الذين لو رأوا آفدوتيا رومانوفنا ، ولا سيما فى ذلك الوقت الذى كانت تطوف فيه بالغرفة حزينةً مفكِّرةً مصالبة ذراعيها على صدرها ، ما أكثر الذين لو رأوها لعذروا الفتى ولو كان فى حالة طبيعية من غير سكر . ان آفدوتيا رومانوفنا

فتاة جميلة جداً ، فارعة القوام ، معتدلة القد ، قوية ، واثقة بنفسها — كما تشهد بذلك كل اشارة من اشاراتها — دون أن يجرِّدها ذلك من شيء من مرونتها وليونتها ، وخفتها ورشاقتها . هى تشبه أخاها وجهاً ، ولكنها يمكن أن توصف بأنها «آية فى الجمال» . شعرها كستناوى اللون ، أزهى قليلاً من شعر أخيها . وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين ، تلتمعان وتسطعان ، وتعبران عن عزة وشمم ، وتعبران أحياناً عن رقة وعذوبة وطيبة لا حدود لها . وهى شاحبة ، لكن شحوبها ليس شحوب المرض ، فان وجهها يشع نضارة وعافية . وفمها أميل الى الصغر ، وشفتها السفلى حمراء قانية ، بارزة قليلاً كبروز ذقنها كذلك . وهذا هو العيب الوحيد فى ذلك الوجه الرائع ؛ على أنه عيب يضفى عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات ، بل من تعالٍ وكبرياء . واذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح ، فان ابتسامتها ، وضحكتها الفرحة التى هى ضحكة الشباب والتى فيها شيء من اهمال ، تناسبان وجهها كثيراً . فلا غرابة اذن أن نرى رازوميخين الذى يتصف بالحرارة والبساطة والاستقامة ، أن نرى رازوميخين القوى كعملاق ، الثمل فوق ذلك ، الذى لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال ، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة . يضاف الى ذلك أن المصادفة قد شاءت ، بما يشبه العمد ، أن يرى دونيا فى اللحظة السارة التى كانت فيها زاخرةً بالفرح لرؤية أخيها ، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلى ترتجف استياءً من مطالب هذا الأخ القاسية الوقحة ، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد ؟

ولقد صدق حين قال على السلَّم ، فى سكره ، ان صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف ، أى براسكوفيا بافلوفنا الغريبة الأطوار ، سوف تغار لا من آفدوتيا رومانوفنا فحسب ، بل ربما غارت كذلك من بولخيريا الكسندروفنا ، فان هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير بوجهها الذى يحمل بقايا الجمال السابق ، وهذا هو فى كثير من الأحيان شأن النساء اللواتى استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن ، ونضارة الاحساسات وحرارة القلب الطاهر الشريف (ولنضف الى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ) . صحيح أن شعر بولخيريا الكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر ؛ وصحيح أن غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة ؛ وصحيح أن خدَّيها قد خسفا وجفَّا بسبب الهموم والأحزان ؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً ؛ حتى ليمكن أن يقال انها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً ، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة . وكانت بولخيريا الكسندروفنا امرأة حسَّاسة ، ولكن هذه الحساسية لا تمضى الى حد العاطفية المفرطة . وهى خجولة ، ميَّالة الى المجاراة ، مستعدة للتنازلات ، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها . ولكن لهذا حدوداً . فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميقة ، فما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطى تلك الحدود .

ما ان انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين ، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين متسارعتين : لقد عاد رازوميخين .

أسرع يقول منذ فُتح له :

— لن أدخل . لا يتسع الوقت . انه ينام نوماً هادئاً مريحاً . أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم عشر ساعات متتالية ! ناستاسيا قائمة عليه . أوصيتها أن لا تتركه الى أن أرجع . والآن سأمضى أُحضر زوسيموف . سيحدثكما هو عن حاله . ثم تعقلان فتنامان ، ذلك أننى أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب . . .

قال ذلك ثم اندفع ينصرف .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فرحةً كل الفرح :

— ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة واخلاص !

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشىء من الحرارة وهى تستأنف سيرها فى الغرفة طولاً وعرضاً :

— انه رجل رائع فيما يبدو !

وما ان انقضت على ذلك ساعة واحدة ، حتى سُمعت أصوات وقع أقدام فى الدهليز ، ونُقر الباب من جديد . كانت المرأتان قد انتظرتا فى هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميخين . وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً . لقد رضى زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف ، ولكنه لم يقبل ان يجئ الى السيدتين الا بشدٍّ الأذن ، لأنه كان يرتاب فى حالة رازوميخين . فما أسرع ما رضى غروره وحتى شعر بشىء من السرور حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عرَّاف . وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً ، وأفلح كل الفلاح فى أن يقنع بولخيريا الكسندروفنا وأن يهدئ روعها . وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض ؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة مسرفة

فى الجد والرصانة تناسب طبيباً فى السابعة والعشرين من عمره يُستشار فى ظرف خطير ، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه ، لا ولا أظهر أية رغبة فى أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية أكثر مودة . واذ لاحظ منذ دخوله جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر ، حاول فوراً أن لا ينتبه اليها أى انتباه ، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم الا بولخيريا الكسندروفنا وحدها . وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه . أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن أنه وجده هذه المرة فى حالة مُرضية على وجه الاجمال ؛ وشخَّص المرض فقال ان له ، عدا الظروف المادية المؤسفة التى عاش فيها المريض خلال الأشهر الأخيرة ، ان له عدا تلك الظروف أسباباً نفسية ، «فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة ، منها عوامل نفسية ومادية ، فهو ثمرة الهموم والمخاوف وبعض الأفكار ، الخ» . واذ لاحظ ان آفدوتيا رومانوفنا تصغى اليه بانتباه شديد جداً ، افاض فى شرح رأيه مجاملاً . حتى اذا سألته بولخيريا الكسندروفنا بصوت قلق خجول عما اذا كان هنالك شىء من «أعراض جنون . . .» ، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ فى تفسيرها ؛ فلئن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً الى مرض الفكرة الثابتة ، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة — لا سيما وأنه ، هو زوسيموف ، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب — فان «علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذى حتى هذا اليوم ، أو حتى هذا اليوم تقريباً» ، وأضاف زوسيموف يقول : «ولا شك أن وصول اسرته سيحسن اليه كثيراً ، وسيسرِّى عنه ، أى سيساعد على شفائه» ، هذا

اذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة ذات دلالة) أن «يجنَّب صدمات شديدة جديدة» . قال زوسيموف ذلك ثم نهض ، فحيَّا تحيةً هى مزيج من جد ومودة ، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولخيريا الكسندروفنا . حتى ان يد آفدوتيا رومانوفنا ، الصغيرة ، قد امتدت اليه من تلقاء نفسها ، فصافحها ، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة ، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً .

قال رازوميخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف :

— سنتحدث غداً . أما الآن فيجب أن تناما ، يجب أن تناما حالاً . سأجيئكما غداً فى أول ساعة ، لأنبئكما بكل شىء .

قال زوسيموف بشهوة حين صارا فى الشارع :

— فتاة فتانة ، آفدوتيا رومانوفنا هذه !

زأر رازوميخين يقول :

— فتانة ؟ تقول فتانة ؟

وهجم عليه فجأة ، فأمسك بخناقه ، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضغطه على حائط :

— اذا تجرأت فى ذات يوم . . . هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

فقال زوسيموف متخبطاً :

— دعنى يا سكّير !

فلما تركه حدَّق الى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك فى قهقهة شديدة . كان رازوميخين واقفاً أمامه ، مترجِّحَ الذراعين ، غارقاً فى تأملات سوداء خطيرة .

قال رازوميخين مظلم الوجه مربدَّ الأسارير :

— أنا حمار طبعاً ، ولكن أنت أيضاً ، أنت أيضاً . . .

— لا ياصاحبى . شأنى أنا شأن آخر . أنا لا أفكر فى سخافات .

وأخذا يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة ؛ وكان يبدو على رازوميخين أنه مهموم جداً . فلما وصلا الى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت فقال :

— اسمع يا زوسيموف . أنت فتى رائع ، ولكنك بالاضافة الى جميع عيوبك السيئة ، تمتاز بانك زير نساء ، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة ، بل أنت نجس الى أبعد حدود النجاسة . أنت مخلوق ضعيف ذو أعصاب ضعيفة . أنت ترفّه نفسك ، وتسمّن جسمك ، ولا تتورع عن شىء ، لذلك أقول انك نجس ، فبهذا انما يصبح المرء نجساً . وقد بلغتَ من الرخاوة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طبيباً بارعاً ، بل طبيباً مخلصاً متفانياً . أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش !) ثم تنهض فى الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضى ! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض فى سبيل مريض . على أن المسألة ليست هذه ! اليك المسألة : ستبيت هذه الليلة فى شقة صاحبة البيت (لقد استطعتُ أن أقنعها بذلك بعد لأى) ، وسأبيت أنا فى المطبخ . هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف اليها عن كثب . . . ولكنها يا صاحبى ليست كما تظن . ليس ههنا ظل من . . .

— ولكننى لا أظن شيئاً البتة !

— ههنا يا صاحبى سكوت وخفر وحياء وخجل وعفة لا تغالَب . وههنا بالاضافة الى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان

الشموع ، نعم دوبان كذوبان الشموع ! خلّصنى منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض ! وهى جذابة الى أبعد حـــدود الجاذبية . . . سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع ، أحلف لأعرفنّ كيف أشكر لك هذا الصنيع !

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك ؛ ثم قال :

ـــ ما أشد اضطرابك ! ولكن ما عسانى صانعاً بها ؟

ـــ أؤكد لك أن هذا لن يتعبك كثيراً . ستجلس بالقرب منها ، فتقول لها أى شىء يخطر ببالك . نعم ، لن يكون عليك الا أن تجلس وأن تتحدث . ابدأ بعلاجها من شىء ما مادمت طبيباً . ولن تندم على أنك فعلـــت ذلك . أحلف لك ! ثم ان عندها بيانو من طراز قديم . أنت تعلم أننى أعزف على البيانو قليلاً . . . وهناك أغنية روسية عاطفية تقول : «بدموعى السخينة ، سأسقى . . .» . هى تعبد الأغانى العاطفية عبادة ، وبهذا انما بدأنا . واذ أنك عازف ماهر ، اذ أنك استاذ فى العزف ، اذ أنك عازف مثل روبنشتاين . . . أحلفُ لك لن تندم !

ـــ أتراك بذلت لها وعوداً ؟ تعهداً خطياً مثلاً ؟ ألعلك وعدتها بأن تتزوجها ؟

ـــ لا ، لا ، لا شىء من هذا البتة ! انها ليست كما تظن . لقد حاول تشيباروف . . .

ـــ ما عليك اذن الا أن تتركها !

ـــ ولكن هذا مستحيل .

ـــ لماذا ؟

ـــ لا لشىء الا لأنه مستحيل . هذا هو الأمر . هناك مبدأ الاغراء ياصاحبى .

ـــ ولكن لماذا حاولت اغراءها ؟

ـــ أنا لم أحاول اغراءها البتة . لعلنى أنا الذى أُغريت ، بسبب غباوتى . ويستوى عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت . كل ما يهمها أن يجلس الى جانبها رجل يتنهد لها . هى يا صاحبى . . . لا أدرى كيف أعبّر لك . أنت تجيد علم الرياضيات ، وتواصل دراستها ، أنا اعلم ذلك . . . حدثها اذن عن حساب التكامل . يميناً اننى لا أمزح . أحلف لك انها لا تكترث بالأمر . سوف يكفيها أن تنظر اليك طوال السنة وأن تتنهد . انا مثلاً لبثت يومين على الأقل أحدثها ، عن مجلس النواب البروسى ، حديثاً طويلاً جداً ، اذ كان لا بد أن أحدثها عن شىء ما ! فكانت لا تزيد على أن تتنهد وأن تذوب . ولكن حذار أن تكلمها فى الحب ، فلو كلمتها فى الحب لأمكن من شدة حيائها أن تصاب بنوبة تشنج . المهم أن تجعلها تعتقد بأنك لا تقـوى عـلى تركها . سيكـفيهـا هـذا . وستكون عنـدئـذ كـأنـك فى بيتك : اقرأ ، اضطجع ، اكـتب . بـل فى وسعـك أن تجازف فتقبلهـا . . . ولكـن امضِ الى هـذا بحكمـة وحذر ! . .

ـــ ولكن ما حاجتى الى هذا كله ؟

ـــ آه ! لا أدرى كيف أشرح لك . اسمع : ان كلاً منكما قد خلق للآخر . حتى لقد فكّرت فيك من قبل . وما دمت ستنتهى الى هذه النهاية أخيراً ، فسيّان أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متأخراً بعض التأخر . ههنا يا عزيزى يتحقق مبدأ فراش الريش ، بل تتحقق أشياء أخرى كثيرة أيضاً . هنا اغراء ، هنا خاتمة المطاف ، هنا المرساة ،

هنا المرفأ الهادئ الآمن ، هنا سرّة الأرض ، هنا أسس الكون نفسها ، هنا أنواع الفطائر الدسمة ، سماور المساء ، التنهدات الهادئة ، المدافئ الساخنة ، الثياب المبطنة بالفرو ! نعم ، ستكون كالميت ، وفى الوقت نفسه ستكون حياً : ترمى طائرين بحجر واحد ! اللعنة ! أصبحت أقول سخفاً . آن أوان النوم . اسمع : يتفق لى أحياناً أن أستيقظ فى الليل ، فاذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب أرى كيف حال رودیون . سخافة أقولها . لن يحدث له شيء . فلا تقلق كثيراً ولكن اذا حدثك قلبك بشيء فاذهب اليه مرة . فاذا لاحظت شيئاً غير مألوف ، كهذيان أو حمى ، فأيقظنى فوراً . على أن هذا ضعيف الاحتمال . . .

الفصل الثانى

استيقظ رازوميخين فى الغد بعد الساعة السابعة بقليل ، مشغول البال مهموماً . ان أموراً كثيرة داعيةً الى القلق قد هاجمته فى ذلك الصباح ولم يكن قد تنبأ بها . ولم يكن قد تخيل فى حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال . تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التى سبق أن أحس بها قبل ذلك فى شيء . لكنه أدرك فى الوقت نفسه ادراكاً واضحاً أن الحلم الذى نشأ فى دماغه حلم مستحيل التحقق ، حلم يبلغ من استحالة التحقق أنه شعر منه بالخزى والعار ، فأسرع ينتقل

الى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التى أورثه اياها «ذلك اليوم المشئوم» .

والشيء الذى آلمه تذكُّرهُ أكثر من أى شيء آخر هو أنه تصرَّف تصرُّف انسان «دنيء خسيس» ، لا لأنه قد سكر فحسب ، بل أيضاً لأنه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذمُّ للفتاة خطيبها مستفيداً من الوضع الذى كانت فيه ، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل ودون أن يعرف ما هو هذا الرجل على وجه التحديد . ثم أى حقٍ له فى أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الخفة وهذا الطيش ؟ من ذا الذى نصبه قاضياً ؟ وهل يمكن أن تقبل انسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال لرجل تافه حقير ؟ فلا بد اذن أنه يملك بعض المزايا . . . اما هذه الغرفة المفروشة التى استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هى ؟ افليس يهيئ لهما شقة مناسبة ؟ آه . . . ما أدنأ هذا كله فى نظر رازوميخين الآن ! هل يبرر سكره ذلك السلوك ؟ يا له من عذر ! الا أن سكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار ! الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل ، ولقد انكشفت الحقيقة كاملةً . «ان قذارة قلبه الحسود الطماع» قد ظهرت واضحة للعيان . ثم هل يجوز له أن يراوده ، هو رازوميخين ، حلمٌ كهذا الحلم ، على أىٍ نحو من الأنحاء ؟ ما قيمته بالقياس الى هذه الفتاة ، هو السكيرِ العربيد ، المتشدق المهذار ؟ بل «كيف يمكن ان تُعقد بينه وبينهـــا مقارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار ؟» كذلك تساءل رازوميخين فاذا هو يحمر خجلاً ، ويشعر بكرب شديد ، ثم اذا هو يتذكر تذكراً واضحاً جداً ، على حين فجأة ، بما يشبه العمد ، أنه قال بالأمس ، على السلَّم ان صاحبة البيت ستغار

عليه من آفدوتيا رومانوفنا ، فوقعت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق ولا يحتمل ، فاذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجمع لها كل ما يملك من قوة ، فجُرحت يده وكُسرت آجرة .

دمدم يقول بينه وبين نفسه ، بعد دقيقة ، وهو يحس بشعور عميق من المذلة : «لا شك أنه لا يمكن محو أو اصلاح جميع هذه الحقارات التى ارتكبتها ، لا الآن ولا فى أى يوم من الأيام . فلا فائدة من التفكير فيها اذن ، وانما الأفضل أن أذهب اليهما دون أن أقول شيئاً ، وأن أقوم بواجباتى دون أن أقول شيئاً كذلك . . . دون أن استغفر . . . دون أن أقول شيئاً البتة . . . فقد ضاع كل شىء منذ الآن طبعاً !»

ومع ذلك عُنى رازوميخين بهندامه أثناء ارتداء ملابسه أكثر مما ألف أن يعنى به قبل ذلك اليوم . لم يكن يملك الا بدلةً واحدة . ولكن هبه كان يملك بدلةً أخرى فلعله ما كان ليرتديها . قال يحدث نفسه : «لو كنت أملك بدلةً أخرى لتعمدت أن لا أرتديها» . على أنه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر ، فيذهب اليهما وسخ الثياب مشعث المظهر . فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين ، لا سيما وأن هؤلاء الآخرين محتاجون اليه ، وأنهم هم الذين يطلبونه . لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة تنظيفاً عُنى به عناية خاصة . أما قميصه فقد كان نظيفاً . والحق أن رازوميخين كان من هذه الناحية شديد العناية دائماً .

وقد اهتم فى ذلك الصباح بنظافته اهتماماً دقيقاً . وجد قطعةً من الصابون عند ناستاسيا ، فغسل شعره ورقبته ، وغسل يديه خاصةً . أما سؤاله أيحلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفى السيد

زارنتسين) ، فقد أجاب عنه بالنفى ، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك ، فقال : «لتبق لحيتى كما هى ! والا ظنتا أننى حلقت فى سبيل أن . . . نعم ذلك ما ستظنانه ! اذن لن أحلق بحال من الأحوال !»

وتابع يقول لنفسه : «المهم اننى قذر أشد القذارة ، فظ أبلغ الفظاظة ، قليل الأدب الى أبعد حد . . . وهبنى رجلاً شريفاً (ذلك أننى اعرف نفسى وأعرف أننى رجل شريف) ، فهل لى أن اعتز وأن افتخر بأننى رجل شريف . المفروض فى كل انسان أن يكون شريفاً ، بل وأن يكون أكثر من ذلك . ثم ان لى (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة ان لم تكن غير شريفة ، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها . . . هذا عدا الأفكار التى تساورنى فى بعض الأحيان . . . همْ . . . فكيف أطمع فى أن أوازن بينى وبين آفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، فليذهب هذا كله الى الشيطان ! نعم ، سأبقى كما أنا عن عمد ! سأظل وغداً ، خنزيراً ، عابثاً . . . ولا أكترث . سأبقى على هذه الحال ، وسأزيد . . .»

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار ، جاءه زوسيموف الذى بات ليلته فى صالون براسكوفيا بافلوفنا .

كان زوسيموف يتهيأ للعودة الى بيته ، فأراد قبل انصرافه أن يلقى نظرة على المريض . فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً . فأمر بأن لا يوقظ ، ووعد بأن يعود فى نحو الساعة الحادية عشرة . ولكنه أضاف يقول :

— هذا اذا وجدته فى غرفته ! اللعنة ! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه . قل لى : هل هو الذى سيذهب اليهما ؛ أم هما اللتان ستجيئان اليه ؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال :

— أظن أنهما هما اللتان ستجيئان . وأغلب الظن أنهما ستحدثانه فى شئونهم العائلية . لذلك سوف أتركهم وأخرج . أما انت فانك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر .

— ما أنا بكاهن يسمع اعترافات . سوف أجىء ثم ما ألبث أن أخرج . ان أعمالاً كثيرة تنادينى . . .

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربدَّ وجهه :

— هناك شىء يقلقنى : أمس مساء ، أثناء سكرى ، افلتت من لسانى ، وأنا أعود به الى البيت ، حماقات سخيفة . من ذلك خاصةً اننى قلت له . . . انك تخشى أن يكون به جنوح الى الجنون .

— وقد عدت تقول هذا للسيدتين .

— أعرف . هذه بلاهة . اضربنى اذا شئت . ولكن أراودتك فكرة ثابتة بصدد هذا الشأن ؟

— سخافة ! ليست عندى أية فكرة ! ولا تنسَ أنك أنت الذى وصفته لى بأن هوساً ملحاً يسيطر عليه ، وذلك حين جئت بى اليه . وبالأمس زدنا النار أواراً ، ولا سيما أنت . . . حين رحت تتكلم عن الدهان . يا له من موضوع حديث ، حين يكون هذا كله هو السبب فى فقدانه صوابه ! . . آه . . . لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى فى قسم الشرطة فى ذلك اليوم ، لو كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه ، لما سمحت لك بأن تجرى لسانك فى حديث كذلك الحديث . ان المصابين بمرض الهوس الملح يجعلون من القارة جبلاً ، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شىء البتة !

اذا صدقت ذاكرتى ، فان ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة . هناك حالات أكثر خطورة ! اننى أعرف حالة رجل فى الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس ، فلما كان جالساً الى المائدة ، فأخذ طفل فى الثامنة من عمره يستهزئ به ، لم يستطع احتمال سخرياته ، فقتله . ونحن هنا ازاء شاب شقى يرتدى أسمالاً بالية ، ويعانى بداية مرض ، فاذا بشرطى فظ غليظ يهينه موجهاً اليه شبهات كهذه الشبهات ، فماذا تنتظر أن يحدث ؟ شخص مصاب بالوسواس ، هو الى ذلك على جانب عظيم من كبرياء مسعورة ، أفلا يكون ذلك هو السبب الحقيقى للداء الذى يعانى منه الآن . لا ريب فى هذا ! . . بالمناسبة : ان زاميوتوف فتى لطيف حقاً ، ولكن . . . همْ . . . لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله ! يا له من ثرثار فظيع !

— ولكن لمن روى ذلك ؟ لك ولى .

— رواه أيضاً لبورفيرى .

— ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفيرى ؟

— بالمناسبة : هل لك تأثير فيهما ، أقصد فى الأم والأخت ؟ يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم .

أجاب رازوميخين قائلاً على مضض :

— سيجرى كل شىء على ما يرام .

— لماذا هو غاضب على لوجين ؟ ما مأخذه عليه ؟ ان هذا الرجل يملك مالاً ، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه . وهما لا تملكان فجلة ، هه ؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاجاً :

— لماذا تسألنى هذا السؤال ؟ ما شأنك أنت وهذا ؟

أنّى لى أن أعرف هل هما تملكان فجلة ، أم هما لا تملكان فجلة ! اسألهما ان شئت فتعرف ذلك .

— ما أغباك أحيانا ! واضح أنك ما صحوت من سكرك ! الى اللقاء . واشكر عنى لبراسكوفيا بافلوفنا ضيافتها . لقد حبست نفسها فى غرفتها ، وقلتُ لها «صباح الخير» من وراء الباب فلم تجبنى . وكانت قد استيقظت فى الساعة السابعة ، وجىء اليها بالسماور فى غرفتها عن طريق الدهليز . ولكننى لم أشرف برؤيتها .

فى الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين الى منزل باكالايف ؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر . لقد نهضتا فى الساعة السابعة أو قبل ذلك . فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل ، حيّاهما بخراقة ، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً . ذلك أنه لم يضع فى حسابه ما ستستقبله به بولخيريا الكسندروفنا : لقد هرعت بولخيريا الكسندروفنا اليه ، فأمكست يديه ، وكادت تقبّلهما . وألقى نظرةً حجلى على آفدوتيا رومانوفنا ، فكان وجهها الذى ينم فى العادة على الكبرياء ، يعبّر فى هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام كامل ؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله ، بل كان لا ينتظر الا نظرات ساخرة ، واحتقاراً ظاهراً ، فلو استقبلته فعلاً بشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك فى نفسه أسهل وأيسر ، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر . لقد شعر الآن باضطراب كبير وبلبلة عظيمة حقاً . ولكن كان هناك موضوع للحديث من حسن الحظ ، فسرعان ما تشبث به .

حين علمت بولخيريا الكسندروفنا أن روديا «لم يستيقظ بعد» ، وان «كل شىء على ما يرام» ، اظهرت ارتياحاً كبيراً

ورضى عظيماً ، لأنها حقاً «فى حاجة ماسة الى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل ان ترى ابنها» . وأُثير عندئذ موضوع الشاى ، فدُعى رازوميخين الى تناول الشاى مع السيدتين ، وكانتا قد انتظرتاه لهذا . دقّت آفدوتيا رومانوفنا الجرس ، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب ، فأُمر باحضار الشاى ، فأتى بالشاى أخيراً ، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة ان السيدتين صُعقتا خجلاً . وودَّ رازوميخين لو يندِّد بهذه «الغرفة المفروشة» ، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام ، وشعر بحرج ، وابتهج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولخيريا الكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة .

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة ، فكان يُقاطَع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد . واستطاع مع ذلك أن يروى — بمقدار ما يعرف — الوقائع الأساسية من حياة رودیون رومانوفتش منذ سنة حتى اصابته بالمرض الذى تحدث عنه بالتفصيل . لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغى ان يسكت عنها ، ولا سيما المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة وجميع النتائج التى نجمت عنه . وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً . لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعتيه ، بدا أنه فى نظرهما لم يكد يبدأ الكلام .

قالت بولخيريا الكسندروفنا تسأله متعجلة :

— قل لى ، قل لى ما رأيك . . . معذرةً . . . اننى لا أعرف اسمك حتى الآن . . .

— دمترى بروكوفتش .

— نعم ، قل لى يا دمترى بروكوفتش : أود جداً جداً لو أعرف . . . كيف هو . . . يرى الأمور الآن . . . بوجه عام . . .

أقصد . . . هل تفهمنى ؟ كيف افصح بوضوح ؟ . . أعنى : ماذا يحب ، وماذا لا يحب ؟ أ ما يزال شديد الغضب سريع الاهتياج ؟ ما هى رغباته . . . و . . . و . . . كيف أعبر . . . ما هى أحلامه ، اذا جاز لى أن . . . ما الذى يؤثر فيه الآن أكبر تأثير ؟ الخلاصة ، أودُّ لو . . .

قالت دونيا :

— ماما ! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة فى آن واحد ؟

— يا رب ! ذلك أننى ، يا دمترى بروكوفتش ، لم أكن أتوقع أبداً ، أبداً ، أن أجده على هذه الحال !

أجاب دمترى بروكوفتش يقول :

— هذا طبيعى جداً . أنا ليس لى أم ، ولكن لى عماً يجىء الى هنا كل سنة ، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفنى حتى من الناحية الجسمية ، مع أنه رجل ذكى ، عمى هذا . وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين ، فجرى ماء كثير تحت الجسور خلال هذه السنين الثلاث . ماذا أقول لك أيضاً ؟ اننى أعرف رروديون منذ سنة ونصف سنة . فكان منذ عرفته قاتم النفس متجهم الوجه شديد الكبرياء متعالياً ؛ وهو فى هذه الآونة الأخيرة (ولعل ذلك يرجع الى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً . هو سمح طيب . وهو لا يحب أن يظهر عواطفه ، ويؤثر أن يرتكب اساءةً على ان يفتح قلبه . على أنه فى بعض الأحيان يبرأ من الوساوس ، فلا يظهر عليه عندئذ الا برودة فى العاطفة وفتور فى الاحساس حتى ليصل من ذلك الى درجة يفقد معها روح التواصل الانسانى ، فكأن له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر . يتفق له أحياناً ان يكون صموتاً الى حد رهيب : فإما أن

يزعم أنه ليس فى وقته متسع ، وإما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعجونه ؛ ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً . وما هو بالساخر ، لا لأنه يفتقد روح الفكاهة ، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة . انه لا يصغى أبداً الى ما يقال له حتى النهاية . انه لا يهتم أبداً بالأشياء التى يهتم بها الآخرون فى لحظة من اللحظات . وهو معتد بنفسه اعتداداً عظيماً ، ويظهر أن من حقه ان يعتد بنفسه هذا الاعتداد . ماذا أقول أيضاً ؟ . . أظن أن وصولكما سيحسن اليه وسيحدث فيه أثراً نافعاً .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين :

— سمع الله منك .

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر الى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة . كان قد نظر اليها مراراً أثناء الحديث ، ولكنه كان ينظر اليها خلسةً ، بسرعة كوميض البرق ، ثم يحول بصره عنها على الفور . وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارةً فتصغى بانتباه ، وتنهض تارةً أخرى فتأخذ تمشى على عادتها من ركن الى ركن مصالبةً ذراعيها ، كازةً شفتيها ، ملقية سؤالاً من حين الى حين ، ولكن دون أن تقطع سيرها ، دون أن تقطع تأملها الذى كان يبدو أنها تتابعه مستمراً متصلاً . وكان من عادتها أيضاً أن لا تصغى حتى النهاية الى ما يُقال لها . كانت ترتدى فستاناً داكن اللون من نسيج خفيف ، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيضَ شفافاً . وقد لاحظ رازوميخين رأساً ، من علامات كثيرة ، أن السيدتين فى حالة شديدة من الفقر . ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة ، فلعلها كانت

لا تثير فى نفسه كل هذا الخوف ، أما الآن فربما كان السبب فى الخوف الذى استقر فى قلبه انما يرجع الى أن ملابسها كانت فقيرة الى هذا الحد ، وأنه أدرك كل ما هى فيه من بؤس ، ولذلك أصبح يخاف من كل قول من أقواله ، وكل حركة من حركاته ، وهذا أمر هو بالنسبة الى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الحـــرج والارتباك .

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة :

ـــ لقد علّمتنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخى ، ولقد تكلمت دون تحيز ما فى ذلك شك . هذا جيد . وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز .

ثم أضافت تقول حالمةً مفكّرة :

ـــ يخيَّل الىَّ أنه لا بد أن يكون فى حياته امرأة فعلاً !

ـــ أنا لم أقل هذا . ولكن من الجائز أن تكونى على حق . غير أن . . .

ـــ ماذا ؟

ـــ انه لا يحب أحداً ، ولعله لن يحب أحداً فى يوم من الأيام .

كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً .

ـــ أيكون عاجزاً عن أن يحب ؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك :

ـــ هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً رهيباً فى كل شىء ؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها ، فاحمرَّ وجهه احمراراً شديداً

وارتبك ارتباكاً فظيعاً . فلم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تحبس ضحكها وهى تنظر اليه .

واستأنفت بولخيريا الكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء فقالت :

ـــ من الجائز أن يكون رأيكما كليكما فى روديا خطأً . لا أتكلم الآن عن الحاضر يا دونيتشكا . ان ما كتبه بيوتر بتروفتش فى تلك الرسالة ، وما قد تصورناه أنا وأنت ، قد لا يكون صحيحاً . ولكنك لا تستطيع أن تتخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح وقوة النزوات . أنا لم أستطع فى يوم من الأيام أن أركن الى طبعه ، حتى حين كان فى الخامسة عشرة من عمره . وانى لعلى يقين من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادراً على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أى انسان آخر غيره . لا تذهب بعيداً : هل تعلم أنه منذ سنة ونصف سنة قد أدهشنى دهشةً شديدةً ، وكاد يميتنى غيظاً وقهراً ، حين وضع فى رأسه أن يتزوج تلك الـ . . . ماذا أقول ؟ تلـــك الـ . . . أقصد بنت زارنتسينا هذه ، صاحبة البيت الـذى يسكن فيه ؟

اتجهت آفدوتيا رومانوفنا الى رازوميخين فسألته :

ـــ هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر ؟

وتابعت بولخيريا الكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة :

ـــ هل تحسب أن دموعى وضراعاتى وشقاءنا ومرضى وموتى من الآسى ، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام فى رأسه ؟ لا . . . كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء . ماذا ؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا ؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر :

— انه لم يقل لى كلمةً واحدةً عن هذا الأمر فى يوم من الأيام . ولكننى عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها ، مع أنها ليست كثيرة الكلام هى أيضاً . والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة . . .

قالت المرأتان كلتاهما تسألانه :

— ما الذى عرفته ؟

— لم أعرف أشياء ذات شأن . كل ما علمته أن هذا الزواج الذى كان مقرراً ومبتوتاً فيه ، والذى لم يحل دونه الا موت الخطيبة ، كانت السيدة زارنتسينا مستاءة منه . ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة ، حتى لقد كانت توصف بأنها دميمة . . وأنها بالاضافة الى ذلك ممراض . . . وأنها فوق هذا غريبة الأطوار . ولكنها كانت لا تخلو من بعض المزايا . لا بد ان تكون لها مزايا فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيبا لا سبيل الى فهمه البتة . ثم انها لم تكن تملك مهراً . على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر . الخلاصة أن الحكم على الموضوع فى ظرف كذلك الظرف صعب .

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزةً :

— أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة .

فعقبت بولخيريا الكسندروفنا تختم الحديث قائلةً :

— أسأل الله أن يعفو عنى ويغفر لى . لا أكتمكما اننى ابتهجت لموتها ، رغم أننى لم أعرف فى يوم من الأيام أيهما كان سيشقى الآخر !

ثم عادت تسأل رازوميخين — وهى تلقى على دونيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها — عادت تسأل رازوميخين بحذر وتردد عن المشهد الذى حدث أمس بين روديا ولوجين .

لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أى شىء آخر ، حتى ليرعبها ويهزها هزاً . أعاد رازوميخين رواية القصة تفصيلاً ، ولكنه أضاف اليها فى هذه المرة النتيجة التى يستخلصها هو ، فاتهم راسكولنيكوف ، دون لف ولا دوران ، بأنه أهان بيوتر بتروفتش عن سابق عمد وتصميم ؛ ولم يلحّ فى هذه المرة على مرضه الذى ذكر قبل ذلك أنه عذر يشفع له . وختم يقول :

— لقد أعدَّ ذلك حتى قبل أن يمرض .

قالت بولخيريا الكسندروفنا مكروبة مقهورة :

— أظن ذلك أنا أيضاً .

ولكنها شُدهت حين رأت رازوميخين يتكلم فى هذه المرة عن بيوتر بتروفتش بكثير من الأعتدال ، بل وبشىء من الاحترام . وأثار هذا الرأى دهشة آفدوتيا رومانوفنا أيضاً .

ولم تطق بولخيريا الكسندروفنا صبراً فقالت تسأله :

— أهذا هو رأيك اذن فى بيوتر بتروفتش ؟

فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم :

— لا يمكننى أن أرى غير هذا الرأى فى زوج ابنتك المقبل ، ولست أقول هذا من باب التأدب والمجاملة ، وانما أقوله لأن . . . لأن . . . أقوله ولو لهذا السبب البسيط : وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هى التى أرادت طوعاً أن تولى هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها . ولئن ذممته ذلك الذمَّ كله بالأمس ، فلأننى كنت بالأمس سكران . . . سكران سكراً مقزِّزا ، ولأننى عدا ذلك . . . كنت قد فقدت عقلى . . . لأننى جننت . . . جننت تماماً . أما اليوم فأنا أشعر من ذلك بخزى وعار .

قال رازوميخين ذلك ، واحمرَّ وصمت . واحمرَّت آفدوتيا رومانوفنا ، ولكنها لم تقطع الصمت . انها لم تنبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث على لوجين .

ومع ذلك ظلت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكة ارتباكاً واضحاً لأن ابنتها لا تساعدها . ثم اعترفت مترددةً وهى تلتفت فى كل لحظة صوب ابنتها ، بأن هناك ظرفاً يقلقها الآن اقلاقاً شديداً .

بدأت تتكلم فقالت :

— الحق يا دمترى بروكوفتش . . .

ثم اتجهت الى ابنتها فقالت تسألها :

— سأكون صريحة كل الصراحة مع دمترى بروكوفتش يادونيتشكا ، أليس كذلك ؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع :

— طبعاً يا ماما .

فلما أُذن لها بأن تبوح بحزنها أحست بأن جبلاً قد أزيح عن صدرها فأسرعت تقول :

— اليك الأمر : اليوم ، فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، وصلتنا بطاقة من بيوتر بتروفتش رداً على الرسالة التى أنبأناه فيها بالأمس بوصولنا . كان ينبغى له طبعاً أن يجىء الى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك . ولكننا ، فى المحطة ، لم نجده هو بل وجدنا خادماً قادنا الى هذه الغرفة المفروشة التى كان معه عنوانها . وأبلغنا الخادم أن بيوتر بتروفتش سيجىء الينا اليوم فى الصباح . ولكن بيوتر بتروفتش لم يجئ وانما بعث الينا بهذه البطاقة . الأفضل أن تقرأها بنفسك ، لأن هناك نقطة تقلقنى كثيراً . سرعان ما سترى ما هى هذه النقطة ، فتقول لى

رأيك صريحا يا دمترى بروكوفتش . انك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه أى انسان آخر ، فسوف تستطيع اذن أكثر مما يستطيع أى انسان آخر أن تسدى الينا بنصيحتك . وانى لألفت نظرك الى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى ، أما أنا فما زلت حائرة لا أدرى ما الذى يجب فعله . . . وكنت أنتظرك .

فضَّ رازوميخين البطاقة التى تحمل تاريخ اليوم الماضى ، وقرأ ما يلى :

«السيدة الكريمة بولخيريا الكسندروفنا ، يشرفنى أن أُعلمك أننى بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطع أن استقبلكم على رصيف المحطة ، فأرسلت اليكم رجلاً بارعاً فطناً سيساعدكم . وكذلك سأحرم نفسى ، فى صباح الغد ، من التشرف بزيارتكم ، بسبب بعض الأعمال التى تستدعى ذهابى الى السينات ، ولأننى أريد أيضاً أن لاأزعج اجتماعكم العائلى ، أعنى لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوتيا رومانوفنا بأخيها . فلن يتاح لى اذن شرف لقائكم وتقديم احترامى لكم فى مسكنكم الا مساء غد فى الساعة الثامنة تماماً . وانى أسمح لنفسى بأن أضيف الى هذا رجاءً ملحاً ، فأطلب اليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفوننى من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا ، لأنه أهاننى أمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه ، ولأننى أريد أن أكلمكم على انفراد فى أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه . ويشرفنى أن ألفت نظركم الى أننى سأضطر الى الانسحاب فوراً اذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش رغم طلبى هذا ، ولن يكون

لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم . وانما اكتب هذا لأننى أتنبأ بأن روديون رومانوفتش الذى كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجأةً بعد ذلك بساعتين قد يجىء اليكم ما دام يخرج الآن . ان ما أقوله قد رأيته بعينى رأسى فى بيت رجل سكّير داسته خيول فهشمته فمات . وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكير ، وهى بنت معروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس ، أعطاها خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع نفقات الجنازة ، فأدهشنى ذلك أشد الدهشة ، أنا الذى أعرف الجهود التى بذلتموها فى سبيل جمع ذلك المبلغ . اختم رسالتى هذه راجياً أن تنقلى الى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتبارى ، وأن تتفضلى بقبول أسمى مشاعر الاحترام والاخلاص من خادمك المطيع :

ب . لوجين»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهى توشك أن تبكى :

— فما الذى يجب أن أعمله الآن يا دمترى بروكوفتش ؟ كيف يمكننى أن أطلب من روديا أن لا يجىء ؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة صارمة بطرد بيوتر بتروفتش ، فاذا بالآية تنقلب الآن ، فيكون هو الذى لا يجوز استقباله ! ولكنه سيجىء عامداً متى عرف ، فما عسى يحدث حينذاك ؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء :

— افعلى ما قررته آفدوتيا رومانوفنا .

— آه . . . رباه ! هى تقول . . . هى تقول . . . الله

يعلم ماذا تقول . . . وهى لا تشرح الأسباب التى تدفعها الى قول ما تقول ! هى تقول ان من الأفضل ، بل ان من المحتم قطعاً ، أن يجىء روديا هذا المساء ، فى الساعة الثامنة ، وأن يلتقيا . أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة ، وكنت أؤثر أن أعمد الى الحيلة بواسطتك ، لأمنعه من المجىء ، لأنه . . . سريع الاهتياج جداً ! ثم ان هناك أمراً لا أفهمه : من هو ذلك السكير الذى داسته الخيل فمات ، ومن هى تلك البنت ، وكيف أمكنه أن يعطى تلك البنت آخر ما بقى له من المال الذى . . .

— الذى لقيت ذلك العناء كله فى الحصول عليه .

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا .

قال رازوميخين شارد الفكر :

— لم يكن أمس فى حالة طبيعية . لو عرفت كيف تصرف أمس فى حانة ولو كان فى سلوكه شىء من التعقل ! . . هِمْ . . . على كل حال ، لقد حدثنى بالأمس فعلاً ، حين كنت أقوده الى بيته ، عن موظف مات ، وحدثنى كذلك عن فتاة ما ، لكنى لم أفهم من كلامه شيئاً . ثم اننى أنا نفسى ، بالأمس ، قد . . .

— الأفضل يا ماما أن نذهب نحن اليه . أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقى علينا أن نفعل . وقد آن لنا أن نذهب على كل حال . رباه ! هى الساعة العاشرة ونيف .

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهى تلقى نظرةً على الساعة الذهبية الرائعة ، المرصعة بالمينا ، التى كانت تحملها معلقةً فى عنقها بسلسلة رقيقة من صنع البندقية ، والتى تتنافر تنافراً

عجيباً مع جملة زينتها . قال رازوميخين لنفسه : «هذه هدية الخطوبة !»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وقد تململت باضطراب :

— آه . . . آن الأوان ! آن الأوان يادونيتشكا ! اذا تأخرنا فى الذهاب اليه ، فقد يظن أننا ما زلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس . آه . . . يا رب !

قالت ذلك واسرعت ترمى على كتفيها خماراً أسود ، وتضع قبعتها على رأسها . وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً . ان قفازيها ليسا مهترئين جداً فحسب ، بل هما مثقبان أيضاً . ولم يفت رازوميخين ذلك . على أن هذا الفقر الظاهر فى ملابس السيدتين كان يضفى عليهما وقاراً خاصاً ، وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة . كان رازوميخين ينظر الى الفتاة باحترام وتقديس ، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها . كان يقول لنفسه : «ان تلك الملكة» ، التى كانت ترقّع جوربيها فى سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم جلالاً وأكبر مهابةً منها فى أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات !» .

وهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول :

— رباه ! هل كان فى وسعى أن أصدّق يوما أننى سوف أهاب ، كما أهاب الآن ، لقاء مع ابنى ، مع عزيزى ، مع رودیا ؟

ثم أضافت تقول وهى تلقى على رازوميخين نظرة خجلى :

— أنا خائفة يا دمترى بروكوفتش .

قالت دونيا وهى تقبّلها :

— لا تخافى شيئاً يا ماما ، بل ثقى به . أما أنا فواثقة .

صاحت المرأة المسكينة تقول :

— آه . . . يا رب ! . . أنا أيضا واثقة ! ومع ذلك لم أنم طوال الليل !

وخرجوا الى الشارع .

— هل تعلمين يا دونيتشكا ؟ اننى ما ان غفوت قليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المرحومة مارفا بتروفنا . . . كانت تلبس ثياباً بيضاء . . . واقتربت منى . . . وأمسكت يدى . . . وكانت تهزّ رأسها وهى تنظر الىّ نظرة قاسية ، قاسية جداً ، كأنها تلومنى على شىء ما . . . أهذه علامة حسنة ؟ آه . . . يا رب ! انك يا دمترى بروكوفتش لا تعلم ، بعد ، أن مارفا بتروفنا قد ماتت .

— لا ، لا أعلم . ولكن من هى مارفا بتروفنا هذه ؟

— ماتت فجأة . . . تصور أنها . . .

تدخلت دونيا تقول لأمها :

— ستقولين له هذا فيما بعد يا ماما . هو لا يعرف من هى مارفا بتروفنا هذه .

— صحيح ؟ لا تعلم ؟ كنت أظن أنك على اطلاع . . . اغفر لى يا دمترى بروكوفتش . . . أصبحت لا أعرف أين رأسى فى هذه الأيام الأخيرة . حقاً اننى أعدك معيناً أرسلته العناية الالهية ، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شىء . اننى اعدك واحداً من أسرتنا . لا تؤاخذنى اذا أنا كلمتك بهذه الطريقة ! . . آه . . . رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ أهى مجروحة ؟

دمدم رازوميخين يقول سعيداً كل السعادة :

— نعم ، مجروحة .

— اننى أسرف فى الصراحة أحياناً ، فتردنى دونيا . . . ولكن . . . رباه ! ما هذه الغرفة الصغيرة التى يقيم فيها ؟ تُرى هل استيقظ من نومه ؟ وتلك المرأة ، صاحبة البيت ، كيف تسمى هذا الجحر غرفةً ؟ اسمع ، أنت تقول انه لا يحب أن يتكلم عما يعتلج فى قلبه ، فلا شك اذن اننى سأزعجه وأضجره . . . بعواطفى وضعنى ! ألا تستطيع أن تهدينى يا دمترى بروكوفتش الى الطريقة التى يمكننى أن أعمد اليها فى معاملته ؟ لقد طاش صوابى تماماً . . .

— لا تلقى عليه أسئلة كثيرة ، اذا رأيته يعبس أو يتجهم . ولا تسأليه عن صحته خاصةً ، فانه لا يحب هذا .

— آه يا دمترى بروكوفتش ، ما أصعب الأمومة ! وانظر الى هذا السلَّم ! يا له من سلَّم فظيع !

قالت دونيا ملاطفةً :

— ماما ، انك شاحبة الوجه جداً ، هدئى روعك يا يمامتى ! ينبغى ان يكون سعيداً بلقائنا ، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب ؟

هذا ما أضافته وقد سطعت عيناها .

— انتظرا ، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه .

باطأت السيدتان خطاهما ، وتقدمَّهما رازوميخين على السلَّم . فلما وصلتا الى الطابق الرابع لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً ، ورأتا فى الظلام عينين سوداوين حادتين جداً كانتا ترقبانهما . فلما التقت النظرات أُغلق الباب بشدة ، فقرقع قرقعة بلغت من القوة أن بولخيريا الكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعباً .

الفصل الثالث

استقبلهم زوسيموف قائلاً فى فرح : «هو بخير ، هو بخير» . ان زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق ، وقد جلس فى ذلك المكان نفسه الذى جلس فيه بالأمس ، على ركن من الديوان . وكان راسكولنيكوف يجلس فى الركن المقابل ، مرتدياً ثيابه كاملةً ، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره ، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة . امتلأت الغرفة دفعةً واحدةً ، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين ، وبقيت تنصت الى الحديث .

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً ، ولا سيما اذا قورنت بما كانت عليه أمس . كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب شارد الفكر متجهم النفس . فاذا نظرت اليه كنت كمن ينظر الى رجل أصابه جرح بالغ ، أو عانى ألماً جسمياً حاداً . كان مقطَّب الحاجبين ، مكزوز

الشفتين ، محموم النظرة . وكان لا يتكلم الا قليلاً ، فاذا تكلّم تكلّم على مضض ، كأنه يقوم بواجب ، وكان فى حركاته أحياناً نوع من قلق .

ليس ينقصه الا ضماد فى الذراع أو عصبة من قماش فى الاصبع حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أُصيب بداحوس أليم ، أو جرح موجع أو أى شىء آخر من هذا القبيل .

على أن هذا الوجه الشاحب المتجهم بدا أنه يتألق لحظةً حين دخلت الأم والأخت . غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف الى الذهول المتجهم تعبيراً عن ألم مكثف . وسرعان ما انطفأ الألق ، وبقى الألم . ولم يفت زوسيموف الذى كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشغف طبيبٌ فى بدايات ممارسته مهنته ، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه ، بغير قليل من الدهشة ، حين وصلت أسرته ، نوعاً من تصميم أليم خفى ، يشبه التصميم الذى يقوم فى نفس انسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله ، بدلاً من الفرح . وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذى جرى حينذاك كانت كأنها تثير وتنكأ جرحاً لدى المريض . ولكن الطبيب قد أدهشه فى الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة ، فاستطاع أن يخفى هذه العواطف ، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال ، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة .

قال راسكولنيكوف وهو يقبّل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذا ما جعل وجه بولخيريا الكسندروفنا مشرقاً) :

— نعم ، ألاحظ أنا نفسى أننى شُفيت .

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميخين وهو يصافحه بمودة :

— لا أقول هذا مثلما قلته أمس !

سُرَّ زوسيموف كثيراً من وصول الزوار ، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التى قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث ، فبدأ كلامه يقول :

— حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم . فاذا استمر هذا التحسن ، فلن تنقضى ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً ، أعنى كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة .

ثم أضاف الى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة ، كأنه يخشى أن يثير غضبه :

— ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة ، هه ؟ اعترف أن بعض الذنب فى ذلك يرجع اليك . . .

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود :

— جائز جداً .

تابع زوسيموف كلامه فقال متحمساً :

— أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصةً . أودُّ أن أقنعك الآن ، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً ، انه ينبغى علينا القضاء على الأسباب الأولى ، الأسباب الأساسية ان صح التعبير ، التى ولّدت مرضك . فاذا فعلت ذلك شفيت ، والا تفاقم مرضك . أنا لا أعرف ما هى تلك الأسباب ، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت . فأنت شاب ذكى ، ولا شك أنك لاحظت نفسك . ويخيَّل الىَّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً . فما ينبغى اذن أن تبقى عاطلاً عن أى عمل يشغلك . أعتقد أن عملاً موجهاً الى غاية محدَّدة سيحسن اليك كثيراً .

— نعم ، نعم . أنت على حق تماماً . سأعيد تسجيلى فى الجامعة . وعندئذ سيجرى كل شىء . . . على ما يرام .

كان بين أهداف زوسيموف من اسداء نصائحه الحكيمة

تلك أن ينال اعجاب السيدتين ، لذلك كان طبيعياً أن يرتبك بعض الارتباك وأن يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من القاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى فى وجهه سخريةً ظاهرة لا تخفى . على أن ذلك لم يدم الا لحظة . فان بولخيريا الكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض فى شكر زوسيموف ، وتعبر له خاصةً عن امتنانها من زيارته لهما فى الشقة المفروشة فى الليلة الماضية .

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً :

— كيف ؟ هل ذهب اليكما ليلاً ؟ اذن لم تناما بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة ؟

— فى الساعة الثانية كان كل شىء قد انتهى يا رروديا .

وقد ألفنا ، أنا ودونيا ، فى بيتنا ، أن لا ننام قطُّ قبل الساعة الثانية من الصباح .

واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة ، وأطرق الى الأرض :

— أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره . . .

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال :

— بصرف النظر عن الناحية المالية — معذرةً اذا أنا أشرت الى هذه الناحية ! — فاننى لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك . حقاً اننى لا أفهم . . . لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسى . . . أقول لك هذا بصراحة تامة .

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملاً :

— لا تثورنْ أعصابك يا صاحبى . افرض أنك أول زبائنى . ان الطبيب الذى ما يزال فى بداية ممارسته يدلِّل دائماً زبائنه الأول ، حتى لقد يُشغف ببعضهم . وأنت تعلم أن زبائنى ليسوا كثُراً حتى الآن .

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومئ الى رازوميخين :

— ناهيكم عن هذا . . . الذى لم ينل منى الا أنواع التصديع وضروب الاهانة .

هتف رازوميخين قائلاً :

— أسخافات جديدة ؟ هأنت ذا قد أصبحت «عاطفياً» ! ألا انه لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر «عاطفية» ، بل شىء آخر هو نقيض العاطفية تماماً . وقد لاحظت آفدوتيا رومانوفنا ذلك . وكانت تراقب أخاها فى قلق .

وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه فى هذا الصباح نفسه فقال :

ـــ أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم . اننى لم أدرك الا اليوم مدى العذاب الذى لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظرينني هنا .

قال ذلك ومدَّ يده الى أخته على حين فجأة مبتسماً دون أن يقول كلمة . ولكن شعوراً صادقاً يظهر فى ابتسامته هذه المرة . فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة اليها ، فتصافحها بحرارة ، سعيدةً شاكرة . هذه أول مرة يتجه فيها الى أخته بعد الشقاق الذى وقع بينهما أمس . وأشرق وجه الأم سعادة حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته .

همس رازوميخين يقول متحمساً وهو يستدير بقوة على كرسيه :

ـــ هذا ما يعجبنى فيه ! ان له دائماً اندفاعات كهذه !

وقالت الأم لنفسها : «وما أجمل الطريقة التى اتبعها ! ما أنبلها من بادرة ! ما أحلاها من حركة بسيطة رقيقة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذى قام بينه وبين أخته ! لقد كفاه أن يمد اليها يده ، فى هذه اللحظة ، وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان . . . وما أجمل عينيه ! ما أجمل وجهه كله ! . . ألا انه لأجمل حتى من دونيتشكا . . . ولكن رباه ! ما هذه الثياب التى يرتديها ! ما أردأ ملابسه ! ان الخادم فى دكان آفاناسى ايفانوفتش ، الخادم فاسيا ، يرتدى ثياباً أحسن من ثيابه ! أواه . . . لشد ما أحب أن أندفع اليه فأعانقه و . . . آخذ أبكى . . . لكننى أخاف ، أخاف جداً ! . . انه غريب الأطوار يا رب ! هو يتكلم برقة وحنان ، ومع ذلك أنا خائفة ! عجيب ، ممَّ أنا خائفة ؟»

استأنفت كلامها فجأةً ، اذ سارعت ترد على ملاحظة ابنها ، فقالت له :

ـــ آه يا روديا ! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء ، أنا ودونيتشكا ، أمس . أما وقد انتهى هذا الآن ، أما وأنه انقضى فأصبحنا جميعاً سعداء من جديد ، فاننا نستطيع أن نرويه لك . تصور أننا هرعنا الى هنا لنقبِّلك ، منذ نزلنا من القطار ، فقالت لنا تلك المرأة . . . هه . . . ها هى ذى . . . نعمت صباحاً يا ناستاسيا . . . نعم ، قالت لنا هذه المرأة . . . هكذا فجأةً . . . انك كنت فى السرير تعانى من حمى حارة ، ثم هربت وأنت تهذى هذياناً شديداً ، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً ، وأنهم ركضوا يبحثون عنك فى الشارع . لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر ! . . لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التى انتهى اليها الملازم بوتانتشيكوف ، أحد أصحابنا القدماء ، صديق أبيك ـــ ألا تتذكره يا روديا ـــ الذى كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط فى بئر الحوش ، ولم يمكن اخراجه منه الا فى الغد . وقد غلونا طبعاً فى تصور خطورة حالتك . وتمنينا أن نركض نبحث عن بيوتر بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل . . . لأننا كنا وحيدتين ، وحيدتين تماماً . . .

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع . لكنها أمسكت عن الكلام فجأة ، لأنها تذكرت أن الكلام عن بيوتر بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشىء ، «رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد» .

جمجم راسكولنيكوف يقول مجيباً :

ـــ نعم نعم ، هذا كله مؤسف طبعاً . . .

ولكن هيئته كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت اليه مشدوهة .

وتابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته :

— ماذا كنت أريد أن أقول لكما أيضاً ؟ هـا . . . نعم . . . أرجوك يا أمى ، وأرجوك أنت يا دونيتشكا ، أن لا يذهب بكما الظن الى أننى كنت لا أنوى أن أسبقكما الـى الذهاب اليكما ، وأننى انتظرت أن تجيئا أنتما اليَّ .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول مدهوشة هى أيضاً :

— ما هذا الذى تقوله يا رروديا ؟

وقالت دونيا لنفسها : «ما باله ؟ أتراه لا يجيبنا الَّا من باب القيام بالواجب ؟ انه يصالحنا ويستغفرنا ، ولكن كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً» .

— لقد أردت منذ صحوت أن أذهب اليكما ، لكن مسألة الثياب أخّرتنى . . . لقد نسيت أمس أن أقول لها ، أعنى أن أقول لناستاسيا أن . . . تغسل هذا الدم . ولم أستطع أن أرتدى ثيابى الا الآن .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تسأله فى قلق :

— الدم ؟ أى دم ؟

فأجابها :

— لا تقلقى ، ليس الأمر بذى بال . هذا الدم سببه أننى ترنحت قليلاً أمس ، بسبب الهذيان ، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة . . . هو موظف . . .

قاطعه رازوميخين قائلاً :

— هذيان ؟ ولكن هأنت ذا تتذكر كل شىء !

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة تنم على الهم :

— صحيح . . . أتذكر كل شىء ، حتى أدق التفاصيل . ولكن لماذا فعلت كيت وكيت ، لماذا ذهبت الى مكان كذا ، لماذا قلت ذلك الشىء فى ذلك المكان ، هذا ما لا أستطيع أن أفسّره لنفسى .

تدخل زوسيموف فقال :

— هذه ظاهرة معروفة جداً . رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع ، ببراعة فائقة وحذق مدهش ، ثم يبقى الباعث عليه والدافع اليه مموَّهاً ، لارتباطه بمشاعر مَرَضية شتى . فكأن الأمر كله حلم من الأحلام .

قال راسكولنيكوف لنفسه : «انه لحظ موفق أن يعدنى أشبه بمجنون !»

قالت دونيا وهى تلقى على زوسيموف نظرة قلقة :

— ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً ؟

فأجابها زوسيموف قائلاً :

— هذه ملاحظة سديدة جداً ، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقريب نشبه المجانين حقاً فى كثير من الأحيان ، مع فرق واحد مع ذلك هو أن «المرضى» مجانين أكثر منا قليلاً ، فمن الضرورى أن نميِّز ههنا درجات . أما الانسان «السوى» ، فمن الواجب أن نقول انه لا يكاد له وجود . قد نجد فرداً سوياً ، أو فرداً قريباً من السوى ، بين عشرات الألوف وربما مئات الألوف من الأفراد .

اربدَّت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمـة «المجانين» هذه التى أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا تروٍ أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضَّل . وكانت تطوف على شفتى راسكولنيكوف الذى ما يزال جالساً ، كانت تطوف على شفتيه

اللتين زال عنهما لونهما ، ابتسامة تنم على أنه كان مسترسلاً في أحلام عميقة .

صاح رازوميخين يسأله بسرعة شديدة :

— هيه ، لقد قاطعتك . . . ما حكاية الرجل الذى داسته العربة ؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة :

— ماذا ؟ آ . . . نعم . . . لقد تلوثت بالدم حين ساعدت فى نقله الى بيته . . . بالمناسبة يا أمى : لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر . حقاً لم أكن أملك كل عقلى . لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل ، أمس ، كل المال الذى أرسلته الىَّ . . . من أجل دفنه . . . هى الآن أرملة ، مصدورة ، انها امرأة شقية فقيرة . . . عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين . . . ما من قرش واحد فى بيتهم . . . وهناك أيضاً بنت . . . لعلكما كنتما ستفعلان ما فعلته أنا لو كنتما فى مكانى . طبعاً لم يكن من حقى أن أفعل ذلك ، أنا أعترف بهذا . . . لأننى أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال . فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق فى ذلك والا : «Crever, chiens, si vous n'êtes pas contents» [1]

أليس الامر كذلك يا دونيا ؟

قال راسكولنيكوف هذا وضحك .

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول :

— لا ، ليس الأمر كذلك !

---

[1] «موتوا أيها الكلاب اذا لم تكونوا راضين» (بالفرنسية فى الاصل) .

فدمدم يقول وهو يلقى عليها نظرة توشك أن تكون كارهة ، وتطوف بشفتيه ابتسامة ساخرة :

— ها . . . أنت أيضا تزخرين بنيات طيبة . كان ينبغى لى أن أفهم هذا ! . . ذلك جميل جداً على كل حال . . . ربما كان ذلك أفضل ! . . اذا وصلت الى نقطة لا تجسرين أن تتخطيها فسوف تشقين ، واذا تخطيتها فربما شقيت أكثر . ثم ان هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً ، نادماً على أنه استسلم لاندفاعه) . وانما أردت يا أمى أن أعتذر اليك ، وأن استغفرك .

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوت جازم حاد .

قالت الأم راضية كل الرضى :

— كل ما تفعله يا روديا فهو خير . أنا واثقة بهذا .

فأجابها بابتسامة مصطنعة :

— لا تثقى كل هذه الثقة !

أعقب ذلك صمت . لقد كان الحديث كله متوتراً جداً ، سواء فى الصمت ، وفى المصالحة ، وفى الغفران . وكان الجميع يحسون ذلك .

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر الى أمه وأخته بطرف عينه : «لكأنهما خائفتان منى حقاً» . والحق أن بولخيريا الكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد صمتها .

ووومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف : «أنا انما كنت أحبهما اذن من بعد» .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فجأة :

— هل تعلم يا روديا ؟ لقد ماتت مارفا بتروفنا !

— من هى مارفا بتروفنا ؟

— عجيب ! مارفا بتروفنا سفيدريجايلوفا . حدثتك عنها طويلاً فى رسالتى !

— آ . . . آ . . . نعم . . . تذكرت ! اذن ماتت ؟ آ . . . حقاً ؟ . . (قال ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم) . ماتت . . . أصحيح أنها ماتت ؟ ممَّ ماتت ؟

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع :

— ماتت فجأة . حدث ذلك يومَ أرسلت اليك رسالتى . تصور ! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرجل الرهيب هو سبب موتها . يقال انه كان قد ضربها ضرباً فظيعاً .

سأل راسكولنيكوف أخته :

— هل كان ذلك من عاداتهما ؟

— لا ، بالعكس . كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها ، بل ولطيفاً جداً فى معاملتها . وكان فى كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح فى تصرفه ازاء طبع زوجته . ولكن ذلك دام سبع سنين ، فلعله فقد صبره على حين فجأة .

— اذن لم يكن فظيعاً الى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين . لكأنك تعذرينه يا دونيتشكا .

— لا ، لا ، انه رجل فظيع ! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه .

كذلك أجابت دونيتشكا وهى تكاد ترتجف . وقطبت حاجبيها وغرقت فى أفكارها .

وأسرعت بولخيريا ألكسندروفنا تتابع كلامها فقالت :

— ضربها فى الصباح فأمرت بعد ذلك باعداد العربة

لتذهب الى المدينة بعد الغداء رأسا ، لأنها تذهب الى المدينة دائماً فى مثل تلك الحالات . يقال انها التهمت غداءها بشهوة قوية .

— بعد أن ضُربت ؟

— نعم ، هذه عادة من عاداتها . وما ان انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر فى الذهاب الى المدينة . انها تعالج نفسها بالحمامات . ان لديهم ينبوع ماء بارد ، فهى تستحم به بانتظام واطراد كل يوم . ولكنها ما ان غطست فى الماء حتى أصيبت بالسكتة .

قال زوسيموف معقّباً :

— لا غرابة !

— وهل ضربها ضرباً شديداً جداً ؟

قالت دونيا :

— أى قيمة لهذا ؟

وقال راسكولنيكوف فجأة ، فى اهتياج وبلهجةٍ ليس هناك شىء يمكّن من التنبؤ بها :

— هِمْ . . . ثم ما قيمة قصَّ سخافات من هذا النوع يا أمى ؟

فقالت بولخيريا الكسندروفنا :

— آه يا بنى ! . . انما أنا رويت هذه الأمور لأننى أصبحت لا أعرف عمَّ ينبغى أن أتكلم !

فقال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة من جديد :

— أتراكم تخافون جميعاً منى ؟

قالت دونيا وهى تحدق الى عينى أخيها بنظرة ثابتة :

— هذا صحيح . حتى ان ماما قد رسمت

اشارة الصليب قبل صعودها السلم ، من شدة خوفها .
تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكأنه أصيب بالتشنج .
فتمتمت بولخيريا الكسندروفنا تقول مرتبكةً كل الارتباك :
— آه . . . ما هذا الذى تقولينه يا دونيا ؟ لا تزعل يا روديا ، أرجوك . . . لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا ؟ صحيح أننى طوال مدة الرحلة ، فى القطار ، كنت أتخيَّل كيف سنلتقى ، وما الذى سيقوله بعضنا لبعض . . . وقد بلغت من شدة السعادة أننى لم أشعر بالرحلة . ولكن ما هذا الذى أقوله ؟ اننى ما زلت سعيدة . . . الآن أيضاً أنا سعيدة . . . ما كان ينبغى لك يا دونيا أن تقولى هذا الكلام . . . اننى سعيدة يا روديا ، ان رؤيتك تجعلنى سعيدة . . .
فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه مرتبكاً ، وهو يشد على يدها دون أن ينظر اليها :
— كفى يا ماما . سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً !
ولكنه ما ان قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة ، واصفرَّ وجهه ، وعاوده ذلك الاحساس الرهيب الذى يعرفه حق المعرفة ، الاحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه ، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة ، وبأنه لن يستطيع أن يكلم أحداً بعد الآن بقلب مفتوح فى يوم من الأيام ، بل وأنه لن يستطيع بعد الآن أن يتكلم فى أمرٍ من الأمور أياً كان . وبلغ الاحساس الذى ولّدته هذه الفكرة فى نفسه من شدة الايلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة ، فنهض واتجه نحو الباب قُدُماً لا يلوى على شىء ولا ينظر الى أحد .
هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه :
— ماذا تفعل ؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس ، وأجال بصره حواليه صامتاً .
فكان الجميع يتأملونه مشدوهين .
وهتف يقول فجأة :
— حقاً انكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم فى النفس ! هلَّا قلتم شيئاً ! ما بالنا نبقى جالسين هكذا ! تكلمـــوا ! تكلموا ! سوف نتكلم . . . معاً ! أنجتمع ثم لا نقول شيئاً ؟ هيَّا قولوا شيئاً ! هلموا !
قالت بولخيريا الكسندروفنا وهى ترسم اشارة الصليب :
— الحمد للّه . لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس .
وقالت آفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابةً :
— ما بك يا روديا ؟
فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة :
— لا شىء . . . لا شىء . . . تذكرت سخافة مـــن السخافات !
دمدم زوسيموف يقول ناهضاً من الديوان :
— اذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات ، فهذا يبعث على الاطمئنان . والا كان يمكن أن افترض . . .
ثم أضاف :
— على كل حال ، يجب أن أنصرف . قد أجىء لأراك ، اذا أنا وجدتك !
وحيَّا وخرج .
قالت بولخيريا الكسندروفنا :
— يا له من رجل رائع !
فقال راسكولنيكوف فجأة بسرعة شديدة غير متوقعة ، وبحرارة أشدَّ مما أظهر من حرارة حتى الآن :

— نعم ، هو رجل رائع ، مدهش ، مثقف ، ذكى . . . لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضى . ولكن يبدو لى أننى سبق أن التقيت به .

ثم أضاف وهو يومئ الى رازوميخين باشارة من رأسه :

— وهذا أيضاً رجل ممتاز !

ثم التفت الى أخته يسألها وقد أخذ يضحك فجأةً لا يدرى أحد لماذا :

— هل يعجبك يا دونيا ؟

فاجابته دونيا قائلة :

— كثيرا .

قال رازوميخين وهو ينهض محمرَّ الوجه من الخجل والاضطراب :

— يا للأحمق !

وابتسمت بولخيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة ، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً .

— ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

— أنا أيضاً مشغول .

— لا لستَ مشغولاً بشىء البتة ، ابقَ ! لا يكفى أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً . لا ، لا تذهب ! ثم كم الساعة الآن ؟ الثانية عشرة ؟ ما أجمل هذه الساعة التى تحملينها يا دونيا ! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد ؟ لا يتكلم أحد غيرى هنا !

أجابت دونيا :

— هى هدية من مارفا بتروفنا .

وعقَّبت بولخيريا الكسندروفنا تقول :

— وقد كلفت ثمناً غالياً جداً .

— هى ضخمة جداً بالقياس الى ساعة نسائية .

— أحب للساعات أن تكون ضخمة هكذا .

وقال رازوميخين لنفسه : «ليست هديةً من الخطيب اذن» ، وابتهج لهذا دون أن يدرى كثيراً لماذا !

وقال راسكولنيكوف :

— تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

— لا ، انه لم يقدم الى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر الى أمه التى ذهلت من انتقاله الى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اللهجة التى قاله بها :

— آ . . . آ . . . هل تذكرين يا أمى أننى عشقت وأننى أردت أن اتزوج ؟

— نعم أتذكر يا بنى .

وتبادلت بولخيريا الكسندروفنا نظرة مع دونيتشكا ورازوميخين .

— هِمْ . . . نعم . وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً ؟ لقد نسيت فأصبحت لا أتذكر . . .

وتابع كلامه وهو يطرق الى الأرض ويصبح شارد الذهن حالماً من جديد :

— كانت فتاة ممراضاً . . . ممراضاً جداً . وكانت تحب أن تتصدق على المتسوِّلين . وكانت تحلم بالدير . . . وقد أجهشت باكية فى ذات يوم حين حدثتنى عن ذلك . نعم . . . نعم . . . أتذكر تذكراً كاملاً . لا يمكن أن يقال انها كانت جميلة ! حقاً . . . لا أدرى لماذا تعلقت بها . ربما لأنها كانت دائماً مريضة . وأحسب أنها لو كانت عرجاء أو حدباء لأحببتها

أكثر . (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة) . كان ذلك نوعاً من جنون الربيع !

قالت دونيا مندفعة :

— لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع .

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة منتبهة . ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه . ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر ، فمضى الى أمه ، فقبّلها ، وعاد يجلس فى مكانه .

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب :

— أما زلت تحبها ؟

— هى ؟ ما زلت أحبها ؟ آ . . . نعم . . . أنت تتكلمين عنها . . . لا . . . ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر . . . انقضى زمان طويل . . . انقضى زمان طويل . . . لا هـذا فحسب . . . بل ان كل ما يجرى حولى الآن فكأنه يجرى فى عالم آخر . . .

قال راسكولنيكوف ذلك ، ونظر اليهم بانتباه ثم أردف يقول :

— أراكم ، أنا أنظر اليكم الآن ، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ منى . . . ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء ؟ ثم لماذا تسألوننى ؟ (أضاف ذلك غاضباً ، وصمت ، وأخذ يقضم أظافره ، وغاب فى أحلامه من جديد) .

وقطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت الأليم ، اذ قالت فجأة :

— ما أردأ مسكنك يا روديا ! انه أشبه بتابوت ! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك !

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة :

— المسكن . . . نعم . . . لا بد أن لمسكنى هذا دخلاً فى الأمر . . . أنا أيضاً خطر ببالى هذا .

ثم أضاف يقول فجأة وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

— ولكن ليتك تعلمين عن أية فكرة غريبة عبَّرتِ أنت الآن يا أمى !

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع ، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين ، وهذه اللهجة الحميمة فى الحديث ، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شىء ، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق اطلاقاً . غير أن هناك مسألةً لا تحتمل مناقشتها ارجاء ، مسألةً كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلَّها فى هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى . وها هو ذا يحس الآن بالارتياح حين اتخذ **هذه المسألة** وسيلةً للخروج من مأزقه .

بدأ كلامه فقال بلهجة جدية قاسية :

— اسمعى يا دونيا . أنا طبعاً استغفرك عمَّا جرى أمس ، ولكننى أرى أن من واجبى أن أذكِّرك بأننى ما زلت مصراً على الشىء الأساسى من أقوالى . إما أنا واما لوجين . قد أكون أنا أسوأ الناس طراً ، ولكن ما ينبغى أن تكونى أنت كذلك . يكفى أن يكون أحدنا سيئاً . اذا تزوجت لوجين ، فلن أعدَّك أختى .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول بمرارة :

— روديا ، روديا ! ها نحن اذن نعود الى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك «أسوأ الناس طراً» ؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه . . .

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، قاسية كلهجته :

أكثر . (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة) . كان ذلك نوعاً من جنون الربيع !

قالت دونيا مندفعة :

ـــ لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع .

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة منتبهة . ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه . ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر ، فمضى الى أمه ، فقبّلها ، وعاد يجلس فى مكانه .

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب :

ـــ أما زلت تحبها ؟

ـــ هى ؟ ما زلت أحبها ؟ آ . . . نعم . . . أنت تتكلمين عنها . . . لا . . . ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر . . . انقضى زمان طويل . . . انقضى زمان طويل . . . لا هـذا فحسب . . . بل ان كل ما يجرى حولى الآن فكأنه يجرى فى عالم آخر . . .

قال راسكولنيكوف ذلك ، ونظر اليهم بانتباه ثم أردف يقول :

ـــ أراكم ، أنا أنظر اليكم الآن ، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ منى . . . ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء ؟ ثم لماذا تسألوننى ؟ (أضاف ذلك غاضباً ، وصمت ، وأخذ يقضم أظافره ، وغاب فى أحلامه من جديد) .

وقطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت الأليم ، اذ قالت فجأة :

ـــ ما أردأ مسكنك يا روديا ! انه أشبه بتابوت ! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك !

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة :

ـــ المسكن . . . نعم . . . لا بد أن لمسكنى هذا دخلاً فى الأمر . . . أنا أيضاً خطر ببالى هذا .

ثم أضاف يقول فجأة وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـــ ولكن ليتك تعلمين عن أية فكرة غريبة عبَّرتِ أنت الآن يا أمى !

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع ، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين ، وهذه اللهجة الحميمة فى الحديث ، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شىء ، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق اطلاقاً . غير أن هناك مسألةً لا تحتمل مناقشتها ارجاءً ، مسألةً كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلَّها فى هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى . وها هو ذا يحس الآن بالارتياح حين اتخذ **هذه المسألة** وسيلةً للخروج من مأزقه .

بدأ كلامه فقال بلهجة جدية قاسية :

ـــ اسمعى يا دونيا . أنا طبعاً استغفرك عمَّا جرى أمس ، ولكننى أرى أن من واجبى أن أذكِّرك بأننى ما زلت مصراً على الشىء الأساسى من أقوالى . إما أنا واما لوجين . قد أكون أنا أسوأ الناس طراً ، ولكن ما ينبغى أن تكونى أنت كذلك . يكفى أن يكون أحدنا سيئاً . اذا تزوجت لوجين ، فلن أعدَّك أختى .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول بمرارة :

ـــ روديا ، روديا ! ها نحن اذن نعود الى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك «أسوأ الناس طراً» ؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه . . .

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، قاسية كلهجته :

— هذا ناشئ عن خطأ ترتكبه يا أخى . لقد فكّرت هذه الليلة ، فاكتشفت قوام خطئك . ان كل شيء ناشئ ، فيما يبدو لى ، عن تصورك أننى أضحّى بنفسى فى سبيل أحد . وهذا ليس صحيحاً البتة . فأنا انما أتزوج تحقيقاً لمصلحتى الخاصة ، لأن حياتى صعبة . طبعاً . . . اذا استطعت فى المستقبل أن أنفع أهلى . . . فسوف يسعدنى ذلك ، ولكن السبب الرئيسى للقرار الذى اتخذته ليس هو هذا . . .

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : «انها تكذب ! يا للمتعجرفة ! انها لا تريد أن تعترف بأنها تحلم أن تكون محسنة . آه ! يا لها من طبائع حقيرة ! حتى حين يحبون ، فكأنهم يكرهون . آه . . . لشد ما أكرههم جميعاً !»

وتابعت دونيا تقول :

— باختصار : أنا أتزوج بيوتر بتروفتش لأننى أختار أهون الشرين . واذ اننى قررت أن أنفّذ كل ما ينتظره منى ، بأمانة واستقامة وشرف ، فاننى أعتقد أننى لا أخدعه . . . لماذا تبتسم ؟

احمرّ وجهها وسطعت عيناها بالحنق .

سألها راسكولنيكوف مبتسماً ابتسامة مسمومة :

— ستنفّذين كل شيء ؟

— الى حد ما . وان الطريقة التى اتبعها بيوتر بتروفتش فى خطبتى قد أفهمتنى على الفور ما ينتظره منى . صحيح أن رأيه فى نفسه عالٍ كثيراً ، ولكننى آمل أن يقدّرنى أيضاً . . . لماذا تضحك من جديد ؟

— وأنت لماذا تحمرّين من جديد ؟ انك تكذبين يا أختى ، تكذبين عامدةً ، بعناد امرأة ، حتى لا تتراجعى أمامى . أنت لا يمكن أن تحترمى لوجين : لقد رأيته وتحدثت معه .

اذن أنت تبيعين نفسك بالمال . اذن أنت تتصرفين تصرفاً دنيئاً على كل حال . وانه ليسعدنى ، أن تكونى على الأقل قادرة على أن تحمرّى خجلاً .

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها :

— هذا غير صحيح . أنا لا أكذب ! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنه يقدرنى حق قدرى ، وأنه يحرص علىّ . لن أتزوجه دون أن أقتنع اقتناعاً جازماً بأننى أستطيع أن أقدره . ومن حسن الحظ أن فى وسعى أن أقتنع بهذا على وجه اليقين فى هذا اليوم نفسه . ليس هذا الزواج دناءة على نحو ما تصف . وهبك على صواب ، وهبنى قررت أن أرتكب عملاً دنيئاً ، أفلا تكون أنت قاسياً حين تقول لى هذا الكلام ؟ لماذا تتطلب منى بطولةً تعجز عنها أنت نفسك ؟ هذا ظلم واستبداد ، هذا عنف وطغيان ! اذا كنت أُشقى أحداً ، فانما أشقى نفسى ! أنا لم أذبح أحداً بعد . . . لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لماذا اصفرّ وجهك هذا الاصفرار فجأة ؟ رودیا ، ماذا بك ؟ رودیا ، عزيزى . . .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا :

— رباه ! لقد بلغتْ من تعذيبه أنه سيُغمى عليه !

— لا ، لا ، لم يحدث شيء ، لا قيمة لهذا . كل ما حدث هو أننى أحسست بشيء من دوار . . . ولكن لم يُغمَ علىّ . انكم تظنون كل شيء اغماءً . هِمْ . . . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : بأية وسيلة ستقتنعين ، فى هذا اليوم نفسه ، بأنك تستطيعين احترامه ، وبأنه يقدرك ؟ ذلك هو ما قلته ، أليس كذلك ؟ يخيل الىّ أنك قلت : «فى هذا اليوم نفسه» ، أم ترانى سمعت خطأً ؟

قالت دونيا :

— ماما ، أطلعى أخى على رسالة بيوتر بتروفتش .

فمدَّت بولخيريا الكسندروفنا الرسالة اليه ، مرتعشةَ اليدين . فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوى ، ولكنه قبل أن يفضَّها نظر الى دونيا مدهوشاً . وقال ببطء ، كأنما وافته فكرة جديدة :

— غريب جداً أننى ثرت هذه الثورة كلها من أجل . . . لماذا هذا الاضطراب كله ؟ تزوجى من تشائين . . .

قال هذا كمن يحدث نفسه ، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ ، وظل برهةً من الوقت ينظر الى أخته مدهوشاً .

وفضَّ الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة لا تعليل لها . ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه . أعاد قراءة الرسالة مرتين . وكانت بولخيريا الكسندروفنا قلقة الى أبعد حدود القلق . وكان الجميع ، من جهة أخرى ، يتوقعون شيئا ما خارقاً .

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظة من تأمل ، فقال وهو يرد الرسالة الى أمه ، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه :

— غريب . هو محامٍ . وله زبائن ، وحتى حديثه لا يخلو من . . . حذلقة . ومع ذلك يحس المرء حين يقرؤه أنه ليس على شىء من تعليم أو ثقافة .

حدثت حركة شاملة : لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً .

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

— ولكنهم جميعا يكتبون هكذا .

— هل قرأت هذه الرسالة ؟

— نعم .

قالت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكةً :

— أطلعناه عليها يا روديا ، و . . . سألناه . . . النصح . . . منذ برهة . . .

فقاطعها رازوميخين يقول :

— هذا أسلوب القضاء لا أكثر . . . ان جميع الأوراق القضائية تُحرَّر الآن بهذا الأسلوب !

— القضاء ؟ نعم . . . صحيح ! . . أسلوب القضاء ورجال الأعمال ! ان أسلوبه ليس أسلوب رجل محروم من أى حظ من ثقافة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً . انه أسلوب رجل من رجال الأعمال .

قالت آفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها الجديدة :

— ان بيوتر بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً ؛ بل انه ليعتز بأنه عصامى شق طريقه بنفسه .

— اذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعوه الى الاعتزاز ! انا لا اعارض . أعتقد أنك انزعجت يا أختى لأننى لم أخرج من هذه الرسالة كلها الا بهذه الملاحظة التافهة ؛ وأنت تظنين أننى تعمدت أن اتشبث بهذه السفاسف لأسخر منك بدافعٍ زعلى . والحق عن ذلك بعيد : ففى صدد موضوع الأسلوب هذا ، انما خطرت ببالى ملاحظة تبدو لى فى هذه الحالة ذات شأن . لقد ورد فى الرسالة تعبير يقول : «لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم» ، وهو تعبير ذو دلالة بليغة فى ذاته ، عدا أنه يشتمل على تهديد : لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً اذا أنا حضرت . فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سيترككما اذا أنتما لم تطاوعاه ، مع أنه هو الذى حملكما على المجىء الى بطرسبرج . فما رأيك ؟ هل يمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن تسوءك لو كتبها هذا (قال

ذلك وهو يومئ الى رازوميخين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أى واحد منا ؟

قالت دونيتشكا متحمسةً :

— لـ . . . لا ! . . لقد أدركت حق الادراك أن فى أسلوبه سذاجة شديدة ، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق فى استعمال قلمه . ان ملاحظتك سديدة جداً يا أخى ، حتى اننى لم أكن أتوقع أن . . .

— نعم ، هذا هو طابع الأسلوب القضائى ، وبالأسلوب القضائى لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا . ولعل لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد . ومع ذلك أريد أن أخيِّب ظنك قليلاً : ان فى هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نميمة فى حقى ، نميمة خسيسة . لئن وهبت بالأمس مالاً لأرملة مصدورة يائسة ، فاننى لم أفعل ذلك «بحجة» دفع نفقات الجنازة ، بل لدفع نفقات الجنازة فعلاً . ثم اننى وضعت هذا المال لا فى يد الفتاة أو فى يد «البنت المعروفة بسوء السمعة» على حد تعبيره ، (وهى الفتاة التى رأيتها بالأمس لأول مرة فى حياتى) وانما وضعت المال فى يد الأرملة نفسها . اننى أرى فى كلامه هذا رغبة شديدة جامحة فى تلطيخ صفحتى ، وفى احداث شقاق بينى وبينكم . هنا يكشف الأسلوب القضائى عن نيات صاحبه بوضوح ، ويدل على تسرع فيه شىء من سذاجة . ان الرجل ذكى ، ولكن لا يكفى أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء . هذا كله يطلعك على حقيقته . ثم اننى . . . لا أعتقد أنه يحترمك كثيراً . لا أقول لك هذا الا لتحيطى علماً . . . ذلك أننى أتمنى لك الخير صادقاً كـــل الصدق .

لم تجب دونيا . كانت قد اتخذت قرارها منذ مدة ، فهى تنتظر حلول المساء .

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها ، وقد اشتد قلقها بسبب أقواله الجديدة المفاجئة التى تتناول موضوع **الأعمال** .

— فماذا قررت يا روديا ؟

— ماذا تعنين بقولك «ماذا قررت» ؟

— ان . . . بيوتر بتروفتش يطلب فى رسالته أن لا تجىء الينا هذا المساء ، وانه سينصرف اذا أنت جئت . فهل . . . تجىء ؟

— لست أنا من يجب أن يقرر . وانما ينبغى أولاً أن تقررى أنتِ : هل تجدين فى طلب بيوتر بتروفتش اهانة لك ام لا ؛ وينبغى ثانياً أن تقرر دونيا : هل هى أيضاً مستاءة من هذا الطلب أم لا .

وأضاف راسكولنيكوف يقول ببرود :

— أما أنا فسأفعل ما يناسبكما كلتيكما .

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيب :

— لقد اتخذت دونتيشكا قرارها وانتهى الأمر ؛ وأنا أوافقها كل الموافقة .

قالت دونيا :

— نعم ، لقد قررت يا روديا . . . قررت أن أطلب منك ، ملحةً مصرَّة ، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء . هل تجىء ؟

— سأجىء .

والتفتت دونيا الى رازوميخين فقالت له :

— وأنت أيضاً . . . أرجوك أن تكون عندنا فى الساعة

الثامنة . يا أمى ، اننى أدعوه أيضاً .

قالت بولخيريا الكسندروفنا :

— هذا حسن جداً يا دونيا .

ثم أضافت :

— ليكن ما تقرران . ثم اننى أنا نفسى أوثر هذا . اننى لا أحب أن أتظاهر وأن أكذب . نعم ، الأفضل أن نقول الحقيقة كلها . . . اغضب أو لا تغضب يا بيوتر بتروفتش !

الفصل الرابع

فى تلك اللحظة فُتح الباب برفق ، ودخلت الغرفة فتاة تلقى على ما حولها نظرات وجلى . فالتفت الجميع نحوهـــا مدهوشين مستطلعين . ولم يتعرفها راسكولنيكوف فى الوهلة الأولى . انها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا . كان قد رآها أمس أول مرة ، ولكنه رآها فى لحظة خاصة وظروف خاصة ، ورآها مرتديةً ثياباً خاصة ، فكانت صورتها المنقوشة فى ذاكرته صورة انسانة أخرى غير هذه التى يراها الآن . هى فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس ، تبدو فى ميعة الصبا حتى لكأنها بنية صغيرة ، متحفظة الحركات محتشمة ، نقية الوجه على شىء من خوف ووجل ، ترتدى ثوباً بسيطاً مما يُلبس كل يوم ، وتضع على رأسها قبعة بالية الزى ، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالأمس . فلما رأت ، على دهشة شديدة منها ، أن الغرفة تغصُّ بالناس ، لم تضطرب فحسب ، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها ، ووجلت كطفلة صغيرة وتحركت تهمُّ أن تنسحب .

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة :

— آ . . . أهذا أنت ؟

وفقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه .

وسرعان ما تذكَّر أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود هذه الآنسة «المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس» . وقد احتج هو منذ قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس ، وها هى ذى تدخل عليه الآن بشخصها فجأة . وتذكَّر أيضاً أنه لم يحتج أى احتجاج على ما ورد فى رسالة لوجين من أن «البنت معروفة بسوء السمعة» . ومض ذلك كله فى ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق . ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر ، رأى أنها مخلوقة مسكينة مُذلَّة ، مُذلَّة الى حدٍ كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة . فلما تحركت تهمُّ من رعبها أن تهرب ، كان هو قد شعر بهزة شديدة ، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره :

— لم أكن أتوقع مجيئك البتة . هلاَّ سررتنى فجلست . لا شك أنك آتية من قِبَل كاترينا ايفانوفنا . من فضلك . لا ، ليس هنا . بل هنا . اجلسى هنا .

حين دخلت صونيا ، كان رازوميخين جالساً بالقرب من الباب على أحد الكراسى الثلاثة التى تضمها غرفة راسكولنيكوف ، فنهض ليفسح لها مجال المرور . وقد دلَّها راسكولنيكوف فى أول الأمر على مكان فى طرف الديوان هو المكان الذى كان يشغله زوسيموف منذ برهة . لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم على رفع الكلفة ، وأنه يتخذ الديوان سريراً له ، أسرع يدلُّها على كرسى رازوميخين . وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذى كان يجلس عليه زوسيموف :

— وأنت ، اجلس هنا .

جلست صونيا وهى تكاد ترتعش من الخوف ، ونظرت الى السيدتين خجلةً وجلة . كان واضحاً أنها لا تفهم هى نفسها كيف تجرأت أن تجلس الى جانبهما . وقد بلغت من الارتياع حين تصورت ذلك أنها نهضت على حين فجأة مضطربة أشدَّ الاضطراب ، وثأثأت تقول متجهةً بكلامها الـــى راسكولنيكوف :

— أنا . . . أنا ما جئت الا لدقيقة واحدة . . . اغفر لى ازعاجك . ان كاترينا ايفانوفنا هى التى أوفدتنى اليك . . . لأنها لم تجد أحداً غيرى يمكنها أن توفده . طلبت منى كاترينا ايفانوفنا أن أرجوك ملحةً . . . أن تحضر غداً قداس الجنازة . . . صباحاً . . . بعد الصلاة . . . فى مقبرة ميتروفان ه . . . وأن تجىء بعد ذلك الينا . . . اليها . . . لتصيب شيئاً من طعام . . . هى ترجوك أن تهب لها هذا الشرف . نعم ، كلفتنى بأن أسألك هذا . . .

قالت صونيا ذلك ، واشتد ارتباكها فصمتت .

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً ، واضطرب هو أيضاً ، وثأثأ يجيبها :

— سأحاول أن أجىء حتماً . . . حتماً . . .

ثم أردف يقول لها فجأة :

— هلاَّ سررتنى فجلست . ان لى حديثاً معك . أرجوك . أنت مستعجلة ولكن أرجوك ، هبى لى دقيقتين !

قال ذلك وقرَّب لها الكرسى . جلست صونيا . وعادت تلقى على السيدتين نظرة سريعة خجلة وجلة ، ثم خفضت عينيها فجأة .

احمرَّ وجه راسكولنيكوف الشاحب ، وتقبضت قسماته ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال بلهجة قاطعة ملحة :

— يا أمى ، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا ، ابنة ذلك السيد المسكين مارميلادوف الذى داسته الخيل مساء أمس على مرأى منى ، والذى سبق أن حدثتكم عنه . . .

ألقت بولخيريا الكسندروفنا نظرة على صونيا وقد زرت عينيها قليلاً . انها لم تستطع ، رغم الخشية التى توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة المتحدية ، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة . أما دونيا فقد حدَّقت الى وجه الفتاة المسكينة فى جد واصرار ، وأخذت تدرسها مدهوشة . وقد أرادت صونيا ، حين سمعت التعريف بها ، أن ترفع عينيها ، ولكنها اضطربت مزيداً من الاضطراب .

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها :

— وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم . ألم تلقوا مضايقات ؟ من جهة الشرطة مثلاً ؟

فأجابت الفتاة :

— لا . . . جرى كل شىء مجرى عادياً . كان لا يمكن أن يشك أحد فى سبب الوفاة . لم يزعجونا . ولكن السكان غاضبون علينا .

— لماذا ؟

— لأن الجثمان بقى مدة طويلة . . . والجو الآن حار ، والرائحة . . . لذلك سينقل الجثمان اليوم الى المقبرة ، عند صلاة الغروب ، فيوضع فى المصلّى الى الغد . كانت كاترينا ايفانوفنا لا تريد ذلك فى أول الأمر ، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى . . .

— اذن اليوم ؟

— لا بل هى ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً . . . فى الكنيسة . . . وبأن تأتى غداً الينا للمشاركة فى الوليمة .

— أهى تقيم وليمة ؟

— نعم ، وليمة جنازة . وقد كلفتنى بأن أشكر لك المساعدة التى تفضلت عليها بها أمس . فلولاك لما ملكنا ما ننفقه على الدفن .

وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأةً ، ولكنها كابرت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها ، ثم أغضت طرفها من جديد .

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً . ان لها وجهاً صغيراً بائساً ، شديد الهزال والنحول ، شاحب اللون ، ليس فى قسماته اتساق كثير ، متكسِّر الخطوط ، بأنف وذقن صغيرين مدببين . حتى ليصعب أن يقال انها لطيفة . ولكن لها فى مقابل ذلك عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء أن وجهها يكتسى حين تتقدان طيبة وسماحة لا يملك المرء ازاءهما الا أن ينجذب اليها . هذا الى أن لوجه صونيا ، ولسائر شخصها ، صفة خاصةً تميزها هى أنها ، على كونها فى الثامنة عشرة من عمرها ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير ، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة . وكان هذا يتجلى أحياناً فى بعض حركاتها ، فيكاد يبعث على الضحك .

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بالحاح :

— ولكن كيف استطاعت كاترينا ايفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال ، حتى لتولم وليمة ؟

— سيكون التابوت بسيطاً جداً . . . وسيكون كل شىء

بسيطاً . . . فلا تكون النفقات باهظة . . . لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترينا ايفانوفنا ، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة . . . لأن كاترينا ايفانوفنا تحرص على هذا أشدَّ الحرص . ليس فى الامكان أن لا . . . ان فى هذا عزاء لها . هذه طبيعتها ، هى هكذا . . . أنت تعرفها . . .

— مفهوم ، مفهوم . . . لماذا تتفحصين غرفتى ؟ أمى أيضاً تقول ان غرفتى أشبه بتابوت .

قالت صونيا تجيبه بنوع من همس قوى سريع ، وهى تخفض عينيها من جديد :

— أنت أعطيتنا بالأمس كل ما كنت تملك . . .

وعادت شفتاها وذقنها تختلج . كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد ، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير ارادة أو شعور تقريباً . وخيَّم بعد ذلك صمت . وأضاءت عينا دونيا . وحتى بولخيريا الكسندروفنا نظرت الى الفتاة فى رضى وبشاشة . ثم قالت وهى تنهض :

— يا روديا ، سنتغدى معاً بالطبع . هلمِّى يا دونيا . أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة ، ثم تستريح : تستلقى قليلاً ، وتجىء الينا بعد ذلك . أخشى أن نكون قد أتعبناك كثيراً .

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجلاً :

— نعم نعم ، سأجىء . ثم أن هناك أعمالاً يجب أن أقوم بها . . .

صاح رازوميخين يقول مدهوشاً وهو ينظر الى راسكولنيكوف :

— أصحيح أنكم لن تتغدوا معاً ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

— نعم نعم ، سأجيء بالطبع . أما أنت يا رازوميخين ، فابق دقيقةً أخرى . لستما فى حاجة اليه على الفور يا أمى ، أليس كذلك ؟ أو ربما حرمتكما منه ؟

— لا ، لا ! . . وأنت يا دمترى بروكوفتش ، هل تصحبنا الى الغداء ؟ هل تتفضل فتقبل أن تصحبنا الى الغداء ؟

وثنَّت دونيا على طلب أمها فقالت هى أيضاً :

— أرجوك ، تعال . . .

انحنى رازوميخين وقد أشرق وجهه فرحاً . وشعر الجميع بنوع من الضيق والحرج الغريب للحظة ما .

— وداعاً يا روديا ، بل الى اللقاء . . . أنا لا أحب أن أقول وداعاً ! وداعاً يا ناستاسيا . . . هوه ! هأناذا أعود فأقول وداعاً ! . . .

ودَّت بولخيريا الكسندروفنا لو تحيى صونيا أيضاً ، ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فأسرعت تخرج من الغرفة .

ولكن آفدوتيا رومانوفنا ، حين مرَّت أمام صونيا بعد أمها كأنها انتظرت دورها فحيَّتها تحيةً فيها كياسة ، بل فيها مودة أيضاً . فاضطربت صونيا ، وانحنت متعجلةً وجلةً ، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم ، كأن ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على نفسها وجعلها تتعذب .

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج فى اثرها الى فسحة السلم :

— استودعك الله يا دونيا ! هلَّا صافحتنى !

فأجابته دونيا وهى تلتفت اليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب :

— ولكننى صافحتك ، هل نسيت ؟

— أى ضير فى أن تصافحينى مرة أخرى ؟

وتناول يدها ، وشدَّ على أصابعها شداً قوياً ، فابتسمت له دونيا ، واحمرَّت ، وسحبت يدها بسرعة ، وهرعت تلحق بأمِّها سعيدة كل السعادة لا تدرى لماذا !

قال راسكولنيكوف وهو يعود الى الغرفة ويلقى على صونيا نظرة صافية مضيئة :

— عظيم ! اللهم اجعل الموتى فى سلام ، وأبق الأحياء على قيد الحياة . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة الى وجهه الذى اضاءه الفرح على حين فجأة . وكان هو يتفرس فيها بعض الوقت بانتباه صامتاً . ثم لم تلبث قصة أبيها الراحل عنها أن عادت الى ذاكرته بغتةً . . . .

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم ، منذ صارتا فى الشارع ، فقالت تخاطب ابنتها :

— رباه ! دونتيشكا ! اننى أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده ! نعم ، اننى أحس كأن حملاً قد أزيح عن صدرى . لو قال لى قائل بالأمس ، فى القطار ، أن ترك ابنى سيسرنى ، فهل كنت أصدِّق ؟

— أكرر لك يا أمى أنه ما يزال مريضاً جداً . هل يمكن أن لا تكونى قد لاحظت ذلك ؟ لعل حزنه الناشئ عن أنه يتألم ويعطف علينا هو الذى جعله فى هذه الحالة . يجب على الانسان أن يكون متسامحاً ، فيمكنه عندئذ أن يغفر أموراً كثيرة ، كثيرة جداً .

فأجابتها بولخيريا الكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة :

— وهل كنت أنت متسامحة ؟ اسمعى يا دونيا : لقد أنعمت النظر اليكما ، فهل تعرفين ماذا لاحظت ؟ لاحظت أنك صورته تماماً ، تشبهينه وجهاً وروحاً ، بل وتشبهينه روحاً أكثر مما تشبهينه وجهاً . كلاكما مكتئب المزاج ؛ كلاكما متجهم النفس ، مندفع الطبع ؛ كلاكما متكبر متعال وسمح كريم . يستحيل أن يكون أنانياً يا دونيتشكا ، أليس كذلك ؟ حين أفكر فيما سيحدث عندنا هذا المساء ، يتجمد قلبى !

— لا تقلقى ياماما ! لن يحدث الا ما يجب أن يحدث .

— ولكن هلَّا فكرت يا دونيتشكا فى الظرف الذى نحن فيه ؟ ماذا لو رجع بيوتر بتروفتش عن وعده ؟

هذا ما أفلت من لسان بولخيريا الكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر . فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار :

— ان ذلك لن يشرِّفه كثيراً !

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقاطعها قائلةً :

— لقد أحسنا صنعاً اذ تركنا روديا . كان يستعجل الخروج لأمرٍ ملح . بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً ، وأن يستنشق هواءً نقياً . الجو خانق فى غرفته ! ولكن أين يمكن أن يتنفس الانسان فى هذه المدينة ؟ حتى فى عرض الشارع يحس المرء أنه فى غرفة بلا نوافذ ! رباه ! يا لها من مدينة ! . . انتبهى . . . ابتعدى . . . كادوا يدوسونك ! هذا بيانو محمول ! آه . . . ما أكثر ما يُصدم المرء هنا ! . . أنا خائفة أيضاً من تلك البنت ! . .

— أية بنت ؟

— صوفيا سيميونوفنا تلك التى كانت . . .

— لماذا أنت خائفة منها ؟

— عندى هواجس يا دونيا . . . صدقينى أو لا تصدقينى . . . ولكننى منذ أن دخلت ، قلت لنفسى ، فى تلك الدقيقة نفسها ، ان كل شىء ربما كان مردهُ الى هذا . . .

هتفت دونيا تقول غاضبةً :

— لا شىء مردُّه الى هذا . . . عجيبة أنت وهواجسك ياماما ! . . انه لا يعرفها الا منذ أمس . . . حتى انه لم يتعرفها حين دخلت !

— سوف ترين ! . . هى . . . سوف ترين . . . سوف ترين ! . . آه . . . ما أشد ما أشعر به من خوف ! كانت تنظر الىَّ ، كانت تنظر الىّ بعينين . . . بعينين لا أدرى ماذا أقول فيهما . . . حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث فى مكانى . . . هل تتذكرين طريقته فى تقديمها الينا وتعريفنا بها ؟ ان الأمر الذى يبدو لى غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بيوتر بتروفتش ذلك الكلام ، ثم اذا روديا يقدمها الينا ، ويقدمها اليك أنت خاصةً ! ذلك دليل أنها عزيزة لديه .

— ما أكثر ما يكتبه الناس ! ألم يكتبوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ أتراك نسيت ذلك ؟ أما أنا . . . فاننى واثقة بأنها انسانة . . . رائعة . . . وأن كل ما قيل عنها ليس الا افتراء . . .

— أسأل الله أن يكون هذا صحيحاً !

— أما بيوتر بتروفتش فليس الا نماماً دنيئاً .

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة ! فتعكر صفو مزاج بولخيريا الكسندروفنا ، وانقطع الحديث .

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة :

— اليك الأمر الذى أريد أن أحدثك فيه . . .

فقالت صونيا متعجلةً وهى تحيى لتنصرف :

— سأقول اذن لكاترينا ايفانوفنا انك ستجىء . . .

— لحظةً يا صوفيا سيميونوفنا . ليس هناك أسرار . انك لا تضايقيننا البتة . . . وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً . . .

قال ذلك ثم التفت الى رازوميخين قبل أن يتم جملته ، فواصل كلامه له قائلاً :

— اليك الأمر . . . أنت تعرف ذلك الرجل الذى يسمى . . . ما اسمه ؟ نعم . . . بورفيرى بتروفتش . . . أنت تعرفه ، أليس كذلك ؟

— أعرفه . نحن قريبان !

ثم أردف يسأل باستطلاع قوى :

— ولكن لماذا هذا السؤال ؟

— أليس هو الذى يحقق فى القضية ، قضية مقتل العجوز ؟ ألم تقل أمس انه هو الذى يحقق فيها ؟

حملق رازوميخين فجأة وسأل :

— طيب وماذا ؟

— لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة ، وأنا لى أشياء مرهونة هناك . . . أشياء صغيرة على كل حال : خاتم أعطتنيه أختى تذكاراً عند سفرى الى بطرسبرج ، وساعة أبى الفضية . والرهنان كلاهما لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة ، لكنهما تذكاران ، وأنا أحرص عليهما . فما الذى يجب علىَّ أن أفعله الآن ؟ لا أريد لهذين الشيئين أن يضيعا ، ولا سيما الساعة . فمنذ قليل ، حين تكلمنا عن ساعة أختى ،

ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألنى أمى أن ترى ساعتى . ان هذه الساعة هى الشىء الوحيد الذى بقى لها من أبى ! فاذا ضاعت هذه الساعة كان يمكن أن تمرض من ذلك أمى . هكذا هنَّ النساء ! فأنا أنتظر منك نصيحة . قل ما علىَّ أن أفعل . أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلى بافادة فى قسم الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن أتجه الى بورفيرى نفسه ؟ ما رأيك ؟ اننى أود أن أسوِّى هذا الأمر بأقصى سرعة . لسوف ترى أن أمى ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء !

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

— لا فائدة من الذهاب الى الشرطة . الأفضل أن نتجه الى بورفيرى . آه . . . أنا مسرور ! نستطيع أن نمضى اليه فوراً . هو على مسافة خطوتين . وسنجده حتماً .

— اذن هلمَّ بنا اليه !

— وسيسرُّه أن يتعرف اليك ! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدة مرات . أمس أيضاً حدثته عنك . هلمَّ نذهب اليه . اذن كنت تعرف العجوز ؟ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! ان كل شىء يترابط ترابطاً را . . . ئعاً ! آ . . . نعم . . . يا صوفيا ايفانوفنا . . .

— صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحَّح راسكولنيكوف) . . . ياصوفيا سيميونوفنا ، هذا الرجل هو صديقى رازوميخين ، وهو رجل طيب . . .

قالت صونيا دون أن تنظر الى رازوميخين مما جعل ارتباكها يزداد :

— اذا كان عليكما أن تخرجا الآن . . .

فقال راسكولنيكوف يحسم الأمر :

— نعم ، فلنخرج . سأجيء اليك فى هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولى لى أين تقيمين ؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك ، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة ، متحاشياً أن ينظر الى الفتاة . ذكرت له الفتاة عنوانها واحمر وجهها . وخرجوا جميعاً .

سأله رازوميخين وهو يهبط السلّم وراءهما :

— أأنت لا تغلق بابك اذن بالمفتاح ؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله :

— أبداً .

ثم أضاف يقول باهمال :

— على أننى أنوى منذ سنتين أن اشترى قفلاً .

ثم قال يخاطب صونيا وهو يضحك :

— ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب بالأقفال ، أليس كذلك ؟

حتى اذا صاروا فى الخارج ، توقفوا عند المدخل .

— أأنت ذاهبةٌ يمنةً يا صوفيا سيميونوفنا ؟ . . بالمناسبة : كيف فعلت حتى استطعت أن تعثرى على بيتى ؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر . لقد ظل طوال الوقت يشتهى أن يتلبث ببصره على عينى الفتاة الصافيتين الهادئتين دون أن يفلح فى ذلك . . .

أجابته صونيا :

— أنت نفسك ذكرت بالأمس لبوليتشكا عنوانك .

— ذكرته لبوليا ؟ آ . . . نعم . . . بوليتشكا ! هى الصغرى . . . هى أختك ! اذن أنا أعطيتها عنوانى ؟

— هل نسيت هذا ؟

— لا . . . الآن تذكرت .

— ثم اننى سمعت أبى الراحل يتحدث عنك . لكننى لم أكن أعرف اسمك . . . وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك . . . فجئت الآن . . . ولما كنت قد عرفت اسمك أمس ، سألت اليوم : «أين يسكن السيد راسكولنيكوف هنا ؟» . . . ولم أكن أعرف أنك تستأجر من الباطن أيضاً . . . أستودعك الله . . . سأقول لكاترينا ايفانوفنا . . .

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودِّع لتنصرف . وسارت خافضةَ العينين ، مسرعةً ، تستعجل الهروب من نظراتهما وأن تقطع العشرين خطوة التى تفصلها عن ناصية الشارع التالية على اليمين ، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطىء ، دون أن تنظر الى أحد ودون أن ترى شيئاً ، أن تفكر وتتذكر وتزن فى ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث . انها لم تشعر طوال حياتها ، بشىء يشبه ما تشعر به الآن . ان عالماً جديداً كاملاً يدخل الى نفسها غامضاً مجهولاً . وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء اليها فى هذا النهار ، وربما فى الصباح ، وربما على الفور .

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف :

— لا ، لا اليوم ، أرجوك ! رباه ! أيجيء الىَّ ، فى هذه الغرفة ؟ . . اذن سوف يرى . . . رباه !

ولم يكن فى وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سيداً مجهولاً كان يتبعها فى تلك اللحظة . كان هذا السيد قد تبعها منذ مدخل العمارة ، حين توقفت هى وراسكولنيكوف ورازوميخين على الرصيف يتبادلون بضع كلمات . وكان هذا السيد المجهول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً ، أثناء مروره بهم ، تلك الكلمات

التى قالتها صونيا : «سألت : «أين يسكن السيد راسكولنيكوف هنا ؟» . فألقى على المتحادثين الثلاثة ، ولا سيما على راسكولنيكوف الذى كانت الفتاة تتجه اليه بالكلام ، نظرة سريعة لكنها منتبهة ، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه . تمَّ ذلك كله بمثل لمح البصر سرعةً ، ودون أن يتوقف ودون أن يلفت نظر أحد ، ثم ابتعد الرجل متباطئ الخطى كمَنْ ينتظر أحداً . كان ينتظر صونيا . ورأى صونيا تودِّع الشابين ، فأدرك أنها ذاهبة الى مسكنها .

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا : «الى مسكنها ! ولكن أين مسكنها ؟ لقد رأيت هذا الوجه فى مكان ما . . . يجب أن أستعلم !»

فلما وصل الى ناصية الشارع انتقل الى الرصيف المقابل ، والتفت فرأى صونيا تسير الآن فى نفس الاتجاه ، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً . فلما وصلت هى أيضاً الى الناصية مضت فى نفس الشارع الذى مضى هو فيه . فأخذ يتبعها دون أن يحوِّل عنها بصره . حتى اذا قطع نحو خمسين خطوة رجع الى الرصيف الذى كانت تسير عليه صونيا ، ولحق بها ، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها .

هو رجل فى نحو الخمسين من عمره ، أطول من وسطى الرجال ، بدين ، عريض المنكبين عالى الكتفين محدودب الظهر ، حسن الملبس أنيق الهندام ، له مظهر سيد من السادة ، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته ، ويداه موشحتان بقفازين جديدين . ان وجهه العريض لا يخلو من وسامة ، وان لبشرته نضارة لا يُرى مثلها فى سكان بطرسبرج . وان شعره أشقر زاه ، ما يزال كثيفاً ، لم يكد يشيب ؛ وان لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً . عيناه زرقاوان لهما بريق كبريق المعدن ، ولهما نظرة ثابتة ملحاح . وشفتاه حمراوان حمرة قوية . انه ، على وجه الاجمال ، رجل ما يزال محافظاً على نضارته ، يبدو أصغر كثيراً من سنه .

فلما وصلت صونيا الى القناة ، كان هو وهى وحدهما على الرصيف ؛ فاستطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبِّر عنه وجهها من ذهول وتفكير . وحين وصلت أمام العمارة التى تسكن فيها ، استدارت فدخلت الباب الكبير ، فتبعها مدهوشاً بعض الدهشة . حتى اذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنةً نحو الركن الذى يوجد فيه السلَّم المفضى الى شقتها . فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه : «عجيب !» ، وأخذ يصعد درجات السلَّم وراءها . وفى تلك اللحظة انما انتبهت اليه صونيا . صعدت صونيا حتى وصلت الى الطابق الثالث ، فسارت فى الرواق ، ثم قرعت جرس باب الشقة ٩ ، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين مكتوبتين بالطباشير : «كابرناوموف ، خيَّاط» . فجمجم السيد المجهول يقول من جديد : «عجيب !» . لقد أدهشته هذه المصادفة الغريبة . وقرع هو جرس باب الشقة المجاورة ، الشقة ٨ ، ان المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات .

قال وهو ينظر الى صونيا ضاحكاً :

— آ . . . أنت تسكنين عند كابرناوموف ! لقد أصلح لى صديرتى أمس . أنا أسكن هنا ، قريباً منك ، عند السيدة ريسليخ ، السيدة جرترودا كارلوفنا ريسليخ . يا لها من مصادفة !

نظرت اليه صونيا بانتباه .

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص :

— نحن اذن جاران . أنا لا أقيم ببطرسبرج الا منذ ثلاثة أيام .

لم تجب صونيا . وفُتح الباب ، فانسلت الى بيتها . كانت تشعر بخجل وعارٍ من شىء ما فاستولى عليها الوجل . . .

كان رازوميخين مضطرباً اضطراباً شديداً فى الطريق الى بورفيرى . وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات :

— هذه فكرة حسنة ! أنا مسرور ، مسرور جداً !

قال راسكولنيكوف لنفسه : «ولكن ممَّ أنت مسرور ؟»

وتابع رازوميخين :

— كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء . هل حدث ذلك منذ مدة طويلة ؟ أقصد : هل منذ مدة طويلة ذهبت اليها ؟

فقال راسكولنيكوف لنفسه : «يا للساذج ! يا للأحمق !»

ثم قال لرازوميخين :

— هل منذ مدة طويلة كنت عندها ؟

وتوقف لحظةً يفكر . ثم قال يجيب صاحبه :

— قبل موتها بثلاثة أيام ، فيما يبدو لى .

ثم أسرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشيائه المرهونة :

— على أننى لا أنوى استرداد أشيائى حالاً . فاننى لم يبق معى الا روبل واحد . . . ومردُّ هذا الى ذلك الهذيان اللعين الذى اعترانى أمس !

وقد نطق كلمة «الهذيان» هذه نطقاً فيه دلالة واصرار .

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدرى لماذا :

— نعم ، نعم . . . ذلك هو السبب اذن فى أنك . . . فى ذلك اليوم . . . آه . . . لشد ما فجأنى ذلك . . . انك ، أثناء هذيانك ، كنت لا تنقطع عن الكلام عن خواتم ، وعن سلاسل ، وعمَّا لا أدرى أيضاً . . . آ . . . نعم . . . اتضح الآن كل شىء . . . اتضحت الأمور . . . أصبح كل شىء واضحاً !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «هكذا اذن ! لقد قامت الفكرة فى أذهانهم ونمت . . . ان هذا الرجل مستعد لأن يُصلب فى سبيلى ، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذى جعلنى أتكلم أثناء الهذيان عن خواتم ، قد اتضح له الآن ! لقد ترسخت الفكرة فى أذهانهم جميعاً !»

ثم سأل صاحبه بصوت عالٍ :

— هل تعتقد أننا سنجده فى بيته ؟

فأسرع رازوميخين يجيبه قائلاً :

— سنجده ، سنجده ! انه شاب شهم يا صاحبى . . . سوف ترى . صحيح أنه أخرق قليلاً . . . وان يكن ممن يرتادون المجتمع الراقى . . . على أننى أجده أخرق من ناحية أخرى ، بمعنى آخر . . . انه شاب ذكى ، ذكى ، ليس بالغبى

البتة . . . ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الغرابة . فهو كثير الشك والريب ، قوى الاشتباه والحذر ، شديد الاستخفاف والاستهتار . . . يحلو له أن يضلّك . . . لا أقصد أن يضلّك ، بل أن يغرّر بك . . . ثم انه يستعمل الأسلوب العتيق . . . أسلوب الوقائع المادية ! ولكنه يجيد مهنته . . . يتقنها ! . . في السنة الماضية حقق فى قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها تقريباً . وهو يرغب كثيراً فى التعرف اليك ، يرغب فى ذلك كثيراً جداً .

— لماذا يرغب فى ذلك كثيراً ؟

— لا بسبب أن . . . وانما لأننى ، فى الآونة الأخيرة ، أثناء مرضك ، اتفق لى أن حدثته عنك مراراً . فكان هو يصغى . . . فلما علم أنك تدرس القانون ، وأنك لم تستطع أن تنهى دراستك بسبب الظروف ، قال : «خسارة !» . . . فاستنتجت من ذلك . . . أقصد . . . من كافة هذه الأشياء مجتمعة . . . لا من ذلك وحده . . . وبالأمس ، قال زاميوتوف . . . اسمع يا روديا ، أمس مساء ، حين كنا عائدين الى بيتك معاً ، كنت أنا سكران جداً ، فلعلنى أسرفت فى الثرثرة ، فأرجو يا روديا أن لا تغلو فى حمل كلامى على محمل الجد . . .

— ماذا ؟ هم يعتقدون أننى مجنون ، أليس كذلك ؟ ولكن قد يكونون على حق .

قال راسكولنيكوف ذلك وابتسم ابتسامة مصطنعة .

— نعم نعم . . . لا بل ! . . دعك من هذا الكلام ! ان كل ما قلته (وسائر ما عداه أيضاً) ليس الا سخفاً . . . ليس الا ثمرة السكر !

صرخ راسكولنيكوف بغضب شديد نصفه تصنع وتظاهر :

— ولكن علام تعتذر ؟ أوه ! . . ما أكثر ما تضجرنى وتزعجنى هذه الأمور كلها .

قال رازوميخين :

— أعرف ، أعرف ، أنا أفهم . ثق اننى أفهم . بل ان الكلام عن هذا كله عار !

— اذا كان الكلام عن هذا كله عاراً ، فلنكف اذن عنه !

صمت الاثنان . كان رازوميخين متحمساً وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك مشمئزاً . وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازوميخين عن بورفيرى منذ هنيهة .

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه : «لهذا الرجل أيضاً سيكون علىّ أن أشكو الفقر ، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة والرثاء . . . وأن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية . ولكن الطريقة الطبيعية هى أن لا أقول شيئاً ، أن لا أقول شيئاً البتة ! ولكن لا . . . ان لا اقول شيئاً البتة هذا أيضا لن يبدو طبيعياً ! . . على كل حال سوف نرى كيف ستجرى الأمور ، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب الى هناك أم لم يكن ذلك من الخير ! . . الفراشة تطير الى لهب الشمعة من تلقاء نفسها . قلبى يخفق . هذا يقلقنى !»

قال رازوميخين :

— هنا ، فى هذه العمارة الرمادية .

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «النقطة الأساسية هى هذه : هل بورفيرى على علم بالزيارة التى قمت بها أمس لمسكن العجوز الشيطانة ، وهل هو على علم بسؤالى عن الدم ؟ يجب

علىَّ أن أعرف هذا منذ أدخل ، من النظرة الأولى ، يجب أن أقرأه فى وجهه لحظة دخولى ، والا فان . . . لأعرفنَّ هذا ولو هلكت !»

وقال يخاطب رازوميخين فجأة ، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

— هل تعرف ماذا لاحظت عليك ؟ لقد لاحظت عليك منذ هذا الصباح ، يا صاحبى ، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً . أأنا مخطئ ؟

أجاب رازوميخين مستاءً :

— أنا مضطرب ؟ لا لست مضطرباً البتة .

— دعك من هذا الكلام يا صاحبى ! الأمر واضح ! منذ قليل ، كنت جالساً على الكرسى كما لا تجلس عادة . كنت جالساً على حافة الكرسى تماماً ، وكنت كمن أصيب برعدة . وكنت تثب من مكانك لا أدرى لماذا . فتارةً تغضب ، وتارة يظهر على وجهك تعبير حلو لسبب ما ! بل لقد كان وجهك يحمر احمرارا شديداً . وقد احمر وجهك خاصةً حين دُعيت الى الغداء . نعم ، اصطبغتَ بالحمرة حتى جذور شعرك .

— غير صحيح . أنت تكذب . ماذا تقصد ؟

— تتحايل كتلميذ ! ها . . . هأنت ذا تحمر من جديد !

— يا للخنزير !

— ولكن علام هذا الاضطراب كله ؟ مسكين روميو ! اسمع : لن يفوتنى أن أتكلم عنك اليوم فى مكان ما . هأ هأ هأ ! سوف أُضحك أمى كثيراً . . . وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً .

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً :

— اسمع ، اسمع ، هذا أمر خطير ، هذا . . . يا

للعواقب ! . . ما عساك قائلاً لهما ؟ أنا . . . يا صاحبى . . . آه . . . يا لك من خنزير ! . .

— وردة ، وردة من ورود الربيع حقاً ! ليتك تعلم كم يناسبك هذا ! روميو طوله متران تقريباً ! ثم انك قد غسلت وجهك اليوم ، ونظفت أظافرك ، هه ؟ ذلك ما لم يحدث يوماً . ها . . . وها أنت ذا قد تدهنت وتطيبت ! هيَّا اخفض رأسك لأرى !

— يا لك من خنزير !

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه . وعلى هذه الحال من الضحك الشديد انما دخل الشابان شقة بورفيرى بتروفتش . وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف . من آخر الغرف كان يمكن أن يُسمع دخولهما ضاحكين . وقد استمرا يضحكان وهما فى الردهة .

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على كتفه :

— اياك أن تقول كلمة واحدة فى هذا الموضوع هنا ، والا هشَّمت بوزك !

الفصل الخامس

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة . دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً . ودخل وراءه رازوميخين الخجل الطويل القامة محمرَّ الوجه ، أخرق الحركات ،

متقبض القسمات من الغضب . كان وجهه فى تلك اللحظة ، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً ، يبرِّر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة . وقد انحنى راسكولنيكوف يحيى رب البيت حتى قبل أن يقدَّم اليه . وكان رب البيت واقفاً فى وسط الغرفة يلقى على القادمين نظرة سائلة . ثم مدَّ راسكولنيكوف اليه يده فصافحه ، وهو يبذل جهداً ظاهراً فى سبيل أن يكبح جماح مرحه ، وأن ينطق بالكلمات القليلة التى يوجبها التعارف . ولكنه ما ان أفلح فى اتخاذ هيئة الجد ، وفى أن يدمدم ببضع كلمات حتى عاد ينظر الى رازوميخين كأنما رغم ارادته ، فلم يستطع فى هذه المرة أن يصمد ، فاذا بضحكه يتدفق قوياً لا سبيل الى مغالبته ، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة . فاذا بالغيظ الخارق الذى يستقبل به رازوميخين هذا الضحك «الصريح» يضفى على المشهد كله مظهر مرح طبيعى ، بل ومرح صادق . وقد فاقم رازوميخين مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما على عمد : ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يُجرى يده بحركة تنم على الغضب قائلاً :

— آ . . . يا للشيطان الرجيم !

فاذا بالحركة التى أجراها تصدم منضدة صغيرة مستديرة عليها فنجان شاى فارغ ، فيطير كل شىء فى الهواء ، ويسقط على الأرض مقرقعاً .

هتف بورفيرى بتروفتش يقول مرحاً :

— لماذا تحطمون الأثاث يا سادة ؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة ؟

اليكم وصف المشهد الذى كان يُرى فى تلك اللحظة : راسكولنيكوف يضحك ملء حنجرته تاركاً يده فى يد رب البيت ،

ولكن دون أن يفقد حس القصد والاعتدال ، منتظراً اللحظة المناسبة التى سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعى . ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان الى درك الخجل والاضطراب ، فألقى على الحطام نظرة سوداء ، وبصق على الأرض ، وابتعد نحو النافذة ، فلبث أمامها مديراً ظهره ، عابس الوجه مقطب الأسارير ينظر الى الخارج دون أن يرى شيئاً . وبورفيرى بتروفتش يضحك ويرغب فى الضحك ، لكنه ينتظر شروحاً بطبيعة الحال . وفى ركن من الأركان ، يجلس زاميوتوف على كرسى . كان زاميوتوف ، حين دخل الزائران ، قد نهض ينتظر وانفرج فمه عن ابتسامة ، لكنه يبدو مدهوشاً مرتاباً ، ولاسيما ازاء راسكولنيكوف ، فهو ينظر اليه الآن بشىء من الذهول . ان وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه ، فقال يحدِّث نفسه : «هذا عنصر آخر يجب أخذه فى الحسبان» وبدأ يتكلم فقال يعرِّف بنفسه مصطنعاً الخجل :

— معذرةً ، أرجوك . اسمى راسكولنيكوف . . .

قال بورفيرى بتروفتش يجيبه :

— لا داعى الى الاعتذار البتة ؛ انه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو .

وأردف يقول مشيراً الى رازوميخين :

— هيه ! ما باله لا يريد حتى أن يحيِّى ؟

قال راسكولنيكوف :

— حقاً لست أدرى ما سبب حنقه علىَّ الى هذا الحد . كل ما فعلته هو أننى قلت له أثناء الطريق انه أشبه بروميو . . . وبرهنت له على صدق قولى . لا شىء غير هذا . أو ذلك هو ما يخيَّل الىَّ على الأقل !

دمدم رازوميخين يقول شاتماً دون أن يلتفت :

ـــ خنزير !

فقال بورفيرى ضاحكاً :

ـــ لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة !

فقال رازوميخين بلهجة قاطعة :

ـــ هيه ! اسكت أنت يا قاضى التحقيق ! ثم فلتذهبوا جميعاً الى الشيطان !

قال ذلك وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة واقترب من بورفيرى بتروفتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كأن شيئاً لم يحدث . وتابع كلامه فقال :

ـــ كفى ! نحن جميعاً حمقى فى الواقع . اسمع : هذا صديقى رروديون رومانوفتش راسكولنيكوف . انه أولاً ، من كثرة ما سمع عنك ، أراد أن يتعرف اليك ؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك فى قضية صغيرة . هه ! زاميوتوف ؟ شىء عجيب ! ماذا تفعل هنا ؟ أأنتما متعارفان اذن ؟ منذ متى ؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه فى قلق : «ما معنى هذا أيضاً ؟»

ظهر الاضطراب على زاميوتوف ، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً . وقال يجيب بلهجة طلقة :

ـــ اننا تعارفنا أمس فى بيتك !

ـــ اذن لقد أعفتنى العناية الالهية من جهد كان ينبغى أن أبذله . تصور يا بورفيرى أنه يلحُّ ، منذ أسبوع ، الحاحاً شديداً على أن أعرِّفك به . فهأنتما قد استغنيتما عنى ، فتعارفتما دون وساطة منى . . . أين تبغك ؟

كان بورفيرى بتروفتش يرتدى ملابس البيت : ثوبَ منزل ، وقميصاً نظيفاً ، وبابوجين قديمين بنعلين باليين . هو رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ مربوع القامة ؛ بدين الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا سالف ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوَّر بارز القفا ؛ متورِّم الوجه ، أفطس

الأنف قليلاً ، أصفر اللون قاتمه كأنه مريض ، ولكن وجهه لا يخلو من تعبير عن الحيوية ، ولا عن السخرية . حتى لقد كان يمكن أن يعبر وجهه عن شيء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر اليهما فترى فيهما اخضلالاً وبريقاً كبريق الماء ، وتكاد تحجبهما أهداب يضرب لونها الى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان اشارات لا تنقطع . ان نظرة هاتين العينين تنافى سائر هيئته بعض المنافاة (وهى هيئة فيها شيء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل الى الجد والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه .

ما ان علم بورفيرى بتروفتش أن زائره يرغب فى أن يحدثه فى «قضية صغيرة» ، حتى رجاه أن يجلس على الديوان ، ثم جلس على الطرف الآخر ، محدقاً اليه ومنتظراً عرض القضية بلا ابطاء ، مُظهراً أشدَّ الاهتمام . ان مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعى ، بل ويُشعرك بشيء من الحرج والارتباك ، ولا سيما اذا كان ما ستقوله لا يستحق فى رأيك هذا الانتباه ؛ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببضع كلمات ، فى دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتيح له أن ينعم النظر فى بورفيرى بتروفتش أثناء ذلك . وكان بورفيرى بتروفتش ، من جهته ، لا يحوِّل بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة . وكان رازوميخين قد استقر أمامهما الى المنضدة ، فهو يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافد ، متجهاً بنظراته الى هذا تارة ، والى ذاك تارة أخرى ، وكان فى هذا شيء من غلو طبعاً .

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه : «يا للأبله !»

أجاب بورفيرى بلهجة رسمية جداً :

— يجب عليك أن تبعث الى الشرطة بلاغاً تقول فيه انك وقد علمت بالنبأ ، نبأ مقتل العجوز ، تريد ابلاغ قاضى التحقيق المكلف بالقضية ان هذه الأشياء هى أشياؤك وأنك تريد استردادها . أو أن . . . على كل حال ، سيكتبون اليك . . .

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الخجل ما وسعه ذلك :

— ولكننى . . . ولكننى . . . فى الوقت الحاضر . . . لا أملك مالاً . . . فحتى هذه الأشياء التافهة التى لا قيمة لها لا أستطيع أن . . . كل ما أريده الآن هو أن أصرِّح بأن هذه الأشياء لى ، وبأننى متى أصبح معى مال سوف . . .

أجاب بورفيرى بتروفتش مستقبلاً هذه الايضاحات المالية ببرودة :

— ليس لهذا من قيمة . تستطيع على كل حال أن تكتب الىَّ رأساً اذا اردت فتقول : لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هى أشيائى ، فاننى أرجوكم أن . . . الخ .

فأسرع راسكولنيكوف يسأله ، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد :

— أأكتب هذه العريضة على ورق عادى ؟

— نعم نعم ، على ورق عادى . . .

أجابه بورفيرى بتروفتش بهذا ، ثم نظر اليه على حين فجأة نظرة فيها سخر صريح ، زاراً عينيه كأنه يغمز له . على أن من الجائز أن لا يكون ذلك الا احساساً خالج راسكولنيكوف ، لأن الغمزة لم تدم الا لحظة قصيرة كومض البرق . ومع ذلك لا بد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث . ومهما يكن من أمر ، فان

راسكولنيكوف مستعد لان يحلف أغلظ الايمان على أن بورفيرى قد غمز له لا يدرى هو لماذا . . . فاذا بكلمتين تومضان فى ذهنه بسرعة شديدة ، فيقول لنفسه : «انه يعلم !»

وتابع كلامه يقول وقد ارتبك قليلاً :

— اغفر لى ازعاجك بهذه التّرهات . . . صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوى قيمتهما أكثر من خمسة روبلات ، ولكنى أحرص عليهما حرصاً شديداً ، لأنهما تذكار من واهبيهما ؛ اعترف لك بأننى ذُعرت أشد الذعر حين علمت أن . . .

قال رازوميخين متعمداً وهو يبيّت نية واضحة :

— ذلك هو السبب فى أنك انتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلتُ له ان بورفيرى يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز .

طفح الكيل عندئذ . فهذا هو راسكولنيكوف يخرج عن طوره فيلقى على رازوميخين نظرة سوداء تشتعل غضباً . ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فوراً . ثم قال له بحنق أحسن اصطناعه فى حذق وبراعة :

— يا عزيزى ، يخيَّل الىَّ أنك تسخر من عقلى . انا أوافقك على أننى أسرف قليلاً فى الاهتمام بأشياء هى فى نظرك تافهة لا قيمة لها . ولكن هذا ليس سبباً يدعو الى اعتبارى أنانياً أو بخيلاً ، لأن هذه الأشياء التافهة فى نظرك قد لا تكون تافهة فى نظرى أنا . لقد قلت لك منذ قليل ان تلك الساعة الفضية التى لا قيمة لها هى الشىء الوحيد الذى بقى لى من أبى . فاسخر منى ما شئت أن تسخر ، ولكن أمى قد وصلت (وهنا التفت راسكولنيكوف نحو بورفيرى فجأة) ، فاذا علمت (استأنف

راسكولنيكوف كلامه وهو يعود الى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته متهدجاً مرتجفاً) فاذا علمت أن هذه الساعة قد فُقدت ، فيميناً انها ستهوى الى حضيض الكرب واليأس . هكذا خُلقت النساء !

هتف رازوميخين يقول بمرارة :

— ولكننى لم أقصد هذا قط ! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى ! هذا نقيض ما أقصده !

تساءل راسكولنيكوف مهموماً مغموماً : «هل نجح هذا الأسلوب ؟ هل كان كلامى طبيعياً ، ألم أبالغ ؟ لماذا قلت : «هكذا خُلقت النساء» ؟»

قال بورفيرى بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب :

— آ . . . وصلت أمك ؟

— نعم .

— متى ؟

— مساء أمس .

وصمت بورفيرى كأنه يفكر . ثم أردف يقول بهدوء ، ببرود :

— أشياؤك لا يمكن أن تُفقد بحال من الأحوال . ثم اننى كنت أنتظرك منذ مدة طويلة .

قال بورفيرى ذلك ، ثم أخذ وكأنما لم يحدث شىء ، يضع تحت يد رازوميخين منفضة سجائر ، لأن رازوميخين كان يهز سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة . ارتعش راسكولنيكوف ، ولكن بورفيرى الذى كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين ، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه .

صرخ رازوميخين سائلاً :

— كيف ؟ كنت تنتظره ؟ أكنت تعرف اذن أن له رهوناً **هناك** هو أيضاً ؟

فاتجه بورفيرى بتروفتش الى راسكولنيكوف رأساً وقال له :

— كان رهناك ، الخاتم والساعة ، موجودين **عندها** ، ملفوفين بورقة واحدة ، وقد كُتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص ، كما سُجِّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً . . .

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً أخرق ، ويحاول خاصةً أن ينظر الى عينى بورفيرى :

— ما أقوى ذاكرتك !

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة :

— لئن أبديت هذه الملاحظة ، فلأن هناك أشخاصاً كثيرين جداً قد رهنوا أشياء كما أعتقد . . . فلا بد أن يصعب عليك أن تتذكر أسماءهم جميعاً . . . ولكنك تتذكرهم تذكراً واضحاً ، و . . . و . . .

ثم قال لنفسه : «ما أغبانى ! ضعيف جداً ! لماذا أضفت هذا الكلام ؟»

أجابه بورفيرى بشىء من سخر طفيف لا يكاد يلاحَظ :

— ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحتُ أعرفهم ، وأنت الشخص الوحيد الذى لم يطالب بأشيائه حتى الآن .

— ذلك أننى كنت مريضاً .

— هذا أيضاً سمعت عنه . بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً للغاية مضطرباً جداً من شىء ما . ثم انك ما زلت تبدو شاحباً .

— لست شاحباً البتة . بالعكس : صحتى الآن حسنة جداً .

كذلك ردَّ راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة ، وقد تغيرت لهجته فجأة . لقد غلى الغضب فى نفسه ، فأصبح لا يستطيع كبحه . وقال يحدث نفسه من جديد : «هذا الغضب هو الذى سيدفعنى الى أن يفلت لسانى ! ولكن لماذا يعذبوننى هـــذا التعذيب !»

عاد رازوميخين يتكلم فقال :

— صحتك جيدة جداً ! اسمعوا هذا الكـــلام ! كان حتى أمس لا يكاد يعى ، وكان يهذى ! هل تصدق يا بورفيرى أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه ، فما أن أدرنا ظهورنا ، أنا وزوسيموف ، حتى ارتدى ثيابه وتسلل خلسةً ليمضى يتسكع لا أدرى أين ، الى منتصف الليل ، أو الى منتصف الليل تقريباً ، وهو فى حالة هذيان كامل ؟ هل تستطيع أن تتخيل شيئاً كهذا يا بورفيرى ؟ أمر غريب !

قال بورفيرى وهو يهز رأسه بحركة من الحركات التى تجريها النساء :

— حقاً ؟ فى **حالة هذيان كامل** ؟ غريب ! . .

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب :

— هذا سخف ! لا تصدقه ! أرى أنك لا تصدق بدون ذلك !

ولكن بورفيرى بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة !

قال رازوميخين وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة :

— ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت فى حالة هذيان ؟ ولماذا خرجت ؟ ماذا كان هدفك من الخروج ؟ ولماذا خرجت خفيةً ؟ انك لم تكن تملك عقلك ! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطر !

قال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام الى بورفيرى وهو يبتسم ابتسامةً فيها وقاحة وتحد :

— لقد أرهقونى أمس ارهاقاً فظيعاً ، فهربت لأستأجر شقة أخرى لا يستطيعون أن يعثروا علىَّ فيها ؛ وحين خرجت حملت مبلغاً كبيراً من المال . وقد رأى السيد زاميوتوف ذلك المال . يا سيد زاميوتوف ، أكنت بالأمس سليم العقل أم لا ؟ عليك أنت أن تحسم النقاش .

لو استطاع فى تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردَّد فى ذلك . كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يغيظانه أعظم الغيظ .

قال زاميوتوف يجيبه بجفاف :

— فى رأيى أنك كنت تتكلم كلام انسان عاقل جداً ، بل وكلام رجل حاذق جداً . . . كل ما هنالك أنك كنت سريع الاهتياج والغضب .

وقال بورفيرى بتروفتش :

— واليوم ذكر لى نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس ، فى ساعة متأخرة ، بمنزل موظف داسته عربة .

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

— نعم ، لننظر فيما فعلته فى بيت ذلك الموظف مثلاً : ألم تتصرف تصرف رجل مجنون هناك ؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال لدفع نفقات الجنازة . أفما كان فى وسعك ، اذا أنت حرصت حرصاً مطلقاً على مساعدتها ، أن

تعطيها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشرين روبلاً ، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات فى أقل تقدير ؟ ولكنك لم تفعل هذا ، بل جدت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلاً !

— ولكن لعلنى عثرت فى مكان ما على كنز . ما يدريك ؟ ولهذا كنت كريماً ذلك الكرم كلَّه بالأمس . ان السيد زاميوتوف يعلم أننى وجدت كنزاً ! اغفر لنا (قال ذلك لبورفيرى بتروفتش مختلجَ الشفتين) اغفر لنا ازعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة ! نحن نضجرك ، أليس كذلك ؟

— بالعكس ، بالعكس ! ليتك تعلم كم يهمنى أمرك ويشوقنى حديثك ! انها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغى اليك . . . أعترف لك أننى شديد السرور بأنك تفضلت فجئت الىَّ . . .

هتف رازوميخين يقول لبورفيرى :

— هيه ! هلاَّ قدمت الينا شيئاً من الشاى على الأقل ! لقد جفَّ حلقى تماماً !

— هذه فكرة رائعة ، ولعل سائر الصحب يوافقونك عليها ! ولكن ألست تحب أن تصيب قبل الشاى شيئا أحلى ؟

— لا . . .

وخرج بورفيرى بتروفتش ليأمر بالشاى .

كانت الخواطر تعصف فى رأس راسكولنيكوف كالاعصار . وكان مهتاجاً أشد الاهتياج .

قال يحدث نفسه : «أنكى ما فى الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون ، أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث ، وأنت لا تعرفنى بعد ، أن تتحدث عنى مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو يكتموا ، وأنهم يطاردوننى

جميعاً كما يطارد الفريسةَ سربٌ من كلاب الصيد ! انهم يبصقون فى وجهى صراحةً ! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدة الغضب) . ما بالكم لا تكونون صريحين ! لماذا تلعبون معى لعبة القط والفأرة ؟ حقاً ان هذا لمن قلة الأدب يا بورفيرى بتروفتش ! ولعلنى لن أسمح به بعد الآن ! . . لسوف أنهض واقفاً ، فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً على وجوهكم . ولسوف يرون عندئذ مدى الاحتقار الذى أحمله لكم !» دارت هذه الخواطر فى رأس راسكولنيكوف وهو يجد فى التنفس مشقة كبيرة . تابع يحدث نفسه : «ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله احساساً باطلاً ، وهماً من أوهام الخيال ، سراباً لا أكثر ؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً فى الحكم على الأمر كله من أوله الى آخره ، وأن لا يكون غضبى ناشئاً الا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن عجزى عن تمثيل دورى الساقط ؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون فكرة مبيتة أو نية سيئة ! . . ان كل ما يقولونه عادى ، ولكن المرء يحس وراء كل كلمة من كلماتهم . . . صحيح أن من الممكن أن يتكلم جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب ، ولكن لا بد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلمعون اليها الماعاً . لماذا قال كلمة «عندها» بالحاح خاص ؟ ولماذا قال زاميوتوف اننى كنت أتكلم كلام رجل **حاذق** ؟ لماذا يخاطبوننى بهذه اللهجة ؟ نعم ، هى اللهجة . . . ورازوميخين موجود ، فلماذا لا يشتبه فى شىء ؟ لكن هذا الأبله الساذج لا يشتبه فى شىء يوماً من الأيام . ها هى ذى الحمى تعترينى من جديد ! هل غمزنى بورفيرى بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزنى ؟ سخافة ! ترى لماذا وجَّه الىَّ تلك الغمزة ؟ أتراهم لا يريدون الا أن يثيروا أعصابى او يشاكسونى ؟ . . إما أن ذلك كله ليس الا سراباً ، واما أنهم

يعرفون . . . ولكن حتى زاميوتوف وقح ! هل زاميوتوف وقح ؟ لا بد أنه فكَّر طويلاً أثناء الليل . كنت أوجس أنه سيفكر ! هو هنا كأنه فى بيته رغم انه جاء الى هنا لأول مرة . بورفيرى لا يعده ضيفاً ويجلس مديراً ظهره له ! انهما متواطئان . **وعلىَّ** تواطؤهما ! لا شك فى أنهما كانا يتكلمان عنى أنا قبل وصولنا . هل يعرفان أننى ذهبت أرى الشقة ؟ ليت الأمر ينتهى بسرعة ! حين قلت اننى هربت أمس مساءً لأبحث عن شقة استأجرها ، فان بورفيرى لم يفطن الى أقوالى ولم يردّ على تحدى . نعم ، لقد دسست مسألة الشقة هذه بحذق . سوف يفيدنى هذا فى المستقبل ! . . فى حالة هذيان . . . هأ هأ هأ ! . . ولكنه يعرف كل ما فعلته مساء أمس . كان يجهل أن أمى وصلت ! وقد سجَّلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص ! انتم مخطئون ، لن أُسلم نفسى ! ما هذه بوقائع على كل حال . سراب لا أكثر ! هاتوا وقائع ! والشقة نفسها ليست واقعة ، وانما هى هذيان ! ألا اننى أعرف ماذا سيجب علىَّ أن أقول لهم ! أهم يعرفون ما حدث فى الشقة ؟ لن أنصرف قبل أن أعرف هذا . لماذا جئت ؟ هأنا ذا أغضب الآن ! هذه واقعة ! أوه . . . ما أشد اهتياجى وما أسرع غضبى ! ولكن لعل هذا أفضل . . . فاننى بذلك أمثل دور المريض . . . انه يختبرنى وسيحاول أن يشوش أفكارى . لماذا جئت ؟ . .»

ذلك كله ومض فى ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق .

وعاد بورفيرى بعد لحظة . انه يبدو الآن مرحاً جداً .

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً ، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التى كان يتكلم بها منذ قليل :

— هل تعرف يا صاحبى أننى بعد سهرة الأمس فى

بيتك الجديد ، أخذ رأسى يدور ، وانني لست فى حالتى الطبيعية كلية . . .

ـــ كانت سهرة شائقة ، أليس كذلك ؟ لا تنس أننى تركتكم فى أجمل لحظة . من الذى انتصر ؟

ـــ لم ينتصر أحد طبعاً . لقد أخذوا يتناقشون فى مشكلات أبدية ، وحمى وطيس المناقشة ! . .

ـــ تصور يا روديا انهم اندفعوا يتجادلون فى هذا الموضوع : أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم ؟ يا للسخافات التى قالوها ! . . شىء فظيع . . .

فأجاب راسكولنيكوف شارد الفكر :

ـــ لا غرابة ! هذه مسألة اجتماعية عادية جداً ، مع ذلك !

وتدخل بورفيرى فقال :

ـــ غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته .

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته :

ـــ صحيح . لم تكن هذه صيغته تماماً . اسمع يا روديا ، اسمع وقل لى رأيك . أنا حريص على معرفة رأيك . لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك . وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آت . بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين . معروفة وجهةُ نظر الاشتراكيين . الجريمة احتجاج على تنظيم اجتماعى غير سليم . ليست الجريمة شيئاً غير هذا . ليس هناك أى باعث آخر على الجريمة .

صاح بورفيرى بتروفتش يقول :

ـــ هأنت ذا تعود الى الافتراء !

كان بورفيرى بتروفتش ينتعش انتعاشاً واضحاً ، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين ، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين .

وتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً :

ـــ نعم ، ليس هناك أى باعث آخر ، فى نظر الاشتراكيين . أنا لا أفترى . سوف أريك كتبهم . هم يرون أن كل شىء ، أن كل شىء على الاطلاق ، انما مردهُ الى «جو البيئة السىء» ، لا أكثر من ذلك . نعم ، هذا هو تعبيرهم المفضَّل . ويستنتجون من هنا ان جميع الجرائم ستزول دفعةً واحدة متى نُظم المجتمع تنظيماً سليماً . فمتى زالت أسباب الاحتجاج ، أصبح جميع الناس فوراً «صالحين» من تلقاء أنفسهم . ان الاشتراكيين لا ينظرون الى الطبيعة بعين الاعتبار ، بل يسقطونها من الحساب . لا مكان للطبيعة ! هم لا يرون أن الانسانية هى التى ستصل من تلقاء ذاتها ، بتطور تاريخى حى ، الى أن تصبح مجتمعاً سليماً ، وانما يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضى لا يدرى أحد ما هو ، فاذا هو ينظم النوع الانسانى بأسره حالاً ، ويجعله فى طرفة عين صالحاً مبرأً من كل خطيئة ؛ وذلك طبعاً فى خارج أى تطور تاريخى ، حياتى ، حى . هذا هو السبب فى أنهم بغريزتهم يكرهون التاريخ : «ليس التاريخ الا أهوالاً كريهة وحماقات حقيرة» . هذا ما يقولونه . وهم يفسرون كل شىء بالحماقة . وذلك هو السبب فى أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً ، وينادون خاصةً بأن : **لا نفس حية** ! . . ان النفس الحية تتطلب الحياة ، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا ، النفس الحية ريَّابة ، النفس الحية رجعية ! لذلك تراهم يصنعون نفساً من

كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت ، ولكنها ليست حيةً على الأقل ، يصنعون نفساً طيِّعة ذليلة لا تتمرد ! كل ذلك فى سبيل أن يصلوا الى حيث قادونا : الى تلك المجموعة من الآجر ، المقسّمة ممرات وغرفاً ، التى يسمونها فالانستيرا ! ، ان فالانستيراكم هذه جاهزة ، والطبيعة هى التى لم تصبح جاهزة بعد لهذه الفالانستيرا ، لأنها تقتضى الحياة ، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحياتى ، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة ! ألا ان المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثب فوق الطبيعة ونتخطاها . ان المنطق يتصور ثلاث حالات ، مع أن الحالات ملايين ! أفنحذف هذه الملايين كلها باسم قضية الرخاء وحدها ؟ لا شك أن حلَّ المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول ! كل شىء واضح : لم تبق حاجة الى التفكير ! ذلك مغر جذاب . فانما المهم أن لا نفكر . وفى الامكان بعد ذلك أن نحصر سر الحياة كله فى ورقتين مطبوعتين !

قال بورفيرى ضاحكاً :

— ها هو ذا يندفع ويثرثر . يجب تكبيله !

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف :

— تصوَّر أن هذا نفسه هو ما حدث مساء أمس . . . وذلك فى غرفة تعلو فيها ستة أصوات . . . وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا . هل تتصور ما حدث ؟ لا يا صاحبى ، أنت مخطئ . . . ان «للبيئة» دخلاً كبيراً فى الجريمة . أستطيع أن أؤكد لك ذلك .

— أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً فى الجريمة . ولكن قل لى : هبْ رجلاً فى الأربعين قد اغتصب بنتاً فى العاشرة ، فهل البيئة هى التى دفعته الى ارتكاب هذه الجريمة ؟

قال بورفيرى برصانة تثير الدهشة :

— بالمعنى الدقيق للكلمة ، يجوز أن نقول ان البيئة هى التى دفعته الى ذلك . نعم ، ان اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلَّل بالتأثير الذى تحدثه البيئة .

كاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً . وزأر يقول :

— هذا هراء . وبمثل هذا الهراء أستطيع أن **أبرهن** لك على أن السبب فى أن أهدابك بيضاء هو أن برج الأجراس فى كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علوُّه ٣٥ ساجين [1] ، وأن أبرهن لك على ذلك بوضوح ، وبدقة ، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية ، بل وفيه ليبرالية . أتريد أن أبرهن لك على ذلك ؟ هل تراهن على أننى قادر أن أفعل ؟

— افعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !

هتف رازوميخين يقول وهو ينهض بوثبة واحدة ، ويحرِّك يده باشارة تنم على الأسف والمضض :

— ما أشدَّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة الى الكلام معك ، لا داعى الى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عامداً ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا ! ولقد تحيَّز أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبث بهم ! الله يعلم ماذا قال لهم أمس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً الى صفهم ! انه قادر على أن يظل يمثِّل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع . فى السنة الماضية ، روى لنا ، لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخدعنا بهذه القصة شهرين كاملين . ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ، وقال انه هيأ للاحتفال كل شىء . حتى لقد أوصى ببدلة جديدة ،

---

[1] الساجين قياس طول روسى قديم يساوى ٢,١٣ متراً .

وصدَّقناه نحن وأخذنا نهنئه . فماذا كان ؟ لم يكن هنـــاك خطيبة ، لم يكن هناك شيء البتة : سراب لا أكثر !

ـــ أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة هى التى أوحت الىَّ بفكرة تضليلكم جميعاً !

سأله راسكولنيكوف باهمال :

ـــ أأنت تحب التغرير بالناس كل هذا الحب حقاً ؟

ـــ أكنت تظن غير ذلك ؟ انتظر اذن ، فسوف أغرر بك أيضاً . هاْ هاْ هاْ ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : ان جميع هذه المسائل التى دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ، ومسألة «البيئة» ، قد ذكَّرتنى بمقالة لك منشورة ، مقالة شاقتنى دائماً على كل حال ، وعنوانها : «فى الجريمة» . . . أو شيء من هذا القبيل . . . لا أذكر الآن . لقد أتيح لى منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة فى جريدة «الحديث الدورى» .

هتف راسكولنيكوف يقول مدهوشاً :

ـــ مقالتى ؟ فى «الحديث الدورى» ؟ صحيح أننى ، منذ ستة أشهر ، بعد تركى الجامعة ، كتبت مقالةً عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة ، ولكنى بعثت بالمقالة الى جريدة «الحديث الأسبوعى» ، لا الى «الحديث الدورى» .

ـــ لكنها نشرت فى «الحديث الدورى» .

ـــ جريدة «الحديث الأسبوعى» توقفت عن الصدور ولذلك لم تنشر مقالتى . . .

ـــ نعم . ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت فى «الحديث الدورى» ، وذلك هو السبب فى أن مقالتك قد نشرت فى «الحديث الدورى» منذ شهرين . أكنت تجهل ذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً .

قال له بورفيرى بتروفتش :

ـــ ياسلام ! انك تستطيع أن تطالب الجريدة بأجرك عن المقال . ما أعجب طبعك ! أنت تعيش اذن فى عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التى تتصل بك من قرب . هذا واقع .

هتف رازوميخين يقول :

ـــ مرحى روديا ! أنا أيضاً كنت أجهل هذا ! سأركض فى هذا اليوم نفسه الى قاعة مطالعة ، فأطلب المقالة . هل ظهرت منذ شهرين ؟ ولكن فى أى يوم على وجه الدقة ؟ لا بأس ، سأجدها على كل حال . هذه حكاية حقاً . أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً ؟

ـــ ولكن كيف عرفتَ أن المقالة لى ؟ أنا لم أوقِّعها الا بالحروف الأولى .

ـــ عرفت ذلك عرضاً وعرفته فى الآونة الاخيرة فقط ، بفضل رئيس التحرير الذى أعرفه . وقد شاقتنى المقالة كثيراً ، وأثارت اهتمامى .

ـــ أذكر أننى حلَّلت فى تلك المقالة الحالة النفسية التى يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة .

ـــ نعم ، كنت تقول ان تنفيذ الجريمة يُصحب دائماً بحالة نفسية مرضية . وجهة نظر أصيلة ، أصيلة جداً . . . ولكن هذا الجزء من مقالتك ليس هو الجزء الذى أثار اهتمامى اكثر من غيره ، وانما أثارت اهتمامى فكرة دسستها فى نهاية المقالة ، ولم تتلبث عليها طويلاً ، وانما أشرت اليها اشارة سريعة من سوء الحظ . وقد أردت أن تقول ، اذا كنت تتذكر ذلك ، أن على الأرض أناساً يستطيعون . . . لا يستطيعون فحسب . . . بل

لهم كذلك حق مطلق فى أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم ، وانه لا قيمة لأى قانون بالنسبة الى هؤلاء الناس .

ابتسم راسكولنيكوف بسخرية ازاء هذا الكلام الذى يؤول فكرته تأويلاً مراوغاً جداً .

سأل رازوميخين بنوع من الذعر :

ـــ ماذا ؟ ما هو الموضوع ؟ الحق فى ارتكاب الجريمة ؟ ولكن لا بسبب «البيئة» على كل حال ، هه ؟

فأجابه بورفيرى :

ـــ لا ، لا ، فليست البيئة السبب الوحيد . المسألة فى تلك المقالة هى أن الناس فئتان : فئة العاديين ، وفئة الخارقين . فأما «العاديون» فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين ، وليس لهم حق فى مخالفة القانون ، وذلك لأنهم عاديون . وأما «الخارقون» ، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين ، وذلك لأنهم «خارقون» . أكان هذا رأيك أم ترانى مخطئاً ؟

دمدم رازوميخين يقول مدهوشاً :

ـــ ولكن كيف ؟ ليس من الممكن . . . أن يكون الأمر كذلك . . .

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد . لقد أدرك فوراً ما الذى يريد أن يبلغه بورفيرى ، ما الذى يريد أن يستدرجه اليه أو أن يستخرجه منه . وكان يتذكر مقالته . وقرر أن يرد على التحدى بمثله .

بدأ يتكلم فقال بلهجة بسيطة متواضعة :

ـــ ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة . على أننى أعترف بأنك عرضت فكرتى عرضاً أميناً ، بل وأميناً كل الأمانة اذا شئت (كأنه كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد

عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة) . والفرق الوحيد هو أننى لم أقطع بأن جميع الخارقين يجب عليهم أن يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول . ولو قد فعلت ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة فيما يخيَّل اليَّ . كل ما أوحيت به هو أن الانسان الخارق يملك الحق . . . لا الحق الرسمى بل الحق الشخصى فى أن يأذن لضميره بتخطى بعض الحواجز . . . وذلك فى حالة واحدة هى الحالة التى يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطى (وهى فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الانسانى) . أنت تدعى أن مقالتى غير واضحة ، فأنا مستعد لأن أشرحها لك فى حدود الامكان . ولعلنى لا أخطئ اذ افترض أن هذه هى رغبتك . فليكن لك ما تشاء ! . . فى رأيى أنه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن ، بسبب تضافر ظروف معينة ، ما كان لها أن تتحقق الا اذا ضُحِّى فى سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها ، فانه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه . . . أن يزيح أولئك الأفراد العشرة أو المائة فى سبيل أن ينفع الانسانية باكتشافه . ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل اى انسان يحلو له أن يقتله ، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق . وأذكر أننى أوضحت فى مقالتى أن جميع المؤسسين والمشرعين فى تاريخ الانسانية ، من أقدمهم الى أحدثهم ، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم ، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون ، لأنهم حين أقاموا قانوناً انما خالفوا بذلك نفسه قانوناً قديماً كان يُعدُّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف ؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً فى بعض الأحيان ، ومهما يكن قد بُذل بذلاً بطولياً

فى سبيل القانون القديم) حين يسهّل سفك هذا الدم مهمتهم ؛ بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا الى الانسانية وأصلحوا المجتمع انما كانوا أناساً شاذين دمويين . وأوجز فأقول انهم جميعاً ، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علوٍ فوق الحد الوسط أيضاً ، أى الذين قادرون ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة ، انما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم نفسها الى أن يكونوا قتلةً ، قليلاً أو كثيراً طبعاً ؛ ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط ، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط ؛ بل وفى رأيى أنه كان من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط . الخلاصة : ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شىء جديد كل الجدة . لقد نشر ذلك ألف مرة وقُرأ ألف مرة . أما عن تقسيمى الرجال الى فئتين ، فئة العاديين وفئة الخارقين ، فاننى أوافق على أن فى هذا التقسيم شيئاً من التحكم ، ولكننى لم أقدم أرقاماً أيضاً . وأنا انما أومن بفكرتى الرئيسية ، وهى أن الرجال ينقسمون ، بحكم قوانين الطبيعة ، الى فئتين ، **بوجه عام** : فئة دنيا هى فئة العاديين الذين لا وجود لهم الا من حيث أنهم مواد ان صح التعبير ، وليس لهم من وظيفة الا أن يتناسلوا ، وفئة عليا هى فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا فى بيئتهم **قولاً جديداً** . ولا شك ان هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددها ، ولكن السمات المميزة التى تفصل هاتين الفئتين قاطعة . فأما الفئة الأولى ، وهى فئة المواد ، فان أفرادها ، على وجه العموم ، أناس ، «خُلقوا محافظين» ، أناس معتدلون يعيشون فى الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا فى الطاعة . وعندى أن عليهم أن يطيعوا ، لأن الطاعة

هى ما كُتب لهم ، وليس فى طاعتهم ما يسىء اليهم أو يذل كرامتهم . وأما الفئة الثانية فهى تتألف من رجال يتميزون بأنهم جمعياً يكسرون القانون ، بأنهم جميعاً مدمّرون ، أو بأنهم جميعاً ميالون الى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم . وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتتنوع أشكالها طبعاً . وأكثرهم يريدون ، بأساليب متنوعة جداً ، تدمير الحاضر فى سبيل شىء أفضل . فاذا وجب على أحدهم ، من أجل تحقيق فكرته ، أن يخطو فوق جثة ، أو فوق بركة دم ، فانه يستطيع (فى رأيى) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير ؛ وكل شىء رهن بمضمون فكرته ، وبما لها من أهمية طبعاً . لاحظوا ذلك . بهذا المعنى وحده انما تحدثت فى مقالتى عن حق ارتكاب الجريمة (انك تتذكر أن نقطة البداية التى انطلقنا منها انما كانت مسألة حقوقية) . على أنه لا داعى الى القلق كثيراً . فان الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق . بالعكس : ان الجمهور يضطهدهم ويشنقهم (كثيراً أو قليلاً) ، وهو فى هذا يقوم بوظيفته كجمهور محافظ ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المشنوقين فتقدسهم (كثيراً أو قليلاً) . فالفئة الأولى من الرجال هى سيدة الحاضر ، والفئة الثانية هى سيدة المستقبل . الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً ، والآخرون يحركونه ويقودونه الى غاية . ولهؤلاء وأولئك حق واحد فى الحياة . أى ان لهم كلهم حقوقاً متساوية ، و[1] vive la guerre éternelle ، الى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً !

---

[1] عاشت الحرب الأبدية ! (بالفرنسية فى الأصل) .

— أأنت تؤمن اذن بأورشليم الجديدة ؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت :

— أؤمن !

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة ، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض .

— وهل تؤمن بالله أيضاً ؟ اغفر لى فضولى !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره الى بورفيرى :

— أؤمن به .

— و هل تؤمن ببعث لعازار ؟

— أؤ . . . أؤمن به . ولكن لماذا تسألنى عن هذا كله ؟

— هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً ؟

— نصاً وحرفاً !

— صحيح ؟ اغفر لى فضولى . لقد سألتك عن هذا كله من باب حب الاطلاع . ولكن اسمح لى . سوف أعود الآن الى ما كنت تقوله . أنا أرى أن الجمهور لا يضطهدهم ويشنقهم جميعاً . بالعكس : بعضهم . . .

— بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم ؟ . . نعم بعضهم يحققون غاياتهم أثناء حياتهم ، وعندئذ فانهم هم الذين . . .

— هم الذين يرسلون الآخرين الى التعذيب والشنق . . .

— نعم ، اذا لزم الأمر . . . وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً . ملاحظتك هذه . . . لطيفة جداً .

— أشكرك . ولكن قل لى : كيف نميز هؤلاء الخارقين عن أولئك العاديين ؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم ؟ أقصد أنه لا بد من دقة أكبر ، أى لا بد من علامة مميزة واضحة . اغفر لى هذا الاهتمام ، وهو اهتمام طبيعى لدى

رجل عملى يريد الخير . ألا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداءً خاصاً ، أن نخلع عليهم زياً موحداً ، أن نميزهم بعلامة فارقة ؟ اذ لا بد أن تسلّم معى بأنه اذا حدث اختلاط ، فتخيلَ رجل من رجال الفئة الأولى أنه ينتمى الى الفئة الثانية ، فأخذ «يزيح جميع العوائق» ، على حد تعبيرك الموفق ، فان . . .

— صحيح . . . هذا يحدث كثيراً . ملاحظتك هذه ألطف من سابقتها أيضاً .

— أشكرك .

— لا داعى الى الشكر . ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع الا لأفراد الفئة الأولى ، أى فئة العاديين (الذين لعلنى لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم) : ان كثيراً من هؤلاء العاديين ، رغم ميلهم الفطرى الى الطاعة ، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوة من تلك النزوات التى نلاحظها فى الطبيعة ، ونلاحظها حتى لدى الأبقار ، فاذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطليعة ، رجالاً «مدمرين» ، واذا هم يقحمون أنفسهم فى الدعوة الى «القول الجديد» ، صادقين مخلصين من جهة أخرى . وكثيراً ما يحدث لهم فى الوقت نفسه أن لا يلاحظوا ولا يعترفوا بأولئك الذين هم **مجددون** حقاً ، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين ، رجعيين ، جديرين بالاحتقار . ولكنى أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير ، فما ينبغى لك أن تقلق ، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً فى يوم من الأيام ، وفى وسعك طبعاً ، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة ، وأن تردّهم الى مواقعهم ، فى وسعك أن تجلدهم أحياناً . ولكن هذا كل شىء ؛ بل انه لا حاجة الى أن يتولى أحد هذه المهمة ، فانهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم

أناس أخلاقيون جداً ، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم ، وبعضهم يطلبون الى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة . ثم انهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رؤوس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة . الخلاصة : ليس عليك أن تقلق . ذلك هو القانون !

— حسناً ! لقد طمأنتنى من هذه الناحية قليلاً على كل حال . ولكننى أرى خطراً آخر . قل لى من فضلك : هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحوا غيرهم ، هل هم كثيرون أولئك «الخارقون» ؟ اننى مستعد طبعاً لأن أنحنى احتراماً لهم ، ولكن لا بد أن توافقنى على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى فى ظهره اذا هم كانوا كثيرين ؟ أليس كذلك ؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها :

— لا تقلق من هذا أيضاً . فعلى وجه العموم ، لا تولد الا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرةً جديدة حقاً ، أو يقدرون ولو قليلاً على أن يعبروا عن شىء ما **جديد** . هنالك شىء واحد محقق ، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون فى هذه الفئة أو تلك لا بد أنها يحددها قانون طبيعى ما تحديداً دقيقاً . وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً ، ولكننى أعتقد أنه موجود ، وأنه سيمكن اكتشافه فى المستقبل . ولئن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة ، فما ذلك الا لمحاولة خلق انسان مستقل بعض الاستقلال ، ولو بنسبة واحد الى ألف ، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً ، وبواسطة أنواع شتى من اختلاط عروق وأنواع ، الخ . أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فان نسبتهم أصغر من ذلك : هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب) . وأما الأفراد

الذين يملكون درجةً عليا من الاستقلال فان نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً : هم واحد بين مائة ألف . وأما العباقرة فلا يوجد منهم الا واحد بين مليون . وأما كبار العباقرة ، الذين هم قمة النوع الانسانى ، فلا بد أن ننتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد . أنا لم أقم طبعاً بجولة فى البوتقة التى يتم فيها هذا كله ، ولكن القانون موجود ، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع . فلا مصادفة هنا !

صاح رازوميخين يقول أخيراً :

— قولا لى : أأنتما تمزحان ؟ أأنتما بسبيل أن يخدع كل منكما الآخر ؟ ان كلاً منهما جالس أمام صاحبه يستهزئ به ويضحك عليه ! أأنت تتكلم جاداً يا روديا ؟

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميخين صامتاً ، حزيناً ، ولم يجب بشىء . فلما رأى رازوميخين هذا الوجه الهادئ المكتئب ، استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة **الوقحة** الملحاحة التى استعملها بورفيرى . قال رازوميخين :

— طيب يا صاحبى ، اذا كنت تتكلم جاداً . . . فمن حقك طبعاً أن تقول ان هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . ولكن الشىء **الجديد** حقاً فى الأمر ، الشىء الذى تنفرد به — وهذا ما أشعر منه بهول ورعب — هو أنك تجد أن من الطبيعى أن يسفح انسان دماً وهو واعٍ **كل الوعى** ، وأنك تدافع عن هذا الرأى بمثل هذا التعصب كله . . . سامحنى . معنى ذلك أن هذه هى الفكرة الأساسية التى تتضمنها مقالتك . وأنا أرى أن هذا السماح **الأخلاقى** بسفح الدم ، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعياً . . .

قال بورفيرى :

— صحيح تماماً . هو أفظع منه .

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف :

— لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع فى مزالق الخطأ . هناك خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفتَ فى الغلو . لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة . . .

قال راسكولنيكوف :

— ليس فى المقالة شىء من هذا كله . المقالة لا تتضمن الا اشارة .

قال بورفيرى وقد أصبح لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه :

— نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك فى الجريمة بشىء من الوضوح . اغفر لى الحاحى (أنا أعرف أننى أضايقك مما يشعرنى بالحرج) . لقد طمأنتنى منذ قليل فى موضوع الاختلاط الذى يمكن أن يحدث بين الفئتين من باب الخطأ . ولكن . . . هناك حالات تظل تقلقنى من وجهة النظر العملية . لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعدُّ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد — فى المستقبل طبعاً . انه سوف يشرع فوراً فى «ازاحة» جميع العوائق . سوف يقول : ان على عاتقى أن أقوم بحملة بعيدة ، ومن أجل القيام بحملة لا بد لى مال . ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته . واضح ؟

هنا انفجر زاميوتوف ضاحكاً فى ركنه ضحكاً قوياً على حين فجأة . ولكن راسكولنيكوف ظل ساكناً ، حتى أنه لم يرفع نحوه عينيه . وأجاب يقول بلهجة هادئة :

— أعترف بأن حالات كهذه لا بد أن تقع فعلاً . ان الحمقى والمغرورين يقعون فى هذا الفخ ، ولا سيما اذا كانوا شباباً .

— أرأيت ؟ فماذا اذن ؟

أجاب راسكولنيكوف مبتسماً ابتسامة ساخرة :

— هذا لا يغير من الأمر . أنا لا دخل لى ! هكذا انما جرت الأمور دائماً . قال هو منذ قليل (هنا أومأ راسكولنيكوف

الى رازوميخين) اننى أبيح سفح الدم . ما قيمة ذلك ؟ ان المجتمع تحميه المنافى والسجون وقضاة التحقيق والمعتقلات . فعلام القلق ؟ طاردوا السارق !

— واذا قبضنا عليه ؟

— هذا ما يستحقه .

— أنت منطقى . ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقى ؟

— فيم يعنيكم ضميره الأخلاقى ؟

— مسألة انسانية .

— من كان له ضمير أخلاقى فليس له الا أن يتعذب اذا هو اعترف لنفسه بخطيئته . سيكون هذا عقاباً له ، بالاضافة الى السجن .

سأل رازوميخين وهو يتطب حاجبيه :

— والأشخاص الذين يملكون العبقرية حقاً ، الأشخاص الذين أُعطوا حق القتل ، هل يجب عليهم أن لا يتألموا البتة ولو سفحوا دماً ؟

— لماذا تستعمل تعبير **يجب عليهم** ؟ ليس ههنا لا اذن ولا منع . ألا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة ! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجدان عميق الشعور .

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت لهجته عما كانت عليه أثناء الحديث :

— يخيَّل الىَّ أن الرجال العظماء حقاً لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم .

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر الى الجميع مفكراً ، وابتسم ، وتناول قبعته . كان هادئاً هدوءاً كبيراً بالقياس الى الحالة التى كان عليها حين دخل ؛ وكان يحس هو بذلك .

نهض الجميع .

واستأنف بورفيرى بتروفتش كلامه فقال :

— لك أن تشتمنى ولك أن تغضب ان شئت ؛ ولكنى لا أستطيع أن أغالب رغبتى فى أن ألقى عليك سؤالاً آخر صغيراً . أنا أعلم أننى أرهقتك ارهاقاً شديداً ، ولكننى أحب أن أعبِّر لك عن فكرة صغيرة راودتنى وأخشى أن أنساها . . .

— هات فكرتك الصغيرة .

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً ، شديد شحوب الوجه ، وهو واقف أمامه ينتظر .

— اليك فكرتى . . . ولكننى لا أعرف حقاً كيف أعبِّر عنها تعبيراً مناسباً . . . ان فكرتى الصغيرة قد تتجاوز حدود

التواضع . . . هى فكرة سيكولوجية . . . اسمع : انه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون . . . هىء هىء هىء . . . أن لا تكون قد عددت نفسك . . . انساناً خارقاً بعض الشىء . . . انساناً يحمل **القول الجديد** ، بالمعنى الذى قصدته ، أليس هذا صحيحاً ؟

قال راسكولنيكوف باحتقار :

— جائز جداً .

وتحرك رازوميخين .

وعاد بورفيرى بتروفتش يتكلم فقال :

— فاذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك ، فى أعقاب اخفاق شخصى ما ، أو للخلاص من الفقر ، أو أيضاً لتعجيل سير الانسانية الى أمام ، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز . . . ف . . . فتقتل مثلاً أو تسرق ؟ . .

قال بورفيرى بتروفتش هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً صامتاً ، كما فعل منذ قليل .

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية :

— اذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لـك اننى تخطيته .

— أسألك لأن أمراً واحداً يهمنى ، هو أن أُحسن تأويل مقالتك ، وأن أُحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها . . .

قال راسكولنيكوف لنفسه باشمئزاز : «هوه ! يا لنيتـه الواضحة الوقحة !»

وقال يجيب مخاطبه ببرود :

— اسمح لى أن ألفت نظرك الى أننى لا أعد نفسى لا

مثل محمد ولا مثل نابوليون . . . ولا مثل أى شخص من هذا النوع ! . . واذ أننى لست واحداً من هؤلاء الأشخاص ، فاننى لا أستطيع أن أقدم اليك جواباً مرضياً ، فأقول لك ما الذى يمكن أن أفعله .

قال بورفيرى بتروفتش فجأة بألفة مخيفة :

— دعك من هذا الكلام ! أىُّ واحد منا ، فى روسيا ، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون ؟

وكان فى نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً .

ورشق زاميوتوف من ركنه هذا السؤال :

— ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعدون أنفسهم مثل نابوليون فى المستقبل هو الذى قتل آليونا ايفانوفنا فى الأسبوع الماضى ؟

صمت راسكولنيكوف وحدّق الى بورفيرى بنظرة ثابتة قاسية . واكفهر وجه رازوميخين . كان رازوميخين قد بدأ يشتبه منذ برهة . ونظر حواليه غاضباً . وانقضت دقيقة فى صمت قاتم . وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف .

قال بورفيرى بلهجة رقيقة عذبة :

— أتنصرف ؟

ومدَّ اليه يده بكثير من التحبب والتودد . وتابع يقول له :

— سعيد جداً ، سعيد جداً بمعرفتك . أما عن مطالبتك برهنيك ، فكن مطمئناً : يكفى أن تكتب عريضةً بالمعنى الذى أشرت به عليك . نعم ، بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتى الىَّ ، فى يوم قريب . . . فى الغد مثلاً . . . سأكون بمكتبى حتماً فى نحو الساعة . . . الحادية عشرة . سنرتب الأمر

كله ، وسنثرثر قليلاً . . . فاذ أنك واحد من أواخر من ذهبوا الى هناك ، فانك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف يقوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة) .

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة :

— أتريد أن تستجوبنى رسمياً ، وفقاً للأصول ؟

— فيم أستجوبك على هذا النحو ؟ لا تدفعنى الى هذا أية ضرورة حتى الآن . فهمتنى فهماً خاطئاً . . . أنا لا أدع لأية فرصة ان تفلت منى . . . وقد تحدثت الى جميع الذين أودعوا رهوناً لدى العجوز . حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل . ولما كنت أنت آخر هؤلاء . . . ولكن بالمناسبة (هتف يقول ذلك فجأة فى غمرة من الفرح) بالمناسبة . . . الآن تذكرت . . . كيف نسيت هذا ؟ (هنا التفت يخاطب رازوميخين) . . . ان الفتى نيكولاشكا ذاك الذى صدَّعت به رأسى . . . أنا نفسى مقتنع (وهنا عاد يلتفت الى راسكولنيكوف) بأنه برئ . . . ولكن ما حيلتى ؟ لقد كان لا بد لى أيضاً من ازعاج ميتكا . . . والآن اليك ما كنت أريد أن أسألك عنه : حين صعدتَ السلَّم ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، أليس كذلك ؟

أجاب راسكولنيكوف :

— نعم ، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة .

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان فى وسعه أن لا يذكر هذا .

— ألمْ تَرَ ، وأنت تصعد السلم ، بعد الساعة السابعة ، فى شقة كان بابها مفتوحاً — هل تتذكر ؟ — ألم تَرَ عمالاً كانوا يعملون فى تلك الشقة ، أو عاملاً منهم على الأقل ؟ هم دهانون

كانوا يدهنون الشقة ، ألم تلاحظهم ؟ هذا أمر هام جداً ، هام جداً جداً بالنسبة اليهم .

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء ، كأنه ينبش ذاكرته ، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذى ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الوقوع فيه :

— دهانون ؟ لا ، لم أر دهانين . لا ، لم أرهم . ثم اننى لا أذكر أننى رأيت شقة كان بابها مفتوحاً . ولكننى فى مقابل ذلك (لقد اكتشف الآن الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل فى الطابق الرابع من الشقة التى تقع أمام شقة آليونا ايفانوفنا . اننى أذكر هذا ، بل أذكره واضحاً كل الوضوح . . . كان هناك جنود يحملون أريكة ، فاضطررت أن التصق بالحائط . ولكننى لم أر دهانين ، لا ، لا أذكر أننى رأيت دهانين . ويخيل الىَّ أنه لم يكن أى باب من الأبواب مفتوحاً . لا ، لم يكن هناك باب مفتوح . . .

صاح رازوميخين يقول فجأة كأنه ثاب الى رشده أخيراً وفهم فى هذه اللحظة نفسها ، صاح يقول مخاطبا بورفيرى :

— ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز ، أما هو فقد ذهب الى العجوز قبل ذلك بيومين . فما هذا السؤال الذى تلقيه عليه ؟

فهتف بورفيرى قائلاً وهو يلطم جبينه :

— آ . . . نعم . . . اختلط علىَّ كل شىء . تباً لى . اللعنة ! ان هذه القضية قد أفقدتنى صوابى .

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر :

— اننى من فرط اهتمامى بأن أعرف هل رأى أحدٌ أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة فى الشقة ، قد تخيلت أنك تستطيع

أن تجيب عن هذا السؤال . . . نعم ، لقد اختلط علىَّ كل شىء .

قال رازوميخين غاضباً :

— يجب عليك أن تنتبه !

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا الى حجرة المدخل . لقد شيَّعهما بورفيرى بتروفتش الى الباب بتودد كبير ولطف بالغ . فلما صارا فى الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه . وسارا بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة . وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً . . .

الفصل السادس

كان رازوميخين يردِّد قائلاً فى حيرة واضطراب وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتى من قوة :

— أنا لا أصدِّق هذا ! لا أستطيع أن أصدِّقه !

كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف ، حيث تنتظرهما بولخيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة . وفى غمرة المناقشة الحامية ، كان الفتى يتوقف فى كل لحظة مضطرباً قلقاً ، على الأقل لأن هذه هى المرة الأولى التى يتحدثان فيها صراحةً عن **ذلك الأمر** .

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة :

— لا تصدِّق ! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً ، أما أنا فقد كنت أزن كل كلمة .

— أنت شكاك ريَّاب ، لذلك كنت تزن كل كلمة .

هِمْ . . . أوافقك على أن لهجة بورفيرى كانت غريبة بعض الغرابة . . . وأن ذلك الوغد زاميوتوف خاصةً . . . انك على حق . . . لقد كان فيه شيء ما ، ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

— جاءت له فكرة أثناء الليل !

— ولكن لا ، بالعكس ، بالعكس ! لو كانت تدور فى ذهنيهما فكرة كهذه الفكرة الغبية ، لحاولا ، على العكس ، أن يخفياها بجميع الوسائل ، لحاولا أن يكتماها ليفاجئاك بها فيما بعد ، أما ما فعلاه فقد كان . . . كان وقاحةً لا حذر فيها . . .

— لو كانا يملكان وقائع ، أقصد وقائع حقيقية ، أو شبهات تقوم على أى أساس من وقائع ، لحاولا أن يخفيا ما يدور فى ذهنيهما أملاً فى ان يكتشفا مزيداً من الوقائع (ولقاما من جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة) . ولكنهما لا يملكان وقائع ، لا يملكان أية واقعة . ليس هذا كله الا سراباً ! . . هذا كله لا رأس له ولا ذنب ! . . هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند الى شيء ، لذلك يعمدان الى الوقاحة . لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة . لعل هذا هو السبب فى حنقه وغيظه . وربما كان كذلك يبيِّت نيةً خفية خبيثة . هذا رجل ذكى ، كما يبدو لى أنا على الأقل . . . لعله أراد تخويفى باظهار أنه يعرف أشياء . . . يا صاحبى ، الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية . على كل حال . . . فان جميع هذه التفسيرات والتأويلات تثير اشمئزازى . هلَّا تركنا هذا الحديث كله !

— ثم ان فى كلامه اهانة ، اهانة ! أنا أفهمك . ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصراحة (وانه لحسن جداً

أننا وصلنا الى ذلك ، وأنا مغتبط بهذا أشد الاغتباط) ، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أننى قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور فى ذهنيهما . ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد ، وأنها لم يكن لها الا وجود كامن . على أن وجودها فى ذهنيهما حتى فى هذه الصورة أمر لا يطاق . كيف يجرؤان ؟ أين ، فى أى جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً ؟ ليتك تعلم كم أحنقنى هذا وكم أثار جنونى ! طالب فقير دمَّرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف . . . على وشك الاصابة بمرض مصحوب بهذيان . . . بل لعل المرض كان قد ألمَّ به منذ ذلك الحين (لاحظ هذا) . . . شاب مفرط فى الشك ، شديد الكبرياء شاعر بقيمته ، ظل مدفوناً فى ركنه ستة أشهر لا يرى فى أثنائها أحداً . . . قد بليت ثيابه حتى أصبحت خرقاً رثة لا تستر ظهره ، وبلى حذاءه حتى اهترأ فكأنه حافى القدمين . . . شاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصبون عليه وقاحاتهم ، ويطالبونه بأن يبادر الى سداد قيمة سند فاجأه به المستشار الاعتبارى تشيباروف . . . ورائحةُ الدهان الطرى تزكم أنفه . . . والحرارة ثلاثون درجةً فى غرفة غاصة بالناس ، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس . . . وها هو ذا يسمع حديثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس . . . وهو فوق ذلك خاوى المعدة . . . أفعجيب أن يغمى على هذا الشاب حينذاك ؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفة على اغمائه ذاك ؟ شيطان يأخذهم ! . . اسمع يا روديا ! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغيظ . ولكننى لو كنت فى مكانك لما زدت على أن أضحك منه . . .

لما زدت على أن أضحك عليهم ، أمام أنوفهم ، بل وأن أبصق فى وجوههم . . . أن أرمى وجوههم بسيول من البصاق ، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها احساساً قوياً . . . إبصق عليهم ! لا تكتئب ! من المخزى انك تهتم بالأمر !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «تكلم فأحسن الكلام عن ذلك !»

ثم قال لرازوميخين بمرارة :

— أبصق عليهم ؟ ولكننى سأخضع فى غدٍ لاستجواب جديد . هل يجب علىَّ حقاً أن أصل الى حدّ تقديم شروح وتعليلات ، بينما أنا ساخط على نفسى منذ الآن لأننى أهنت نفسى اذ ارتضيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس فى الحانة . . .

— شيطان يأخذهم . سأذهب الى بورفيرى بنفسى . ولأتصرفنَّ معه تصرف **قريب من أقربائه** . لا بد أن يفرغ جعبته . أما زاميوتوف . . .

قال راسكولنيكوف لنفسه : «أخيراً فهم» .

وصاح رازوميخين قائلاً وهو يمسكه من كتفه :

— انتظر ! انتظر ! لقد قلتَ حماقة من الحماقات . نعم ، فكّرت فى الأمر ، فأيقنتُ أنك قلت حماقة من الحماقات . ما هذا الذى تذكره عن فخ نُصب لك ؟ أين الفخ فى هذا ؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ . ولكن فكّر قليلاً : لو كنت قد فعلت **ذلك الأمر** ، أفكنت تستسلم فتذكر أن الشقة كانت تُدهن . . . وأنك فوق ذلك قد رأيت العمال ؟ بالعكس . ما كنت لتذكر أنك رأيت عمالاً ، حتى ولو كنت قد رأيتهم . من ذا الذى يشهد على نفسه ؟

أجاب راسكولنيكوف يقول على مضض ، مشمئزاً اشمئزازاً واضحاً :

— لو كنت قد فعلت **ذلك الأمر** ، لذكرت حتماً أننى رأيت العمال والشقة .

— ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه ؟

— لأنه ما من أحد غير الفلاحين السذَّج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شىء على الاطلاق حين يُستجوب . أما الانسان الذى يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة ، فانه لا يفوته أبداً ، فى حدود الامكان ، أن يعترف بالوقائع الخارجية التى لا سبيل الى انكارها ، وانما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر ، أن يرتبها على النحو الذى يريد ، أن يضفى عليها دلالةً غير متوقعة ، فاذا هى تفسَّر تفسيراً جديداً وتُرى فى ضوء جديد . ولقد كان بورفيرى يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة ، أى أن أذكر له أننى رأيت العمال ، من باب اضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالى ، ثم أضيف الى ذلك تفسيراً ما .

— ولكن لو فعلت ذلك لأجابك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين ، فلا بد اذن أنك كنت هنالك يومَ مقتل العجوز بعد الساعة السابعة . . . ولضيَّعك هذا الأمر التافه !

— ذلك بعينه هو ما كان يعوِّل عليه ويأمل فيه . كان يأمل أن لا يتسع وقتى للتفكير ، فاذا أنا أسارع الى تقديم الجواب الذى يضفى على أقوالى مظهر الصدق ، ناسياً أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين .

— وكيف تنسى هذا ؟

— لا أسهل من نسيانه ! وفى مثل هذه التفاصيل التافهة انما يرتبك أمكر الناس بأكبر سهولة . لا يصدق الرجل الماكر ان الأمور التافهة قد توقعه فى الفخ . فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور الأبسط هى التى توقعه فى الفخ . ليس بورفيرى غبياً الى الحد الذى تتصوره .

— هو وغد كبير على كل حال !

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الضحك . ولكنه فى الوقت نفسه قد استغرب هذه الحماسة وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح بينما أجرى ذلك الحديث كله مشمئزاً ، مكرهاً ، مستجيباً لدواعى الحساب وحده . قال لنفسه : «لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوىً فى نفسى !»

ولكنه فى تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأةً ، كأن فكرة غير متوقعة ، فكرةً تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتة . وازداد قلقه . وكانا قد وصلا الى باب عمارة باكالايف .

قال راسكولنيكوف فجأة :

— ادخل وحدك ، وسأرجع حالاً .

— ولكن الى أين تذهب ؟ لقد وصلنا !

— يجب علىَّ أن . . . يجب علىَّ أن . . . هناك عمل ينبغى أن أقوم به . سأعود بعد نصف ساعة . قل لهما هذا .

— لك ما تشاء ، ولكننى أذهب معك .

فهتف راسكولنيكوف يقول بحنق يبلغ من المرارة وينظر اليه نظرة فيها من الكرب أن رازوميخين شعر بحيرة وارتباك :

— أأنت أيضاً تريد اذن أن تعذبنى ؟

وظل رازوميخين بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل ، مظلم الهيئة ، ينظر الى راسكولنيكوف الذى كان يمضى بخطى مديدة فى اتجاه الزقاق المؤدى الى بيته . وأخيراً كزَّ أسنانه ، وشنَّج قبضته ، وحلف ليعصرنَّ بورفيرى فى ذلك اليوم نفسه ، وصعد يهدئ روع بولخيريا الكسندروفنا التى كانت قلقةً من تأخرهما الطويل منذ ذلك الحين .

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلَّل الصدغين بالعرق ، لاهثاً يتنفس تنفساً شاقاً . وصعد السلَّم مسرعاً ودخل غرفته التى لم يكن قد أُغلق بابها ، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلابة . ثم هرع ، وقد جُنَّ جنونه رعباً وذعراً ، أسرع نحو الركن الذى كان فيه الثقب الذى يخفيه ورق الجدار ، والذى كان قد خبأ فيه الأشياء المسروقة فى ذلك اليوم . دسَّ يده فى الثقب ، وظل ينبشه بكثير من العناية خلال عدة دقائق ، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق . فلما لم يعثر على شىء نهض فتنفس تنفساً عميقاً . لقد تخيَّل منذ قليل ، حين وصل مع رفيقه الى عمارة باكالايف ، تخيَّل فجأةً أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التى أودعها فى هذا الثقب ، كسلسلة صغيرة أو زرٍّ كم أو حتى الورقة التى لُفَّت بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز ، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندس فى شق من الشقوق على نحو من الأنحاء ، فاذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن انكاره .

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالمشدوه ، ثم اذا

بابتسامة غريبة ذليلة تلم بشفتيه . وأخيراً تناول قبعته وخرج من الغرفة هادئاً . كانت أفكاره مشوشة مضطربة . ومرَّ تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً .

صاح صوت ضخم قائلاً :

— هذا هو !

فرفع راسكولنيكوف رأسه .

كان البواب واقفاً على عتبة حجرته ، يومئ الى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير ، يرتدى معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل وفوقه صديرة ، اذا رآه الرائى من بعيد ظنه امرأة ؛ وعلى رأسه قبعة متسخة ، ورأسه مائل على صدره ؛ وبدا كأنه محدودب ، ويدل وجهه الرخو المتغضن على أنه فى نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير ، وتعبر عيناه الصغيرتان المتورمتان عن قسوة وتجهم واستياء .

سأل راسكولنيكوف البواب وهو يقترب :

— ماذا هنالك ؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت ، وحدّق اليه يتفحصه بانتباه ودون تعجل ، ثم استدار ببطء وابتعد عن باب المدخل وسار فى الشارع دون أن يقول كلمة واحدة .

هتف راسكولنيكوف يقول :

— ولكن ماذا هنالك ؟

فأجابه البواب :

— هو رجل سألنى هل يسكن فى هذه العمارة طالب . وقد ذكر اسمك ، وسأل كذلك عن الشخص الذى تقيم

عنده . فلما نزلت أنت فى تلك اللحظة نفسها دللته عليك ، فاذا هو ينصرف . . . على النحو الذى رأيت .

كان البواب مدهوشاً هو أيضاً ، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً . وقد فكّر لحظة ، ثم استدار وعاد يدخل حجرته .

هرع راسكولنيكوف يجرى فى آثار البائع الصغير ، فسرعان ما لمحه ساثراً فى الجهة الأخرى من الشارع ، بخطى متساوية بطيئة ، مطرقاً الى الأرض ، كأنه يفكر فى شىء ما . ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به ، ولكنه اكتفى فى أول الأمر بأن يسير وراءه . ثم أدركه أخيراً ، فألقى على وجهه نظرة مواربة . فلاحظه الرجل فوراً ، فألقى عليه نظرة سريعة لكنه عاد يخفض عينيه . وسار الرجلان على هذا النحو جنباً الى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهما شيئاً .

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت غير عال لسبب ما :

— سألتَ عنى . . . البواب . . .

فلم يجبه الرجل ، حتى انه لم يرفع اليه بصره . وساد صمت جديد .

عاد راسكولنيكوف يقول بصوت مختنق ، فلا تخرج الألفاظ من صدره الا بعناء كبير :

— انك قد جئت تسأل عنى . . . وهأنت ذا تصمت الآن . . . فما معنى هذا ؟

فرفع الرجل عينيه فى هذه المرة ، وحدّق الى راسكولنيكوف بنظرة قاتمة مشئومة ، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز :

— قاتل !

كان راسكولنيكوف يسير الى جانبه . فلما سمع منه هذه الكلمة ، ضعفت ساقاه ضعفاً رهيباً ، وسرت فى ظهره رعدة باردة ، وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة ، ثم أخذ يخفق خفقاناً شديداً كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة . وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، فى صمت مطلق . وكان الرجل لا ينظر اليه .

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع :

— ولكن ماذا تريد أن . . . من . . . من هو القاتل ؟

فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح ، وفيه مزيد من الحزم أيضاً :

— القاتل **أنت** !

وبنوع من ابتسامة تعبّر عن كره وانتصار ، نظر الى راسكولنيكوف من جديد ، متفرساً فى وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين . وكانا قد وصلا الى مفترق ، فسار الرجل يسرة ، وابتعد دون أن يلتفت . وظل راسكولنيكوف مسمَّراً فى مكانه

يتابعه بنظراته مدةً طويلة . حتى اذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة ، رآه راسكولنيكوف الذى ما يزال جامداً فى مكانه ، رآه يلتفت وينظر اليه . رغم ان الرؤية كانت غير واضحة فقد بدا لراسكولنيكوف ان الرجل يبتسم من جديد ابتسامةً فيها برودة ، وانتصار ، وكره .

فقفل راسكولنيكوف راجعاً الى بيته ، يسير بخطى مترنحة ، مصطكّ الساقين ، فى جسمه قشعريرة . فلما وصل الى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة ، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً . ثم استلقى على اريكته مهدود القوى ، ومدَّ ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً واهناً شاكياً . وانطبقت أجفانه . وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة .

لم يكن يفكر فى شىء . لا شىء الا بضع خطرات ، أو قل بضع شزرات من خطرات كانت تتلاحق فى فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق : وجوه أفراد كان قد رآهم فى ماضيات الأيام ، أثناء طفولته ، وجوه صادفها مرةً واحدة ثم لم يتذكرها فى أحواله العادية بعد ذلك قط ؛ برج أجراس لكنيسة فـ . . . ؛ بلياردو فى خمارة وضابط يقف قرب هذا البلياردو ؛ رائحة سجائر فى محل لبيع التبغ فى قبو ؛ سلّم خمارة من الخمارات ، مظلم جداً يؤدى الى الفناء ، مملوء بالقاذورات ، قد تناثرت على درجاته قشور بيض ، بينما يترامى الى المكان رنين النواقيس فى يوم الأحد . . . وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها اعصار . ومنها أشياء ممتعة يتشبث بها راسكولنيكوف ويتسلق عليها ، ولكنها تغيب وتزول ؛ ويظل فى نفسه شىء ما يثقل على قلبه ،

ولكنه لا يسرف فى ايلامه . . . حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناءة . وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه . وهذه أيضاً لذيذة . . .

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متعجلة ، وسمع صوت رازوميخين ، فأغمض عينيه متظاهرا بالنوم . فتح رازوميخين الباب ، ولبث على العتبة مترددا لحظة . ثم دخل الغرفة بهدوء ورفق ، واقترب من الأريكة محاذراً ، وسُمعت وشوشة ناستاسيا قائلةً :

— لا تزعجه . لينم ما شاء أن ينام ! سيأكل فيما بعد .

ويجيبها رازوميخين :

— أنت على حق .

ويخرج رازوميخين وناستاسيا بهدوء ، ويغلقان الباب . انقضى على هذه الحال نصف ساعة . وفتح راسكولنيكوف عينيه ، ثم تهالك على ظهره من جديد ، مصالباً يديه وراء رأسه . . .

«من كان ذلك الرجل ؟ ما هو ذلك الرجل الذى خرج من تحت الأرض ؟ أين كان وماذا رأى ؟ لا ريب فى أنه رأى كل شىء . ولكن أين كان يتوارى ؟ من أين كان يراقب ويرصد ؟ ولماذا لم يخرج من تحت الأرض الا الآن ؟ كيف استطاع أن يرى ؟ هل هذا ممكن ؟ هم . . .»

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف ، ثم تابع تساؤلاته وقد اعترته رعدة باردة سرت فى ظهره فارتعش : «والعلبة التى وجدها نيقولاى وراء الباب ؟ هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا ؟ . قرائن قاطعة ؟ أدلة ثابتة ؟ أيكفى اغفال شىء صغير كحبة رمل حتى يظهر دليلٌ ضخم كأهرام

مصر ! ذبابة طارت ، فرأت الذبابة كل شىء . . . هل يتصور أحد هذا ؟»

وباشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه ، أحسَّ وهن جسمه .

قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : «كان ينبغى لى أن أتصور هذا ! كيف تجرأت ، وأنا أعرف نفسى ، وأنا أتنبأ بقدرتى وطاقتى ، كيف تجرأت فتناولت فأساً ولطخت يدىَّ بالدم ؟ كان يجب علىَّ أن أعرف هذا سلفاً . . . آ . . . ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل !» .

هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس .

وكانت تدور فى رأسه أحياناً فكرة ما لا تبارحه . قال يحدث نفسه :

«لا ، لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتى ! ان المسيطر الحقيقى ، الذى يجوز له كل شىء ، يقصف طولون بالمدافع ، ويقوم بمذبحة فى باريس ، وينسى جيشه بمصر ، وينفق نصف مليون من الرجال فى حملة موسكو ، ثم يتملص من القضية فى فلنو بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماثيل بعد موته . كل شىء مباح اذن له ! لا ، ان أولئك الرجال ليسوا من لحم بل من برونز» .

ومضت فى فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك . قال يحدث نفسه : «نابوليون ، أهرامات مصر ، واترلو ، ثم عجوز مرابية ناحلة سافلة هى أرملة موظف صغير ، تخفى تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر . . . كيف يمكن تشبيه هذا بذاك ، كيف يستطيع انسان أن يبلع هذا حتى

ولو كان بورفيرى بتروفتش ؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا ؟ ألا ان الجمال الفنى نفسه يرفض ذلك : «هل كان يمكن أن يندس نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة ؟ يا للصغار !»

وكان راسكولنيكوف يحس فى بعض اللحظات بأنه يهذى ، وكان يحس باندفاعات فيها حمى ! . .

قال يحدث نفسه بحمياً مسعورة : «ليست العجوز شيئاً ذا بال . العجوز ليست الا خطأ . ولكن القضية ليست قضية العجوز . العجوز ليست الا مرضاً . . . وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة . أنا لم أقتل كائناً انسانياً ، وانما قتلت مبدأ . ولكن لئن قتلت المبدأ ، فاننى لم أستطع أن أتخطاه ، بل بقيت فى الجهة التى كنت فيها . كل ما استطعت أن أفعله هو أننى قتلت . حتى اننى كما تبين ، لم أعرف كيف أقتل . . . والمبدأ ؟ لماذا كان هذا الغبى رازوميخين يهاجم الاشتراكيين منذ قليل ؟ هؤلاء أناس عاملون ، جادُّون ، يهتمون «بسعادة البشر العامة الشاملة» . لا ، لا ، لقد وُهبت لى الحياة مرة واحدة الى الأبد ، ولن أعرف حياةً أخرى ولا أريد أن انتظر «السعادة العامة» . أريد أن أحيا شخصياً ، والا فالأفضل أن لا أحيا البتة . أى عيب فى هذا ؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمرَّ بأم جائعة ، قابضاً على قروشى فى جيبى ، منتظراً تحقق «السعادة العامة الشاملة» ! «لقد حملت حجرى الى المبنى الذى يُشاد لتحقق السعادة العامة الشاملة» ، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكينة النفس !» هأ هأ ! لماذا نسيتمونى ؟ أنا ليس لى الا حياة واحدة ، وانى لأريد أن أحياها ! آه . . . ما أنا الا قملة محشوة بأفكار فنية . ذلك أنا . ولست شيئاً

آخر . (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر فى ضحك كضحك المجانين) . نعم ، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث وهو يتشبث بفكرته متلذذاً بها) : أولاً لأننى أفكر كما أفكر فى هذه اللحظة مستدلاً على أننى قملة ؛ وثانياً لأننى لبثت شهراً بكامله أزعج العناية الالهية ، وأُشهدها على أننى لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوىً منى بل فى سبيل غاية عظيمة وهدف كبير . . . هأ هأ هأ ، وثالثاً لأننى قررت أن أسلك الى فعلتى كل العدالة الممكنة ، فراعيت فى تنفيذها الوزن والقياس والحساب : ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملةً هى أقل القمل جدوى ؟ وحين قتلتها ، ألم أكن أنوى أن لا آخذ منها الا ما كنت فى حاجة اليه لأخطو خطواتى الأولى (ثم يذهب الباقى الى الدير تنفيذاً لوصيتها ، هأ هأ هأ !) . نعم ، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضافه الى قوله وهو يصرف بأسنانه) ، بل لعلنى أحقر وأسوأ من قملة مسحوقة ، لأننى كنت أعلم **سلفاً** ، كنت أتنبأ سلفاً بأننى **بعد** قتلها سأقول لنفسى هذا الكلام ! هل فى العالم كله شىء يمكن أن يقارن بفظاعة كهذه الفظاعة ؟ يا للوضاعة ! يا للحقارة ! ألا اننى لأفهم أعمق الفهم ذلك «النبى» الممتطى صهوة جواده ، المشهر سيفه ، القائل : الله يريد هذا ، فأطع واخضع أيها المخلوق «المرتعش» ! لقد كان على حق ، كان على حق تماماً ، ذلك النبى ، الذى صفَّ المدافع فى عرض الشارع وأمر باطلاق القذائف على الأبرياء والجناة على السواء ، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوِّغه . أطع أيها المخلوق المرتعش ، **وحذار أن ترغب** فى أى شىء ، فليس هذا شأنك أنت ! . .

آه . . . لن أغفر لهذه العجوز فى يوم من الأيام ، فى يوم من الأيام ، بحال من الأحوال !»

كان شعره مبتلاً بالعرق ، وكانت شفتاه المختلجتان مصوَّحتين ، وكان بصره يحدِّق الى السقف بنظرة ثابتة .

«أمى ، أختى ، لشد ما كنت أحبهما ! فلماذا صرت أكرههما الآن ؟ أجل ، اننى أكرههما ، أكرههما جسمياً ، لا أطيق أن احتمل وجودهما الى جانبى ! . . منذ قليل ، اقتربت من أمى وقبَّلتها . . اننى أتذكر هذا . . عانقتها وتساءلت : تُرى لو كانت تعلم . . أ أقولها اذن ؟ هذا ما استطيعه . . . هِمْ ! لا شك فى أنها مثلى (كذلك أضاف يقول بجهد ، كأنه يقاوم الهذيان الذى يجتاحه) . أوه ! لشدَّ ما أكرهها الآن ، تلك العجوز ! أعتقد أننى مستعد لأن أقتلها مرةً أخرى لو بُعثت حية ! مسكينة اليزافيتا ! لماذا وُجدت هناك ؟ . . ومع ذلك لا تخطر ببالى الا قليلاً ، فكأننى لم أقتلها ! ما أغرب هذا ! اليزافيتا ، صونيا ! يا للبنتين المسكينتين ، المتواضعتين ، الوديعتين . . . الزاخرة أعينهما رقةً وعذوبة ! يا هذه المخلوقات العزيزة ، لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تئنين ؟ انها تعطى كـــل شىء ، وتنظر اليك نظرة تفيض رقة وهدوءاً وسكينة ! . . صونيـــا ! صونيا ! يا صونيا الوادعة !»

وأغمى على راسكولنيكوف . واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف وجد نفسه مرةً أخرى فى الشارع . الوقت متأخر . الظلمات تتكاثف . البدر يسطع بضياء ما ينفك يقوى . ولكن الجو خانق . أناس كثيرون يسيرون فى الشوارع . فبعضهم من الحرفيين والمشتغلين يعودون الى بيوتهم ، وبعضهم

يتنزهون . وفى الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعـــة . وراسكولنيكوف يمشى حزيناً مهموماً . وهو يتذكر بوضوح أنه خرج على نية معينة محدَّدة ؛ هو يعرف أن عليه أن يتعجل القيام بأمر من الأمور ، ولكنه أصبح لا يدرى ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة . وها هو ذا يتوقف فجأة ، فيرى فى الجهة الأخرى من الشارع ، على الرصيف ، رجلاً يومئ له بيده . أخذ يقطع الشارع ليمضى اليه ، ولكن الرجل استدار وابتعد فجأة مطرق الرأس ، كأن شيئاً لم يكن ، حتى دون أن يلتفت وكأنه لم يناديه . تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه : «هل نادانى حقاً ؟» . ولكنه قبل ان يلحقه بعشر خطوات لم يلبث أن تعرَّفه بغتةً فاستولى عليه رعب : انه ذلك البائع الصغير نفسه ، بمعطفه الذى يشبه ثوباً من أثواب المنزل ، وبظهره المحدودب . تبعه راسكولنيكوف من بعد ، خافقَ القلب . ودخل الاثنان فى شارع صغير . ما زال الرجل لا يلتفت . تساءل راسكولنيكوف : «هل يعرف أننى أمشى وراءه ؟» . عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات . اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة ، ونظر : تُرى ألن ينظر اليه هذا الرجل ، ألن يناديه ؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً ، حين صار فى فناء المنزل ، فيومئ له بغتةً من جديد . ولج راسكولنيكوف مدخل العمارة ، ولكن ما ان مرَّ تحت الباب حتى اختفى الرجل من الفناء . لا يمكن الا أن يكون الرجل قد دخل السلَّم الأول الذى يقع هنا . اندفع راسكولنيكوف يلاحقه . وكانت ما تزال تسمع ، فعلاً ، بعد طابقين ، أصواتُ وقع أقدام تسير بخطى منتظمة بطيئة . شىء غريب : ان السلَّم لا يبدو

لراسكولنيكوف مجهولاً . هذه نافذة الطابق الأول . ان ضياء القمر ، الحزين السرى ، يتسلل من خلال الزجاج . وهذا هو الطابق الثانى . عجيب : انها الشقة التى كان يعمل فيها الدهّانون ! . . كيف لم يتعرّف ذلك فوراً ؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذى كان يتقدمه : «لقد توقف اذن ، أو اختبأ فى مكان ما» . وهذا هو الطابق الثالث . هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد الى أعلى ؟ ان الصمت رهيب جداً ! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك . ان أصوات وقع أقدامه هو نفسه تقلقه ، ترعبه . رباه ! ما أحلك هذا الظلام ! لا شك فى أن الرجل المجهول قد اختبأ فى مكان ما ، فى ركن ما . آه . . ان باب الشقة مفتوح على سعته كلها ! فكّر راسكولنيكوف لحظةً ، ثم دخل . الدهليز مظلم خال ، والأثاث يبدو أنه نُقل . نفذ راسكولنيكوف الى الصالون سائراً على رؤوس الأصابع فى رفق وهدوء : ان ضوء القمر الساطع يغمر الغرفة . كل شىء فى الصالون ما يزال كما كان : الكراسى ، المرآة ، الديوان الأصفر ، الصور فى أطرها . وهذا قمر ضخم ، أحمر بلون النحاس ، مدوَّر تماماً ، يُطل من النافذة رأساً . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «عن القمر انما يصدر هذا الصمت . . . لا شك فى أن القمر يحاول الآن أن يقدم سراً من الأسرار ، أن يلقي لغزاً من الألغاز !» ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر ، فكلما ازداد القمر صمتاً ازداد خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه . وما يزال الصمت مخيِّماً ! وفجأة تنطلق قرقعة جافة كقرقعة غصن ينكسر ، ثم يصمت كل شىء من جديد . وهذه ذبابة تستيقظ وتطير فتصدم الزجاج ، وتدندن بصوت كأنه شكاة وأنين .

وفى تلك اللحظة نفسها يميّز راسكولنيكوف ، فى الركن ، بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة ، يتدلى على الحائط : تساءل راسكولنيكوف : «لماذا يوجد معطف هنا ؟ لم يكن فى هذا المكان معطف من قبل !» . واقترب سائراً بخطى بطيئة ، وحزر أن أحداً لا بد أنه يختبئ وراء هذا المعطف . وأزاح المعطف محاذراً ، فرأى كرسياً ، ورأى العجوز جالسةً على الكرسى ، متكومةً على نفسها ، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها . لكنها هى العجوز ما فى ذلك ريب . لبث واقفاً الى جانبها لحظة . قال لنفسه : «انها خائفة» ثم أخرج الفأس من العلاقة برفق وهدوء ، فهوى بها على قمة جمجمة العجوز ، مرةً أولى ، فمرةً ثانية . ولكن الشىء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات . لكأنها من خشب . خاف راسكولنيكوف ، ومال على العجوز يتفحصها من كثب . كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض . انحنى راسكولنيكوف عندئذ انحناءً كاملاً حتى الأرض ، ونظر الى وجهها . نظر اليها فتجمد من الرعب . كانت العجوز تضحك وهى جالسة على كرسيّها ، تضحك ضحكاً كبيراً يهزّ جسمها كلّه ، ولكنه ضحك لا يكاد يدرَك ، فهى تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف . وبدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق ، وأن وراء الباب أيضاً أناساً يضحكون ويتهامسون . استولى عليه الحنق . فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة ، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس العجوز بضربة جديدة . والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتزّ الآن كله من شدة الضحك . أراد

راسكولنيكوف أن يهرب . ولكن الدهليز كان قد امتلأ بالناس . وكان الباب الذى يفضى الى السلم مفتوحاً على سعته كلها . وكان السلّم ممتلئاً بالناس كذلك من أسفله الى أعلاه . جمهور كبير . حشد هائل . رؤوس ثم رؤوس . والجميع ينظرون اليه ، ولكنهم فى الوقت نفسه يختبئون ، وينتظرون ، ويصمتون ! . . انقبض قلبه ، ورفضت ساقاه أن تتحركا ، فكأنهما قد أصبحت لهما جذور فى الأرض . أراد أن يصرخ . وأفاق من اغمائه .

استرد أنفاسه فى جهد وعناء . ولكن الشىء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم . كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سعته كلها . وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف اطلاقاً ، رجلٌ كان يتفرس فيه بالحاح .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً . كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة . قال يسأل نفسه : «أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا ؟» وفتح جفنيه قليلاً ونظر : كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه يحدّق اليه . ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً ، ويغلق الباب وراءه اغلاقاً محكماً ، ويقترب من المائدة ، وينتظر دقيقة دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف ، ثم يجلس على الكرسى قرب الديوان هادئاً صامتاً . وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض الى جانبه ، ثم أسند يديه الى مقبض عصاه ، وألقى بذقنه على يديه . كان واضحاً أنه يتهيأ لانتظار طويل . اذا صحّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجفانه التى كانت أشبه بالمغمضة ، فان هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب ، وكان قوى البنية ، عريض المنكبين ،

كثيف اللحية ، زاهى الشقرة حتى لتكاد تكون شقرته بياضاً . . .

انقضت عشر دقائق . لم يكن الظلام قد هبط بعد ، ولكن المساء يقترب . ان صمتاً كاملاً يسود الغرفة . حتى السلّم لا تصل منه أية ضجة . ليس يُسمع شىء الا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج أثناء طيرانها . أصبح الأمر أخيراً لا يطاق فنهض راسكولنيكوف فجأة وجلس على الديوان ، وقال يخاطب الزائر المجهول :

— هيه . . . تكلم . . . ماذا تريد ؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة ، وهو يطلق ضحكة هادئة :

— كنت أعلم أنك لست نائماً ، وأنك تتظاهر بالنوم تظاهراً ، اسمح لى أن أعرّفك بنفسى : آركادى ايفانوفتش سفدريجايلوف .

حواش

ص ١٤

• «زقاق س . . .» : هو زقاق ستولیارنی بیریئولوك ، أی «زقاق النجارین» ، القریب من «سوق العلف» ، حیث أقام دوستویفسکی من سنة ١٨٦٤ الی سنة ١٨٦٧ .

ص ١٤

• فی روسیا یسمی الطابق الأرضی من العمارة بالطابق الأول ، ویسمی الطابق الأول بالطابق الثانی ، وهکذا دوالیك .

ص ١٧

• «سوق العلف» ، هو میدان محاط بحانات وخمارات وفنادق مشبوهة .

ص ١٨

• «تسیمرمان» : رجل ألمانی کان یملك محلاً لأزیاء القبعات .

ص ٢١

• «راسکولنیکوف» : اشتق المؤلف اسم راسکولنیکوف من الکلمة الروسیة «راسکولنیك» ومعناها المنشق ، لیشیر بذلك الی انشقاق بطل الروایة عن آراء المجتمع . وفی الصیاغة الأولی لهذه الروایة ، أی الصیاغة التی جعل دوستویفسکی عنوانها :

«یومیات راسکولنیکوف» ، أطلق المؤلف علی بطله اسم «فاسیا» . ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم «فاسیا» ألطف وأرق من أن یطلق علی هذا البطل فجعل اسمه ونسبته الی أبیه : «رودیون رومانوفتش» .

ص ٢٣

• «آلیونا» تلطیف شعبی لاسم ایلینا (هیلانة) .

ص ٢٣

• «ورقتین صغیرتین» ، أی بورقتین نقدیتین قیمة کل منهما روبل واحد .

ص ٢٨

• «بودیاتشسکایا» : أی شارع القسس ، وهو أحد شوارع وسط مدینة سان بطرسبرج ، قرب «سوق العلف» .

ص ٣١

• . . . وکان حلیق الذقن کما یلیق بموظف . . . فی ستینات القرن التاسع عشر لم یکن الموظفون الروس یطلقون لحاهم وشواربهم ، بل کانوا فی العادة یرسلون سوالفهم ویحلقون ذقونهم .

ص ٣٢

• . . . ولقبی مستشار اعتباری . . . کان «جدول الرتب» ، أی لائحة الرتب ونظام الوظائف المدنیة المعمول بها فی روسیا منذ عام ١٧٢٢ حتی ١٩١٧ ، یقسم الرتب المدنیة کلها الی ١٤ طبقة (درجة) (أعلی درجة هی الأولی وادنی درجة هی الرابعة عشرة) . وکان لکل رتبة وظیفة معینة . والمستشار الاعتباری رتبة من الدرجة التاسعة تعادل رتبة النقیب فی الجیش .

ص ٣٣

• . . . هل حدث لك ان قضيت الليل فى مركب علف على نهر النيفا ؟ . . هى مراكب (صنادل) مسطحة القعر كانوا ينقلون فيها العلف ، وكانت مشهورة فى ستينات القرن الماضى بأنها أماكن لنوم الفقراء والمتشردين .

ص ٣٦

• «بطاقتها الصفراء» : هى بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمومسات .

ص ٣٦

• «كل خبىٌ مآله الى ظهور» : اشارة الى النص الوارد فى انجيل متى (الاصحاح العاشر ، ٢٦) : «ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفى لن يعرف» .

ص ٣٧

• انجيل يوحنا . الاصحاح التاسع عشر ، ٥ .

ص ٣٧

• «اننى أشبه الوحش كل الشبه» : اشارة الى الوحش الذى جاء ذكره فى رؤيا يوحنا .

ص ٣٩

• «نالت ميدالية ذهبية» : فى المدارس الثانوية والمعاهد بروسيا كان نجباء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا ميدالية ذهبية .

ص ٤٢

• «ليويس» : ج . هـ . ليويس (١٨١٧ — ١٨٤٨) ،

فيلسوف انجليزى . ألف كتاباً بعنوان «فزيولوجية الحياة العامة» ترجم الى اللغة الروسية ١٨٦١ وراج رواجاً كبيراً فى روسيا ، ولا سيما فى أوساط الشباب الديمقراطية .

ص ٤٢

• «صونيا» ، «صونيتشكا» : تصغير اسم صونيا ، تحبباً وتدليلاً .

ص ٤٢

• «مستشار الدولة» : موظف من الدرجة الخامسة .

ص ٤٧

• «زاخارتش» : تخفيف اسم زاخاروفتش ، والشعب يعمد الى هذا التخفيف مستغنياً عن «فتش» بـ«تش» . ولسوف نقع فى النص على راسكولنيكوف تارة باسم رودیون رومانوفتش وتارة باسم رودیون رومانتش ، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفيوفتش اسما لشخص واحد ، وهكذا دواليك .

ص ٤٩

• «كلص الليل» : يستعمل مارميلادوف هنا التعبير الوارد فى رسالة القديس بولس الأولى الى أهل تسالونيكى (الاصحاح الخامس ، ٢) .

ص ٥٠

• «الجسر المصرى» : جسر مزين بتماثيل فرعونية على قناة فونتانكا ، غير بعيد عن «سوق العلف» .

ص ٥٢

• . . . ولكن ذلك الذى يشفق على جميع الناس . . . سيشفق علينا . . .

المقصود هنا البعث الثانى للمسيح والذى سيحدث حسب الانجيل قبيل نهاية العالم .

ص ٥٢

• . . . والآن أعفو عن جميع خطاياك لأنك أحببت كثيراً . نص محرف من انجيل لوقا . الاصحاح السابع ، ٤٧ — ٤٨ .

ص ٥٥

• . . . مدينة بطرسبرج ليس لها ليل حقيقى فى مثل هذه الفترة من العام . . . فى شمال روسيا وشمالها الغربى يعتبر شهرا مايو ويونيو فترة ما يسمى «الليالى البيض» ، وذلك عندما لا يحل الظلام بحلول الليل ، بل يتحول الغروب المضىء الى الفجر دون المرور بفترة ظلام . وتلاحظ هذه الظاهرة فى نصفى الكرة عند خطوط العرض الأعلى من ٦٠° .

ص ٦٦

• . . . هى تزن لوتين . . . لوت مقياس روسى قديم للوزن يساوى ١٢,٨ غرام يستعمل لتحديد وزن الطرود البريدية .

ص ٦٦

• «روديا» مصغر اسم رودیون .

ص ٦٧

• «دونيا» ، «دونيتشكا» : تصغير اسم آفدوتيا ، من باب المحبة والتدليل .

ص ٦٨

• «سفيدريجايلوف» : اشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجايلو ، وهو دوق كبير من ليتوانيا فى القرن الخامس عشر ، اشارة الى نبالة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته .

ص ٦٩

• «باخوس» : اله الخمر عند قدماء الاغريق .

ص ٧١

• . . . هى ان يلطخوا باب منزلنا بالقطران . . . فى روسيا القديمة كان هناك تقليد همجى متبع بتلطيخ باب البيت بالقار الأسود وذلك اذا كانت تسكنه فتاة فقدت بكارتها قبل الزواج .

ص ٧٤

• «مستشار قضائى» : هو موظف من الدرجة السابعة .

ص ٧٩

• . . . انه سيترافع هنالك أمام السينات . . . كان

السينات أعلى هيئة قضائية فى روسيا ما قبل الثورة وكان يراقب عمل جميع المؤسسات القضائية ويعتبر فى نفس الوقت محكمة الاستئناف العليا .

ص ٨١

• . . . فترة أكل اللحوم . . . هى الفترة التى تسمح فيها قوانين الكنيسة الارثوذكسية بتناول اللحوم (وكان لا يسمح بعقد القران اثناء شهور الصوم) .

ص ٨٥

• . . . فى صلواتها أمام عذراء قازان . . . المقصود أيقونة من القرن السادس عشر تحظى باحترام خاص من قبل المسيحيين الارثوذكس وتوجد فى كاتدرائية قازان بمدينة بطرسبرج . وقد نسخت منها نسخ كثيرة انتشرت فى انحاء روسيا .

ص ٨٩

• . . . هكذا حال نفوس شيللر الطيبة . . . الاشارة هنا الى أبطال مسرحيات الشاعر والكاتب المسرحى الألمانى العظيم يوهان فريدريخ شيللر (١٧٥٩ — ١٨٠٥) الذى تغنى بالحرية واشاد بالمشاعر النبيلة .

ص ٨٩

• وسام القديسة آنا : يمنح تقديراً لخدمة الدولة وله أربع درجات .

ص ٩٠

• ان الحرب التى شنتها بروسيا على الدنمارك (سنة ١٨٦٤) وعلى النمسا (سنة ١٨٦٦) لامتلاك دوقيتين شفلفسيج وهولشتاين . قد نشرت الجرائد والمجلات الروسية الأنباء الكثيرة عنها فى الستينات من القرن التاسع عشر

ص ٩٠

• كانت الصحف الروسية تتحدث كثيراً آنذاك عن سوء معاملة الزنوج فى أمريكا بسبب حرب الانفصال (١٨٦١ — ١٨٦٥) ؛ وكان معروفاً أن البارونات الألمان فى مقاطعات البلطيق يسومون الليتوانيين سوء العذاب .

ص ١٠٥

• يقال ان هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحَّى بها كل عام . . . ظهر الحديث عن «النسبة المئوية» الدائمة من الضحايا الذين تدفع بهم المقادير حتماً الى طريق الجريمة والدعارة ، ظهر فى الصحافة الروسية فى عامى ١٨٦٥ — ١٨٦٦ بمناسبة اصدار الترجمات الروسية لكتب العالم الرياضى والاقتصادى البلجيكى أ . كتلى وكذلك كتب الاقتصادى الألمانى أ . فاجنر الذى روَّج لأفكار كتلى .

ص ١١٠

• . . . فعبر الجسر واستدار الى جهة الجزر . . . المقصود الجزر الواقعة فى نهر النيفا فى ضواحى بطرسبرج ، حيث اقيمت الحدائق العامة وشُيِّد الكثير من الفيلات الصيفية الفخمة (جزر

أبتيكارسكى ، يلاجين ، كامينّى وغيرها) . وهناك كانت توجد أيضاً شتى دور اللهو .

ص ١١٤

• «ميكولكا» تصغير ميكولاى (نيقولاى) .

ص ١٦٨

• «ميتكا» : تصغير دمترى ، ديمترى .

ص ٢١٦

• . . . لقد أخذ هو ايضا يجارى التيار ويتبع الاتجاهات الجديدة . . . كان وصف «الكتّاب ذوو الاتجاهات» يطلق فى ستينات القرن الماضى على الكتاب الذين يطرحون فى مؤلفاتهم أفكاراً اجتماعية–سياسية تتسم بالتقدمية فى غالب الأحوال .

ص ٢١٦

• . . . هل المرأة انسان ام هى ليست انسانا . . . يسمع فى هذا السؤال رد تهكمى على قضية تحرير المرأة (مساواة المرأة بالرجل) التى أثارت المجتمع الروسى فى ستينات القرن التاسع عشر .

ص ٢١٦

• ان روسو يشبه راديشّيف . روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) مفكر ومنوّر فرنسى بارز . راديشّيف (١٧٤٩ — ١٨٠٩) ثورى روسى وكاتب وفيلسوف ومنوّر .

ص ٢١٩

• ثم التفت فى اتجاه «القصر» . . . يقع على شاطئ نهر نيفا قصر الشتاء وهو المقر السابق للاباطرة الروس .

ص ٢١٩

• هى كاتدرائية القديس اسحاق الكبرى ، الواقعة فى وسط المدينة .

ص ٢١٩

• تقع الجامعة فى أول جزيرة فاسليفسكى .

ص ٢٢٧

• «باشنكا» و«باشا» : تصغير اسم باراسكيفا ، براسكوفيا ، تحبباً وتدليلاً ؛ وبراسكوفيا هذه هى صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف .

ص ٢٤٦

• كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة سنة ١٨٦٥ ، وقد سمى باسمه معطف ذو شكل خاص ، كما يوجد معطف ذو شكل آخر سمى باسم لورد راجلان .

ص ٢٤٧

• الولايات المتحدة الأمريكية تعنى هنا السراويل (البنطلون) ، وهذا قائم على لعب بالتجانس اللفظى بين كلمة «شتانى» الروسية ومعناها الدولة أو الولاية ، وبين كلمة «شتانى» ومعناها السروال .

ص ٢٤٩

• «شارمر» خياط على الموضة ببطرسبرج فى الستينات من القرن الماضى .

ص ٢٥٢

• «قصر الكريستال» : حانة تقع غير بعيد عن مركز بطرسبرج وقد أطلق عليها دوستويفسكى اسم قصر الكريستال من باب التهكم ، تشبيهاً لها «بقصر الكريستال» الذى رآه فى لندن وتحدث عنه فى «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» .

ص ٢٦١

• حى الرمال وحى كولومنا — حيان فى بطرسبرج يقعان فى طرفين مختلفين من المدينة . ومعنى هذا أن نيقولاى قد خلط الأمور فى جوابه .

ص ٢٨٢

• المقصود هنا هو الاصلاحات الكبرى التى تمت بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٤ ، أى الغاء القنانة ، والاصلاح القضائى والجزائى ، وادخال نظام «الحكم الذاتى» ، الخ .

ص ٢٨٤

• ان لوجين يعرض هنا عرضاً عامياً نظرية «الأنانية العاقلة» ، تلك النظرية المبسوطة فى كتاب تشيرنيشفسكى : «ما العمل ؟»

ص ٢٨٩

• «هنا ، طالب سابق يهاجم عربة بريد . . .» : يشير دوستويفسكى الى هذه الواقعة فى رسالة بعث بها الى كاتكوف فى شهر أيلول (سبتمبر) ١٨٦٥ .

ص ٢٨٩

• «. . . أستاذ من أساتذة التاريخ العام» : نظر القضاء فى هذه القضية وفصل فيها فى شهر أيار (مايو) ١٨٦٥ .

ص ٣٠٢

• المقصود هنا رواية فكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) «كاتدرائية نوتردام فى باريس» المعروفة باسم «أحدب نوتردام» .

ص ٣٠٤

• كان رجل اسمه ايسلر قد افتتح فى ضواحى بطرسبرج حانة على الطراز الريفى فكان ينشر اعلانات كثيرة عنها فى الجرائد . أما الاعلانات التى يقرأ راسكولنيكوف عناوينها «ماسيمو — بارتولا — الازتيكيان» فهى عن رجل أمريكى اسمه موريس كان يعرض فى صيف ١٨٦٥ بمدينة سان بطرسبرج «آخر شخصين من آزتيكيى المكسيك» ، أحدهما بنت اسمها بارتولا ، والثانى صبى اسمه ماسيمو . وكان الرجل الأمريكى ينشر اعلانات فى الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين .

وأما «حريق فى . . . وحريق فى . . . وحريق آخر فى . . .» ، فهى أنباء حرائق كثيرة شبت بمدينة سان بطرسبرج فى ذلك

الصيف نفسه من عام ١٨٦٥ ؛ لذلك كتبت جريدة «الصوت» فى عددها ١٦٦ تقول : «جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيراً أو قليلاً» .

ص ٣١٧

• «— أرأيت ؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء !» : الأوراق المالية الحمراء هى أوراق العشرة روبلات ، أما الزرقاء فهى أوراق الخمسة روبلات .

ص ٣١٧

• «كفى حديثاً» : هى الجملة التى قالها فوتران فى رواية بالزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) «الأب جوريو» .

ص ٣٢٢

• «جسر ص . . .» : هو جسر «الصعود» على قناة كاترينا .

ص ٣٢٨

• «بيتر» : اختصار شعبى لاسم مدينة بطرسبرج .

ص ٣٤٢

• «بوليا» و«بولينكا» : تصغير اسم آبولينارياً .

ص ٣٤٦

• «ليدا» و«ليدوتشكا» : تصغير اسم ليديا .

ص ٣٤٨

• . . . كاهن يحمل الاعراض السرية . . . هى الخبز والخمر المقدسان واللذان يرمزان الى لحم المسيح ودمه ويستخدمان فى المناولة وعند الاعتراف (بما فى ذلك اعتراف ما قبل الموت) لدى المسيحيين . والاعراض السرية هى الخبز والخمر يضعهما الكاهن فى صندوق خاص حينما يأتى الى المحتضر .

ص ٣٧٩

• . . . انهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل شئ . . . تطرح هنا احدى الحجج المفضلة لدى خصوم الثورة فى مواجهة النظام الاشتراكى المقبل الذى كان الديمقراطيون الثوريون يناضلون من أجل تحقيقه ، وهى الحجة التى تدعى ان الاشتراكية تسطح الأفكار وتمحو كل الخصائص الفردية .

ص ٣٩٢

• كان عازف البيانو روبنشتاين (١٨٢٩ — ١٨٩٤) عندئذ فى قمة مجده .

ص ٤١٢

• . . . ان تلك الملكة التى كانت ترقع جوربيها . . . هى ماريا انطوانيت (١٧٥٥ — ١٧٩٢) قرينة الملك لويس السادس عشر التى سُجنت ثم أُعدمت فى عهد الثورة الفرنسية الكبرى .

ص ٤٤٢

• «مقبرة متروفان» : مقبرة فقيرة تقع فى جنوب العاصمة ، بعد محطات القطار .

ص ٤٧٨

• . . . الى تلك المجموعة من الآجر المقسمة ممرات وغرفا ، التى يسمونها فالانستيرا . . . تلميح الى احد فصول رواية «ما العمل ؟» (١٨٦٣) للكاتب الاجتماعى تشيرنيشيفسكى ، وهو الفصل الذى يرسم صورة الحياة القادمة المشيدة على أسس اشتراكية . والفالنستيرات هى قصور ضخمة تستخدم كمساكن جماعية لأفراد المجتمع الاشتراكى القادم (حسب نظرية الاشتراكيين الطوباويين) .

ص ٥٠٩

• المقصود طبعاً هو نابوليون بونابرت الذى قصف طولون بالمدافع فعلاً سنة ١٧٩٣ ، ورمى الملكيين بالرصاص بباريس فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٩٥ ، وترك جيشه بمصر سنة ١٧٩٩ ، ويقال انه بعد فقده «الجيش الكبير» قال فى فلنا سنة ١٨١٢ : «ليس بين الرائع والمضحك الا خطوة واحدة . فلتفصل الأجيال القادمة فى هذا» .

ص ٥١٠

• . . . لقد حملت حجرى الى المبنى الذى يشاد لتحقق السعادة العامة الشاملة . . . تهكم على الرواية «ما العمل ؟» (راجع حاشية الصفحة ٤٧٨) التى اعجب أبطالها بالمثل العليا

للاشتراكيين الطوباويين . وتعبير «حملتُ حجرى الى المبنى الذى يشاد للمجتمع المقبل» كثيراً ما يتردد فى مؤلفات الاشتراكيين الطوباويين .

ص ٥١١

• اشارة الى بيت من الشعر فى قصيدة بوشكين «محاكاة القرآن» .

فهرس

كلمة عن دوستويفسكى . بقلم : الكاتب دانييل جرانين ٥
الجزء الاول ١٣
الجزء الثانى ١٧٣
الجزء الثالث ٣٦٩
حواش ٥١٨

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى